

البردي والمخطوطات العربية في أفريقيا

تحرير

أ.د. السيد فليفل

٢٠٠٥


منتدى سور الأزبكية


جامعة القاهرة
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
قسم التاريخ
ندوة
والمخطوطات العربية في أفريقيا
(الأربعاء والخميس ٢٦ - ٢٧ ديسمبر ٢٠٠١م)
رئيس الندوة
الأستاذ الدكتور / السيد فليفل

الفهـــــرس

م	الباحث	الموضوع	صفحة
١	كلمة أ.د. السيد فليفل	مقرر المؤتمر وعميد المعهد	أ - جـ
٢	د. وفيقه نصحي + أ. عبد اللطيف حسن	تكنولوجيا صناعة أوراق البردى	١ - ٢٠
٣	د. أسامة السيد القطفانى	"رسوم المغادرة" فى مصر الرومانية	٢١ - ٢٨
٤	د. نعمه علي مرسي	المرأة المصرية في ضوء أوراق البردي العربية (دراسة اجتماعية)	٢٩ - ٧٠
٥	د. سوزى أباظة	دراسة حول مخطوطي "أسئلة في المشكلات" و "أسئلة إلى علماء مصر" لأحمد بابا التنبكتي	٧١ - ١٢٠
٦	د. محمد حوتيه	مخطوطات أقليم توات عرض وتقديم لمخطوط توازل الشيخ باي الكنتي	١٢١ - ١٣٠
٧	د. كرم كمال الدين الصاوي	العمائم والشاشية وأغطية الرؤوس في مصر والمغرب في العصر الإسلامي (دراسة وثائقية)	١٣١ - ١٦٥
٨	د. أحمد الشكري	مساهمة حول تحقيق مخطوط "أشهي العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر" للشيخ موسي كمرا	١٦٧ - ١٨٣
٩	أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم	وثيقة أهل السودان للشيخ عثمان بن فودي وآثارها	١٨٥ - ١٩٧
١٠	د. سعيد مغاورى محمد	التراث العربي في وثائق دير سانت كاترين في العصور الوسطى بشبه جزيرة سيناء	١٩٩ - ٢٢٠
١١	د. جاسر خليل أبو صَفِيَّة	رسالة موسى بن كعب إلى ملك النوبة	٢٢١ - ٢٥٦
١٢	د. أحمد فؤاد سيد	وجائد البردي العربي والمخطوطات والشقاقات العربية في بلاد الصعيد الأقصى وأسوان والنوبة المصرية السودانية، ودلالتها التاريخية والأثرية والحضارية	٢٥٧ - ٢٦٥
١٣	أ. عبد الرحمن عوض	مجموعة مخطوطات الحكمدار إسماعيل باشا أيوب	٢٦٧ - ٢٧٢
١٤	د. حسن الصادقي	مخطوطات عربية مصدرا للدراسات الأفريقية	٢٧٣ - ٢٨٨
١٥	د. سيد على إسماعيل	مخطوطات قلم الوزارات مصدراً تاريخياً د. محمد صبرى السريونى نموذجاً	٢٨٩ - ٣١٧
١٦	أ.د. محمد بركات البيلي	ملاحظات جديدة حول الشريف الإدريسي وخطتِه "أنس المهج وروض الفرج"	٣١٩ - ٣٢٧

كلمة
الأستاذ الدكتور/ السيد فليفل
عميد المعهد

كان من فضل الله أن التأم شمل جمع كريم من الباحثين حول موضوع من الموضوعات الهامة والحيوية، التي انشغل بها الإنسان منذ فجر تاريخه ، ونعني به التسجيل التاريخي في مادتين هامتين من مواده ، ونعني بهما البردي والمخطوطات ، وذلك في إطار ندوة علمية عقدت في يوم ٢٦ و٢٧ ديسمبر ٢٠٠١.

وقد يظن البعض أن ندوتنا هذه تخص المؤرخين ، وتعني أساساً بالسحيق من العصور، ولا شأن لها بعالم اليوم وما نعيشه من أحداث جسام . ومع ذلك فهاتان المادتان ما تزالان تشغلان العالم والإنسانية.

والواقع أن العالم لا يزال يقف حائراً أمام الطريقة الدقيقة التي صنع بها المصريون القدماء البردي ، وكيفية توصلهم إلى التسجيل التاريخي عليها . كما أن ذات العلم قد استمر على عهد العرب، حتى انتقل معهم إلى غير مكان من دولتهم الفسيحة من الصين إلى الأندلس .

كما أن المخطوط _ على عصر تقدم حضارة العرب ، وصل معهم وبهم إلى درجات مستدقة من الاتقان في التسجيل التاريخي ، وفي الصناعة والجودة الصناعية ، وهو ما صار مطلباً ملحاً في عالم اليوم . وقد كان البردي والمخطوطات مادة تاريخية جرى نقلها لاستخدامها في أنحاء شتى من العالم ، وفي هذا فقد احتل المصريون القدماء والعرب مكانة سامقة في العلم والبحث العلمي ، جنباً إلى جنب مع دورهم في عالم التجارة ، سواء في التجارة الشرقية ، وفي تجارة البحر المتوسط ، فضلاً عن دروب الصحراء الأفريقية الكبرى .

وفي عصر العولمة ، الذي شهد دعوات مغرضة إلى هيمنة قوة معينة على مقدرات العالم ، وإدعاء زائفاً بأن حضارة بعينها هي صاحبة الفضل على المسيرة الإنسانية ، وأن الحضارات الأخرى تأتي دونها ، وتتزل منزلة أحط منها شأناً ، وهي دعوات وإدعاءات ، نحمد الله نحن معشر العلماء والباحثين، إنها لم تأت من عالم فاهم، ولا باحث مدقق، إنما خرجت من سياسيين غير مدركين

لقصة الحضارة ، وتاريخ الإنسانية ، وليس لهم فكر يعتد به في عالم النظريات والآراء ، والمقابلات والمقارنات والمقاربات ، بل هم أقرب إلى المافيا والكاوبوي من أي شئ آخر. ذلك أن العلماء والباحثين يعلمون أي فضل للمصرين والعرب في مضمار الحضارة ، وأي دور لهم، سواء في صناعة التاريخ ، أم في مادة التسجيل التاريخي .

ومن عجب أن الذين يحاولون سرقة التاريخ ، واستلاب الحضارة ، ويؤثرون أنفسهم بها ، لم ينسوا أن يسرقوا مادتنا التاريخية ، من آثار وبرديات ومخطوطات ، حتى أصبحت دورهم العلمية ، ومكتباتهم وجامعاتهم تعج بمئات الألوف من الأصول التاريخية وبملايين الصور منها ، وذلك دون أن يسأل أحد منهم نفسه: لماذا تعبأون بآثارنا وبردياتنا ومخطوطاتنا، إذا كنتم ترون ألا دور لنا في الحضارة الإنسانية ؟

ونظراً للأهمية القصوى للمصادر التاريخية ، فقد رأى مجلس قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية أن يخصص لها جزءاً من أنشطته البحثية فعقد هذه الندوة حول البردي والمخطوط محاولاً أن يحقق أهدافاً شتى :

أولاً : أن يثير الاهتمام بالقضية، ويحيى جهود الباحثين بشأنها جمعاً، وبحثاً، وتحقيقاً، ونشراً.

ثانياً : أن يوجه رسالة للأوطان العربية والأفريقية بشأن الاهتمام بالمصادر التاريخية، باعتبارها ركناً هاماً في أركان التنشئة المجتمعية، وعلامة من علامات التأصيل لهذه المجتمعات، ومصدراً من مصادر الانتماء والولاء، والإحساس بالذات، والثقة بالنفس .

ثالثاً : أنها وهي المادة القديمة ، ركن من أركان مجابهة الآخر من منطلق الكفاءة ومنطق المساواة ، وأساس من أسس التعامل مع العولمة على أساس من إدراك الهوية ، والدفاع عن النفس ، وعدم القابلية للاستجابة لدعاوى الذوبان في حضارات مدعاة ، تهتز بالانتماء إليها ذاتنا القومية من ناحية، ونخدع أنفسنا بالخلط بينها بما تتضمن من محاولات هيمنة باسم العولمة وبين فكرة التقدم العلمي ، التي هي نتاج عمل كل الشعوب وإنجاز كل الحضارات مهما اختلف عطاء كل منها. وبينما يضعف انتماؤنا ، يستشري المستوطنون والمستعمرون ويسيطرون على الأرض والموارد ، ويسخرون

البشر لمصلحتهم ، ويسخرون من الإنجاز الحضاري للأمم والشعوب ، موجهين بذلك ضربات اقتصادية تستديم الفقر ، وضربات نفسية تقتل الطموح والإرادة .

وفي إطار مزاعم نهاية التاريخ وصراع الحضارات يجحد فضلنا وينسب لشعب واحد فضل ليس له.

رابعاً : إبراز مكانة القارة الأفريقية في الأداء الحضاري المصري والعربي ، حيث كانت أفريقيا مصدراً مهماً للبردي ، والذي لايزال موجوداً بصورة طبيعية في وسط القارة حتى الآن ، كما كانت المخطوطات العربية واحدة من أهم مواد التجارة الأفريقية ، والتي حققت جماعات كثيرة أرباحاً طائلة من ورائها . كما حرص ملوك وسلاطين أفريقيا على اقتنائها خلال عصر الدول المستقلة في القارة ، وبذلوا المال الوفير لأجلها . كما أنها المصدر المهم لتاريخ أفريقيا قبل عصر الاستعمار الأوروبي ، وهو مصدر يقطع على مدعيي هذا العصر أكذوبة أن أفريقيا لم يكن لها تاريخ قبل غزو الأوربيين لها في القرون من الخامس عشر إلى العشرين .

إننا في مطلع القرن الحادي والعشرين مطالبون بكثير من الجهد من أجل البحث والتنقيب عن مصادرنا التاريخية ، ونشرها ، وتحقيقها ، وإثراء تاريخ أمتنا وشعوبنا من خلالها ، تأكيداً للهوية ، وانتصاراً للحق ، وإنصافاً للتاريخ .

وأخيراً أتقدم بأخص الشكر وأجزله للإخوة الباحثين الأفاضل الذين استجابوا لدعوتنا ، واجتهدوا للمشاركة في أعمال ندوتنا . كما أخص بالشكر منهم أصدقاء وأشقاء وفدوا من المغرب والأردن ، نسعد بتجدد اللقاء بهم ، ونستفيد من علمهم ، ونتعاهد على التواصل معهم .

والشكر أيضاً جزيل للأخوة الزملاء الأعزاء بقسم التاريخ، الذين بذلوا الجهد والعطاء، وكرسوا الوقت والفكر للإعداد لهذه الندوة .

وبالله التوفيق ،

وله المنة والفضل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١ - تكنولوجيا صناعة أوراق البردي

د. وفيقة نصحى وهبه
أ.عبد اللطيف حسن أفندي
كلية الآثار - جامعة القاهرة

مقدمة :

أوراق البردي:

إحدى هبات مصر الفريدة إلى الحضارة الإنسانية، وعبقرية انفرد بها الإنسان المصري دون غيره، وقد رافقت أوراق البردي مسيرة الشعب المصري على درب التاريخ أكثر من ستة وثلاثين قرناً من الزمان تمتد من الألف الثالثة قبل الميلاد وحتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد. فإذا ذكر البردي ذكرت مصر فكلاهما يقترن بالأخر ومن الصعب. بل ومن المستحيل- دراسة تاريخ مصر وحضارتها منذ البداية وحتى ما بعد الإسلام بعدة قرون من الزمان دون دراسة ما دونه أجدادنا على أوراق البردي. وتراث البردي يختلف عن باقي الآثار في كونه يحتوى على نبض الحياة -علم الإنسان وفكره- عاطفته وأحاسيسه دينه وثقافته فهي تسجل الآلام والآمال -الأفراح والأحزان فأينما وجدت البرديات وجد التاريخ الصحيح، حتى أن العالم الروماني بلينىPLINY من القرن الأول الميلادي قال "إ ن معرفتنا بالحضارة والتاريخ الإنساني تعتمد على أوراق البردي".

نبات البردي لوحة رقم (١):

يعتبر نبات البردي من أشهر النباتات الطبيعية في مصر القديمة فقد ذكر في العديد من النصوص والكتابات المصرية القديمة ومن الدلائل الواضحة على أهميته بالنسبة للمصري القديم استخدامه كعلامة هيروغليفية(١).

كما حظى بالعديد من الأسماء منها كلمة محو Mhw والتي أشتق منها كلمة تامحو T3 -Mhw والتي تعنى أرض البردي أو الوجه البحري. فكان نبات البردي رمزاً لمصر السفلى في زمن سابق لعصر الأسرات(٢).

وكان يشار إليه في العربية بكلمة (قرطاس) المشتقة من اليونانية عن طريق الكلمة الآرمية (قرطيس) وقد وردت كلمة قرطاس في بعض آيات القرآن الكريمة وفى ذلك دلالة واضحة على استعمال هذه الكلمة في العصر الإسلامي بشكل

كبير .... منها بسم الله الرحمن الرحيم " ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" صدق الله العظيم(٣).

أما عن كلمة البردي نفسها فيذكر البعض أن هذه الكلمة مشتقة من أصل مصري قديم P3 -Pr-C3 والتي تعنى ما يخص الملك أو النبات الملكي إشارة إلى أن البردي في ذلك العهد كان وقفاً على الاحتكارات الملكية(٤).

ونبات البردي ينمو في المستنقعات والأراضي الضحلة وهو نبات مائي معمر قوى النمو واسمه اللاتيني: *.Cyperus Papyrus L وينتمي لعائلة نبات السعد (Fam:Cyperaceae) ويتكون نبات البردي من الأجزاء التالية(٥).

أ) **الجزر Root** : وكما في معظم نباتات ذوات الفلقة الواحدة يكون الجزر موجوداً فقط أثناء مراحل النمو الأولى ثم يموت سريعاً ويستبدل بجذور عريضة.

ب) **الساق الأرضية Rizome** : وهى الجزء السفلى المغمور في الماء.

ج) **الساق الهوائية The aerial Branche** :-

وهو الجزء الظاهر فوق سطح الأرض وساق نبات البردي طويلة ممتدة لأعلى بشكل جميل وتكون غليظة من أسفل ثم تصغر تدريجياً كلما اتجهنا لأعلى النبات ، وساق نبات البردي خالية من أي عقد وهى خاصية جعلت من نبات البردي مادة فريدة وغنية لصنع أوراق كتابة غاية في الإبداع.

د) **الزهرة الخيمية The Flower** :

والتي تتميز بجمال شكلها وتكون في شكلها النهائي هيئة الخيمة الزهرية وأطلق عليها بن البيطار (قيفلة)

استخدامات البردي :-

نجح المصري في استغلال الموارد والمواد التي قدمتها له بيئته ، ونتيجة التجاوب الشديد بينهما فقد عرف المصري القديم خصائص نبات البردي ومميزاته واستخدمه في جميع متطلبات حياته إلا أن أهم استخدام النبات البردي كان استخدامه لعمل مسطحات الكتابة والتي ظلت مصر المصدر الوحيد

لهذه المسطحات في العالم القديم وكانت لفائف البردي في مقدمة السلع التي تشملها الصادرات المصرية.

ومن أهم استخدامات البردي كما ذكر هيردوت وثيوفراتس وبلينى استخدامه كطعام وخاصة الجزء الأسفل من ساق البردي وذلك بسبب احتوائه على قليل من المواد السكرية ويذكر هيردوت أن المولوعون به كانو يأكلونه بعد طبخه في فرن محمى.(٦)

وفى بعض الأحيان كان يستخدم كمادة مضغ مثل اللبان ، واستخدمت سيقان البردي الجافة في صناعة القوارب والسلال والنعال، كما أستخدم في العصر الإسلامي في عمل الأحبال والحصير فأحياناً كانت تفرش البيوت والمساجد بحصير من البردي.

ومن المعروف أن نبات البردي قد أستخدم في العديد من الأغراض الطبية فقد ذكر داود الانطاكى .

"إن رماده يجلو الأسنان و يلحم الجراح ويقطع الدم" وإذا مضغ أذهب الرائحة الكريهة كما استخدم في علاج تقرحات العيون وعلاج الحروق(٧) .

كما ذكر ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية استخدامه في علاج الناصور وإذا أستنشق دخانه نفع من الزكام ومنع القروح الخبيثة في الفم.(٨)

وكانت أزهار نبات البردي من أحب الأشياء التي تقدم في مختلف المناسبات السعيدة رمزاً للمودة فيقدمها الأطفال لآبائهم أو تهدى للملوك والأمراء كما أستخدم في تشكيل باقات الورود حيث تساعد سيقانه القوية المنتصبة على استقامة الباقة.(٩)

الغموض الذي لازم صناعة أوراق البردي:

تفنن المصريون القدماء في تسجيل كل ما يتصل بحياتهم اليومية وعاداتهم وصناعاتهم بالنقش أو التصوير داخل مقابرهم أو على جدران معابدهم أو على صفحات بردياتهم إلا أنهم أغفلوا أي ذكر عن عمليتين هامتين الأولى تحنيط

الموتى وربما يرجع السبب في ذلك إلا أن عملية التحنيط كانت سراً دينياً يقتصر الإلمام به على الكهنة فقط . والثانية تفاصيل صناعة أوراق البردي ولعل السبب في قلة المناظر عن صناعة أوراق البردي في الآثار المصرية أن صناعته كانت حكراً على الدولة التي كانت تشرف على زراعته وصناعته أو أن الدولة كانت تفرض رسوماً تعود بالفائدة على خزانتها أو ربما أعتبره المصريون سراً من أسرارهم.(١٠)

ويمكن القول أن التوصل إلى طريقة صناعة أوراق البردي حلم راود الكثير من العلماء في الماضي ومازال إلى الآن يراود الكثيرين عن الطريقة الفعلية التي صنع بها المصريون القدماء أوراق البردي ولم تترك لنا الآثار المصرية شيئاً عن مراحل صناعة أوراق البردي إلا المنظر الوحيد بمقبرة (بويمرع) بالأقصر أسرة١٨ .

وصف المنظر لوحة رقم٢،٣

يمثل المنظر ثلاثة في ذورق من البردي بأحد المستنقعات ، يقوم أحدهم بتقليع أعواد البردي التي تنموا في المستنقع ويقوم الثاني بحزم ما تم حصاده ويقوم شخص آخر بنقلها إلى رجل يجلس على مقعد منخفض منهمك في إعداد سيقان البردي وتجهيزها لصناعة أوراق البردي حيث صور وهو يمسك بطرفي ساق منها بعد أن قطع زهرتها بين أصابع قدمه اليسرى وأصابع يده اليمنى ويقوم بنزع قشرتها الخارجية بيده اليمنى (١١) .

ويتوقف المنظر عند هذا الحد وباستثناء ذلك فإن تفاصيل صناعة البردي لم يكن لها مصادر مصرية أصيلة وإنما أخذت مما دونه الرحالة الأجانب أشهرهم بلينى الأكبر(١٢)* مؤلف كتاب التاريخ الطبيعي ولأنه غير متخصص فإن وصفه به الكثير من الغموض .

وصف بلينى لصناعة أوراق البردي :

شق ساق النبات إلى شرائح باستخدام إبرة رفيعة جداً ، وذكرى أن أحسن أنواع الشرائح تقطع من الجزء الأوسط من الساق.

توضع الشرائح صفوفاً بضعها بجانب بعض على منضدة وتوضع عليها مجموعة أخرى من شرائح مماثلة ومتعامدة عليها.

تبلل هذه الشرائح بماء النيل حيث ذكر أن ماء النيل عندما يكون عكراً تكون له الصفات الخاصة بالغراء تضغط الشرائح وتجفف في الشمس وأخيرا يتم صقل الورق وتنعيمه بواسطة قطعة من الصدف أو المحارة وربما الطرق بمطرقة صغيرة برفق حتى تصبح ناعمة تماما .

بعد بلينى ظلت محاولات تصنيع البردي غير ناجحة لفترة طويلة والتي بدأت بمحاولات جيمس بروس ١٧٩٠م

• محاولات جيمس بروس لتصنيع أوراق البردي :

وقام بتصنيع عدة أوراق في كلاً من مصر والحبشة ولكنها كانت أوراق سيئة وسميكة وغير مرنة ولونها غامق ، ولم يقوم بروس بنزع القشرة الخارجية لسيقان البردي وأهم ما جاء في وصف بروس أنه ذكر أن سبب التصاق الشرائح هي السكريات الموجودة في عصارة النبات نفسه وتلي هذه المحاولات محاولات شتودهارد Stodhard ولوكاس (١٩٢٨ م).

• محاولات لوكاس لتصنيع البردي :

وكانت النتائج غير مرضية في البداية لأنه استخدم بردى أرسل إليه من السودان إلى القاهرة أدى لجفافه أثناء النقل وبعد ذلك قام بتصنيع بردى أفضل إلى حد ما من السابق فكان لونه أبيض تقريباً إلا أنه كان مشوهاً ببقع ذات لون بنى[١٣] وتلي ذلك محاولات جن Gunn ، (١٩٣٠م) .

• محاولات باتسكوم جن (١٩٣٠م):

ونجح جن في صنع عينة فاخرة من البردي المزروع في حديقة منزله بالمعادى ، تميزت هذه العينة بالمتانة والقوة والقابلية للالتواء ويمكن القول أنه نجح إلى حد ما في صنع بردى يمكن استخدامه[١٤] .

ومن أشهر الكتّاب العرب الذين تناولوا عملية تصنيع أوراق البردي أبو عباس النباتي:

• وصف أبو عباس النباتي :

يقول عند وصفه لعمل القرطاس عند المصريين في تلك العهود ما يلي :

أن المصريين يعمدون إلى سوق النوع فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ويقطعونها قطعاً قطعاً وتوضع كل قطعة منها بجانب صاحبتها على لوح خشب أملس ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونه بالماء ويضعون تلك المادة اللزجة على القطع ويتركونها حتى تجف جداً ويضربونها ضرباً خفيفاً بقطعة خشب شبة الأرزبة حتى تستوى من الخشونة فتصبح في قوام الكاغد(١٥) .

أما أشهر وأهم المحاولات الحديثة لتصنيع البردي فكانت بواسطة لويس (١٩٧٤م)(١٦) ورجب (١٩٨٠م)(١٧) ويمكن اعتبارها طرقاً مقبولة علمياً وخاصة صحائف البردي التي صنعها رجب لأنها أظهرت شبهاً كبيراً بالبردى الأثرى وتوصل رجب إلى أنه من الممكن إنتاج ورق البردي بأكثر من طريقة ولكل منها خواصها ومزاياها وأهمها طريقة الشرائح strips method والتي تتميز بأن ورق البردي المنتج بهذه الطريقة يأخذ طابع القدم.

• وصف رجب لتصنيع أوراق البردي بطريقة الشرائح Strips Method :

١) تقطع سيقان البردي وإزالة قشرتها الخارجية الخضراء باستخدام سكينة حادة.

٢) يقطع نخاع البردي إلى شرائح يتراوح سمك كل شريحة من ٣ : ٤ مم باستخدام آله تقطيع حديثة شكل رقم (١).

٣) تدق الشرائح أو تدرفل باستخدام درافيل يدوية أو آلية حتى يتم فرطحتها.

٤) غمر الشرائح في حوض ماء حتى تكتسب الشرائح مرونة وينتشر الماء خلال الخلايا البرنشيمية ويمكن تكرار عملية الدرفلة والغمر في الماء أكثر من مرة.

٥) تقطع الشرائح على حسب طول وعرض الورقة المطلوبة.

٦) وضع طبقة من اللباد على منضدة مغطاة بطبقة من قماش القطن ثم وضع الطبقة الأولى من الشرائح وتبدأ عملية ترتيب الشرائح من أعلى أفقياً

للشـرائح بنفس الطول الذي يجب أن يكون عليـه طول الورقـة في النهـاية ، والشريحة الثانية تشبه الأولى وتوضع موازية لها مع مراعاة الرص المتراكب (Over Lapping) بحيث يحـدث تداخل بين الشريحتين بمقـدار ٢مم وتستمر العملية كذلك حتى الوصول لعرض الورقة المطلوبة.

٧) الطبقة الثانية من الورقة تكون من الشرائح المقطوعة بالعرض المطلوب للورقة وتوضع من اليمين لليسار فوق الطبقة الأولى بنفس التداخل بين كل شريحة والأخرى وتكون متعامدة على الطبقة الأولى ثم تغطى الطبقتين من الشرائح بقطعة من اللباد شكل رقم (٢، ٣).

٨) توضع الورقة تحت المكبس حتى الجفاف ، وتغير اللباد عدة مرات وبذلك يتم الحصول على أوراق بردى تشبه البردي الأثرى[١٨] لوحة رقم (٥،٤).

تصنيع البردي بطريقة التحزيز (التقشير) Peeling Process :

أشار Hendriks هندريك (١٩٨٠م) إلى تصنيع البردي بطريقة أخرى غير طريقة الشرائح[١٩] إلا أن هذه الطريقة واجهت اعتراضات قوية من العديد من العلماء مثل لويس (Lewis) وتيرنر (Turner) وخاصة على استخدام الإبرة في هذه الطريقة.

وصف طريقة التقشير لتصنيع أوراق البردي[٢٠] :

وقد توصل صاحب البحث إلى طريقة مثالية في تصنيع أوراق البردي بطريقة التقشير مع الاستعانة بالخطوات التي ذكرها Hendriks في وصفة للطريقة ، وفيما يلي تلك الخطوات.

١ - إعداد ساق نبات بردى جيد الخصائص واستبعاد الجزء السفلى منه وقطع الساق إلى جزئين مستقلين لتحضير فرخ من البردي في كل منهما.

٢ - أخذ أحد الجزئين ونزع قشرته الخارجية باستخدام سكينة حادة.

٣- تبدأ عملية التحزيز باستخدام إبرة معدنية ويمكن الاستعانة بنوعين من الإبر إحداهما مستقيمة الطرف والأخرى معكوفة ، وتبدأ عملية التحزيز

باستخدام الإبرة مستقيمة الطرف حيث توضع بزاوية ٩٠ درجة على الساق في أحد الأركان الثلاثة لوحة رقم (٦).

٤ - تحرك الإبرة أفقياً في اتجاه الساق حركة منتظمة وموازية لأحد الجوانب من أعلى لأسفل حتى تنفصل شريحة من النخاع وتعتبر هذه الشريحة طرف الفرخ الأول لوحة رقم (٧).

٥ - يستمر العمل هكذا حتى تفصل شريحة أخرى وبدون توقف عملية التقشير حتى الوصول إلى الركن الثاني من النخاع، باستخدام الإبرة المعكوفة بالحز أيضا يفصل الركن الثاني حتى نصل إلى قلب الساق (core) شكل رقم (٤) .

٦ - يلي ذلك فرد اللفة من النخاع باستخدام درفيل يدوي.

٧ - ثم غمرها في حوض ماء لمدة ٤٨ ساعة .

٨ - يتم العمل بنفس الأسلوب مع الجزء الثاني من الساق حتى نحصل على الفرخ الآخر بنفس الكيفية السابقة وبتعريض أي من الفرخين السابقين في ضوء الشمس أو على صندوق الإضاءة يظهر أثر الإبرة أثناء التقشير.

٩ - يتم إصلاح الأجزاء التالفة والناتجة من عملية الحز باستخدام شرائح وأجزاء رقيقة من البردي

١٠- يتم وضع الفرخين معاً بطريقة متعامدة وضغطهما بين قطعتين من اللباد وتغير اللباد من فترة لأخرى حتى الجفاف وبذلك نحصل على ورقة بردى جيدة صالحة للكتابة ولها جودة عالية بأسلوب التقشير شكل رقم (٥).

موقف العلماء من طريقة التقشير :

الوصف السابق أعتمد على وصف بلينى وذكره استخدام الإبرة في عملية التصنيع وأيد بعض العلماء هذه الطريقة مثل Holwerd وأعطى شرحاً لبعض الفقرات الغامضة في تفسير بلينى(٢١) وذكر لويس Lewis أنه لابد من اختبار ذلك على البردي الأثرى .

وقد ذكر جروهمان(٢٢) أثناء فحصه الميكروسكوبى لبعض البرديات أنه لا يمكن أن تكون هذه البرديات قد صنعت بطريقة الشرائح وأقترح بدون النظر إلى

حجج ونص بلينى أن هذا البردي قد تم تصنيعه بطريقة التقشير التي تستخدم مع ورق الأرز (Rice -Paper) لأنه لم يتوفر فيه صفات البردي المصنع بطريقة الشرائح .

كما ذكر أبشر (Ibscher) أنه وجد شرائح عرضها يتراوح من ١,٥ : ٨ سم وأن عرض الشريحة ٨ سم من الصعب وجوده في طريقة الشرائح إلا أن رجب يذكر أنه يمكن الحصول على شرائح من الجزء الأسفل من ساق البردي بعرض ٨ سم تستخدم في تصنيع البردي بطريقة الشرائح .

وعلى ذلك يمكن القول أن وصف بلينى كان وصفاً مثالياً لتصنيع أوراق البردي وأن الطرق الأخرى للتصنيع كانت موجودة ولكنه لم يذكرها .

وأثبت Hendriks عند دراسته لكتاب قبطي من البردي Coptic Papyrus Co-dex من القرن ٧ ـ ٨ م، حيث وجد صفحة مصنعة بطريقة التقشير والصفحات الأخرى مصنعة بطريقة الشرائح وكانت واضحة جداً وذكر أن الشرائح العريضة أظهرت التطابق والتداخل Over Lapping بحوالي ٢ مم حتى أنها قد تعطى انطباع خاطئ بأن هذا البردي مصنع من ثلاث طبقات(٢٣) .

للتمييز :ـ بين طريقة الشرائح وطريقة التقشير

قام Wallert (٢٤) بإعداد عينات قياسية من بردى الشرائح مصنعة في معهد الأهرام وعينات مشابهة في معهد رجب للبردي، وكذلك إعداد عينات بطريقة التقشير كما قام بتصنيع عينات ودراسة القطاعات الطولية والعرضية لها مع دراسة حوالي ١٢٠ بردية آثريه بتكبيرات مختلفة باستخدام (Wild M5 Stereo microscope) وفيما يلي أهم خصائص كلاً من البردي المصنع بطريقة الشرائح والبردى المصنع بطريقة التقشير .

خصائص بردى الشرائح:ـ

بدراسة القطاعات العرضية ميكروسكوبياً تظهر أحرف الخلايا البرنشيمية وحافتها غير مستديرة تشبه الفنجان وفى القطاعات الطولية تظهر حواف الخلايا البرنشيمية في شكل موجي مميز تماماً ويدل ذلك على أن السكينة لم

تقطع طريقها خلال النخاع بزاوية ٩٠ درجة أثناء القطع ، ويمكن اعتبار الشكل الموجي ظاهرة مميزة لتقطيع البردي بالسكين ، كما أن البردي المستخدم فيه سكين يكون سمك الشرائح تقريباً متساوي على طول الشريط.

خصائص بردى التقشير :

الملمس السطحي لبردى التقشير أقل إستواءاً من بردى الشرائح بسبب حركة الإبرة عند الفصل أما في بردى الشرائح فحركة السكين حركة واحدة أو حركتين بطريقة أكثر تنظيماً واتساقا .

استخدام الإبرة يحدث تمزقاً وتظهر شقوق على شكل حرف (U) خاصة في الأركان وغالباً يكون هناك ثقوب لا يمكن تجنبها في بردى التقشير في الأركان يظهر شكل فصل المنشار في القطاعات العريضة .

وبمقارنة هذه الخصائص مع عينات البردي القديم يمكن تحديد طريقة التصنيع مع الأخذ في الاعتبار أن البردي الأثرى يكون مستوى بواسطة عملية الصقل وبذلك يمكن اختفاء عدم استواء السطح المميز لتكنيك التقشير ، وبصفة عامة فإن هذه الخصائص لا يمكن رؤيتها في البردي الأثرى الجاف نتيجة انهيار تركيب الخلايا بسبب الجفاف الشديد ولكن يمكن رؤيته جزئياً بغمر العينة في الماء حتى تكتسب الأنسجة قدراً من الماء وتنتفخ وتعود لأحجامها الأصلية(٢٥).

الهوامش

1- Gardiner.A :Egyptian grammer,Oxford,1927.

٢- (د) محمد محمد الصغير: البردي اللوتس في الحضارة المصرية القديمة ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ١٩٨٥ ، ص٦.

٣- القرآن الكريم : سورة الإنعام ، آية ٧.

4- Cerny.J : Paper and Books In ancient Egypt,London,1966,p. 4.

❖- يتكون مسمى كل نبات من جزئين الجزء الأول يمثل اسم الجنس Genus وتبدأ بحرف كبير في اللغة اللاتينية ، أما الجزء الثاني يمثل اسم النوع SPecies وتبدأ بحرف صغير ولزيادة الدقة في التسمية يضاف لأسم النبات الحرف الأول من اسم العالم الذي سماه .

5- Tadros,M :Structure and Development of Cyperus Papyrus, Faculty of Science, Cairo University, 1940.

٦- هيرودوت يتحدث عن مصر : ترجمه محمد صقر خفاجى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠٢.

٧- حسن كمال: الطب المصري القديم ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦٦.

٨- ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، القاهرة ، ١٢٩١هـ ، الجزء الأول ، ص ٨٧ ـ ٨٨.

٩- (د) محمد محمد الصغير : المرجع السابق ، ص١٨٦ ، ولمزيد من التفاصيل عن استخدامات البردي يمكن الرجوع إلى .

Naphtali . L: Papyrus in classical Antiquity,Oxford,1974

١٠- (د) عبد العزيز الدالي: البرديات العربية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٣، ص٣١.

11- Davies,N : The Tomb of puyemrc at Thebs, Newyork, 1922 .

❖- بلينى الأكبر: لم يثبت أنه زار مصر وكان المصدر الوحيد لصناعة أوراق البردي ، وكل ما نقله عن هذا النبات نقله عن مصادر أخرى ، وقد أضيف لاسمه (الأكبر) تمييزاً عن بلينى الأصغر ابن أخيه الذي وصف بركان فيزوف الذي هلك فيه عمه بلينى الأكبر. أنظر ... (د) عبد اللطيف أحمد على.. مصر من الأسكندر الأكبر وحتى الفتح العربى. دار النهضة للنشر ، ١٩٧٢م.

12- Pliny : Natural history, Book XII -Xvl , Translated by: Rackham. H,London, Cambridge, 1968 , P- 143 - 147.

١٣- لوكاس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمه ذكى إسكندر ، محمد زكريا غنيم ، دار الكتاب العربى ، مراجعه عبد الحميد أحمد ، القاهرة ، ١٩٤٥.

14- Ragab . H : le Papyrus , Cairo, 1985 , P. 133.

١٥- ابن البيطار : المرجع السابق ، ص ٨٧.

16- Naphtali . L: papyrus in classical Antiquity , Oxford , University Press,1974.

17- Ragab.H : le Papyrus , op-cit , p . 137.

18- Ragab . H : Le Papyrus , op _ cit , p. 137. 193.

19- Hendriks , H.M : The Manufacture of Papyrus , Zeitschr. Pap. Epigr, xxxvII , 1980 , pp. 121-136.

20- Hendriks , H.M : More about Manufacture of Papyrus Congresso international Die Papyrology , Nopoli , 1984 , pp-31-37.

21- Holwerd, : Plinius uber die anfertigug Vom (charta) Zeitschr, pap.Epigr xxxxv, 1982. pp. 257-262.

22- Grohmann. A: Arabische palaographie, I.teil (Graz, Wien, Koln, 1967), P. 78.

23- Hendriks, H.M: More About The Manufacture of papyrus, op.cit, 1984.

24- Wallert . A : The Reconstruction of Papyrus Manufacture : Appeliminary investigation , Studies in conservation , 34, 1989.

٢٥- عبد اللطيف عبد اللطيف حسن أفندى : دراسة معملية وتطبيقية لعوامل تلف المخطوطات البردية وطرق علاجها وصيانتها وترميمها ، رسالة ماجستير كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، قسم ترميم الآثار ، ١٩٩٩ ، ص ٤١ : ٤٥ .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر العربية :

١ـ ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله أحمد) ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، طبع القاهرة سنة ١٢٩٠هـ /١٨٧١م .

ثانياً : المراجع العربية

٢ـ ألفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة ذكى أسكندر ، محمد زكريا غنيم ، دار الكتاب العربى ، مراجعة عبد الحميد أحمد ،القاهرة، ١٩٤٥م .

٣ـ حسن كمال : الطب المصري القديم، القاهرة ،١٩٦٤م .

٤ـ د. عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٥ـ عبد اللطيف عبد اللطيف حسن أفندى : دراسة معملية وتطبيقية لعوامل تلف المخطوطات البردية وطرق علاجها وصيانتها وترميمها ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، قسم ترميم الآثار ، ١٩٩٩م .

٦ـ د. محمد محمد الصغير : البردي واللوتس في الحضارة المصرية القديمة ، الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية ، ١٩٤٥ م .

٧ـ هيردوت يتحدث عن مصر : ترجمة محمد صقر خفاجى ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

ثالثاً المراجع الأجنبية :

8- Cerny.J :Paper and books in ancient Egypt , London ,1966.

9- Davies.N:The Tomb of puyemr at thebes,New york,1922.

10- Gardiner.A: Egyptian grammer,oxford,1927.

11- Grohmann. A: Arabische palaographie, I.teil (Graz, Wien, Koln, 1967.

12- Hendriks , H.M : The Manufacture of Papyrus , Zeitschr. Pap. EpigrXXXVII, 1980 .

13-Hendriks , H.M : More about Manufacture of Papyrus Congresso international Die Papyrology , Nopoli , 1984 .14-Holwerd : Plinius uber die anfertigug Vom (charta) Zeitschr, pap. EpigrXXXXV, 1982.

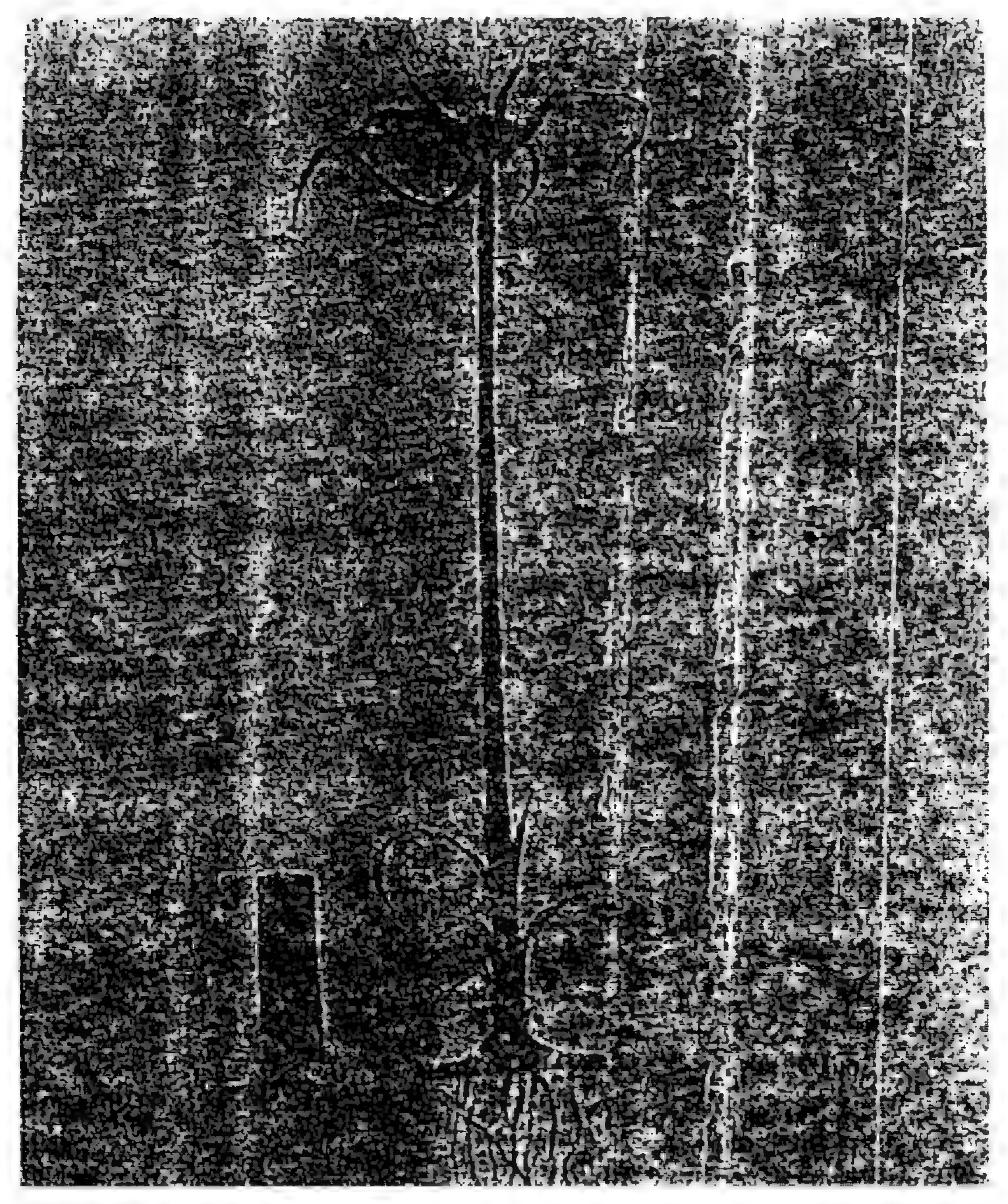
15-Naphtali . L: Papyrus in classical Antiquity,Oxford,1974 .

16- Ragab . H : Le Papyrus , Cairo, 1985.

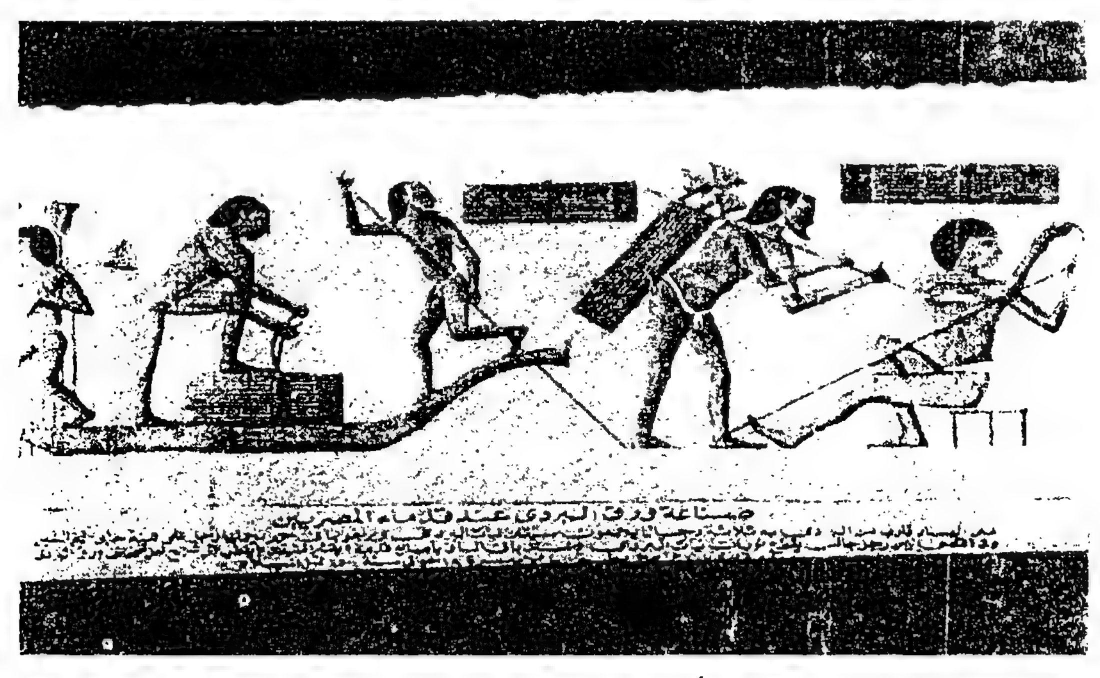
17- Tadros,M :Structure and Development of Cyperus Papyrus, Faculty of Science, Cairo University, 1940.

18-Pliny : Natural history, Book XII -XVI , Translated by: Rackham. H, London, Cambridge, 1968 .

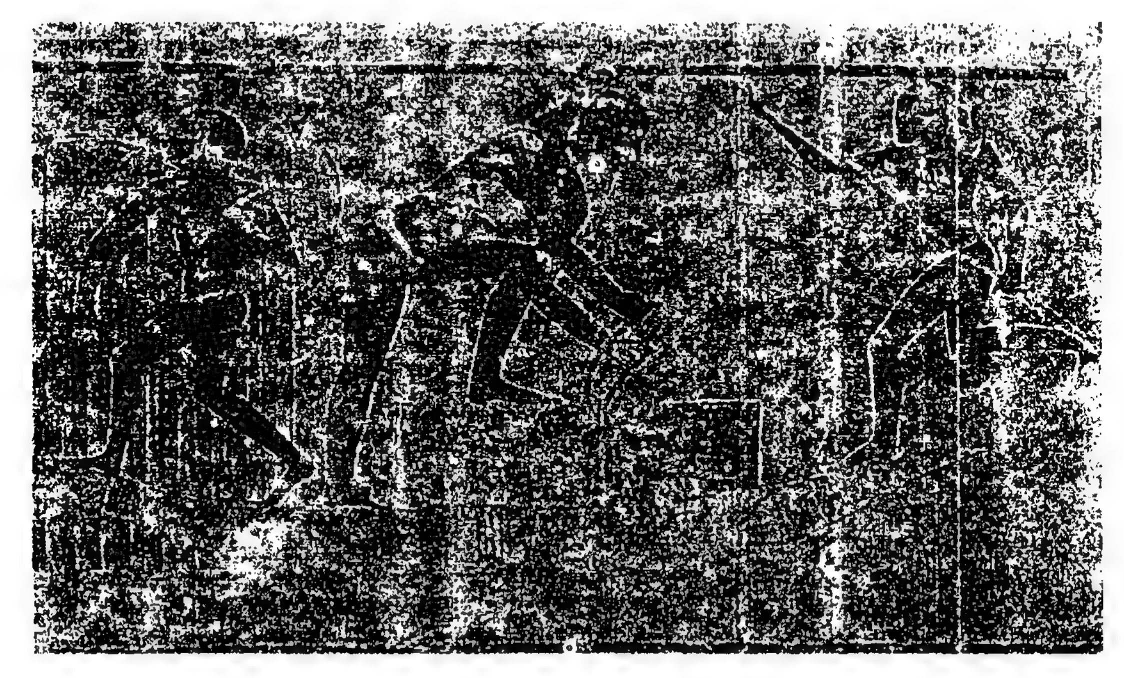
19-Wallert . A : The Reconstruction of Papyrus Manufacture : Appeliminary investigation , Studies in conservation , 34, 1989.



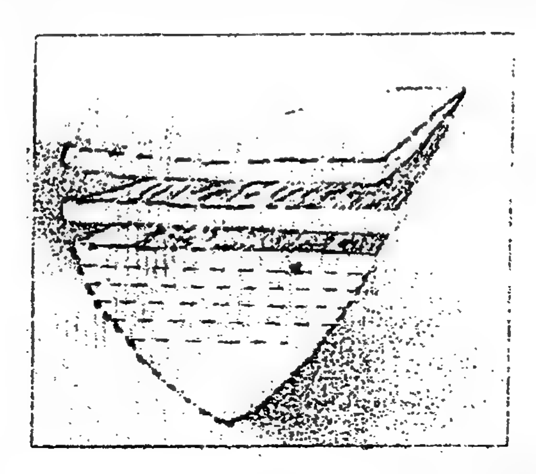
لوحة (١) نبات البردى



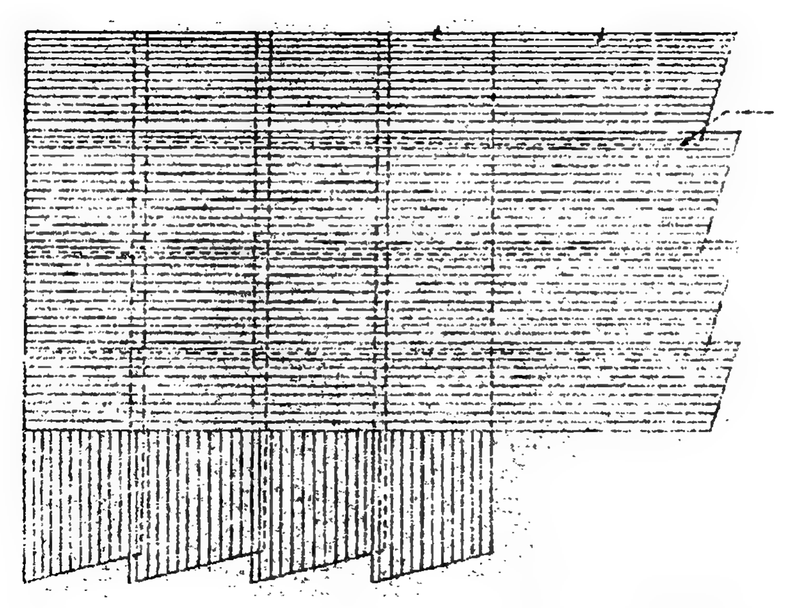
لوحة (٢) المراحل الأولى من تصنيع البردى (مقبرة بويمرع - طيبة)



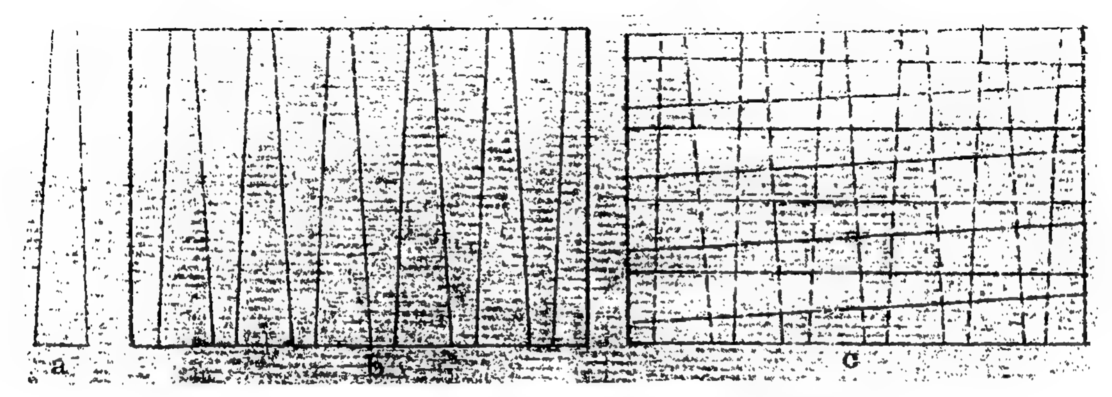
لوحة (٣) حصاد نبات البردى بالمراكب



شكل (١) تقسيم ساق البردى إلى شرائح



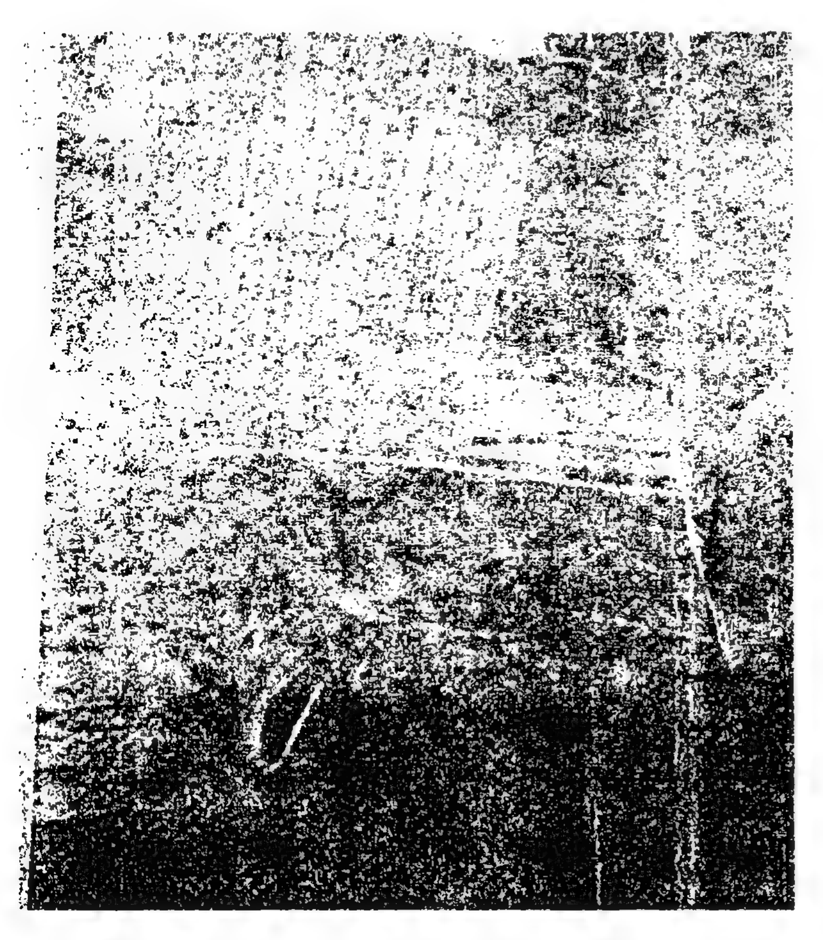
شكل (٢) الطبقتان المتعامدتان اللتان تكونان ورقة البردى

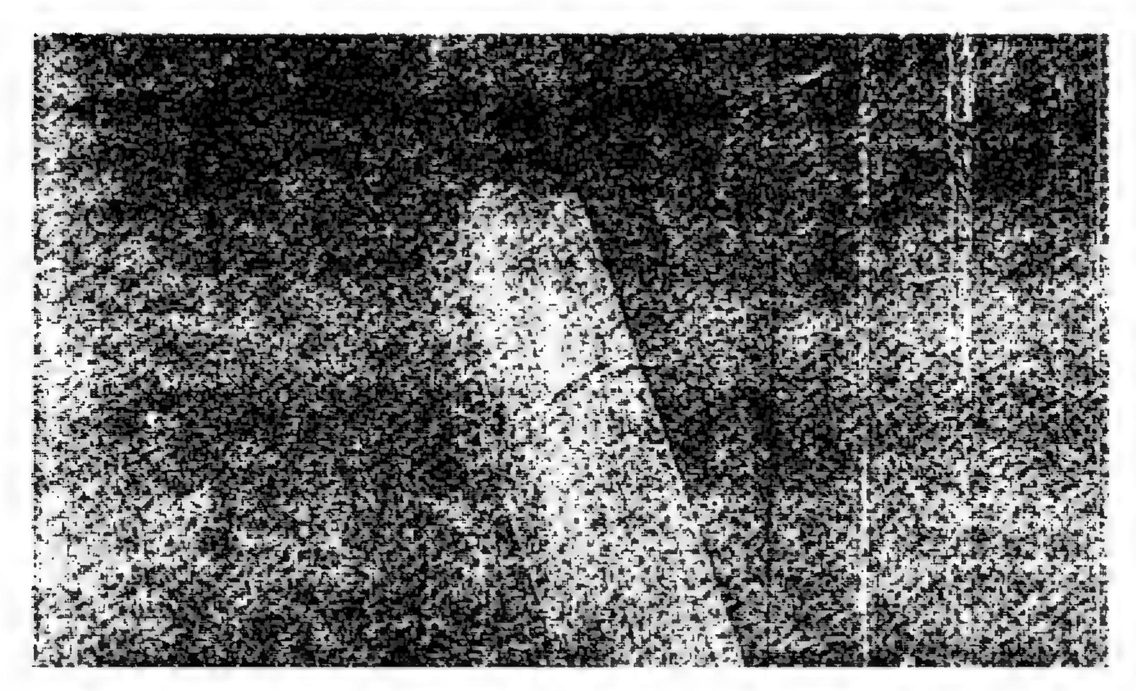


شكل (٣) تركيب شرائح البردى أفقياً ورأسياً

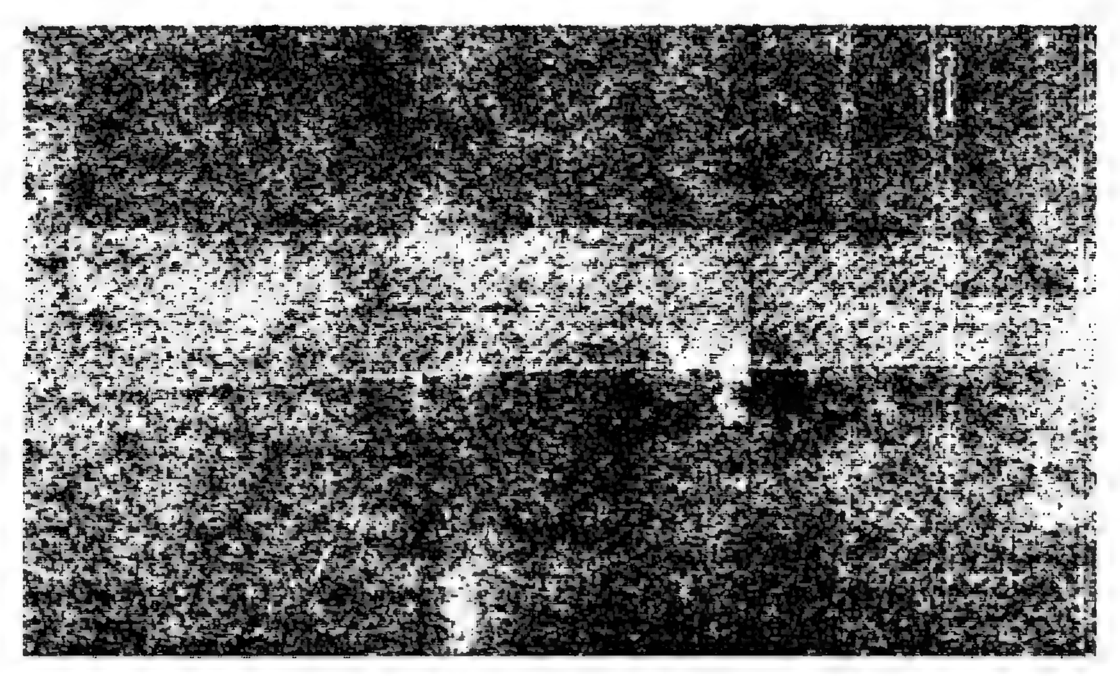


لوحة (٣) عملية الكبس تحت الأثقال (الطريقة القديمة)

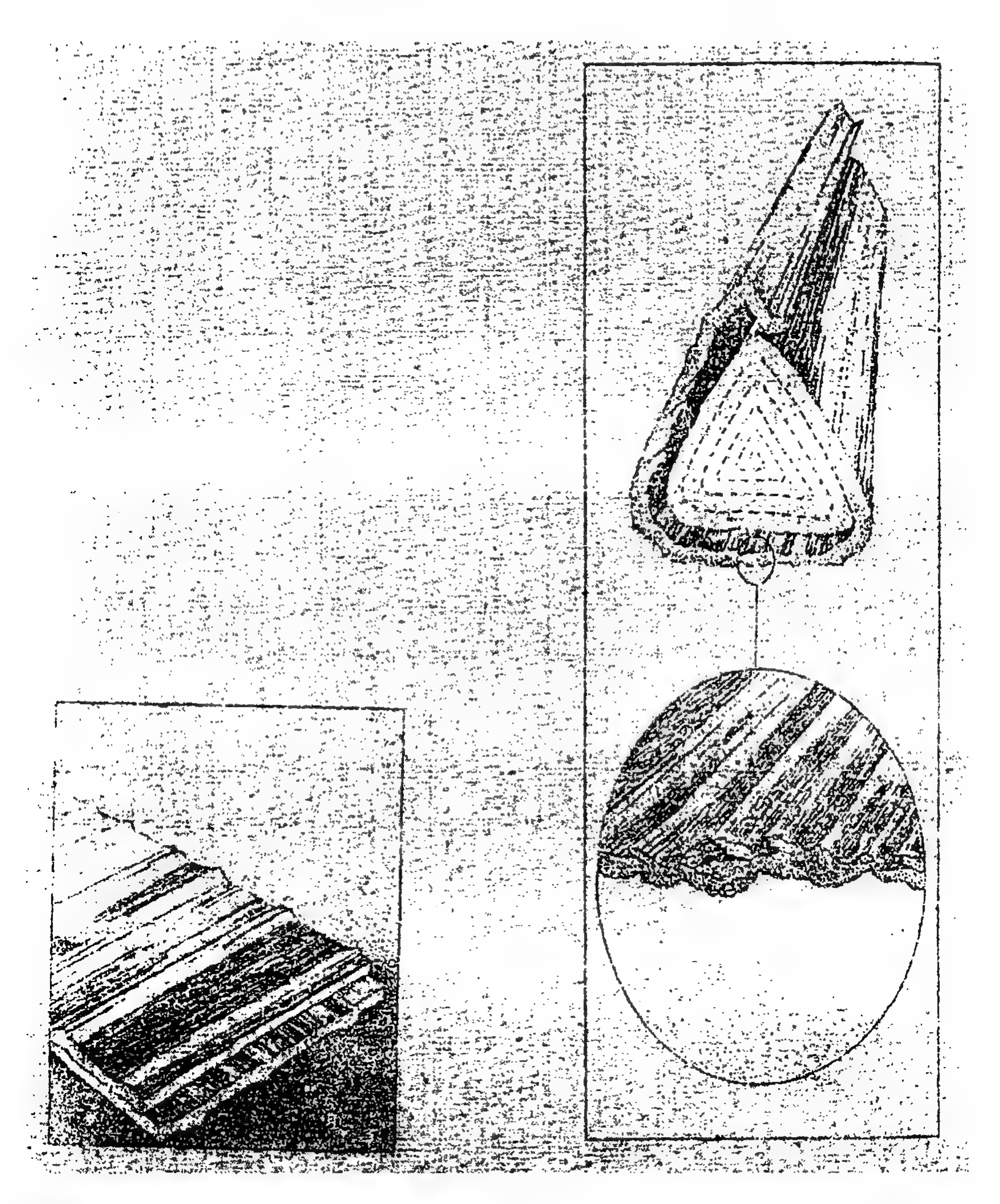




لوحة (٦) تحريك الابرة من أعلى الى اسفل



لوحة (٧) فصل الطرف العلوي من الشريحة



شكل (٤) نزع الطرف المحزز تبعاً للخطوط السابق تحديدها

شكل (٥) فرد الشريحة بعد فصلها

٢ - " رسوم المغادرة "
فى مصر الرومانية

أسامة السيد القطفانى

لم يكن وقوع مصر فى براثن الإمبراطورية الرومانية هو أحد نتائج الضعف والهوان الذى كان عليه البطالمة فى نهاية عهدهم بقدر ما كان نتيجة غير مباشرة للعشوائية العامة التى تميزت بها استراتيجية الأداء السياسى المصرى فى عصر الفراعنة. ففى الفترة التى كان المصريون خاضعين خلالها لحكم الملوك المصريين منذ عهد ما قبل الأسرات وحتى الأسرة الثلاثين كانت مصر هى الدولة الوحيدة بين الحضارات المعاصرة لها التى لم تعرف أى نوع أو قدر من الديمقراطية فى نظامها السياسى والاجتماعى.

وكانت المنظومة التى تحكم البلاد منذ بداية تاريخها تعتمد على الفكر الذى منح الملوك صفات الآلهة وجعلهم فوق أى نوع من أنواع الحساب او المراجعة أمام الشعب أو ممثليه أو حتى الحاشية والأتباع وكبار المسئولين.

ومن خلال ألوهية الملوك كان هناك أيضاً الوضع المتميز والسلطات شبه المطلقة والامتيازات اللامحدودة التى كانت يتمتع بها الكهنة بوصفهم الجهة التى أسبغت على الملوك نعمة الألوهية وامتياز السلطان المطلق. وكان الكهنة يتمتعون إلى جانب ذلك بامتياز احتكارهم لأسرار العلم وقدرتهم على عدم البوح بها سوى للخاصة ممن ينتمون إليهم أو إلى أشياعهم. ويلى الكهنة فى هذه المنظومة حاشية الملك من الأسرة والأقارب الذين كانوا يمثلون بدورهم طبقة متميزة سلطوياً واقتصادياً واجتماعياً وغير قابلة للحساب أمام أية جهة شعبية أو حكومية.

ويأتى بعد ذلك جهاز حكومى قوى ذو صلاحية وسلطات مركزية مطلقة يحكم من خلالها قبضته على البلاد بوجهيها البحرى والقبلى. وهذا الجهاز الحكومى كان شبيهاً أيضاً بالملك والكهنة والحاشية فى عدم خضوعه لأى نوع من الرقابة الشعبية أو المسائلة أمام أية جهة خلاف الملك، وفضلاً عن عدم وجود

أية مؤسسات شعبية ديمقراطية فى منظومة الحكم الفرعونى، كانت هناك أيضاً آلية شديدة الخطورة أدت إلى الفصل الكامل بين جموع الشعب المصرى وبين إمكانية وجود أية قيادات شعبية مستتيرة تطالب لهذا الشعب بحقوقه أو تراقب بأسمه أداء الحكومة والملك والحاشية.

فى مصر القديمة كانت مدارس تعليم الكتابة مخصصة "لتوريد" كافة الخريجين لدولاب العمل الحكومى. وكان هؤلاء الخريجون يمنحون امتيازات واعفاءات ضريبية تضعهم فى مصاف الحكام والحاشية وتخرجهم -عملياً- من صفوف الشعب ويستحيل معها أن يعمل هؤلاء الكتبة الحكوميون لصالح الطبقات التى خرجوا من بينها. وأدت هذه الاوضاع إلى انقسام المصريين إلى أقلية حاكمة وأغلبية محكومة. وصار من المستحيل عملياً أن يحصل المحكومين على أية مكاسب أو امتيازات أو حقوق ديمقراطية فى ظل ألوهية الملك وانعزال الكهنة وحصانة الحاشية والسلطة المطلقة لأعضاء الحكومة والعاملين بها ومعها. واستمرت هذه الأوضاع منذ بداية عهد الأسرات وحتى نهاية الدولة القديمة.

وعند اقتراب الدولة القديمة من نقطة الزوال تدهورت أوضاع البلاد بصورة رهيبة وبدأت مصر فى دفع أولى فواتير خسائرها بسبب فساد نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى. وكانت الثورة الاجتماعية الأولى التى شهدتها مصر فى ذلك العهد نتيجة لبذخ الإنفاق على المنشآت الجنائزية وأهرامات الملوك وتكوين طبقة إقطاعية واسعة النطاق من رؤساء العمال الذين استغلوا فترة إنشاء الأهرامات وتمكنوا من تحقيق ثروات طائلة وقاموا بشراء الأراضى وبناء القصور واستخدام الحرس والأتباع والتشبه بالملوك والأمراء فى كل أوجه حياتهم.

وكانت هذه الاوضاع كفيلة بالقضاء على الامن السياسى والاجتماعى فضلاً عن خراب خزينة الدولة ونضوب معظم مواردها. وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا هى الفوضى التى عمت البلاد واستمرت حتى بداية عهد الدولة الوسطى. وتمكن ملوك هذه المرحلة من استعادة سيطرتهم على البلاد بعد أن وعدوا الشعب بإعلاء شأن العدالة والقضاء على الاضطرابات السياسية والأمنية والاجتماعية.

إلا أن العدالة التى تحدث عنها ملوك ذلك العهد لم تكن تعنى أى نوع من أنواع العدل الاجتماعى المطلق او إعلاء شأن حقوق المواطنة. فهذه العدالة لم تكن فى واقع الأمر سوى احتفاظ كل من الحاكم والمحكوم بوضعه القديم مع إقرار نوع من المسئولية الأدبية للملك عن "إعالة" الرعية ومنحهم الاستقرار السياسى والاجتماعى والأمنى دون التطرق للاصلاح الجذرى لاستراتيجية الحكم فى البلاد. وكان من الطبيعى فى ظل هذه الأوضاع أن تعاود الأمور تدهورها مرة أخرى وتنتج القبائل الآسيوية فى التوغل فى البلاد والقضاء على وحدتها السياسية وتكوين أسرة أجنبية باسم الهكسوس تحكم فى الدلتا وتطمع فى حكم باقى البلاد.

وشهدت مصر على هذا النحو عصراً ثانياً من عصور التدهور والاضمحلال. ونجح أحمس فى وضع حد لهذا العصر حين تمكن من طرد الهكسوس وتأسيس الدولة الحديثة على أكتاف جيش مصرى من الفلاحين لأول مرة فى تاريخ البلاد. ورغم هذه البداية الطيبة لعهد الأسرة الحديثة فإن استراتيجية الحكم ظلت كما هى. وسرعان ما عادت الأمور سيرتها الأولى حين تقلصت امتيازات وصلاحيات المصريين من العسكريين والتجار فى عهد بسماتيك. ففى ذلك العهد منح بسماتيك امتيازات واسعة لليونانيين من المرتزقة والتجار. وتم انشاء مدينة خاصة بالوافدين من اليونان تكريساً لحقوقهم التى اكتسبوها فى عهد ذلك الملك. وأدى ذلك إلى حالة من الغضب والتذمر فى صفوف الضباط والتجار المصريين. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الوضع الغريب هى تدهور الأحوال على كافة المستويات والأصعدة مما أدى إلى نجاح الفرس فى احتلال البلاد والإطاحة بأخر أسرة مصرية فى ذلك العصر. وسرعان ما نجح الإسكندر فى الإطاحة بالفرس واحتلال مصر فى عهد الأسرة الحادية والثلاثين وبعد وفاة الإسكندر آلت البلاد إلى البطالمة وانتهى بذلك عصر الفراعنة.

وفى فترة حكم البطالمة نجح الغزاة الجدد فى استغلال ما وجدوه من أفكار واستراتيجيات وقواعد سياسية واجتماعية واقتصادية فى مصر وتمكنوا من

استخدامه لصالحهم ببراعة فائقة. فعلى الرغم من أن البطالمة كانوا ينتمون فى الأصل إلى بلاد اليونان التى عرفت الديمقراطية وحقوق المواطنة قبل الإسكندر بأكثر من قرن من الزمان، فإنهم حين آل إليهم حكم مصر لم يفكروا للحظة واحدة فى استخدام هذا النوع من الفكر السياسى فى هذا البلد. ووجدوا فى قواعد من حكموه معيناً لا ينضب من الامتيازات والاستثناءات التى خص بها الناس ملوكهم وحكامهم. ولهذا السبب ترك البطالمة كل ما عرفوه وتعلموه من قواعد وأسس الفكر السياسى وأخذوا عن المصريين فكرهم الدينى الذى يمنح الملك ألقاب وأوصاف وصلاحيات الآلهة.

وبدأ البطالمة عهدهم فى مصر بتلك الصلاحيات المطلقة لملوكهم أسوة بما كان للفراعنة. وصار الملك البطلمى -بمقتضى القانون والأعراف المصرية- مالكاً للبلاد بمن عليها وما فيها. واستأنف الشعب المصرى تحت حكم البطالمة مسيرة الاستبداد السياسى والاجتماعى والابتعاد الكامل عن الديمقراطية بأى شكل وفى أى قدر. وأبقى البطالمة على الهيكل العام من النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت مطبقة فى عصر أسلافهم. وخضع المصريون سياسياً واجتماعياً واقتصادياً للملك البطلمى مثلما خضعوا من قبل للملوك الفراعنة. وأدرك البطالمة ضرورة وجود حكومة مركزية قوية صارمة على رأس البلاد كما أدرك الفراعنة من قبل نفس هذه الحقيقة. وأحكم البطالمة قبضتهم على البلاد كما كان الفراعنة يفعلون. وتحول الشعب المصرى من رهينة لدى الفراعنة إلى رهينة لدى البطالمة.

واستمرت الأعباء المالية وعبء العمل بالسخرة تثقل كاهل الفقراء المصريين فى العصر البطلمى كما كانت تفعل فى عهد الفراعنة. باختصار شديد لم يتغير شىء فى جوهر العلاقات السياسية والاجتماعية فى البلاد خلال العصر البطلمى سوى استحداث الملوك الجدد واستحداث طبقة السكندريين أو اليونانيين واستحداث اللغة اليونانية وفئة المتأغرقين فى مصر.

أما الأداء السياسى والاجتماعى فى البلاد فقد ظل فى جوهره كما كان عليه الحال فى عهود الفراعنة. واستمر الحال بالبطالمة على هذا النحو طيلة سنوات حكمهم لمصر. وكما انجز بعض ملوك الفراعنة بعض الانجازات الإيجابية لصالح الشعب والبلاد رغم غياب الديمقراطية، فإن الملوك البطالمة قد نجح بعضهم أيضاً فى تحقيق بعض الإنجازات الهامة لصالح الشعب والبلاد على الرغم من غياب الديمقراطية كذلك. ولعل بطليموس الاول والثانى هما أصحاب أكثر هذه الانجازات أهمية وخلوداً. ومثلما تآكل النظام المصرى بمرور العقود والسنوات وانهار فى نهاية الأمر بسبب طابعة الدكتاتورى المطلق، فإن النظام البطلمى قدم هو الآخر بنفس هذه التطورات وانتهى به الحال إلى الانهيار الحتمى ولنفس الأسباب -تقريباً- التى أتت على حكم الفراعنة.

وكما ورث البطالمة حكم مصر من الفرس، فإنهم قد اورثوا البلاد إلى الرومان. أى أن الهوان الفرعونى قد أدى إلى وقوع البلاد منذ الأسرة الثلاثين فريسة فى أيدى القوى السياسية والحضارية الثلاث الموازية لمصر فى العالم القديم وهم الفرس واليونان والرومان. وأن كان الفرس قد فشلوا فى الاستقرار فى مصر وأن كان البطالمة قد فشلوا فى الاستمرار بها فإن الرومان فى مطلع القرن الأول الميلادى كانوا فى أشد الحاجة لغزو مصر بوصفها مورداً اقتصاديا أساسياً طال تطلعهم للاستيلاء عليه خاصة فى مرحلة المشروع فى بناء امبراطورية كونية مرهوبة الجانب واسعة النطاق. وهكذا تحالفت ظروف عديدة فى منح الرومان تأشيرة دخول مصر عقب معركة اكتيوم والإحاطة بكليوباترا السابعة ٣١ ق.م.

وما أن وضع الرومان أقدامهم فى مصر حتى قرر الإمبراطور الرومانى ان تحتفظ بهذه الولاية الجديدة أو "مخزن الغلال" فى حوزته وسلطته الشخصية طبقاً للتقسيم المتفق عليه بين الإمبراطور ومجلس السناتو. وبدأ الرومان على الفور بتطبيق كافة قواعد وأسس الاستبداد والتسلط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى هذه الولاية الجديدة. فهم قد لجاءوا أولاً إلى استخدام الفكر السياسى الفرعونى اللعين فى فرض انفسهم كأصحاب حق إلهى فى البلاد ومن

عليها وما عليها كما كان الحال فى عهد الفراعنة ثم البطالمة. وهم بعد هذا قد استخدموا كل وسائل الاحتكار والسيادة الاقتصادية المطلقة على كل موارد البلاد وفرضوا من الضرائب أشكالاً وأنماطاً تفوقوا بها على الفراعنة والبطالمة.

فالرومان كانوا فى واقع الأمر يمتازون عن الفراعنة والبطالمة بامتيازات أخرى تفوق الاستبداد والتسلط السياسى. كان الرومان على درجة كبيرة من الوعى والتنظيم تفوق ما كان لدى الفراعنة والبطالمة. ولهذا السبب بدأ الرومان عهدهم فى مصر بوضع أيديهم على الأراضى والمناجم والبحيرات، وصارت كل هذه الموارد ملكية تابعة للحاكم مباشرة(١) ، وتم فرض ضرائب على الأراضى الخاصة تتحول بها هذه الأرض إلى مجرد أرض مستأجرة من الحكومة لصالح أحد الأشخاص أو الجهات. ومثلما كان الحال فى عهد البطالمة وضع الرومان ضريبة الرأس وفرضوها على كل "شخص" مصرى وجعلوا منها السبيل الوحيد الذى يحصل منه المصريون على حصة من الملح الذى احتكره البطالمة والرومان أيضاً(٢).

وبرع الرومان فى اختراع وفرض وجباية الضرائب من المصريين أكثر بكثير من براعة سابقيهم من البطالمة أو الفراعنة. ففى ظل الحكم الرومانى كان على كل الذكور البالغين من العمر أربعة عشر عاماً فأكثر أن يدفعوا ضريبة شخصية للرومان توازى ما هو معروف عن ضريبة الرأس التى فرضها الرومان على كافة المواطنين أو السكان فى مصر ما عدا من صدر مرسوم بإعفائهم منها -من غير المصريين-(٣) وظلت هذه الضريبة قائمة فى البلاد حتى فترة حكم الإمبراطور تبريوس ووصل حد الالتزام بها إلى سن ٦٢ عاماً وربما هبط هذا الحد العمرى إلى سن ٦٠ عاماً فى مقاطعة أرسينوى(٤). وكان الإعفاء من ضريبة الرأس فى

(1) An Economic survey of Ancient Rome, Vol. II "Roman Egypt To the Reign of Diocletion, Allan Chester Johnson, 1936. P. 325.

(2) An Economic survey of Ancient Rome, Vol. II "Roman Egypt To the Reign of Diocletion, Allan Chester Johnson, 1936. P. 325.

(3) Ibid, Op. cit. Page 531 .

(4) Ibid. P.532 .

مصر الرومانية قاصراً على المواطنين الرومان أى السكان الذين يحملون حق المواطنة الرومانية بالإضافة إلى مواطنى الإسكندرية(٥). ومن ضريبة الرأس تفرعت الضرائب الرومانية المفروضة على المصريين إلى ضرائب على الحدائق، وضرائب على النشاط التجارى بشتى أنواعه، وضرائب على الداخل والخارج إلى ومن شتى موانئ البلاد (الجمارك)، وضرائب أخرى متنوعة شملت تقريباً كل أنشطة الحياة فى البلاد.

وحين نتأمل نظام الضرائب المطبق فى مصر الرومانية فإننا قد نشعر بالدهشة ونحن نقرأ كيف تمكن الرومان من محاصرة المصريين لكل هذا القدر من الضرائب التى لم تترك أى جانب من جوانب الحياة إلا وأمسكت بتلابيبه ووضعته فى إطار انتظام الضرائب الرومانى الرهيب، ويكفى فى هذا الصدد أن نعرف كيف تطرق الرومان بضرائبهم هذه إلى الموتى أنفسهم. حيث كان النظام الرومانى يفرض ضرائب على المتوفى من المصريين لا يدفن إلا بعد دفعها، كما كان النظام الرومانى يفرض نفس هذه الضرائب على الحيوانات الناقصة التى قد تكون تابعة لأحد المعابد أو يفترض أن تدفن فيها(٦).

معنى هذا أن المواطن المصرى فى ظل الحكم الرومانى كان عليه ان يدفع الضرائب عن مجرد حياته فى هذا الوطن منذ سن ١٤ سنة وحتى ما فوق الستين . ثم كان عليه أيضاً أن يدفع ضرائب أخرى عن ممارسة اى نشاط سواء كان زراعياً أو صناعياً او تجارياً أو استيراد أو تصدير أو حتى حيازة أى شىء وراثه عن أهله. ثم كان على هذا المواطن أيضاً ان يدفع ضرائب أخرى عن أية أنشطة دينية قد يكون مطالباً بممارستها. ثم على المواطن المصرى بعد كل هذا أن يترك لأسرته نفقات أخرى يدفعونها كضريبة للرومان عند وفاته!!

هذا الوضع الضرائبى الغريب والمتعسف الذى طبقه الرومان فى مصر طوال ستة قرون من خضوعها لهم لم يكن فى واقع الأمر سوى ترجمة امنية

---

(5) Ibid.

(6) Ibid. P.190 .

لحال المصريين خلال العصر الفرعونى. ففى مصر الفرعونية لم يتعلم المصريون أبجديات الديمقراطية، وخضع الجميع لموروث دينى غريب فرض عليهم الطاعة العمياء للحاكم الإله وحاشيته وحكومته واتباعه. وفى مصر الفرعونية كان النظام السياسى والاجتماعى يفرض تكوين حكومة من الأقلية وشعب من الأغلبية. وتطلب طبقة البلاد ان يخول للحكومة سلطات واسعة ومركزية رهيبة واستبداد مطلق بكافة الصلاحيات والامتيازات(٧).

ومن هنا لم يكن غريباً أن يخضع المصريون للبطالمة ثم الرومان خضوعهم للملوك المصريين. ولم يكن غريباً أيضاً ان يستخدم البطالمة ثم الرومان كافة انواع الاستبداد السياسى -فرعونى الأصل- فى حكم المصريين والتنكيل بهم وحرمانهم من أدنى حقوق المواطنة. ولم يكن غريباً أن يقبل المصريون هذه القيود حيث أنهم قد ألفوها ورضخوا لها طوال عهد الأسرات وعلى أيدى حكام من بنى جلدتهم ساموهم سواء العذاب فى شتى نواحى حياتهم. وأن كان الرومان قد فرضوا على المصريين ضرائب الحياة وضرائب الموات، فإن الفراعنة أنفسهم قد حكموا نفس هذا الشعب بأساليب جعلت السواد الأعظم من المصريون يقضون حياتهم انتظاراً للموت بوصفه المنقذ الوحيد من حياة الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقى وغياب الحد الأدنى من حقوق المواطنة.

---

(7) Op. cit.

٣- المرأة المصرية في ضوء أوراق البردى العربية (دراسة اجتماعية)

د. نعمة علي مرسي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بكلية دار العلوم- جامعة المنيا

التمهيد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،وبعد هذا موضوع يتناول المرآة المصرية في ضوء أوراق البردي ،دراسة اجتماعية تمس كيان النساء المصريات سواء المسلمات منهن أم القبطيات ، وذلك خلال العصر الإسلامي ، خاصة في العصر الفاطمى .

فقد أفسح الدين الإسلامي للمرأة حرية العقيدة وعمل على حمايتها ،وحفظ وضعها الاجتماعي ، وأسقط عن نساء أهل الذمة والراهبات الجزية ، وفى البداية لابد أن أشير إلى أهمية أوراق البردي العربية كوثائق تاريخية تحتل المكانة الأولى والمقام البارز بين النصوص التاريخية المنقوشة ، فالبردي عبارة عن سجل للملامح الحضرية في المجتمع ،وتقرير يومي للحياة العامة في مصر. فمن المعروف أن العديد من نصوص البرديات العربية كالعقود الفقهية أو الرسائل المتبادلة بين الأفراد للاطمئنان والسلام وتمنى السعادة ودوام التوفيق والعافية ، هي الرسائل المعتادة في القرون الثلاثة للهجرة (١) ، تحمل في طياتها معلومات تاريخية قيمة سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية.

وترجع أهمية أوراق البردي في بحثنا هذا إلى ما أمدتني به في صورة عقود فقهية ومواثيق نادرة عن حياة المرأة المصرية ومراسلتها ، وعقود زواجها ، وعقود للإكراء وعقود البيع والشراء وغيرها من العقود النادرة ، التي يمكن استنباط معلومات اجتماعية هامة عن دور المرأة في المجتمع.

ومن البديهي أن نوضح قبل الكلام عن موضوع البحث الأصلي في إشارات موجزة عن ماهية أوراق البردي ، ومواضع زراعته في مصر ، فهو نبات مصري قديم ، يقول عنة علماء النبات إنه ينتمي إلى الفصيلة السعدية التي تنمو نباتاتها

في المستنقعات العذبة المياه أو الضاربة في الملوحة ، وعلى جوانب الترع والمصارف ، وفى الأراضي شديدة الرطوبة ، والحقول الزراعية ، وعلى الأخص حقول الأرز. ويوصف نبات البردي بأنه من النباتات جميلة الشكل ، تنتهي سيقانه بخيمة زهرية ذات حوامل طويلة في أعلاها سنيبلات تنضم على شكل سنبلة واحدة ، تزهر طوال العام إلا فصل الشتاء(٢) .

وأهم مكان كان ينمو فيه نبات البردي هو مستنقعات دلتا النيل ، والأماكن الضحلة ولاسيما في الفيوم(٣). وقد صنع المصريون القدامى من نبات البردي عدة أشياء يأتي في مقدمتها صناعة الورق ، هذا بالإضافة إلى الصناديق والحبال والحصر كما أفادوا في فن العمارة من شكل هذا النبات. فصنعوا أعمدة مثلثة كسيقان البردي ، ومن المعروف أن المصريين القدامى لم يبوحوا بأسرار صناعة الورق في نصوصهم ، ولم يصوروا تفاصيل صناعته على نقوشهم، واحتفظوا بهذه الصناعة سراً من الأسرار(٤).

أما عن موضوع المرأة في العصر الإسلامي ، فإنها من الموضوعات النادرة ،بسبب التقاليد الشرقية المحافظة من ناحية ، وبسبب اهتمام المؤرخين والمصادر التاريخية بالحياة السياسية وبشخصيات الحكام القائمين في السلطة دون غيرهم ، الأمر الذي قصر الكلام عن المرأة في نطاق ضيق ، وقد ساعدت النظم الاجتماعية في مصر في تحقيق وحدة النظرة إلى المرأة ،مع نمو العادات والتقاليد التي أدخلها الإسلام في شئون عده منها شئون الحكم ونظم الزواج ،والمعتقدات الدينية ، الأمر الذي استرعى انتباه النساء في هذه المجالات ، وكانت النتيجة نمو .

الوعي الاجتماعي في كافة المستويات النسائية ،خاصة مشاركة المرأة في قصور الحكم

أود في نهاية كلمتي أن أشكر السيد الدكتور/ سعيد مغاوري محمد الباحث بالمجلس الأعلى للآثار والمشرف على البرديات العربية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، على تعاونه الصادق وجهده الطيب ومساندته الكريمة لي ، بإمدادي

بعدة صور من أندر الوثائق العربية ، والتي جلبها معه من ألمانيا أثناء دراسته للدكتوراه ،فله مني جزيل الشكر والعرفان .

ونسأل الله أن نكون وفقنا في هذه المحاولة المتواضعة لإعطاء صورة صادقة واضحة المعالم لدور المرأة المصرية ومكانتها في المجتمع المصري .

أولا : طبقات النساء في مصر في ضوء أوراق البردي :

تعددت طبقات النساء في المجتمع المصري ، والمتتبع لتاريخ مصر الإسلامية يلاحظ ثلاث طبقات من النساء ، تتفاوت كل طبقة عن غيرها بقدر السلطة والنفوذ والثروة ،فشملت الطبقة الأولى سيدات القصور ونساء الأمراء والأغنياء من علية القوم ، أما الطبقة الثانية فهي عامة نساء المجتمع المصري .

التي ركزت البرديات عليها ،سواء كن مسلمات أم من أهل الذمة الأقباط على وجه الخصوص وخاصة راهبات الأديرة ، هذا بالإضافة إلى الطبقة الثالثة من النساء وهن الجواري والطبقة الدنيا من الخادمات والمغنيات .

ونريد أن نلفت النظر إلى أن مجتمع المرأة في مصر ، بما ضمه من الطبقات الثلاثة ، قد انصهر في نظام اجتماعي واحد ، فاقتدت نساء الطبقة المتوسطة والدنيا بسيدات المجتمع من الطبقة العليا ، في محاولة لتقليدهن في الملبس والعادات .

١- الطبقة العليا من النساء :

عاشت هذه الطبقة في رخاء وترف ،واتسمت معيشتهم بمباهج كثيرة من الحياة ، ومن نساء هذه الطبقة السيدة "بوران" ، والتي عشقها الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون" ، وأمر بإنشاء قصر لإقامتها أطلق عليه اسم بيت الذهب(٥) وبذلك أفرد لهذه السيدة قصراً خاصاً بها ، بينما أقام دار الحريم من أمهات أولاد أبيه مع أولادهن ، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده ، وجعل في هذه الدار لكل واحدة حجرة واسعة ، بالإضافة إلى تعيين خدماً لكل سيدة ،وأقام الأسمطة الواسعة لإطعامهن (٦).

ومن نساء هذه الطبقة في العصر الطولونى أيضاً السيدة "قطر الندى" ابنة خمارويه ، وهى من السيدات ذات النفوذ والسلطان في دولة أبيها، والتي تمتعت بقدر كبير من الجمال ، ويتحدث المؤرخون كثيراً عن قيمة جهازها، وما اشتملت علية من أشياء يعجز عنها الوصف، وذلك عند زواجها بالخليفة المعتضد العباسي[٧] .

ومن أشهر نساء هذه الطبقة في العصر الفاطمي السيدة "تغريد" زوجة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[٨] فهي من السيدات الصالحات ذات البر والإحسان[٩] ويطلق عليها المقريزى[١٠] أسم السيدة "درزارة" ، ويصفها بأنها أم ولد. لقد تمتعت هذه السيدة بالجاه والسلطان في دولة أبنها العزيز بالله[١١] ، فقامت بإنشاء عدة مباني معمارية هامة ، في عاصمة الفاطميين القاهرة ، من أهمها بناء الجامع المعروف بجامع الأولياء ، والمدرسة المعروفة في منازل العز ، التي أمر بإنشائها على شاطئ النيل ، قد اتخذت هذه المنازل كمتنزه للخلفاء الفاطميين ، كذلك أمرت هذه السيدة في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م محتسب مصر في ذلك الوقت وهو الحسين بن عبد العزيز الفارسي بإقامة الحمام العام والبستان وجامع القرافة من أموالها الخاصة[١٢].

ومن نساء هذه الطبقة السيدة زوجة الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، المسيحية الأصل ، التي جعلت عهد هذا الخليفة عهد تسامح مع بنى جلدتها من النصارى وأقباط مصر ،لما كان بينه وبينهم من صلة النسب والمصاهرة إذ تزوج من هذه السيدة وأنجب منها ابنه الحاكم بأمر الله[١٣] وابنته "ست الملك" ، تميزت زوجة العزيز بالله بالنفوذ الكبير في دولة زوجها ، وحملته على انتهاج سياسة التسامح مع الأقباط ، فعين أخواها في أعلى مناصب الكنيسة ، فأصبح أحدهما ويدعى ارساني بطريرك الطائفة الملكانية ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م ، والأخر ويدعى ارسانيوس مطراناً للملكانيين بالقاهرة[١٤] ، وبتأثير هذه السيدة ولى العزيز بالله أحد الأقباط في منصب الوساطة – الوزارة المصرية – وهو عيسى بن نسطورس النصراني[١٥] .

أما عن أشهر نساء العصر الفاطمي من الطبقة العليا ،فهناك السيدة ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله ، وهى من السيدات الجليلات ذات النفوذ والسلطان والسياسة[١٦] ، اتصفت بالعقل والحزم ، وتدخلت في شئون الإدارة في

عهد والدها ، فاستشفعت في حق عيسى بن نسطورس ، عندما زاد طغيانه واضطهاده للمسلمين ، فعفا عنة الخليفة بشرط أن يستخدم المسلمين في وظائف الدولة الإدارية(١٧) .

كذلك برز دورها الفعال في الحكم والإدارة في عهد أخيها الحاكم بأمر الله، وسيرت أمور الدولة في كثير من الأوقات ، وكانت تنهيه عن أفعاله السيئة ، فاتهمها في شرفها ، ومن ثم أخذت على عاتقها تدبير الحيلة والمكيدة للقضاء علية(١٨). ففى حقيقة الأمر ، فإن ست الملك قد تآمرت مع أحد رجالات الدولة وهو سيف الدولة بن دواس من شيوخ كتامة ، وبذلت له المال والهدايا ، حتى أرسل عبيده في طريق الحاكم ، وتمكنوا من قتله ، وفى بادئ الأمر عملت ست الملك على إطلاق الأموال والهدايا والثياب لهؤلاء العبيد حتى استقرت الأمور في داخل البلاد . ومن ثم رفعت ابن الحاكم بأمر الله على كرسي الحكم وأطلقت علية لقب الظاهر لإعزاز دين الله (١٩) .

لقد لعبت السيدة ست الملك دوراً بارزاً في إنشاء بعض المنشآت المعمارية مثل القاعة الكبرى التي أمرت بإقامتها في القصر الغربي الكبير ، وجعلتها مكاناً لسكناها طوال حياتها ، كما كان لها اليد الطولي على الأموال والخزائن ،وتميزت بكثرة الهبات والعطايا ،وقد قيل أنها قدمت إلى أخيها الحاكم قبل وفاته هدية قيمة عبارة عن ثلاثين فرسا بسروج مطعمة بالذهب، وتاج مرصع بالجوهر النفيس(٢٠) .

وقد كانت رشيدة ابنة المعز لدين الله من نساء هذه الطبقة ،وهى التي عاشت حتى عهد الحاكم بأمر الله ،وكانت على درجة كبيرة من الثراء ،فخلفت ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ،والكثير من الأكسية والأثواب الفاخرة ، والكافور (٢١).

وتنضم إلى هذه الطبقة من النساء زوجات الوزراء مثل السيدة " بلارة " زوجة الوزير ابن السلار في خلافة الظافر الفاطمي ،وهى ذات حسب ونسب ،توفيت في حدود سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م (٢٢) .

٢- الطبقة العامية :

تلك الطبقة من النساء انتشرت في المجتمع المصري بصورة واضحة ،وهى الطبقة آلتي لم تبخل بجهدها عن مشاركة الرجل في الحياة العامة ،وهى تمثل الزوجة وربة البيت والراعية لمصالح الزوج والأولاد ٠

استمرت المرآة العامية في تطور ملحوظ فلم تتراجع إلى الوراء لما كانت قبل ظهور الإسلام ،ولم ينظر إليها نظرة الاحتقار والازدراء السابقة ،على اعتبار أنها جزء مكمل للرجل فقط ،حيث كانت تباع وتشترى في مجتمعات ما قبل الإسلام ،حقيقي أن نساء هذه الطبقة لم تتدخلن في شئون الحكم والإدارة ،بل ركزن كل اهتمامهن على بيوتهن وأزواجهن ،وتهيئة الطعام لأسرهن ،والسهر على راحة وسعادة أولادهن ٠

وقد وجدت في هذه الطبقة العديد من السيدات الفقيرات اللاتي اعتمدن كلية على من يعولهن في الحياة ،فتشير وثيقة من أوراق البردي العربية محفوظة في متحف اللوفر بباريس إلى خطاب من أخت إلى أخيها ،تشكو إلية من الفقر وسوء الأحوال المالية ،وقلة الطعام ،جاء فيها :"...... جعلت فداك وأطال الله ياخى بقاك ...... يا آخي يا سيدي يا حبيبي سترك الله ...... ودفع الله عنك المكارة والآفات ...... كلم أبى حتا يعجل على بالثوب أنا والله عريانة وأنت قد رأيتني ورأيت ما أنا من الجهد ...... والله مالى عيش طيب ...... جايعة عطشانه ...... " (٢٣) ٠

هذه الوثيقة تدلل على وجود نساء في هذه الطبقة تعشن حد الفقر ،ووصلن إلى الفقر والجوع والعوز لدرجة الاستجداء من الأهل والآباء في طلب العون والمساعدة لستر عوراتهن وإيجاد الملبس لأجسادهن ،وفى محاولة لسد جوعها وجوع أطفالها ،تشير إلى أخيها في خطابها قائله :" ...... ما وجدت شئ في بيت الجيران ...... أنا والله أقيم يومين جياع لا نجد أحد يخبز لنا ولا يطحن يا أخي ......"(٢٤) ٠

لقد كانت نساء هذه الطبقة تقمن بأعمال الغزل والنسج داخل منازلهن ، وذلك لملائمة تلك المهنة لطبيعة جلوس المرأة لفترات طويلة داخل منزلهن وقضاء أوقات الفراغ من جهة ، ومن جهة أخرى للمساهمة في نفقات البيت ، وعمل الملابس لأفراد الأسرة ودعم الزوج في المعيشة .

من الواضح أن نساء هذه الطبقة أسهم بعضهم بدور فعال في القيام بمهنة القابلة(٢٦) ،وهى من المهن التي تخصصت فيها المرأة دون الرجال في أغلب العصور ، لأنهن ظاهرات بعضهن على عورات بعض.

وكانت السيدة المسماة أم أحمد قابله ذات دين وصلاح وإحسان ،تقوم بهذه المهنة لوجه الله ،ولا تأخذ أجر علي عملها ، وكان محل سكنها جبل المقطم في مصر(٢٨).

ومن حق هذه الطبقة من النساء حرية التعامل في البيع والشراء وامتلاك الأراضي والعقارات وغيرها ، ومن البديهي أن تقمن النساء بتصريف ممتلكاتهن بأنفسهن ، واستلام أموالهن من أزواجهن أو الوصاية عليهن من أحد ، ففي وثيقة من أوراق البردي ترجع إلى سنة ٣٤١ هـ / ١٠١٠م ، كشفت بالفيوم تشير قيام سيده تسمى مقطلنى ببيع حصتها من منزل مشاع واستلامها المبلغ المتفق عليه ،وشهادة الشهود علي ذلك ، فقد جاء في هذا العقد ما يلي "... هذا ما اشترى يحنس بن شنوده بن بطاقس من مقطلنى بنت شنوده بن أيوب ... حصتها من المنزل ..وهو السدس منها أربع أسهم من أربع وعشرين سهما .. اشترى ذلك بدينار(٢٩) واحد عينا ذهبا وازن بالجديد من العين المعسولة...".

ومن البديهي أن ننوه إلي أن تلك الطبقة من النساء لا تخلو من السيدات المتعلمات ، اللاتي كن يسهمن في معرفة الكتابة والقراءة والمراسلات وتبادل الخطابات بين الأهل ، ففي وثيقة من أوراق البردي محفوظة في متحف اللوفر بباريس تنسب إلي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي عبارة عن خطاب من سيدة تدعى "أم مكينه" وابنتها "مكينه" إلى سيده أخرى تدعى "أم راشدة" تقيم في الفيوم ، تدل دلاله واضحة علي ثقافة هذه السيدة ، مدى ما تتمتع به الرسالة أحاسيس ورقهم شاعر في التعبير ، فهي تقول في خطابها "... من أم مكينه ومكينه ... سلام عليك ، فإني أحمد الله ، أما بعد... فإني أخبركم من خبرنا أنا بخير صالحين لم يحدث على أحد من الأخير ...(٣١)" . ومن نساء هذه الطبقة من كن على درجة من التدين وحفظ القرآن الكريم وتعليمه الصغار، وبعضهن وصلن إلي درجة عالية من العلم والمعرفة ، مثل السيدة رابعه بنت

إسماعيل العابدة التي أقامت في مصر سبع سنوات ، وكان الأمام الشافعي[٣٢] رضى الله عنه يتردد عليها ، ويصلي التراويح في رمضان بمسجدها[٣٣]، كذلك السيدة ستيتة بنت القاضي أبو عبد الله الحسين ،المكنية بأم الواحد ، تقرأ القراءات والفرائض وعلم النحو، وتفتى مع أبى علي بن هريرة، توفيت في شهر رمضان سنة ٣٧٨ هـ/٩٨٨م[٣٤] .

كذلك اشتهرت نساء صالحات من بنات على درجه كبيره من التقوى والورع ،مثل السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب ، التي ولدت في مكة ، ونشأت في المدينة المنورة ، ودخلت مصر مع زوجها أسامه بن جعفر الصادق ، حفظت القرآن الكريم وتفسيره[٣٥] ، وحجت ثلاثين مره ،وتوفيت في مصر سنه ٢٠٨هـ/٨٢٣م ، ودفنت في منزلها المعروف في درب السباع[٣٦] .

أما بالنسبة للنساء القبطيات اللاتي سكن مصر بعد الفتح العربي لها[٣٧]، فقد تمتعن بالكثير من الحرية الدينية في ظل الإسلام ،وتمتعت الراهبات في أديرتهن الحرية[٣٨] وقمن بإدارة العديد من الأراضي والبساتين والنخيل ،فعلي سبيل المثال كانت راهبات دير السيدة العذراء بأسيوط لابد فعن خراجا عن الأراضي التابعة لإدارة ديرهم ،والتي شملت طاحونة للغلال وعدة أفران ومعصرة للزيت الحار[٣٩] ،علي الرغم من اتساع غناهم ومدى تمتعهن بالحرية الدينية والاقتصادية ،وذلك نظرا إلي إسقاط الجزية عن النساء و الراهبات وكبار السن ومن لم يبلغ الحلم.

أما الدير الأبيض بأخميم[٤٠] في غرب النيل تعمل الراهبات فيه علي زراعته النخيل وصنع سروج المواشي[٤١].

وفي مدينة قنا ،كان هناك دير ميخائيل ،اشتغل رهبانه وراهباته بالزراعة وغرس الأشجار ،وله أرض موقوفة عليه ،وعليها سواقي لزراعته خاصة زراعة الخضر والكتان والقمح.

وقد سمح للراهبات بالاحتفال بالأعياد المسيحية والمناسبات الخاصة بحريه تامة وممارسة الطقوس الدينية في سهوله ويسر ،وخير دليل علي ذلك دير الطير بالجبل في مدينة أخميم ،حيث يقام عيد خاص يعرف بعيد الطير[٤٣].

وبالتالي سمح للأقباط عامه والنساء منهم خاصة بحرية التعامل والبيع والشراء فيما بينهم أو فيما بينهم وبين المسلمين ،فهناك وثيقة من أوراق البردي ،ترجع إلي تاريخ ٣٢٠هـ/٩٣٢م ،عبارة عن عقد بيع نصف منزل ،كشفت بالفيوم بين ورثه يحنس بن بلتوس وهم اصطفن وسمويل ومتوس ومرهام النصارى وبين فرقليه أبنت قفرى ووالدها قفرى بن سسنه النصراني أيضا[٤٤].وهذا يدلل علي مدى تمتع السيدات القبطيات بممارسة حياتهم العادية ،والتمتع بحقوقهم المدنية والشخصية.

وللحقيقة التاريخية لابد أن نشير إلى أن الأقباط رجالا ونساءً قد تعرضوا للاضطهاد الديني في بعض فترات التاريخ الإسلامي ،ففي عهد الخليفة المتوكل علي الله العباسي[٤٥] في سنه ٢٣٥هـ/٨٣٩ م أمر أن يغير النصارى وجميع أهل الذمة لباسهم ،فلبسوا الطياله العسليه[٤٦]، وغيرها من الشروط التي كتبت إلي عمال الأقاليم ،ومنها مصر يأمرهم فيها بتنفيذ تلك الأوامر علي أهل الذمة في بلادهم ، كما حدث في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تشدد مع النصارى، وألزمهم بلبس الغيار والطيالس العسليه ،وقبض علي جميع ما هو محبس علي كنائسهم وأديرتهم من أموال وأوقاف ،وأدخلها في الديوان ،لك علي عكس ما كان سائدا طوال أيام العصر الفاطمي من تسامح ديني وتقلد أرقى المناصب وأعلاها، وما أتيح لهم من حرية امتلاك العقارات والأراضي الزراعة ،وخاصة للأديرة ،فهناك العديد من الأوقاف والأراضي والبساتين الموقوفة علي الأديرة ليصرف منها الرهبان والراهبات علي متطلباتهم اليومية[٤٧] ، وقد أصدر العديد من الخلفاء الفاطميين السجلات للمحافظة علي هذه الأراضي وإبقائها في أيدي رهبانها ،وتمكينهم من استغلالها ،كالسجل الذي أصدر في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ،والذي سمح للرهبان اليعاقبة بالمحافظة علي الأديرة ،وهذا يؤكد سياسة التسامح الديني التي نعمت بها الراهبات في العصر الفاطمي[٤٨].

ثالثا : طبقه الجواري :

هذه الطبقة ظهرت في المجتمع المصري ،وركزت عليها وثائق البردي العربية، وهي تمثل أقل طبقات المجتمع من النساء ،عملن في شئون الخدمة في

القصور ومنازل الأغنياء[٤٩]، وكانت الصبغة الدائمة لهؤلاء الجواري أن يأمر ذوى النفوذ والسلطان شرائهن من أسواق النخاسة أو استلامهن كجزية من بلاد النوبة خاصة الرقيق الأسود ، وذلك وفقا لاتفاقية الصلح التي أبرمت بين ملك النوبة "فليدوروث" في سنة ٣١هـ/٦٣٣م ،والتي بمقتضاها تقدم بلاد النوبة جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستين من الرقيق من أوسط نسائهم ورجالهم إلى حاكم أسوان، الذي يقوم بدوره بإرسالهم إلي عاصمة مصر[٥٠].

وقد درج علي اتخاذ هذه الجواري كسراري يتسرى بها أسيادهن أو خادمات لسيدات المنزل ، وقد أشارت نصوص البردي إلي امتلاك بعض النساء من علية القوم للجاريات ،وحقهن في عتق جواريهن ،فتذكر برديه قولها : "ان اسطوه هيوه ابنت سرجة بن ابليده...اعتقت صفراه بالعربية، واسمها بالقبطية وحاشه جارية عتاقة العبيد من مواليهم[٥١]. مما يدلل علي مدي رأفة المرأة بجواريها ، ومعاملتها لهن معامله حسنه ،عملا بروح الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلي أن هذا العتق يقوم علي عده شروط من أهمها، كما ورد في وثائق البردي إقرار بصحة السيدة وسلامة قواها العقلية ، وأنها غير مجبرة ، وينص علي ذلك في عقد العتق فهي" في صحة عقلها وبدنها وجواز أمرها غير مكره ولا مجبر ،طيبة بذلك نفسها ،صحيحة البدن كاملة العقل[٥٢]".

ولتأكيد العتق فإنه يضاف إلي العقد صراحة ما يشير إلي ذلك في قوله : "اعتقت هذه الصبية عتاقة العبيد من مواليهم.... وأنها ملكت نفسها ، فمتا أدعا ولد لأسطور هيوه أو أحد من تركتها علي هذه الصبيه وحاشه بشئ بعد هذا الكتاب بشئ من الخدمة أو شئ من المملكة قد عواه باطل وزور وإفك وعدوان[٥٣]. وزيادة في التأكيد علي حق الجواري في العتق وحق سيداتهن في تحريرهن، فإن هذا العقد يشهد علية شاهدين ،يقومان بالتوقيع عليه بخط أيدهم[٥٤]، وتسلم الوثيقة للجارية المعتقة .

لقد أرتفع شأن بعض الجاريات وصرن من حرائر النساء ،ووصلن إلي مكانة مرموقة لدى أسيادهن ، خاصة بعد إنجاب ولدا ، وخير دليل علي ذلك السيدة أم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ،السودانية الأصل ،التي كانت جارية لتاجر يهودي يقال له أبو سعد سهل بن هارون التسترى ، اشتراها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ، واستولدها ابنه المستنصر[٥٥].

ومن الجواري من عمل بالغناء والطرب ، لما تمتعن به من حسن الصوت وجماله ، فقمن بإقامة الحفلات والغناء والطرب ، مثل عريب المغنية التي تشير ابن الأثير إلي أنها مولودة في سنة ٢٢٤هـ/٧٩٧م .

كذلك أرتفع شأن الجواري لدي أسيادهن ، فشيدوا لهن شواهد قبور ، تشير إلي المكانة الرفيعة التي وصلت إليها صاحبات هذه الشواهد في قلوب أسيادهن ، وهي شواهد كشفت في جبانة أسوان ، منها شاهد مؤرخ ٢٠ ربيع الأخر سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م باسم :"سيده جارية عثمن بن سعيد "، وشاهد آخر بتاريخ ٢شوال سنة ٢٤٣هـ /٢٣يناير ٨٥٨م ، باسم:" ماري جارية اسحق بن كثير بن بدر" ، وشاهد ثالث مؤرخ بتاريخ ١٨ذي القعدة سنة ٢٠٥هـ / ٢٥ابريل سنة ٨٢١م باسم :"طائفية جارية أمية بن ميمون"(٥٧).

وتظهر لنا بعض وثائق البردي ارتفاع شأن الجواري لدي أسيادهن ، ووصولهن إلي مكانة كبيرة لديهم ، حتى يأتمنهن علي أموالهم ، فيرسل إحداهن بالأموال لتسديد دين عليه ، ففي وثيقة ترجع إلي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، كشفت في الأشمونين ، عبارة عن حساب أموال مدفوعة وباقية إلي ذلك بقولها : "الذي صار إلي أبي سعيد من الدراهم في منزله ٢/٣ ٢٢ ...... ومع غلامتي سارة ٢٠دنير "(٥٨) .

ولابد أن نشير هنا إلي أن غالبية الجواري كانت تباع في سوق النخاسة ، وذلك إذا استغنت عنها سيدتها لأي سبب كان ، ربما لكبر السن أو لغيرتها من هذه الجارية ، أو لرغبتها بالمال الذي سيأتي من بيعها أو استبدالها بجارية أخري أو عبد صغير السن ، وهناك وثيقة من أوراق البردي ترجع إلي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، كشفت في مدينة أدفو بصعيد مصر ، عبارة عن خطاب خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق وشراء عبداً صغيراً بدلاً منها ، جاء فيها :"......فقد أخذت لك تبرس -عبد - صغير بدينار ، وما أعطايته صاحبة حتى أخذت بيعة ترس كبير"(٥٩) .

لقد كان حق شراء الجواري للسيدات يعادل حقها في البيع ، فكثيراً ما أرسلت نساء الحكام بمن يشتري لها الجواري عن طريق وكيل لها ، أو عن طريقها شخصياً ، كما حدث مع ابنة محمد بن طغج الإخشيدي ، التي نزلت

السوق النخاسة واشترت جارية صبية كانت ربتها أم الأمراء في المغرب لبيعها في مصر وذلك في مقابل مبلغ ستمائة دينار ، وذلك بسبب شغفها بحبها ورغبتها في الاستمتاع بها بعد مشاهدتها في ساحة السوق ، لذا عند عودة وكيل أم الأمراء إلى المغرب ، أذاعت هذه القصة ، فأصبح أمر المسير إلى فتح مصر أمراً حتمياً نظراً لوصول الأخبار بمدى الترف الذي صار عليه نساء مصر من بنات الملوك والحكام ، لدرجة خروجهن لشراء الجواري بأنفسهن ، ورغبتهن في الاستمتاع بهن ، مما يدل على ضعف نفوس الرجال وذهاب الغيرة منهم(٦٠) .

ومن الشروط المنصوص عليها في بيع وشراء الجواري أن يكون هناك منادي في السوق لهذا الغرض مهمته عرض مزايا السلعة المعروضة من الجواري ، وفي مقابل ذلك له مبلغ معين من المال يحدد حسب سعر الجارية ، ففي وثيقة من أوراق البردي ترجع إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، كشفت في مدينة أدفو عبارة عن خطاب خارجي خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق تشير إلى تحديد مبلغ معلوم يعطى للمنادي بقولها : "..وذكرت جعل المنادي ، وقد كان شرطه نصف دينار فلم أعطيه إلا ثلث دينار ..."(٦١) وهذا يدل على أن أتعاب المنادي في عملية بيع الجارية ليس محدداً في كل مرة ، وإنما يمكن الفصال فيه وزيادته أو نقصانه وهو الغالب في معظم الأحيان ، حسب حالة الجارية ومقدار ثمنها .

وكثيراً ما حظيت الجاريات بمكانة عالية في قلوب أسيادهن ، وقام هؤلاء السادة بابتياع سلع وبضائع معينة خصيصاً لهؤلاء الجواري سواء كانت هذه البضائع غالية الثمن أو رخيصة ، فهناك وثيقة من البردي العربي محفوظة في متحف اللوفر بباريس ، كشفت بالفيوم ، عبارة عن خطاب من سيد يسمى أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم إلي سيد آخر يسمي أبو علي حسان بن عبد السلام يطلب منه فيه شراء أربعة قلل خاصة للجارية ، "واشترى لي أربعة قلال صغار للجارية تستقي بها الماء ، فاني أحتاج إليهم ..."(٦٢) .

كذلك أصبح من المألوف أن يوصي السيد لجاريته ببعض ماله ، ويعمل لها بذلك وصية ، إن دلت علي شئ فإنما تدل علي مدى حب هذا السيد لهذه

الجارية وإخلاصها له ، فتشير وثيقة من البردي بتاريخ سنة ٣٤٨هـ /٩٦٠م ، عبارة عن وصيه من يحنس بن شنوده لجاريته بثلث ثروته ، جاء فيها : " شهد الشهود المسمون في آخر هذا الكتاب علي إقرار يحنس بن شنوده من سكان ططون من كوره الفيوم ، أقر عندهم وأشهدهم علي نفسه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائع غير مكره ولا مجبر ولا مضطهد انه صدق على سميه دركه الصبية التي رباها ثلث ما تملكه يمينه من دينار أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو عرضه أو شئ مما يسوى درهم ..."(٦٣) .

كذلك كان الأسياد يدفعون لجواريهم أموالاً لكي ينفقوا علي أنفسهن ، أن كن غير قريبات منهن ، فهناك وثيقة من البردي ، كشفت بالأشمونين ، عبارة عن خطاب مرسل من سيد إلي وكيله يأمره فيه بأن يدفع للجارية درهمين وثلث درهم ، لصرفها في شراء بعض حوائجها (٦٤) .

وهناك إشارات عن مشاركة بعض الجواري في التآمر والتورط على قتل ذوي النفوذ في الدولة ، ففي سنة ٢٨٨هـ /٩٠٠م قتل الأمير "خمارويه بن أحمد بن طولون " ذبحه بعض خدمه على فراشه ، وكان سبب هذا أن جواري داره قد اتخذن كل واحدة منهن زوجاً من خدمه وعبيده ، فلما علم خمارويه بذلك أمر بإحضار عدة جواري لتقريرهن ، فخشي الخدم والجواري من ذلك ، فقرروا قتله، فذبحوه ليلاً وهربوا(٦٥) .

ومما يشير إليه المؤرخ البلوي(٦٦) أن بعض الجواري كن عرضه للقتل بسبب أو لآخر ، فيشير إلي أن أحمد بن طولون اكتشف قتل جارية ، لم يوضح نسبها إلى سيدها ، ولم يذكر سبب القتل ، بل أشار إلي أن حمال أعطى ديناراً لحملها إلي مكان معين ، يدفنها فيه ، وقد اكتشف الأمير هذا الأمر ، فقبض على الحمال ، وعرف منه القتلة وأمر بضرب أعناقهم ، وأمر بضرب الحمال مائة سوط .

وصفوة القول أن المرأة المصرية ثلاث طبقات في المجتمع المصري في العصر الإسلامي ، ظهرت بصورة واضحة في العصر الفاطمي ، سواء نساء القصر أو المرأة العامية من المسلمات والقبطيات أم طبقة الجواري ، التي عددتها البرديات وتحدثت عنها بشئ من التفصيل .

ثانياً: نظم الزواج ورسومه في ضوء أوراق البردي :

للمرأة المصرية رسوم خاصة بالزواج ، حيث تأثرت بالشريعة الإسلامية ، وبالعادات والتقاليد السائدة في المجتمع الشرقي ، لذا سوف نحاول -قدر المستطاع - استنباط هذه النظم والرسوم التي جرت عليها عادة الزواج عند المرأة المصرية ، فمن أولى هذه النظم والعادات أن يتقدم الرجل لخطبة المرأة عن طريق أهلها ، مع حمل الهدايا والطرف كلاً حسب مقدرته المالية ، ومستواه المعيشي .

ومن البديهي أنه يقوم الرجل بإعداد وتجهيز بيت الزوجية ، لكي يقيم الأفراح والليالي الملاح ، لكي يصحب عروسه إلي بيتها الجديد ، ولدينا وثيقتان من أوراق البردي ، تشيران إلي حساب نفقات مختلفة خاصة بحوائج العروس واحتياجاتها قبل الزفاف ، أو ما يمكن أن تصحبه من أشياء ضرورية إلي بيت الزوجية ، إحدى هذه الوثائق يرجع إلي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، تحمل رقم ١٠١٤ محفوظة في المكتبة الوطنية بفينا بالنمسا من مجموعة "الارشيدوق رايز" ، وهي عبارة عن حوائج العروس ، جاء فيها :"عود نصف قيراط ..ماء ورد قيراطين ..أفواه حاره قيراط ..ضروب قيراط ..حناء قيراط.. شمع قيراطين.. قيراط وهو فلفل ودار صيني حوائج قيراط زعفران.. ربع قيراط ، ونعل سندي بزمام تنيس بربع دينار"(٦٧).

هذه الوثيقة تدل دلالة واضحة على أن العروس تحمل معها كمية من حوائجها ومتطلباتها الخاصة والشخصية إلي بيت الزوجية ، خاصة ما يشمل أنواع العطور والعود والحناء والشمع بالإضافة إلي حذاء له مواصفات معينة ، وغيرها من الاحتياجات الضرورية لحياتها الجديدة .

أما عن الوثيقة الثانية وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٨٧ ، وهي لحوائج عروس أخرى ، جاء فيها :" ..قارورة ماء ورد جيد حوري ..زوج طومار قرطاس جيد دقيق.. بدرهم ونصف مدى ، زيت الماء المعدني بدرهمين.. فلفل بدرهم ..نصف مثقال كافور"(٦٨).

ولو قارنا بين الوثيقتين لوجدنا أن حوائج العروس تختلف في محتوياتها بين واحدة وأخري ، وذلك حسب مستواها الاجتماعي والمعيشي ، فهم يتفقون في العطور وماء الورد والحناء ، ولكن باقي المتطلبات يختلفون فيها .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلي مرحلة عقد الزواج ، وهي المرحلة الثانية التي تأتي بعد الخطبة ، وهذا العقد لا يتم إلا بالإيجاب والقبول ، وله شروط معينه لانعقاده(٦٩). وقد أمدتنا معظم وثائق الزواج بأوراق البردي العربية بأن العقد يبدأ غالباً بمقدمة يطلق عليها أسم خطبة النكاح ، وهي تشكل جزءاً من مراسيم الزواج ، حيث يقرؤها من يتولى العقد ، وهي تشمل عادة علي الحمد والتشهيد وبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالزواج ، وكذا علي بعض الألقاب الفخرية الخاصة بأصحاب العقد(٧٠) - إن وجد - ، فقد أتفق علي أن الزواج يعقد بلفظ النكاح وبلفظ الزواج(٧١).

ومن الملاحظ أن خطبة النكاح تختلف عادة في الطول والقصر على حسب مكانة صاحب العقد إذ كانت تطال لذوي الثراء والغنى ، وتقصر لمن دونهم بحسب حالته(٧٢) . ومما بين أيدينا من الوثائق البردية العربية الخاصة بعقود الزواج ، يمكن أن نستخلص أن هذه الوثائق تختلف معظمها في افتتاحية العقد ، فلم تشر إحداهم من قريب أو بعيد إلي خطبة النكاح، وربما يرجع ذلك إلي انتماء كل هؤلاء الأزواج إلي الطبقة العامية من الرعية وليس فيهم أحد من طبقة الحكام ، إذ نجد أن خطبة النكاح تطور في عقد زواج "أنوك " ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، المؤرخ في سنة ٧٣٢هـ /١٣٣٢م حيث تحظى بثمانية وستين سطراً ، وتصل في عقد زواج" السعيد بركة خان" ابن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، المؤرخ في سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٥م إلي واحد وأربعين سطراً ، في الوقت الذي تقتصر فيه على ستة وعشرين سطراً في عقد زواج الأمير"عز الدين أفرون" ، المؤرخ في سنة ٧٤٢هـ /١٣٤١م ، وعلي ثلاثة وعشرين سطراً في عقد زواج القاضي"بدر الدين" ، المؤرخة في سنة ٧٥٣هـ /١٣٥٢م ، وعلى ثلاثة عشر سطراً في عقد زواج "علم الدين سراج" ، المؤرخ في سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ، وعلى أربعة أسطر فقط فى عقد زواج الفقيه نجم الدين أسحق ، المؤرخ فى ٦٧٧هـ / ١٢٧٧م(٧٣) ولا عجب فى هذا فإن كل هذه الوثائق السابقة التي ذكرت خطبة النكاح فى عقدها تنتمى إلى العصر المملوكى ليس هذا فحسب ، بل وأن هذه الزيجات لأفراد الأسرة المملوكية الحاكمة والطبقة العليا من المثقفين والمتعلمين ، وبالمقارنة بينها وبين ما تحت أيدينا من عقود الزواج فى العصور

السابقة للعصر المملوكي نلاحظ أن كل الوثائق لأفراد الطبقة العامة ، ويغلب على أكثرها أن تبدأ بالحديث عن الصداقة ، محددة أسم الزوج والزوجة فعلى سبيل المثال الوثيقة المؤرخة بسنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م تبدأ بالبسملة وجاء فيها : "هذا ما أصدق إسماعيل مولى أحمد بن مروان القرشي بمدينة أشمون عايشة"(٧٥) كذلك وثيقة أخرى مؤرخه بسنة ٢٧١هـ / ٨٤٨م ، كشفت فى مدينة الأشمونين تبدأ أيضاً بالبسملة ثم قولها " .. هذا ما أصدق يحنس بن شنودة ...... دروا ابنت شنودة ......"(٧٦)

ومن الطبيعي أن نشير فى أثناء حديثنا عن نظم الزواج للمرأة المصرية فى ضوء أوراق البردي إلى مقدار الصداق والمهور(٧٧) المقدمة فى تلك الآونة لنساء الطبقة العامية(٧٨) فى محاولة مقارنتها بزيجات ومهور من الطبقة الحاكمة فى مصر والعالم الإسلامي ، حيث أختلف المهر فى كثير من الأحياء من زيجة إلى أخرى ، فنرى فى وثيقة من أوراق البردي العربية ترجع إلى جمادى الأول سنة ٤١٩هـ / سنة ١٠٢٨م ، وجاء فيها" ...... هذا ما أصدق صلح ابن موسى الشعيري كريمة ابنة على بن رحا الطحان عندما خطبها إلى نفسها... دينارين وازنين جيدين .."(٧٩) . بينما تشير وثيقة ثانية ترجع إلى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م إلى أن الصداق أكثر من هذه القيمة فتقول : "وأصدقها اسمعيل مولى أحمد بن مروان القرشي أربعة مثاقيل طر اجياد وازنه.."(٨٠) ، بينما تشير وثيقة أخرى ترجع إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي إلى أن صداق أكثر بكثير من ذلك فتقول :"هذا ما أصدق حميد بن شهران من العين الجيد المصري عشرين ديناراً تاماً"(٨١) هذا يوضح مدي اختلاف قيمة الصداق بين الزيجات بعضها وبعض فى طبقة واحدة من طبقات المجتمع المصري ، كذلك اختلافه من فترة تاريخية إلى أخري ، فإذا نظرنا إلى العصر المملوكي فهناك وثيقة من أوراق البردي ترجع إلى سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م تشير إلى ارتفاع قيمة الصداق بشكل ملحوظ فى الطبقة العامية إلى أكثر بكثير ، فقد جاء فى الوثيقة أن "جملة الصداق ثمانون ديناراً"(٨٢) ، وفى نفس الفترة الزمنية عقد آخر يشير إلى أن " الصداق قيمته عشرون ديناراً من العين الذهب المغري"(٨٣).

وإذا قارنا بين هذا الصداق والمهور السابقة فى الطبقة العامية وبين المهور والصداق فى نفس الحقبة التاريخية ، كان الصداق فيها يقدر بالآلاف الدراهم والدنانير ، فى الطبقات الحاكمة ، فإننا نري أن صداق أبنه ناصر الدولة الحمداني للأمير أبي منصور بن المتقي لله العباسي فى سنة ٣٣١هـ / سنة ٩٤٢م ، كان يقدر بألف ألف درهم ، والحمل من الهدايا والتحف والطرف يقدر بمائة ألف دينار(٨٤) . وكان صداق الخليفة الطائع بالله العباسي بابنة شاه زمان على صداق مائة ألف دينار(٨٥) . بينما كان صداق جبارة بنت قراوشي بن المقلد على سلطان الدولة البويهي في سنة ٤٠٨هـ /سنة ١٠١٧م خمسون ألف دينار أيضاً(٨٧).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنه فى سنة ٢٨٢هـ /سنة ٨٩٠م قدم الخليفة المعتضد العباسي ألف ألف درهم قيمة صداق السيدة "قطر الندي" أبنه خمارويه بن أحمد بن طولون(٨٩) ، وقد جهزها والدها بأضعاف مضاعفة ، وبما لا يسمح بمثله، ومن جملته دكه أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر، لا يعرف لها قيمة ، ومائة هاون من الذهب الخالص وغيرها ، وقد صحبها عمها المسمي "خزرج بن أحمد بن طولون" ، وأحد رجالات الدولة الطولونية وهو ابن الجصاص ، وكان يسيرا بها سير الطفل في المهد ، وكأنها في قصر أبيها ، حيث بني لها علي رأس كل منزله تنزل بها قصراً فيما بين مصر وبغداد(٩٠) .

وهناك بعض الإشارات التي تفيد أن المرأة المصرية من حقها قبض صداقها بنفسها ممن يرغب الزواج بها(٩١) . كذلك من حقها أن تأخذ صداقها عيناً ، تستفيد به في مقابل عدم مطالبتها لزوجها بالصداق نقداً، فهناك وثيقة من البردي ترجع إلي سنة ٢٣٩هـ/سنة ٨٥٣م ، كشفت في مدينة أدفو ،جاء فيها : "هذا ما اشترت يونه ابنت حليصا اشترت من زوجها يزيد الجرار منزل له في علا مدينة أدفو ....وابرته من الديز وقبضت يونه المنزل وصار مال من مالها(٩٢) ، وعلي ذلك اعترفت يونه ببراءة ذمه زوجها من الدينار الذي هو باقي صداقها.

ومن الملاحظ أنه في بعض عقود الزواج بوثائق البردي العربية أن يقدم المهر علي أجزاء مقدم أو ما يطلق عليه كلمة معجل ومؤجل ، ويكتب ذلك في عقد الزواج ففي وثيقة من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي جاء فيها : "......

وابراته من ذلك براءة قص واستبقي ويبقي لها كذا دينار مؤخر لها عليه أن انقضي ثمانية حجج متواليات"(٩٣) ، وفي وثيقة أخري ترجع إلي سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م، كشفت بالأشمونين كتب عليها : "عجل لها من ذلك قبل اصابته بها ودخوله عليها ديزين نقداً حالاً معجلاً ...... بعد أن خلين خمسة سنين متواليات"(٩٤) . وكثيراً ما كان يحدد في عقد الزواج كيفية تسديد هذا الصداق المؤجل ، وتاريخ سدادة فتشير وثيقة من البردي من سنة ٢٧١هـ / ٨٨٦م من الأشمونين ، بقولها : "فأصدقها أربعة دنانير عيناً ذهباً...... ديزين نقداً جياد معجلاً وآخرت...... صداقها علي زوجها يحنس بن شنودة خمسة سنين متواليات أولهن شعبان سنة ٢٧١"(٩٥) .

وفي الحالات الخاصة التي يطلق فيها الزوج زوجته ثم يعيدها إلي عصمته مرة أخري فعليه أن يدفع لها صداقاً جديداً ، فتشير وثيقة من البردي ترجع إلي سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م، جاء فيها : تزويجها تزويجاً مستأنفاً إذا كانت زوجته ...... ودخل بها وأصابها وطلقها طلقة واحدة واسترجعها بهذا الصداق ... أصدقها أربعة دنانير مستنصرية جياد العيون نقدها في يدها تاماً وافياً ، وابرأته منه ومن اليمين عليه براءة قبض واستيفي ، وأخرت الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه إلي انقضي خمسة ليالي متواليات أولهن تاريخ هذا الكتاب(٩٦) .

ومن هنا نستخلص أن نظام الصداق والمهر واجب علي سواء كانت العروس بكراً أم مطلقة ، هذا بالإضافة إلي قبول المرأة صداقها دفعة واحدة أو تقسيطاً ، ولكن الشيء الشاذ في هذه الوثيقة هي ما ذكر بأن باقي الصداق وقدره ثلاثة دنانير يدفع في خمس ليالي متواليات بداية من تاريخ تحرير عقد الزواج ، مع إعطاء إيصال عند سداد هذا المؤخر من الصداق ، كما يعطي سند للزوجة بما تأخر لها من مهر ، ومن الطبيعي أن يتعهد الزوج بنفسه بسداد هذا المهر وباقي المستحق لزوجته ، ولكن المفروض أن يحدد مدة أطول من هذه المدة التي قدرت بخمسة ليالي متواليات .

ومن النظم المتبعة في عقود الزواج أن يكون للزوجة كفيل أو ولي عنها في حضور عقد القران ، علي أن يكون من العصب كالأب أو الأخ الشقيق أو العم ، وقد وردت هذه الولاية في العديد من وثائق البردي العربية ، في بردية بتاريخ

٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، جاء ما نصه:"أن أخاها شقيقها سعيد بن يوسف بن عبد الحميد مستحق ولاية تزويجها ......"(٩٧) .

وفي وثيقة أخري من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كان الأب هو وكيل العروس في عقدها ، وتولي تزويجها وبأمرها ورضائها وتوكيلها إياها ،و إشهادها لها وعليها......(٩٨) ، وفي بعض الأحيان يفوض الجد في عملية الولاية والتوكيل في الزواج، ويبدأ من إقرار بقبول التوكيل ، كما ذكر في وثيقة من القرن الثالث الهجري سنة٢٥٩ هـ / ٨٧٢م ، جاء فيها :".... بعد أن فوضت أمرها إلي جدها يعقوب بن اسحق ... و أشهدت له شهود بتوكيلها إياه فقبل وكالتها ...... "(٩٩) .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلي أنه عندما لا يكون للعروس ولياً من عصبها، وليس لها وصي عليها قيم بأمرها فإن قاضي البلدة التي تقيم بها يفوض أحد الشيوخ الصالحين للقيام بهذه الولاية ، ففي وثيقة ترجع إلي سنة ٤٦١هـ / سنة١٠٦٨ م كشفت بالأشمونين جاء فيها :"...... وولي تزويجها إياه بذلك الشيخ أبو الفضل العباسي بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله علي الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم بمدينة الأشمونين وأعمالها إليه بكشف حالها وتزويجها وكيل المتولي ذلك ، وكشف عن حالها فوجبها مستحقة النكاح ، فزوجها من الزوج..."(١٠٠).

ومن الرسوم المتبعة في عقود الزواج أن تحدد حال المرأة ومدى سلامتها وبلوغها وخلوها من العيوب الجسدية ، كما يستشف من العقود التي تحت أيدينا والتي وردت فيها جملة "أنها يومئذٍ بالغ حره مسلمة صحيحة العقل والبدن خالية من موانع النكاح(١٠١)" . كذلك جرت العادة في بعض عقود الزواج أن يشهد الشهود على سلامة و صحة الزوجة ، ذاكرين قولهم: "شهد من أثبت شهادته آخره أنهم يعرفون حجة ابنت يوسف بن عبد الحميد معرفة صحيحة تامة نفسها وباسمها ونسبها ويعلمون ويشهدون أنها يومئذٍ بنت بكر بالغ حرة مسلمة صحيحة العقل ...(١٠٢)" ، والمرجح أن البدء باسم الزوجة ومعرفة مدى صحة نسبها وصحتها الجسدية وبدنها وعقلها لم يأت من باب الصدفة ، ولكنه من باب الحيطة والحذر عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" ، لذا

وجب التنبيه والتأكد من صحة الزوجة التي ستحمل فيما بعد الذرية ، والتي ستقوم بتربية ورعاية الأطفال ، ومن ثم فإن شهود العقد يعرفون هذه الزوجة ويطمئنون عليها ، وعلى نسبها لتحري الدقة في الأنساب ، وقولهم يشهدون أنها يومئذٍ أي يوم تحرير عقد الزواج بأنها بنت بكر بالغ ، أي أنها فتاة لم يسبق لها الزواج من قبل وبأنها قد بلغت سن الزواج الذي يرجى منه بعد ذلك الإنجاب ، وتشير عبارة أنها صحيحة العقل والبدن خالية من موانع النكاح إلى الدعوات والنداءات التي ينادي بها الأطباء في مجال علم الوراثة والصحة النفسية بضرورة فحص الأزواج مسبقاً قبل إتمام الزواج، منعاً لظهور عيوب تمنع في المستقبل الإنجاب أو تأتي بذرية ضعيفة بها خلل وعيوب وتشوهات وراثية .

ولم تكن هذه الوثيقة السابقة هي الوحيدة التي تؤكد على صحة العقل والبدن في عقود الزواج ، فإننا نرى في عدد لا بأس به من وثائق البردى المخصصة لعقود النكاح،التأكيد على ذلك(١٠٣).

ومن الملفت للنظر في النظم المتبعة لعقود الزواج في مصر أن يوضع في عقد الزواج عدة شروط يقبلها الزوج ويقربها ويشهد عليه الشهود، لتصبح لازمة عليه، فهناك عدة وثائق من أوراق البردي العربية تشير إلى ذلك تقول إحداها وهي بتاريخ ٢٥٩هـ / ٨٧٢ م ، "وشرط اسماعيل مولى أحمد بن مروان لامرأته عائشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة كما أمر الله عز وجل وسنة محمد ﷺ على الإمساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان(١٠٤) ، و تضيف وثيقة أخرى مؤرخة بتاريخ ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م قولها: "ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها ، وعليه أن يتقي الله فيها و يحسن صحبتها بالمعروف كما أمر الله تعالى ، الذي لزم ذكره وصل ثناؤه ، وسنة نبينا محمد رسول الله ﷺ(١٠٥).

ومما يجب الإشارة إليه أن بعض النساء كن يضعن شروط خاصة في عقود زواجهن كي تلزم الزوج بعدم الزواج عليها ، وإحضار ضرة لها ، وبعضهن غالت في ذلك بوضع شرط ألا يتسرى بجارية وأن تكون هي المرأة الوحيدة في حياته ، وإذا حدث و اتخذ زوجة غيرها أو جارية فيكون أمرها مرضو اليها ، تفعل ما تشاء من تطليق أو إبقاءها على ذمة زوجها ، فهناك وثيقتان من أوراق البردي أحدهما ترجع إلي ٢٥٩هـ/٨٧٢م تشير إلي ذلك: "٠٠ وشرط اسماعيل مولى

أحمد أن كل امرأة يتزوجها على امرأته عائشة بنت يوسف تلك المرأة بيد عائشة تطلق كيف شاءت من الطلاق"(١٠٦). وأما الوثيقة الثانية فترجع إلي تاريخ ٢٧٩هـ/٨٩٢م كشفت بالأشمونين أيضا ، تشير إلى أن الزوج قبل هذه الشروط و أقر بها في العقد على نفسه: "وشرط اسحق بن سرى شروطا أوجبها على نفسه بعد أن عقد نكاحها.. أو ذمية فأمرها بين امرأته هندية بنت اسحاق تطلقها عليه ما تشاء من الطلاق جايز عليها ولازم له ، وكل جارية يتخذها عليها .. يكون بيعها بيد امرأته هندية ان شاءت عتقت وان شاءت بيعت ، فعتقها و بيعها جايز عليه ولازم له(١٠٧).

ومن أهم النظم المتبعة في الزواج في مصر أن يكون هناك شهود على عقد الزواج يوقعون بخطهم في نهاية العقد ، كما أقرت بذلك الشريعة الإسلامية ، فمن البديهي أن يشترط الفقهاء لصحة العقد شرط حضور الشهود لأن الغاية من الزواج إشهاره وإعلانه بين الناس ، فان الفرق ما بين الحلال و الحرام الإعلان ، كما تعارف الناس من وقت أن عرفوا شريعة الزواج ، ويقول الرسول ﷺ : "أعلنوا النكاح ولو بالدف" ، ويقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه "لا يجوز نكاح السر ، حتى يعلن و يشهد عليه"(١٠٨).

ومن هذا فان عقود الزواج في مصر الإسلامية حرص أصحابها على حضور الشهود وتوقيعهم بخطوطهم في نهاية العقد ، ففي وثيقة تاريخية بتاريخ ٢٦٤هـ/٨٧٧م شهد شاهدان في نهاية العقد و كتبا شهادتهما بخط أيديهم .

وعلى الرغم من شدة حرص الأهالي على إعلان الزواج وإشهاره فإننا نجد وثيقة من البردي العربي ترجع الى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ليس بها توقيع شهود على عقد النكاح ، فالعقد لا يتعدى الست سطور عبارة عن إقرار بشهادة العقد ومعرفتهم بالزوجة سواء بشخصها أو بنسبها ، وأنها قبضت صداقها فقط ، دون أي إشارة إلى من كان ولي العقد أو من شهد إعلان الزواج ، وقد جاء في هذه البردية ما يأتي: "بسم الله الرحمن الرحيم شهد الشهود المسلمون في هذا الكتاب شهدوا جميعا على اقرار قطامة بنت نصر الفران الساكنة مدينة أشمون ، وقد أثبتوها وعرفوها معرفة صحيحة باسمها ونسبها ،

أنها قبضت من زوجها موسى بن منصور إلى.. عن معجل صداقها الذي عقده إليها(١١٠)، وتنتهي الوثيقة عند هذا الحد ، ولو نظرنا إلى السطر الأول في هذه الوثيقة فانه يؤكد على وجود شهود في عبارة شهد الشهود المسلمون ، ولو أمعنا النظر أكثر لوجدنا عبارة شهدوا جميعا على إقرار قطامة ، ومن هنا يتضح أن البردية ناقصة أو يحتمل أن يكون قد أخذ أسماء الشهود و توقيعاتهم في صك منفصل عن هذه الوثيقة ، فتوقيع الشاهدان ظاهرة مألوفة تميز جميع عقود الزواج ، وذلك لعناية الناس به لخطر الزواج وعظم شأن ما يترتب عليه من مصالح دينية ودنيوية وميراث ونسب وغيرها ، فهو وان كان كغيره من العقود أركانه الإيجاب والقبول ، إلا أنه خصه من بينها باشتراط حضور شاهدي عدل لصحته ، وذلك لقول رسول الله ﷺ "لا نكاح إلا بولي و شاهدي عدل"(١١١) .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنه يترتب بمقتضى عقد الزواج حقوقا للزوجين مشتركة، وحقوقا للزوج على زوجته، وحقوقا للزوجة على زوجها، فأما الحقوق المشتركة بينهما، فهي العشرة الزوجية بينهما، وحل ما يقتضيه الطبع الإنساني فيما هو محرم إلا بالزواج ، كقول الله تعالى: "والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم" ، أما عن حقوق الزوج على زوجته هو حق الطاعة في كل ما هو من أثار الزواج ، وما يكون حكما من أحكامه، ومن أهم حقوق الزوجة على زوجها العدل فهو المسئول الأول عن إقامة العدل والمساواة في النفقة بشعبها الثلاث وهي الطعام والسكن والكسوة ، وذلك ان كان في ذمته أكثر من زوجة(١١٢) .

وفي نهاية كلامي عن نظم ورسوم الزواج المتبعة في مصر في العصر الإسلامي في ضوء أوراق البردي لابد أن أشير إلى أن شروط الزواج السابق طبقت بشيء من التحفظ على النساء القبطيات خاصة الصداق وافتتاحية كتاب العقد بالبسملة وحضور الشهود ، وخير دليل على ذلك وثيقة الزواج المؤرخة من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، والتي كشفت بالأشمونين بين يحنس بن شنودة ودروا بنت شنودة(١١٣) ، وهي تؤكد أن كاتب العقد سار على نفس نمط عقود الزواج ، فالصداق واجب للمرأة القبطية كما هو واجب للمرأة المسلمة في مصر .

ثالثا : المظاهر الاجتماعية العامة للمرأة المصرية :

لقد شاركت المرأة المصرية في الاحتفالات والأعياد والمناسبات الخاصة ، ومارست العادات والتقاليد السائدة في المجتمع ، وفرضت عليها الشريعة الإسلامية الالتزام بلبس الحجاب وعدم الظهور متبرجة في الطرقات العامة(١١٤)، على عكس النساء غير المسلمات من أهل الذمة ، التي فرض عليهن لبس الغيار والزنار ، ووضع الدرهم الرصاص في أعناقهن ، خاصة عند دخولهن الحمام ، وأن تنتعلن حذاء مختلف الألوان فردة سوداء والأخرى حمراء وتضع خلخال في أرجلهن(١١٥) ، و ذلك طبقا لقرار الخليفة المتوكل على الله العباسي ، الصادر في ١٣ ربيع الأول سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م(١١٦) ، ولكن مع قيام الدولة الفاطمية في مصر وسياسة التسامح الديني التي اتبعها الخلفاء الفاطميين إلا من بعض الفترات التي حكم فيها الحاكم بأمر الله فان النساء الذميات قد تمتعن بكل حقوقهن في الحرية والعدل ، وبكل ما تمتعت به المرأة المسلمة ، لذلك فمن الطبيعي أن نشير هنا إلى أن المرأة المصرية تفرغت للتفنن في إظهار محاسنها وجمالها ، وإبراز مفاتنها ، مع استخدام وسائل الزينة الممكنة في هذه الفترة ، وجهت نظرها إلى استخدام الحمامات العامة لذلك و كان أول حمام ينشأ في مصر الإسلامية بأمر من عمرو بن العاص في سويقة المغاربة بالفسطاط ، و قد عرف باسم حمام الفأر بسبب مقاييسه الصغيرة(١١٧) ، إذ كانت الحمامات في العصر البيزنطي والروماني تشتهر بسعتها وكبر حجمها ، أما في العصر الفاطمي فقد أمر الخليفة العزيز بالله بتشييد أول حمام في مدينة القاهرة ، وأقامت والدته السيدة تغريد حماما آخر في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م ، وحفرت في جهته الغربية بئرا لجلب الماء إليه ، وأمرت على بن الحسين بن عبد العزيز المحتسب بالأشراف عليه ، حتى لا تختلط النساء بالرجال وتسود الرذيلة فيه(١١٨) ، وكان من وجبات هذا المحتسب بالإضافة إلى رعاية الحمام أن يأمر من بالحمام بنظافته وكنسه وغسله بالماء الطاهر غير ماء الغسالة ، يفعل ذلك كل يوم مرتين و يدلك أرضية الحمام وبلاطه بالأشياء الخشنة لئلا يعلق به الأوساخ و الصابون ، فتتزلق عليه أرجل الناس ، كما كان يأمر بتبخير الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين ، لاسيما إذا شرع في كنسه وغسله(١١٩) .

اشتهرت المرأة المصرية بصبغ أيديها بالحناء ، هذا بخلاف الوشم التي اعتادت النساء أن تزين به أجزاء مختلفة من أبدانهن ، وهناك وثيقة من أوراق البردي من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي محفوظة في المكتبة الوطنية بفينا بالنمسا ، تشير إلى موضوع الحناء و اهتمام النساء به ، وأن شرائها بالقيراط ، و قد جاء فيها : "حناء قيراط ، شمع قيراطين.. وقيراط زعفران" (١٢٠) ، كذلك ساد في مجتمع النساء استخدام العطور والروائح الطيبة والطيب ، وكن يستخدمنها بكميات كبيرة ، فتشير نفس وثيقة البردي إلى شراء .. عود نصف قيراط ، وملء ورد قيراطين (١٢١) .. ومن هنا نرى اهتمام المرأة الكبير بوسائل الزينة واستخدام العطور ، ومستحضرات التجميل إلى جانب المجوهرات والحلي الذهبية .

كذلك اهتمت المرأة المصرية بالملبس وحرصت على أن تظهر بمظهر حسن جذاب ، واعتمدت في ذلك على عائلها سواء كان الزوج أو أحد أفراد الأسرة في أمر كسوتها ، ففي بردية محفوظة في متحف اللوفر بباريس عبارة عن خطاب من أخت إلي أخيها تشكو له الفقر ، وتطالبه بالإسراع بإرساله ثوبا إليها قد وعدها والدها بإرساله من الفيوم ، قائلة: ".. كلم أبي حنا يعجل على بالثوب ، فأنا والله عريانة(١٢٢) .

وقد عدد المؤرخون أنواع الثياب المنتشرة في مصر ، والتي استخدمها الرجال والنساء على السواء منها القصب الملون والشرب والدبيقي والمقصور حيث بلغ ثمن الثوب منه مائة درهم ، كذلك القلموني ، وهو من الثياب التي تظهر للرائي بألوان مختلفة من كل لون وكل نقش(١٢٣) .

ومن البديهي أن نشير إلى احتفال المرأة المصرية بالأعياد الدينية كعيدي الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف ، وفي بعض الأحيان كانت تشارك نساء الأقباط في الاحتفال بعيد الغطاس(١٢٤) ،حيث كانوا يخرجون في أبهى زينة إلى شاطئ النيل ، ويركبن مراكب للتنزه، ويضربن الخيام لإقامتهن على ضفافه ، وفي عهد الدولة الفاطمية وضعت رسوم معينة للاحتفال بهذه المناسبة ، منها توزيع التاريخ والليمون والسمك البوري برسوم مقررة لكل واحد من أرباب وما كان متبع من إصدار الخليفة الأوامر إلى صاحب الشرطة بالركوب في موكب كبير ، حيث توقد الشموع بين يديه في تلك الليلة ، ويطوف بها شوارع المدينة ،

وينادى في الناس إلا يختلط الرجال بالنساء ، وإلا يكدرون على الأقباط عيدهم ، أما في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي فقد أمر بمنع الاحتفال بهذا العيد لما كان يحدث فيه من اللهو والمجون من الأقباط(١٢٥) .

وقد شاركت المرأة المصرية في نوع خاص من المناسبات الاجتماعية وهي المآتم والعزاء في المتوفى ذكرا كان أم أنثى ، ولم تقتصر هذه المجالس على الرجال وحدهم بل تعداه إلي المشاركة النسائية ، وكانت العادة المتبعة في كثير من الأحزان أن عند وفاة شخص عزيز تتبعه النساء وتقمن بالنواح خلف جنازته ، حتى مكان المقابر ، وكن يلطمن الخدود ، ويرفعن صوتهن بالعواء والنواح وتتقدمهن سيدة عجوز يطلق عليها اسم النائحة ، تقوم بهذه الأفعال ، وتردد باقي النساء فعل ما تفعل(١٢٦) .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنه في عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م أقيم الحداد العام على مقتل الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون وذلك عندما حمل تابوته من دمشق إلى مصر ، فكان يوما عظيما استقبلته جواريه وجواري غلمانه ونساء قواده بالصياح والنواح ، ومنهن من سرد ثيابه وشق ملابسه ، فكانت في الفسطاط ضجة وصراخ حتى تم دفنه(١٢٧).

وعلى النقيض من ذلك فأن المرأة المصرية بوجه عام قد اكتسبت شهرة كبيرة في ضروب الطرب والغناء خاصة الجواري والمغنيات منهن ، حتى أصبح الغناء من ضروريات الحياة والمجتمعات ، لا يعشن بدونه ، سواء في قصور الحكام والأمراء ، أو حانات اللهو والمجون ، فقد اهتمت معظم النساء بحفلات الغناء والزواج و الأعراس العامة ، وجلبت المغنيات المعروفات بجمال الصوت وحسن الغناء لإحياء تلك المناسبات الاجتماعية .

ومن أهم المظاهر الاجتماعية للمرأة المصرية أنها ترث عن والديها أو عن أحدهما نصف نصيب الرجل في الإرث لقول الله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق أثنين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منها السدس"(١٢٨) صدق الله العظيم .

وهناك وثيقة من أوراق البردي العربية بتاريخ ٤١٢هـ/١٠٢١م ، كشفت بالأشمونين عبارة عن تقسيم ميراث و تحديد نصيب كل سيدة و رجل من الورثة، جاء فيها : "أنهما التسما جميع ما خلفته بهما والدتهما توبية بنت هدى بن حسن

المربى من رجل وبنات وقنية وآله وآيات ، وتسلم كل واحد جميع حقه وحصته في فرائض الله عز و جل ، ولم يبق لواحد منهما قبل صاحبه .. قليل و لا كثير(١٢٩) .

هذا يوضح أن الشريعة الإسلامية لم تظلم المرأة في حقوق ميراثها ، بل حددتها بنصف الرجل ، وأقرت وثائق أوراق البردي العربية في عقود تقسيم الميراث هذه القسمة ، وأوردتها في العديد من نصوصها في أثناء تقسيم الميراث .

رابعا : المرأة المصرية و الثروة :

امتلكت المرأة المصرية الثروة والعقارات والأراضي الزراعية بالإضافة إلى الحلي الذهبية ، وتمتعت بالحرية الكاملة في ممارسة حقها في البيع والشراء والهيبة دون أن يفرض عليها أحد شيء أو يضغط عليها أو يمنعها من ممارسة حقوقها المالية ، مما أدى بالتالي إلى تفاعلها في الحياة الاجتماعية وتأثيرها في العديد من جوانب المجتمع المصري ، ويفهم ذلك من عقود البيع الواردة في أوراق البردي المصرية ، والمعاصرة لتاريخ مصر الإسلامية .

فقد أوردت الوثائق العديد من عقود البيع و الشراء التي تفسر محتوياتها عن حرية المرأة في ممارسة هذه الملكية ففي وثيقة محفوظة في مجموعة شوت راينهارت بألمانيا من مؤرخة بتاريخ ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، عبارة عن عقد بيع منزل جاء فيه: "هذا ما اشترت جنة بنت ابيمه بن ثيدر بن ابهوه من سكان الحرث من قرى الأوايني من كورة الفيوم ، اشترت منه حصائية من مورثه منة أخته اميانة بنت يحنس من المنزل الذي خلقته مشاعا غير مقسوم ، وهو خمسة أسهم وثلث سهم. ومن هذه الوثيقة نستخلص أن للمرأة حق الملكية ولو حصة في منزل ، وحق ممارسة بيعها ، والتصرف فيها ، ونلاحظ من هذه الوثيقة أن المتعارف عليه في البيع تحديد حدود العقار المراد بيعه في جميع الجهات الأربع ، ويبدأ التحديد بالحد الجنوبي وينتهي بالحد الشرقي: "حده الأول القبلي الطاحونة التي تعرف لورثة سمويل ، والحد البحري منزل العقربي ، والحد الشرقي الزقاق الذي من المدخل والمخرج(١٣١) .. و قد جرت العادة في ذلك لكي يضمن الشاري سلامة عملية البيع و الشراء ، و حتى لا يتم الخلط .

كذلك جرى العرف في عقود البيع على تحديد قيمة المبلغ عن الحصة المقررة للبيع ، وهو دينار ونصف دينار من الذهب المعزى ، مع إيضاح سلامة

البائعة "صحة عقله وبدنه وجواز أمره له ، غير مكره ولا مجبر" مع إقرار أن البيع قد تم وفقا للشريعة الإسلامية ، وذلك على بيع الإسلام وعهدته وشريطته بالإضافة إلى وجوب شاهدين ، شريطة أن يضعا شهادتهما بخط أيديهما ، هذا إلى جانب أن عقود البيع تشمل في نهايتها تحديد تاريخ كتابة العقد باليوم والسنة الهجرية "جمادى الآخرة من سنة ستة وسبعين ومائتين"(١٣٢) .

ومن حق المرأة المصرية امتلاك العقارات بمفردها ، ومن حقها أيضا أن تقوم بتوزيع ممتلكاتها بالميراث على أولادها في حياتها أو عقب موتها ، وتوضح وثيقة ترجع إلى ٤١٢هـ/١٠٢٢م ، كشفت بالأشمونين ذلك بقولها : ".. و لم يبقا بينهما شركة في جميع ما خلفته والدتها توبية بخط حمام طبري(١٣٣) .. والملاحظ أن نساء البيت الفاطمي أمتلكن الثروة والجاه وهذا ينطبق على نساء الأسرة كلها ليست على زوجات الخلفاء وبناتهن بل تعدته إلى عمات الخلفاء ، فنرى السيدتان رشيدة بنت المعز وعبدة أختها تمتلكن المبالغ الباهظة من الأموال التي تقدر بألف ألف وسبعمائة ألف ، كذلك الجواهر فقيل أن عند عبدة أردب زمرد.

وفى العصر الفاطمي طبق على النساء القبطيات ما طبق على مثيلتها من المسلمات نظرا للتسامح الديني التي سارت عليه سياسة الدولة في ذلك الوقت ، ومن وثائق البردي نستخلص أن من حقها ملكية العقارات ، فهناك وثيقة ترجع إلي ٤٥٩هـ/١٠٦٦م عبارة عن عقد بيع منزل جاء فيه: "هذا ما اشترى ريمان بن نشوان الساكن مدينته الأشمونين من سارة بنت قلته القزاز النصرانية الساكنة يومئذ بهذه المدينة.. ودفع المشتري جميع الثمن ، ومبلغه دينار واحد قبضته منه نقدا في يدها تاما وافيا و أبرأته منه(١٣٥) .

هذه الوثيقة تدل دلالة واضحة على تسامح الحكومة الإسلامية مع أقباط مصر وعلى أن المرأة القبطية لها نفس حق المرأة المسلمة في امتلاك العقارات في الدولة. كذلك أشارت وثائق البردي العربية على حرية التعامل بين طائفة النصارى بعضهم مع بعض سواء من الرجال والنساء ، ففي وثيقة مؤرخة ٤٣١هـ/٩٥٢م كشفت بالفيوم عبارة عن عقد بيع حصة من منزل تبلغ السدس ، تحدده من أربع أسهم من أربعة وعشرين سهما ، تشير إلى أن المشتري مسيحي الديانة وهو "يحنس بن شنوده بن بطامس" ، وأن البائعة أيضا على نفس الديانة ،

وهي "مقطلني بنت شنودة بن أيوب" مع تحديد قيمة الشراء بمبلغ دينار واحد عينا ذهبياً(١٣٦) .

كذلك كشفت أوراق البردي عن حق امتلاك العقارات لسيدتين معا مقسمة بينهما كلا حسب حصتها في الملك ، ففي عقد بيع ذكر أن فلانة بنت فلان وجب الدار بنت أحمد بن نوح قامتا ببيعه إلى سيدة أخرى حيث اشترت الدار كله وهي تسمى سيب الدار بنت علي بن محمد، والملاحظ أن المرأتان ليس بينهما ما يربطهما بصلة النسب وذلك ظاهر من أسماء السيدتان(١٣٧) امتلكتا الدار مناصفة .

ومن الوثائق أيضا نستخلص وجوب حق البيع والشراء بين الرجال والنساء ، فيجوز أن يكون المشتري رجل والبائع أنثى وبالعكس ، لا ينقص هذا من قدر عملية البيع ، ففي وثيقة من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كشفت بمدينة الأشمونين تشير إلى ذلك بقولها: "هذا ما اشترت سارة بنت قلتة.. من المكنا بأبي اليمن وأخوه جميل أبنا سكيريس بن السفطي.. بثمن دينار واحد ونصف دينار بالصحيح المستنصري عيونا ذهبا"(١٣٩).

كذلك أوجب حق البيع والشراء بين النساء بعضهن مع بعض مع جواز وجود وكيل لإحداهما في العقد، ففي وثيقة محفوظة بمعهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا في مجموعة شون راينهارت مؤرخة ٢٧٦هـ/٨٨٩م جاء فيها: "هذا ما اشترت حنة بنت ابيمه"(١٤٠).

وقد لوحظ أن عملية البيع و الشراء يدفع عنها حق سمسرة بعض الشخصيات التي تقوم بهذه المهمة ، وفي بعض الأحيان تشير الوثائق تحديدا إلى ذلك مع ذكر قيمة السمسرة في العقد، وعلى من يقوم بدفعها ؟ هل هو الشاري أم البائع ؟ ، فالوثيقة تشير إلى ذلك بقولها: "وعلى هذه المشترية سمسرة هذا النصف من جميع المنزل، فهو حق السوق دون البائع(١٤١) .

كذلك ورد في وسائق البردي حرية التعامل و الامتلاك بين الزوج و الزوجة ، ومن حقها الاحتفاظ بأجزاء من العقار كلا حسب نصيبه من حصة الملكية وحق البيع والشراء فيما بينهما ففي وثيقة ترجع إلى ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م كشفت بادفو تشير إلى أن الزوجة وتسمى يونة قد اشترت من زوجها جزء من منزله ودفعت في مقابل ذلك مبلغ دينار واحد من الذهب (١٤٢) .

كذلك من حق الزوج والزوجة شراء العقارات بأسمائهما معا وهذا وارد في بردية مؤرخة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م عبارة عن عقد بيع جاء فيه : "هذا ما أشتروا موسى بن تيدر الأجير وزوجته سرنة بنت هرمينة من بلهوا ابنت قوريل ومن والدتها ترهبوه ابنت قرب، وهما جميعا من أهل الصنعة المعروفة ببلجسوق قرية من قرا كورة الفيوم.. والملاحظ في هذه البردية أن البائعتان سيدتان أيضا من نفس المكان وقد حدد في هذا العقد عدة شروط واجبة النفاذ وهي أنه شراء ثابت صحيح لا شرط فيه ولا وعد ولا رهينة ولا وديعة بثمن خمسة دنانير ذهبا (١٤٣) .

الصبية يهبها ثلث ممتلكاته من أموال وثياب وغيرها من الأشياء ، وقد تعدت سلطة المرأة المصرية إلى أن تمتلك المحلات و الدكاكين التجارية ففي وثيقة من البردي ترجع إلى ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م عبارة عن بيع حانوت من سيدة إلى رجل مع حضور زوجها معها في أثناء كتابة العقد : "أقرت عائشة بنت الحسين بن عبد السلم بشهود هذا الكتاب أن هذا الحانوت المبيع .. ليس لأحد نسبتها فيه حف ، وذلك بحضرة زوجها طاهر بن حمدون بن زكريا" (١٤٥).

ومن البديهي أن المرأة المصرية كان عليها ما على الرجل من مستلزمات تخص ممتلكاتها ، فتدفع عليها ما يصح الخلل فيها ، وإذا تهدم حائط أو جدار فأنها تقوم بترميمه بمفردها أو مشاركة مع جارها في الحائط ، ففي وثيقة من أوراق البردي مؤرخة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م كشفت في مدينة الأشمونين عبارة عن عقد إصلاح حائط و ترميمه ، وضعت له شروط معينة لهذا الإصلاح جاء فيه : "أن الحائط الذي بحري منزل الحسين بن صالح وقبلي منزل قامة بنت إدريس فيما بينهما .. ليس لأحد منهما أن يمنع صاحبه من وضع خشبه .. و متى أصاب هذا الحايط بعد ترميمه العدم أو أسترم فعلى الحسين بناه و ترميمه من ماله (١٤٦).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الحكومات الإسلامية في مصر قد فرضت على المرأة المصرية ذات النفوذ والثروة بعض الضرائب على ممتلكاتها ، يفهم ذلك كشوف وسجلات الضرائب الخاصة ببيان الدفع ، على الرغم من أن عقد الصلح بين الفاتحين العرب بقيادة عمرو بن العاص وأهل مصر ، عدم

فرض جزية(١٤٧) على النساء ، فقد قيل أنه صالحهم على جزية في المتوسط دينارين عن كل رجل (١٤٨) .

فقد أصدرت الجزية على أهل الذمة من النصارى واليهود على حسب مستوى معيشة الغرض ، فتؤخذ من الغني ثمانية وأربعون درهما ، ومن المتوسط أربعة وعشرون درهما ومن الفقير أثنا عشر درهما(١٤٩) ، ذلك في البلدان والأقاليم التي تتعامل بالدراهم أما البلدان التي تتعامل بالدينار ومن ضمنها مصر ، فقد قدر على الغني أربعة دنانير، وعلى المتوسط دينارين ، وعلى الفقير دينارا واحداً (١٥٠).

وهناك إشارات في أوراق البردي العربية تشير إلى جباية ضرائب غير معروف نوعها من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي من بعض النساء المالكات لبعض قطعان الماشية ، وهي السيدة سبيتة الأرملة عليها ٥ قطع (١٥١)، كذلك ورد اسم سيدة أخرى تسمى سيدية الأرملة تدفع ٦ قطع في كشف أخر(١٥٢) خاص بدافعي الضرائب في وثيقة من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أيضا كذلك فرض على النساء إذ امتلكت أرض زراعية دفع الخراج عن تلك الأرض وقد ورد ما يفيد ذلك في وثيقة من البردي ، ترجع إلى ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م ، كشفت بالفيوم وهي عبارة عن كشوف وسجلات متنوعة بفرض الضرائب ، ورد عن خراج القصب .. ثم ذكرت اسم مريم بنت منير(١٥٤).

وصفوة القول فإن المرأة المصرية تمتعت بحرية امتلاك العقارات و الأراضي الزراعية، والتعرف فيها بحرية تامة دون تدخل من السلطات الإدارية في الدولة وأثرت بدور فعال إلى حد ما في الحياة الاقتصادية ، وظهر دورها بفعالية في الحياة الاجتماعية ومساندة الرجل في الحياة اليومية ومتطلباتها .

الهوامش

١ - سعيد مغاوري محمد : البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا ، ص ١٠٧، منشورات (اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة سنة ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م .

٢ - عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ص ٢١ ، الطبعة الأولي ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

٣ - عبد العزيز الدالي : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢ .

٤ - عبد العزيز الدالي : نفس المرجع السابق ،ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١.

٥ - الجهشياري : الوزارة والكتابة ، ص ٣٠٩ ، حققه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، الطبعة الثانية ، مصلحة الحلبي .

٦ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٣ ، ص٦١ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

٧ - أبو المحاسن : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

٨ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، أحداث سنة ٢٨٢ هـ ، ص ٤٧٣ ، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

الخليفة المعضد العباسي : هو أحمد بن الموفق أبو طلحة بن المتوكل ، كان شهماً شجاعاً عفيفاً توفى في ربيع الآخر سنة ٢٨٨هـ، وكانت خلافته تسع سنوات وتسع أشهر ونصف.

(ابن الساعي : تاريخ الخلفاء العباسيين ، ص ٩٢ ، تحقيق عبد الرحيم يوسف الجمل ، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٩ - المعز لدين الله الفاطمي : رابع الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، وأول خلفائهم في مصر ، نقل رفات أجداده معه إلي مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م. ودفنهم في تربة الزعفران بالقصر الشرقي ، فسميت التربة بالمعزية .

(المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ٢، ص٢٥٢ ، مكتبة الآداب بالقاهرة .

١٠ - عمر رضا كحاله : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، جـ١ ، ص ١٨٣ ، الطبعة الخامسة ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

١١- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ص ٢٩٨ ، نشره وحققه وعلق حواشيه د. جمال الدين الشيال ، طبعة دار الفكر العربي.

١٢ - العزيز بالله الفاطمي : هو نزار أبو المنصور ، ولد بالمهدية ببلاد المغرب سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م حتى ٣٨٦هـ/٩٩٦م ، واتسعت نفوذه فشمل بلاد المغرب وصقلية وبلاد الشام وفلسطين وبلاد الحجاز إلي جانب الديار المصرية (أبو المحاسن : النجوم جـ٤ ، ص ١١٢) .

١٣- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، المجلد الثاني ، ص ٣٧٨

عفاف سيد صبره : المدارس في العصر الأيوبي ، ص١٦١ ، مقال في سلسلة مهرجان القاهرة للجميع ، بعنوان المدارس في مصر الإسلامية ، طبعت الهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م .

١٤ - الحاكم بأمر الله : ثالث خلفاء الفاطميين في مصر ، تشدد مع الأقباط ومنعهم من بناء أي كنيسة محدثة أو إعادة ما هدم منها ، مثل كنيسة القيامة

(أبو المحاسن : النجوم، جـ٤ ص٨٧١) ، وقيل أن أخته ست الملك تآمرت عليه وقتلته ، لكي تكفى الناس شروره .

١٥ - يحيى بن سعد الأنطاكى : صلة تاريخ أوتيخا ، جـ٢ ، ص ١٦٥،١٦٤ ، بدون طبعة ولا تاريخ .

١٦ -لسيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٢ ، ص ١٤ ، طبعة الموسوعات بالقاهرة .

١٧- أبو المحاسن : النجوم ، حـ٤ ، ص ١٨٥ ، عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، جـ٢ ، ص ١٦٦.

١٨- الروذراورى : ذيل تجارب الأمم ، جـ٣ ، أحداث ٣٨٠هـ ، ص ١٨٧ ، المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ٤ ، ص ٣٩٩.

١٩ - ابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ، ص ١٨٧ ، ١٨٥ .

٢٠ - أبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ، ص ١٨٧، ١٨٥ .

٢١ - المقريزى : الخطط المقريزية ، جـ٢ ، ص ٣٣٣ .

٢٢ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٩٣ .

كذلك كانت السيدة عبده ابنة المعز ، المولودة في رقادة من أعمال القيروان من هذه الطبقة وعند وفاتها تركت ما لا يحصى من الأموال والثروات .

(أبو المحاسن : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة)

٢٣- المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، ص ٢٦٧ .

24 - Papyrus Lauvre in v. 4 No. 16927

25- Papyrus Lauvre in v. 4 No. 16927

٢٦ - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٩ ، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٩٢م ، القابلة هي السيدة التي تقوم التوليد للنساء ، ولديها الخبرة الكافية لمساعدتها في حالات تعسر عملية الوضع ، فهي تعتبر معينة للمرأة على إخراج مولودها. (ابن خلدون : مقدمه ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠) .

٢٧ - ابن خلدون : نفس المصدر السابق ، ص ٤٣٩ .

٢٨ - عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، جـ١ ، ص ٢٣ .

٢٩ - الدينار والدرهم : قد ورد في نصوص البرديات في عدة مواضع ، والدرهم كما هو معلوم كلمة أعجمية عربت عن الكلمة اليونانية Drachma ، ويقابلها باللغة الفارسية

دراخم وديرام derachm ، وهى عملة فضية استخدمها العرب فى معاملاتهم اليومية سواء فى البيع والشراء والتبادل التجارى وسائر المعاملات من زواج وقضاء ديون وغيرها. وتجدر الإشارة إلي أن الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي كانت تتعامل بالدراهم الفضية ، بينما الأقاليم الغربية كانت تتعامل بالدنانير الذهبية البيزنطية (سعيد مغاورى: البرديات العربية ، ص ٩٧).

٣٠ – جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ١ ، ص ١٥١-١٥٢ ، نقلها إلي العربية حسن إبراهيم حسن ، راجعها عبد الحميد حسن ، ط٢ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٩٤م .

31 - Padyrus , Lauvre in v. J. David 9

٣٢ – الأمام الشافعي : هو أبو عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي ، ولد فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في غزة بالديار المصرية ، ورحل إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي ، ورجع إلي مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٠م فأقام بها حتى توفى في حدود ٢٠٤هـ/٨١٩م ، ودفن بالقرافة الصغيرة ، وله عدة كتب منها " المبسوط في الفقه" الذي يحتوى على عدة كتب منها كتاب للصلاة وأخر للزكاة والصيام غيرها (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢١٠ ، طبعة بيروت لبنان) .

٣٣ – عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، جـ١ ، ص ٤٣٠ .

٣٤ – أبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ، ص ١٥٢ .

٣٥ – عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، جـ٥ ، ص ١٨٧ .

٣٦ – المقريزى : الخطط المقريزية ، ج٤ ، ص ٣١٥ .

٣٧ – عندما فتح عمر بن العاص مصر كان القبط يتعاونون مع الفاتحين العرب ، وذلك لما وقع عليهم من ظلم وتعسف من قبل السلطات البيزنطية ، وذلك للاختلافات المذهبية بينهما ، وسيادة المذهب اليعقوبى لدى أقباط مصر ، والمذهب الملكانى بين البيزنطيين (المقريزى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ٣٩٣) ، لذا رحب الأقباط بالفاتحين العرب ، لكي يتخلصوا من الاضطهاد الديني والأعباء المالية المفروضة عليهم في صورة ضرائب باهظة، ولما سمعوه من تسامح العرب مع مسيحيي الشام ، وقد أصدر عمرو بن العاص مرسوماً بالأمان للبطريرك بنيامين ، الذي كان مختفياً من اضطهاد الرومان في دير البريد فى صعيد مصر ، منذ ثلاثة عشر سنة قبل أحداث الفتح العربي ، فأمنه على نفسه وعلى طائفة الأقباط جميعاً ، وقد جاء في المرسوم : " فليظهر الشيخ البطريرك مطمئناً على نفسه ، وعلى القبط ، آمنين على نفوسهم من كل مكروه" (أبو صالح الأرميني : تاريخ أبو صالح المعروف بكنائس وأديرة مصر ، ص ١٠١-١٠٢ ، طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٣) ، وبذلك عاد البطريرك بنيامين إلى ممارسة حياته الدينية في مصر في كنيسة الإسكندرية فقام بتقوية الكنيسة اليعقوبية ، وأعاد ما هدم من كنائس

وأديرة وأرسل مطراناً جديداً إلي الحبشة وأسس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس في وادى النطرون

Butcher : The story of the Church of Egypt, Vol.1 , P. 383)

ومن هنا نرى أن أحوال الأقباط في مصر كانت أفضل مما كانت عليه في أثناء حكم البيزنطيين لها .

Butcher : I bid , Vol.1 , P. 376)

٣٨ - يشير زولاق إلى أن اكثر الرهبان والراهبات عمش العيون بالعراق لمداومتهم على أكل العدس ، أما أهل مصر من الرهبان والراهبات فهم سالمون لأكلهم الجلبان (ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، ص ١٠٠ ، تحقيق على محمد عمر ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩م) .

٣٩ - أبو صالح الأرميني : تاريخ أبو صالح ، ص ١١٣ .

٤٠ - أخميم : بلد عظيم فيه من العجائب والآثار والبرابى ومن الطلسمات ، ويحمل من غلاته الكثير إلي العاصمة (ابن زولاق : فضائل مصر ص ٦٥) .

٤١ - ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، جـ١ ، ص ٣٧٤ ، تحقيق أحمد زكى ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٤م .

٤٢ - أبو صالح الأرميني : تاريخ أبو صالح ، ص ١٣١ .

٤٣ - الشابستى : الديارات ،ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، عنى بتحقيقه ونشره كوركيس عواد ، طبعة المعارف ، سنة ١٩٥١ .

٤٤ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٢ ، ص ٤ .

٤٥ - الخليفة المتوكل على الله : هو جعفر بن محمد المعتصم أخو الواثق بويع بالخلافة بعد وفاة الواثق ، كان جامعاً لجميع الأخلاق الحسنة ، وخالف أهل بيته بالقول بخلق القرآن (ابن الساعي : تاريخ الخلفاء العباسين ، ص ٧٥) .

٤٦- ابن زين القاضى : شروط النصارى ، ورقة ١٢ ، ١٣ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٥٢ تاريخ .

لقد أمر المتوكل لن لا يطلق أن يظهروا شيئاً من أعيادهم صليباً ، وأن تسوى قبورهم مع الأرض حتى لا تشبه قبور المسلمين ، وهدم كل بيعة لهم محدثة ، وأن يجعل لعبيدهم رقاعاً في ثيابهم وغيرها من الشروط (ابن زين القاضى : شروط النصارى ، ورقة ١٢) .

47 - Sterm : Fatimid Decrees Original Documents from the Fatimid Clancey , P. 17, London , 1964)

48- (Sterm : I bid , P. 16)

٤٩ - نظام الجواري من النظم الاجتماعية التي نظمها الإسلام ، وخفف من شدتها ، ومهد

لإلغائها ، وأصل الجواري هو ما يسبيه الفاتحون في الحرب من نساء وبنات إذ يصرن ملك الفاتحين مهما علا شأنهن يستخدمن أو يستولدن أو يبيعونهن أو يهدونهن ، أو يعتق منهن ما يشاؤن ،وكانت الجارية إذا أنجبت من سيدها تصير أم ولد . (حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج١ ، ص ٣٣٩ ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٩٤٦م) .

٥٠ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٣ ، تحقيق عبد المنعم عامر ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م .

٥١ - جيروهمان : أوراق البردي ، جـ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ لم يقتصر عتق الجوارى على ذلك ، فأن أمامنا سيدة تدعى " خوندرا دوتكين بنت نوغيه السلاح دار الططرى" ، نشأت في مصر وقضت عمرها في عمل الخير والصداقات أعتقت قبل وفاتها ما يقرب من ألف من الأرقاء ما بين جارية وعبد وتوفيت فى سنة ٢٢٤هـ /٨٣٨م ، ودفنت بالقرافة المعروفة بتربة الست . (عمر كحاله : أعلام النساء ، ج١ ،ص٣٩٦) .

٥٢ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

٥٣ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

٥٤ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

٥٥ - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٧ .

٥٦ - الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، أحداث سنة ٢٧٧هـ ، ص٤٤٠ .

٥٧ - حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ،ج١ ، ص ٣٤٠-٣٤١.

٥٨ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ٦ ، ص ١٧٥ .

٥٩ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٣٦ .

٦٠ - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ .

٦١ - جروهمان : أوراق البردي ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

62 - Papyurs Lauvre Vin Boba 317 .

٦٣ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ٢ ، ص ١٥٣-١٥٤ .

٦٤ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٢٦ -١٢٧ .

٦٥ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، أحداث سنة ٢٨٢هـ ، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٣ ، ص ٦٤ .

٦٦ - سيرة أحمد أبن طولون، ص ١٣٠، تعليق محمد كرد على ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .

67 - Papyrus Erzherzog Rainer , No. 1014 .

٦٨ - جروهمان : أوراق البردي ، ج٦ ، ص ١٧٩ .

٦٩ - محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية - قسم الزواج - ص ٣٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة، سنة ١٩٥٠م

هناك عدة شروط لانعقاد عقد القران من أهمها :

- ألا يكون أحد العاقدين فاقد الأهلية .
- أن يكون الإيجاب والقبول في مجلس واحد .
- ألا يرجع الموجب في إيجابه قبل قبول الأخر ، لأنه إذا رجع الموجب في إيجابه قبل القبول ، ألغى الإيجاب ، فإذا جاء القبول بعد ذلك فقد جاء على غير إيجاب .
- ألا يصدر عن العاقد الثاني بعد الإيجاب ما يدل على الإعراض كالفضل بكلام أجنبى (محمد أبو زهرة : نفس المرجع السابق والجزء والصفحة) .

٧٠ - أحمد عبد الرازق أحمد : عقد زواج أحمد مماليك دولة الكنوز الإسلامية ، ص ١١ ، مستله بمجلة كلية الآداب جامعة الإمارات - العدد الرابع سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٧١ - محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية ، ص ٣٧ .

٧٢ - أحمد عبد الرازق : عقد زواج أحد مماليك ، ص ١١ .

٧٣ - أحمد عبد الرازق أحمد : نفس المرجع والصفحة .

٧٤ - أحمد عبد الرازق : نفس المرجع والصفحة .

٧٥ - جروهمان : أوراق ، ج١ ، ص ٧٣ .

٧٦ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٨٥ .

٧٧ - ومن الشروط المتعلقة بقيمة الصداق وأجله مختلفة اختلافاً بيناً ، فأن المذهب المالي يشترط أن يؤدى مبلغ لا يقل عن ثلاثة دراهم أو ربع دينار ، والمذهب الشافعي يجعل الصداق عشرة دنانير على أن يؤدى نصفها حالاً ، ولعل الاختلاف بين المهور يرجع إلى حالة كل شخص ، وأقل صداق ذكر في نصوص البردي هو مبلغ دينار واحد (جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٧٦) .

٧٨ - لقد أوجبت الشريعة الإسلامية على الزوج أن يقدم لعروسه مهراً معقولاً لكي يصبح عقد الزواج عقداً لازماً ، ليس لأحد أن ينفرد بفسخه ، وألا يقل المهر عن مهر المثل إذا زوجت البالغة العاقلة نفسها من غير إشراك وليها في أمرها ، فأنه إذا كان المهر أقل من مهر المثل ، فأن الولى العاصب له الاعتراض على الزواج ، حتى يفسخ أو يكمل المهر إلى مهر مثل ، وذلك على رأى أبى حنيفة - رضى الله عنه - لأن الولى العاصب يعير بقلة مهر من لها صلة عصوبة به ، ويفخر بكثرته كما هو جار في عرف الناس (محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية ، ص ٥٤، ٥٥) .

٧٩ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ١ ، ص ٩٧ . هذه الوثيقة ترجع إلى العصر الفاطمي فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ، الذي بدأ حكمه في العاشر من ذي الحجة سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠م حتى الخامس عشر من شعبان سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م .

٨٠ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٧٣ .

٨١ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٩٣.

٨٢ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٤.

٨٣ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٢١٣ .

٨٤ - ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ، أحداث سنة ٣٣١هـ، ص ٤٠٤ .

٨٥ - أبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ، ص ١٣٣ .

٨٦ - ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، جـ٧ ، ص ٢٨٧ ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بالعاصمة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٨هـ .

٨٧ - ابن الجوزي : نفس المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ١٦ .

٨٩ - ابن الساعي : تاريخ الخلفاء العباسيين ، ص ٩٢ .

٩٠ - أبو المحاسن : النجوم ، جـ٣ ، ص ٦١-٦٢ .

٩١ - كذلك شيدت بعض النساء مقابر فخمة للدفن ، منها شواهد قبور كشفت في جبانة أسوان ، وهى تحمل أسماء نساء ، مثل شاهد مؤرخ بسنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م بأسم " عائشة ابنت حسين بن حسين بن جدير الزيات " Wiet : Steles Funeraires Catalogue du Mussee Arabe , Tom 6 , P. 43 (Le Caire , 1948).

٩٢ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ١ ، صـ ١٤٧ ، ١٤٨ .

٩٣ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٩٣ .

٩٤ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٨٩ .

٩٥ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٨٥ .

٩٦ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٠٠-١٠١ .

٩٧ - جروهمان : نفس المرجع السابق جـ٢ ، ص ٢١١ .

٩٨ - جروهمان : نفس المرجع السابق جـ١ ، ص ٩٣ .

٩٩ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٧٣ .

١٠٠ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٠١ .

١٠١ - وثائق دار الكتب المصرية والوثائق القومية بالقاهرة برقم سجل تاريخ ٥/١٧٣٥ .

١٠٢ - وثائق دار الكتب المصرية والوثائق القومية بالقاهرة برقم سجل تاريخ ٥/١٧٣٥ .

١٠٣ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ١ ، ص ٩٢-٩٣ .

١٠٤ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٧٣-٧٤ .

١٠٥ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٧٨-٧٩ .

١٠٦ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٧٤ .

١٠٧ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ٨٩ .

١٠٨ - محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية ، ص ٤٦ .

١٠٩ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ ١ ، ص ٨١ .

١١٠ - جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١١٤ .

١١١ - أحمد عبد الرازق أحمد : عقد زواج أحد مماليك ، ص ١٩٠ .

١١٢- محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية ، ص ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣.

١١٣ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١١٤ - الشيرازى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٤ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، طبعة دار الثقافة بيروت - لبنان .

١١٥ - ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٩ ، ص ٥٥ .

١١٦ - ابن زين القاضى : شروط النصارى - مخطوطة - ورقة ١٢ ، ١٣ .

١١٧ - أحمد عبد الرازق أحمد : المرأة في مصر المملوكية ، ص ١٤٤ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٩م .

١١٨ - المقريزى : الخطط المقريزية ، جـ٢ ، ص ٣٧٨ .

١١٩ - أحمد عبد الرازق : المرأة في مصر المملوكية ، ص ١٤٩ .

120 - Papyrus Erzherzag Rainer , No. 1014 .

121- PPapyrus Erzherzag Rainer , No. 1014 .

122- Papyrus Laurve in V. E . 6927 .

١٢٣- ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، ص ٩٧ .

١٢٤- عيد الغطاس يعادل الليلة الحادية عشر من طوبة ، وفيها ينصر الأقباط أولادهم بغمسهم فى الماء ، قد تم غليه بالرياحين وألوان الطيف ، ثم يقرءون عليه من إنجيلهم زاعمين أن الروح القدس نزلت فيه، وتسمى هذه العملية لديهم المعمودية (المقريزى: الخطط ، جـ٤ ، ص ٤٠٨) .

١٢٥ - المقريزى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٩.

١٢٦ - ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٧ ، ص ٢٨٩ .

١٢٧ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٦٤ .

١٢٨ - قرآن كريم ، سورة النساء ، الآية ١١ .

١٢٩ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٢ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

130 - Papurus Erzherzag Rainers , No. 7515 .

131- Papurus Erzherzag Rainers , No. 7515 .

132- Papurus Erzherzag Rainers , No. 7515 .

١٣٣ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٢ ، ص ١٩٨ .

١٣٤ - أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ .

١٣٥ - جروهمان : أوراق البردي ، جـ١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

١٣٦ - جروهمان ، نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٥٣ .

١٣٧ - جروهمان ، نفس المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٤ .

١٣٨ - جروهمان ، نفس المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٤-٢٢٥ .

139 - Papurus Erzheryag Rainers , No. 7515 .

١٤٠ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ١ ، ص ٢٢٥ .

١٤١ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٤٧-١٤٨ .

١٤٢ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٦٧ .

١٤٣ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، والصفحة .

١٤٤ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٥٣-١٥٤ .

١٤٥ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٦٠ .

١٤٦ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، جـ١، ص ١٢٣-١٢٤ .

١٤٧ - الجزية وجبت على الرجال دون النساء والصبيان ، ولا تؤخذ من الفقير ولا من الرهبان ، ولا من الشيخ كبير السن ، ولا من المجنون (أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ١٤٥-١٤٦، طبعة بولاق سنة ١٣٠٢هـ).

١٤٨ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١١٧ .

١٤٩ - أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ١٢٥ .

١٥٠ - أبو يوسف : نفس المصدر السابق والصفحة .

١٥١ - جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٤ ، ص ١٨٢ .

١٥٢ - جروهمان : نفس المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٤٢ .

١٥٣ - الخراج كلمة يونانية الأصل بمعنى الضريبة التي تفرض على مساحة الأراضي الزراعية وجبت على أهل الذمة على ما بأيديهم من الأراضي الزراعية كما دخل فيها بعض الهدايا، هذه الضريبة لا تدفع كلها نقداً ، بل يدفع بعضها عيناً من المحاصيل الزراعية ، وقد وضعت عدة شروط يجب مراعاتها في تقدير قيمة الخراج من أرض إلى أخرى ، منها جودة تربة الأرض ورداءتها ، ونوع الثمار والحبوب المنزرعة ونظام الري (المقريزى : الخطط المقريزية ، جـ١ ، ص ١٥٦) .

١٥٤- جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٤ ، ص ٨٥ .

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

١ - ابن زين القاضي : عبد الله بن أحمد

شروط النصارى" مخطوطة رقم ٣٩٥٢ تاريخ بدار الكتب المصرية .

ثانياً: المصادر القديمة:

١- ابن الأثير(٦٣٠هـ/١٢٣٨م) :على بن أحمد بن أبو الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني

٢ - "الكامل في التاريخ" ج٨ ، ج٩ ج١٠ ، طبعة دار صادر بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

٣- البلوي (توفى في القرن ٤هـ /١٠ م) :أبو محمد عبد الله بن محمد المديني ، سيرة أحمد بن طولون " ، تعليق محمد كرد علي ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .

٤ - الجهشياري (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، "كتاب الوزراء والكتاب"، حققه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبي .

٥ - ابن الجوزي : (ت٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، ١٠ أجزاء ، ا لطبعة الأولي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بالعاصمة حيدر آباد الدكن ،سنة ١٣٥٨هـ .

٦ - ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٠م) : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي . "المقدمة" ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٩٩٢م .

٧ - الروذراوري (ت٤٨٨ هـ/ ١٤٠٠م): محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع "ذيل كتاب تجارب الأمم " ، ج٣ ، يحتوي على حوادث خمسة وعشرون عام من ٣٦٩هـ إلي ٣٩٣هـ ، طبعة القاهرة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦ م .

٨ - ابن زولاق (ت٣٨٧ هـ/٩٩٧) : الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن خالد "فضائل مصر وأخبارها وخواصها" تحقيق على محمد عمر ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م .

٩ - ابن الساعي (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م) : علي بن أنجب "تاريخ الخلفاء العباسيين" ، تعليق د. عبد الرحيم يوسف الجمل، مكتبة الآداب بالقاهرة، سنة ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م .

١٠ - السيوطي (ت٩١١ هـ/١٥٠٥م) : عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة " ، ج١، ج٢ ، طبعة الموسوعات بالقاهرة .

١١- الشابستي (ت٣٨٨ هـ/٩٩٨م) : أبو الحسن على بن محمد "الديارات " ، عني بتحقيقه

ونشره كركيس عواد ، ط المعارف ١٩٥١م .
١٢ - الشيرازي : (ت٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) : عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ، "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" ، تحقيق السيد الباز العريني ، طبعة دار الثقافة ، بيروت _ لبنان .
١٣ - أبو صالح الأرمني (٦٠٥ هـ/١٢٠٨م) : أبو المكارم جرجس بن مسعود ، "تاريخ أبو صالح المعروف بكنائس وأديرة مصر" ، ط أكسفورد ١٨٩٣م .
١٤ - ابن عبد الحكم (ت٢٥٧ هـ/ ٨٧١م) : عبد الرحمن بن عبد الله "فتوح مصر والمغرب"، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط القاهرة ١٩٦١م .
١٥ - ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٥٩م) : شهاب الدين أحمد بن يحيي "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، ج١، تحقيق أحمد زكي، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
١٦ - أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩ م): جمال الدين بن تغري بردي الأتابكي. "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ج٤، ج٥،ج٦، الطبعة الأولي، دار الكتب العلمية، بيروت _لبنان، سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٢م .
١٧ - المقريزي (ت٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م) : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" ، ج١ ، تحقيق وتعليق ونشر جمال الدين الشيال ، ط دار الفكر العربي .
١٨- " :__________ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" ، المعروف بالخطط المقريزية " ، المجلد الثاني ، الناشر مكتبة الآداب بالقاهرة .
١٩٩ - ابن النديم (ت٣٨٤ هـ/٩٩٣م) : محمد بن اسحق الوراق "الفهرست" ، طبعة بيروت -لبنان .
٢٠ - يحيى بن سعيد الأنطاكي : " صلة تاريخ أوتيخا" ، ج٢ ، بدون طبعة ولا تاريخ نشر .
٢١- أبو سيف (١٩٢هـ /٨٠٨م) : يعقوب بن إبراهيم "كتاب الخراج" ، طبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

ثالثاً : المراجع الحديثة :

١ - أحمد عبد الرزاق أحمد : " عقد زواج أحد مماليك دولة الكنوز الإسلامية " ، مستلة من مجلة كلية الآداب - جامعة الإمارات ، العدد الرابع ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م.
٢ - " :__________ المرأة في مصر المملوكية " ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩ م .
٣ - أدولف جروهمان :" أوراق البردي العربية " ، ست أجزاء ، الطبعة الثانية ، نقله إلي العربية د : حسن إبراهيم حسن ، راجعه : عبد الحميد حسن ، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م .

٤ – حسن الباشا : " الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية " ، ج١ ، ط دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٤٦ م .

٥ – سعيد مغاوري محمد : "البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا" ، مقاله في منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة سنة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م .

٦ – عبد العزيز الدالي : "البرديات العربية" ، الطبعة الأولى ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م .

٧ – عفاف سيد صبره : "المدارس في العصر الأيوبي" ، مستله من سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب٨ – عمر رضا كحاله : "أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام" ، خمس أجزاء ، الطبعة الخامسة ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .

٩ – محمد أبو زهرة : "الأحوال الشخصية ، قسم الزواج" ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٠ م .

١٠- وثائق البردي المحفوظة بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة برقم سجل تاريخ ١٧٣٥/٥، رقم سجل ١٥٩ ، ورقم ١٩٠٠ تاريخ .

ثالثاً المراجع الأجنبية :

1 - Butcher : the story of the church oh Egypt, Vol. T.

2- Popyrus louvre in J. Dovid _ weill 9 (verso) (ech _ T : 1) .

3- Pergon _ snt, svorslogends Tofel. PSR. No, 7515 _ P.erzhererzog Rainer .

4- Sterm : fatimid Decrees Oruginal Documents from the fatimid cbancery, (London, 1964) .

5- Wiet : steles funeraires catalogue du Mussee Arabe, Tom 6, (lecaire, 1946).

٤- دراسة حول مخطوطي
«أسئلة في المشكلات» و «أسئلة إلى علماء مصر»
لأحمد بابا التنبكتي(*)

المقدمة :

المخطوطان اللذان، نتناولهما بالدراسة هما "أسئلة في المشكلات" و"أسئلة إلى علماء مصر"، وهما يتناولان أسئلة فقهية مختلفة تعرض لها الفقيه أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) ، وتم إرسالها إلى علماء مصر للإجابة عنها وأخذ رأيهم في اجتهاداته الفقهية أيضاً.

وقد حصلت على نسخة من المخطوط الأول "أسئلة في المشكلات" أثناء زيارتي للمغرب من الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط في أبريل عام ٢٠٠٠م وهو تحت رقم ك٤٧٠ ضمن مجموع في الفقه ، أما المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر" فقد حصلت على نسخة مصورة منه من المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٥٣٨٢ .

وترجع أهمية هذين المخطوطين إلى إنهما من المخطوطات النادرة والهامة وقد أردنا من وراء نشرهما أن نضع وثيقة نادرة بين يدي القارئ ليتعرف على نوعية الشواغل الفكرية التي شغلت المؤلف أحمد بابا التنبكتي أحد علماء السودان الغربي المشهورين ، كما أنهما يقدمان نموذجاً للتواصل الثقافي بينه وبين علماء مصر، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة _ بالإضافة إلى المخطوطين - على مصادر أخرى لمؤلفين سودانيين وغيرهم من المؤلفين العرب والمحدثين.

(*) د. سوزى أباظة محمد حسن المدرس بقسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة .

وقد ألقى البحث في ندوة البردي والمخطوطات العربية في أفريقيا ، في ٢٦ ديسمبر ٢٠٠١م .

وقسمت هذه الدراسة إلى :

أولاً - التعريف بأحمد بابا التنبكتي وبيئته الثقافية :

ثانياً - دراسة المخطوط الأول "أسئلة في المشكلات" :

ويتضمن النقاط التالية :

١ - وصف المخطوط .

٢ - عنوان وموضوع المخطوط .

٣ - المخطوط باعتباره مصدراً تاريخياً .

ثالثاً - دراسة المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر" :

ويتضمن النقاط التالية :

١ - وصف المخطوط .

٢ - القيمة المصدرية للمخطوط .

رابعاً - المقارنة بين المخطوطين :

- الخاتمة
- الملاحق
- أولاً : نشر الصفحة الأولى والأخيرة من مخطوط "أسئلة في المشكلات" .
- ثانياً : نشر الصفحة الأولى والأخيرة من مخطوط "أسئلة إلى علماء مصر" .
- قائمة المصادر والمراجع

أولاً - التعريف بأحمد بابا التنبكتي وبيئته الثقافية :

يعتبر أحمد بابا التبكتي أحد أعلام النهضة الثقافية في السودان الغربي (سلطنة صنغاي) في خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين .

وهو أبو العباس ابن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن يحيى اكدالة بن عمر الصنهاجي التكروري ، كانت ولادته في قرية أروان بالقرب من تنبكتو(١) عام (٩٦٣هـ - ١٥٥٦م) من أسرة أقيت المسوفيين والتي اشتهرت بمكانتها العالية في العلم والفقه والقضاء وأيضاً في الفتيا والشورى(٢) ،

وبحكم الوسط العلمي الذي عاش فيه فقد تلقى تعليمه على يد والده الذي أخذ عنه الحديث سماعاً ، ودرس عليه الصحيحين وكتاب الشفاء للقاضي عياض ، ثم أستكمل بقية تعليمه على يد عمه أبي بكر بن أقيت، فأخذ عنه النحو(٣) .

ومن أهم شيوخه الذين استفاد منهم أحمد بابا وهو صغير وحضر درسه الشيخ أحمد بن سعيد سبط محمود بن عمر(٤) قرأ عليه الموطأ والمدونة ومختصر خليل وغيرها(٥) وكذلك استفاد أحمد بابا من أستاذه محمد بن محمود بن أبي بكر المعروف بَغْيغ(٦) الذي أشتهر بذياع صيته في فنون كثيرة مثل الفقه والحديث والأصول والبيان والمنطق ، فتلقى أحمد بابا تعليمه منه وقرأ عليه مختصر خليل وفرع ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق ، وحضر عليه التوضيح، وختم عليه الموطأ وحضر معه المنتقي والمدونة وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها ، وقرأ عليه حكم ابن عطاء الله ، ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها، وقرأ عليه الخزرجية في العروض ، وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام ، وسمع بقراءته كثيراً من البخاري ومسلم ومدخل ابن الحاج، وسمع بلفظه معيار الونشريسي كاملاً وأجازه وكتب له بخطه(٧) .

ومن المحن التي عاصرها أحمد بابا التنبكتي وتأثر بها الغزو المراكشي لسلطنة صنغاي (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) إذ قام محمود زرقون قائد الحملة المراكشية بالقبض عليه وعلى أهل بيته ، كما نهبت أموالهم وذخائرهم وكتبهم ، وقيل إن الكتب التي نهبت منه - وهو أقل عشيرته كتباً - بلغت ١٦٠٠ مجلداً(٨) وساقوهم إلى مراكش ، وظلوا في سجنهم حتى انصرفت عنهم المحنة في عام (١٠٠٤هـ/١٥٩٥م) .

وأحسن أحمد بابا الاستفادة من كل الظروف التي مر بها ، إذ أقبل على خزانة المنصور السعدي خلال الفترة (١٠٠٢ - ١٠١٦هـ/ ١٥٩٣ - ١٦٠٦م) يستفيد من عملها وذخائر كتبها(٩) ، فقد كانت الكتب تنهال عليه مدة وجوده مع أهل مراكش ، وكانوا يزودونه ويُحضرون إليه ما لديهم من كتب نفيسة(١٠) ، ولما خرج من المحنة طُلب منه الإقراء في جامع الشرفاء بمراكش ، فازدادت شهرته وتزاحم عليه أعيان الطلاب ولازموه لطلب الفتيا لفظاً وكتابة، وبلغت من

شهرته أنه لا يتوجه بالفتوى غالباً إلا إليه، فذاع اسمه في البلاد من السوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها(١١).

وكان لأحمد بابا مجلسان : الأول مجلس يلقي فيه دروسه على عدد كبير من الحضور، أما المجلس الأخر فكان يعقده في بيته حيث يفد عليه مجموعة من تلاميذه المغاربة(١٢) وقد ذكر أحمد بابا هذه الفترة الهامة من حياته ، فقال: "جلست بعد الإبابة بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه ، وكذا "تسهيل ابن مالك" و"ألفية العراقي" فختمت على نحو عشر مرات ، "تحفة الحكام لابن عاصم" و"جمع الجوامع للسبكي" ، و"حكم ابن عطا الله" و"الجامع الصغير" لجلال الدين السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعاً على وإسماعاً مرارا ومختصريهما وكذا "الشفا" و"الموطأ" و"المعجزات الكبرى" للسيوطي، و"شمائل الترمذي" و"الاكتفاء" لأبي الربيع الكلاعي وغيرها"(١٣).

ولقد جعلت البيئة العلمية التي عاش فيها أحمد بابا سواءً في تنبكتو أو في مراكش جعلته محيطاً وملماً بأغلب العلوم المتاحة في زمنه ، من عربية وفقهية ، فأشتهر صيته في التأليف ، وكانت مؤلفاته موزعة بين علوم مختلفة ، مثل : الفقه ، والتراجم ، والنحو ، والحديث والتصوف ، وكتب في الرسائل ، وبلغت هذه المؤلفات أكثر من أربعين مؤلفاً(١٤) .

وقد ذكر أحمد بابا في كتابه "كفاية المحتاج" أهم مؤلفاته ، فقال: "ألفت عدة كتب كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح في سفرين ممزوجاً محرراً وحواشي على مواضع منه و"الوشاح بفوائد النكاح" ، وهو مختصر "كتاب الوشاح" لجلال السيوطي وحاشيته على المختصر سميته "منن الجليل في غاية الحسن"(١٥) .

ومن أعماله أيضاً :

- "النكت الوفية بشرح الألفية" .
- و"كتاب النكت الذكية" لكنه لم يكمله .
- و"نيل الأمل في تفضيل النية على العمل" .
- و"غاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شروط الإفادة" .

- و"التحديث والتأنيث في احتجاج ابن إدريس" .
- "دفع النقمة بمجانبة الظلمة" .
- "شرح الصغرى للسنوسي" .
- "اللألي السندسية في الفضائل السنوسية" .
- "نيل الابتهاج بالذيل على الديباج" .
- "المطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب" .
- "ترتيب جامع المعيار" للونشريسي .
- "أسئلة في المشكلات"(١٦) .

ولقد استفاد طلبة العلم وشيوخ مراكش من الدروس التي ظل أحمد بابا يلقيها بجامع الشرفاء ، كما أضحى بعض تلامذته علماء مشاهير أثناء وجوده في مراكش . ويذكر "محمد زبير" "أن الفترة المغربية من حياة أحمد بابا كانت من أخصب مراحل حياته الثقافية ، فقد ألف خلال هذه الفترة القصيرة ما يزيد عن نصف مؤلفاته ، أي تسعة وعشرون أو تزيد من مجموع مؤلفاته المعروفة ، والتي يبلغ عددها ستة وخمسين مؤلفاً"(١٧) ، وهذا يبرهن على الدور الهام الذي لعبه أحمد بابا في منفاه وعن أثر ذلك في إثراء وتوسيع مداركه ونشر شهرته ، فقد فرغ من تأليف كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج _ الذي يعد أشهر كتبه في عام (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ، مما يعني أن هذا الجو العلمي ساعده على التفاعل وزيادة نشاطه العلمي ، واستمر وجوده في مراكش حتى وفاة المنصور السعدي، فأذن له ولده زيدان في الرجوع إلى بلاده مرة أخرى في عام (١٠١٦هـ/١٦٠٦م)(١٨) .

واستمر أحمد بابا في ممارسة نشاطه العلمي والتعليمي وفي إلقاء الدروس في تنبكتو ، وجلس للإقراء والتأليف مدة العشرين سنة الأخيرة من حياته حتى توفي يوم الخميس السادس من شعبان في عام (١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)(١٩) .

وهكذا كانت للبيئة التي نشأ فيها أحمد بابا أثر كبير على نبوغه في التأليف، ولعل ما يؤكد ذلك هذان المخطوطان الذين نتناولهما بالدراسة .

ثانياً - دراسة المخطوط الأول "أسئلة في المشكلات" :

هذا المخطوط الذي نتناوله بالدراسة بعنوان "أسئلة في المشكلات" وهو يتناول أسئلة فقهية مختلفة تعرض لها الفقيه أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)، وأرسلها إلى الفقيه المصري سالم السنهوري (ت ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م)(٢٠) لأخذ رأيه فيها وفي اجتهاداته الفقهية .

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى عدة نقاط هي :

١ - وصف المخطوط .

٢ - عنوان وموضوع المخطوط .

٣ - المخطوط بأعتباره مصدراً تاريخياً .

١ - وصف المخطوط :

المخطوط الذي نتناوله بالدراسة هو صورة لنسخة مخطوطة نادرة حصلت عليها الباحثة من المغرب من الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ، وهو تحت رقم ك٤٧٠ ضمن مجموع في الفقه ليس له صفحة غلاف ومكتوب على ورق بحبر أسود ، ومنسوخ عن النسخة المبيضة للمؤلف، وليست المسودة ، إذ يلاحظ عدم وجود حذف أو شطب أو تعديل ، ولا يوجد على النسخة أي تزاويق ولا تصاوير ، وصفحاته غير مرقمه ، وقد رقمته فوقع ما بين ١ظ إلى ٢٣و وقد بلغ عدد ورقاته ٢٢ ورقة مزدوجة (٤٤ صفحة) .

وكتب هذا المخطوط بقلم مغربي متأثر بمنطقة السودان الغربي ، وبصفة عامة خطه مقروء ، ولا يوجد فيه صعوبات ، ومتناسق في عدد سطور الصفحة الواحدة، وبلغ عدد سطور الصفحة ٢١ سطراً والمقاس ١٤ - ١٩ .

وقد استخدم الناسخ التعقيبة لضمان ترتيب مادة (المخطوط) ويوجد على هامش المخطوط بعض الحواشي والتصحيحات القليلة ، وأهم هذه الحواشي الحاشية التي نقلها الناسخ من خط المؤلف وهي تتعلق بنص فقهي(٢١) .

وقد ذكر في آخر ورقة من أوراق المخطوط أنه نسخة كتبها الناسخ عبد الله محمد بن محمد المختار بن أحمد بن أند غمحمد بن محمد بن اند نضربن على الولاتي التكروري ثم التنبكتي المالكي المذهب الأشعري عقيدة ، ونسخه بناءً على

طلب سيده الفقيه والعالم أبي محمد الشريف عبد الله بن الشريف محمد[٢٢] .

أما تاريخ النسخ فلا يوجد ما يشير إليه في الكتاب ، ولكن يمكن أن نرجح أنه تم ما بين سنة (١٠٣١-١٠٣٦هـ/ ١٦١٢-١٦١٧م) وهي الفترة التي قام الناسخ فيها بنسخ العديد من الكتب[٢٣] مما يدل على أنه ناسخ مقتدر مشهور .

٢- عنوان وموضوع المخطوط :

والمخطوط خال من صفحة العنوان ، لكن المؤلف يذكره بأسماء عديدة منها "قضية" و"تقرير" و"كلام كتبه من مشكلات المختصر"[٢٤] يقصد هنا المختصر الذي ألفه الشيخ بن إسحاق[٢٥] .

وقد أكد أحمد بابا على ذلك حينما عرض مؤلفه ، ففي أوله طلب الجواب عن إشكال في مسائل لقلة علمه وضعف فهمه ، وفي آخر مؤلفه ذكر أنه أخر ما تيسر كتابته في مشكلات هذا المختصر[٢٦] ، وقد ذكر هذا المخطوط بأسماء عديدة منها : "مسائل متضمنة فنوناً في صورة أسئلة" و"أسئلة في المشكلات"[٢٧] .

ويحتوي المخطوط على ستة وثلاثين إشكالاً فقهياً[٢٨] ، وجهها أحمد بابا التنبكتي إلى مفتي المالكية في مصر الفقيه سالم السنهوري، كلها عبارة عن مسائل فقهية تهم الأهالي ، فهي لم تنعزل عن الواقع الاجتماعي للسكان وحياة الناس ، فمنها :

ما يتعلق بالمعاملات بين الأفراد وشملت إشكالات في البيوع (البيوع الفاسدة، بيوع الآجال)[٢٩] ، ومنها ما يتعلق بالأحوال الشخصية، مثل خلع الثلث والخطبة والظهار والطلاق والصداق والتخيير والعدة والحيض واللعان والنفقة[٣٠] ، ومنها ما يتعلق بأوائل اليمين وفي رسم اليمين[٣١] .

ومنها ما هو اجتماعي يشمل الهدايا الحج والقسمة والمرض والتدبير ، والوصايا والوقف والنذور[٣٢] ، ومنها ما يتعلق بمشاكل الأهالي تخص الفرائض وأداء الشعائر ، في الحج والاعتمار والصوم وزكاة الفطر والأضحية والصلاة[٣٣] ، ومنها مناقشة مسائل فقهية للشيخ خليل بن إسحاق ومسألة فقهية لابن الحاجب. [٣٤] هكذا نجد تنوع في هذه المشكلات ، فشملت أموراً كثيرة تخص أحوال الأهالي .

أما الفترة التي كتب فيها أحمد بابا التنبكتي هذه الأسئلة ، فإنها تقع وقت وجوده في مراكش ما بين سنة (١٠٠٢-١٠١٤هـ/١٥٩٣-١٦٠٥م) ، وهي الفترة

التي حاول فيها إظهار كفاءته العلمية وإثبات وجوده بين علماء مراكش ومما يدل على ذلك أنه أرسلها إلى مفتي المالكية في مصر الفقيه سالم السنهوري قبل وفاته ، أي قبل عام (١٠١٥هـ/١٦٠٦م).

وكذلك أنه يذكر أثناء كتابته للأسئلة أنه تحدث مع معلمه محمد بَغْيُغ في بعض مسائل تخص البيوع الفاسدة وأجابه بجواب ضاع منه مع غيره أثناء ترحيلهم إلى مراكش(٣٥) وكان ذلك في عام (١٠١٦هـ/١٦٠٧م).

وقد تعرض أحمد بابا لهذه المشكلات الفقهية في أثناء قراءته مختصر خليل بن إسحاق ، وكذلك أثناء تدريسه لطلابه ، ومنها أيضاً أسئلة كانت ترد إليه للاستفسار عنها في المختصر ، وبها بعض اجتهاداته في بعض المسائل الفقهية التي أشكلت عليه ، ويريد أن يعرف هل هذه الاجتهادات صحيحة أم لا ، ولكي يوضحها كان لابد من الاعتماد على سند قوي موثق من شيوخ الفقه المالكي في عصره ، لهذا أرسلها إلى فقيه ومفتي الديار المصرية العالم سالم السنهوري يطلب إليه بعد العرض والتأمل والتحقيق أن يبين ما عنده نقلاً ونظراً ، كما يطلب منه أن يكتب له ما عنده من التحقيق ، ويعرفه هل اجتهاداته صحيحة أم لا(٣٦) .

وسوف أقوم بنشر هذا المخطوط وتحقيقه تحقيقاً علمياً في المستقبل إن شاء الله .

٣ - المخطوط باعتباره مصدراً تاريخياً :

يقدم نص أحمد بابا دليلاً قوياً على التواصل الثقافي بين علماء السودان الغربي وبين علماء مصر ، وتجلي هذا التواصل بكل وضوح في عهد سلطنة صنغاي(٣٧) . ومما يؤكد هذا التواصل أن الكتاب الذي بين أيدينا أرسله أحمد بابا إلى العالم المصري أبى النجا سالم السنهوري، ولنا أن نتساءل لماذا أرسل أحمد بابا إليه بالذات ولم يطلب استشارة علماء المغرب الذين شهد لهم بالرأي السديد والعلم الغزير ؟

لقد توجه إلى علماء مصر لأنه كان على دراية بمكانتهم الرفيعة في الاستشارة العلمية، وذلك من خلال تواصلهم العلمي مع أفراد أسرته، ومع أشهر العلماء السودانيين الذين كانوا دائماً يحصلون على العلم ويتزودون بالثقافة الفقهية من علماء مصر البارزين في وقتهم ويطلبون إليهم أيضاً تصويب آرائهم(٣٨) .

هذا إلى جانب أن أبا النجا سالم السنهوري في هذا الوقت كان ذا مكانة عالية في عصره وكان مفتي المالكية ورئيسها في مصر وإليه كانت تأتي الرحلة العلمية من البلاد المختلفة لمشورته والاستزادة من علمه الواسع(٣٩) .

وتتضح المكانة العلمية التي احتلها الفقيه سالم السنهوري لدى أحمد بابا من خلال العبارات الكثيرة التي ذكرها في الكتابة إليه مثل : "قد طاب ذكره في كل البلاد فأحيا من العلم ما درس وعفا وجدد ما ذهب، وأنه هو الملجأ الذي يلجأ إليه في كل ما أشكل إليه ، وذيوع صيته وشهرته في كل البلاد ، وأنه هو المحقق في السند وإليه يرجع التأمل في المسائل الفقهية"(٤٠) .

وكان أحمد بابا يقدر الفقيه المصري بألفاظ جزلة منها (الله يحفظكم ويرعاكم ويجعل الجنة مثواكم ، ويبقى بركتكم على الإسلام ويديم النفع بكم على الدوام)(٤١) .

وعند قراءة النص نجد أن المحور الأساسي فيه يدور حول مسائل من الفقه المالكي ، الذي كان سائداً في سلطنة صنغاي واهتم أهلها بدراسته وبأعلامه وأهم العلوم التي تساعد على فهمه ، والتي انتقلت إليهم عن طريق المغرب والأندلس والمشرق الإسلامي(٤٢) ، ويذكر أحمد بابا بأنهم اعتبروا الفقه من أفضل العبادات، لهذا اهتموا بكتبه اهتماماً كبيراً ودرسوه وأخلصوا في دراسته ومعرفته(٤٣) .

وفي هذا المخطوط لا تكاد تخلو ورقة من أوراقه عن ذكر فقيه مالكي وأهم النقولات الفقهية من الكتب التي ألفها في هذا المذهب(٤٤) .

فالمحور الأساسي الذي يدور حوله النص كما يحدده أحمد بابا في بداية كتابه هو التحقيق والجواب عن الإشكالات في مسائل فقهية من مختصر خليل(٤٥). وقد شاع انتشار مختصر خليل في السودان الغربي منذ بداية دخوله مع الحجيج(٤٦) حتى أصبح قاعدة للدراسات الفقهية عندهم ونال عناية كبيرة من علمائها فكتبوا فيه شروحاً وتعاليق كثيرة(٤٧) .

وقد لقى مختصر خليل الكثير من عناية أحمد بابا(٤٨) ومنها هذه المسائل التي كتبها في المخطوط الذي نتناوله.

وقد أتاحت له دراسته لهذا المختصر ، وقيامه بشرحه في فترة إقامته بالمغرب المزيد من الدراسة والبحث والإضافة(٤٩) ، وبلغت شدة اهتمام أحمد بابا

بمختصر خليل أنه كان عالماً وملماً بكل ما كتب عنه من شروح ، فقد ذكر في النص "أنه عرف أن عالم مصر (ناصر اللقاني)(٥٠) ذكر أنه إذا ما أراد وضع شرح على مختصر خليل فإنه يحتاج لمدة أربعين عاماً حتى يتمكن من تتبع ألفاظه، وتحقيقها وتنزيل النقول عليه قولاً ورداً"(٥١) ، ويذكر أحمد بابا أثناء طرحه لبعض مسائل المختصر أنه ليس أصعب عليه من تنزيل النقل على لفظ خليل في بعض المواضع(٥٢) وذكر في موضع أخر أن المختصر يحتاج "لشرح يكشف عن وجه نقابه وتسهيل صعابه حتى يصير طريفاً"(٥٣).

وهكذا يكشف المخطوط عن حقيقة هامة ، وهي انتشار تدريس المختصرات الفقهية ، فقد شاع تدريس مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل بصورة كبيرة في السودان الغربي (صنغاي) وفي المغرب أيضاً . وهذا يبين مدى الاهتمام بانتشار وشيوع المختصرات الفقهية ، وقد أكد على ذلك أحمد بابا عندما قال: "وضع الله تعالى القبول على مختصره وتوضيحه من زمنه إلى الآن عكف عليه الناس شرقاً وغرباً لدرجة أنه اقتصر على المختصر في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس"(٥٤) .

كذلك يكشف النص عن الحالة الثقافية لدى أحمد بابا ومنهجه في عرض المشكلات التي أستوقفته سواء في مختصر خليل (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) أو توضيح ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) . فهو لم يكتف بعرض الإشكالية فقط كما وجدها في المختصر ، وإنما يعرضها ويضع تصورات واجتهادات حتى لو كانت متضاربة ، ثم يقوم بتواضع العالم إلى أعمال فكره فيها معتمداً على النقول من المصادر الفقهية، وفي بعض المسائل يقوم بدور المحلل والمناقش والناقد ويقابل النصوص ويدلل على صحة كلامه، ويعرض اجتهاداته مدعمة بالنصوص الفقهية الأصلية(٥٥) .

ويكشف المخطوط أيضاً عن إلمام أحمد بابا بما دار من مجادلات ومناقشات فقهية بين علماء تبنكت تلك المدينة الثقافية المشهورة في صنغاي وهو أحد علمائها المشهورين فيعرض آرائهم ويتابع سندهم ويطلب من الفقيه سالم السنهوري تأملها من أجل الوصول إلى حقيقة القضايا المطروحة أمامه ، وهذه المسائل هي نفسها كانت محل تفسير من أحمد بابا نفسه ، وبذلك يكون ملماً بالخلافات المشهورة التي كانت محل جدال بين علماء عصره(٥٦) .

ويكشف النص أيضاً عن مكانة شيخ أحمد بابا وأستاذه محمد بَغْيُغْ فقد كان دائماً يرجع إليه ويباحثه في المشكلات ، ويستشهد بآرائه السديدة ويدعمها ، وكان دائماً يستشيره في بعض آرائه التي كان شيخه يستحسن بعضها ولا يستحسن البعض الآخر، وقد وقع كل ذلك أثناء وجود أحمد بابا بتنبكتو(٥٧) .

ويكشف المخطوط عما كان يدور في حلقات الدرس التي كان يعقدها أحمد بابا لطلابه، وما يحدث فيها من خلافات بين الطلبة في تفسير بعض المسائل الفقهية ، فكان أحمد بابا يقوم بدور كبير لحسم هذه الخلافات ، وذلك باعتماده على أصول الكتب الفقهية مثل "المدونة"(٥٨) . ففي أثناء وجود أحمد بابا في مراكش كثرت عليه طلبات الإفتاء شفاهة وكتابة بحيث كان لا يتوجه بالفتوى إلا إليه حتى ذاع اسمه من السوس الأقصى إلى بجاية والجزائر(٥٩) .

وهناك إشارة هامة في المخطوط تذكر استشارة وصلت إليه من علماء من التلمسانيين يطلبون إليه توضيح المعنى في مسألة "قول في التخيير وحضوره"(٦٠) ، ويشير النص أيضاً إلى المحنة التي تعرض لها أحمد بابا أثناء ترحيله إلى مراكش، وما أصابه من آثار على كتبه العلمية، فقد ضاع منه ما كتبه لسيده في مسألة البيوع الفاسدة(٦١) .

ويقدم المخطوط دليلاً على مدى التأثير الفكري الواضح من جانب المغرب على ثقافة السودان الغربي من خلال تداول الكتب المغربية هناك، ويُعد ذلك نتيجة لهذا التأثير الفكري(٦٢).

وقد تم الإقبال على شراء وتداول الكتب المغربية والأندلسية التي أصبحت من أهم اهتمامات تجار الصحراء ، فقد كان تجار القوافل الصحراوية يحرصون على التجارة فيها نظراً للربح الكبير الذي كانت تحققه نتيجة لزيادة الإقبال على شرائها وتداولها(٦٣) .

كما كشف المخطوط عن نقولات كثيرة من بطون الكتب الفقهية التي كانت سائدة في المغرب وانتقلت إلى السودان الغربي فكانت محل دراسة ومعرفة لدى علمائها ومنهم أحمد بابا، فلا تخلو صفحة من صفحات هذا المخطوط من هذه النقولات الفقهية ، وحاول أحمد بابا أن يربط بين هذه النصوص ليطلع على أسباب الخلاف والوفاق ويذكر أنه لم يقم بمراجعة النقول(٦٤) .

ومن أهم هذه النقولات كان بالطبع مختصر خليل (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) ومختصر ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) والشرح الكبير لبهرام (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)(٦٥) والشرح الصغير للبساطي (ت٨٢٩هـ/١٤٢٥م)(٦٦) والموازية لابن المواز (ت٢٦٩هـ/٨٨٢م) والمدونة لسحنون (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م)(٦٧) وتوضيح ابن السلام (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)(٦٨) وحاشية ابن غازي (ت٩١٩هـ/١٥١٣م)(٦٩) والعتبية للعتبي (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) وتحفة الحكام في نكت العقود والأحكام لابن عاصم الغرناطي (ت٨٢٩هـ/١٤٢٥م) مع شرحها لابنه(٧٠) .

فهذه إشارة قوية على الكتب الفقهية التي تدرس في وقته وقبله ، وهي كتب فقهية مغربية وأندلسية ومشرقية ، وذلك لأن منابع الثقافة المالكية في هذه المنطقة كانت واحدة .

ويقدم المخطوط أيضاً مجموعة كبيرة لأسماء أخرى لعلماء المالكية اشتهرت كتبهم في السودان الغربي والمغرب منهم ابن وهب (ت١٩٦هـ/٨١١م)(٧١) وابن بشير(٧٢) وابن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ/٨٢٩م)(٧٣) وابن محرز (ت٦٥٥هـ/١٣٥٦م)(٧٤) وابن ناجي (ت٧٣٧هـ/ ١٤٣٣م)(٧٥) وابن مرزوق (ت٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨م)(٧٦) ، وابن عرفه(٧٧)، وأبو عبد الله السرقسطي(٧٨) وأحمد القلشاني (ت٨٦٣هـ/١٤٥٨م)(٧٩) .

وهكذا فقد أشار المؤلف إلى عدة كتب وشروح وأسانيد كلها تدور حول الفقه المالكي، الذي كان سائداً ، وهذا واضح من اهتمام هذا العلامة بفقه مالك حتى غلب الطابع الفقهي على ثقافته ، فألف كتباً أخرى تحتوي على تراجم لرجالات وعلماء وفقهاء السودان والمغرب ذكرهم في كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" و"كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج" الذي يعتبر صيغة ثانية لكتابه نيل الابتهاج ، وهي مصادر أساسية في دراسة أعلام الفقه المالكي .

ويحتوي المخطوط على بعض النصوص الجديدة لاجتهادات فقهية لم تكن معروفة لأحمد بابا مثل : "نص جديد في مسألة الشك في الطلاق"، وآخر عبارة عن تعليق على مواضع من ابن الحاجب" ذكر أحمد بابا في أخره أنه لم يتيسر له مطالعة غير التوضيح في شراح ابن الحاجب(٨٠) ولم يقم أحمد بابا في هذا التعليق بالنقل فقط وإنما كان له اجتهاداته الخاصة ، وقد كتب هذا النص أحمد بابا قبل عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م)، كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين(٨١) .

وهذه الاجتهادات الفقهية لم تكن غريبة على ثقافة أحمد بابا وتكوينه الثقافي والفقهي المتطور ، فهو فقيه بارع أخذ شأنه في الفقه يعلو حتى أصبح له فتاوى فقهية مشهورة في عصره وألف فيها تأليفاً مثل مؤلفه "حكم استعمال التبغ" وأيضاً مؤلفه "معراج الصعود" إلى "نيل حكم مجلوب السود"(٨٢) .

أما قيمة المخطوط من الناحية المصدرية فإنها تعتمد على ما قاله أحمد بابا نفسه عندما ذكر رأيه في التآليف النافعة بقوله "رب تأليف يجمع من غرائب النقول التي لا يكاد يطلع عليها غير مؤلفه غالباً أفيد من كثير من التآليف التي فيها زوائد من مؤلفه"(٨٣) .

وإذا طبقنا هذا القول على المخطوط أحمد بابا نجد أنه يعتمد على ذكر النقول المتعددة والمداخلات الكثيرة ما يوضح أهمية التأليف وقيمته العلمية والمصدرية ، فقد ضم النص نقولات كثيرة من بطون كتب الفقه العديدة تفيد في الكشف عن سعة فكر أحمد بابا ومدى اعتماده على مصادر متعددة ومصنفات مالكية .

فقد وصفه أحد الباحثين بقوله "فقيه تحليلي في إطار مذهبه المالكي"(٨٤) وهذا واضح من خلال صفحات المخطوط . ويكشف المخطوط أيضاً عن الطريقة التي كان يتبعها أحمد بابا في ثقل تفكيره الفقهي عن طريق القراءة والتأمل والاسناد والرجوع إلى علماء بارزين والاستدلال بأكثر من رأي في المسألة الفقهية الواحدة، كما يكشف أيضاً عن التواضع العلمي فقد وصف أحمد بابا نفسه بأنه قليل العلم وضعيف الفهم ويحتاج دائماً إلى تبيان الصحيح والسليم من الأمور الفقهية التي تقف أمامه(٨٥) .

ثالثاً - دراسة المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر" :

هذا المخطوط الذي نتناوله بالدراسة بعنوان "أسئلة إلى علماء مصر" وهو نسخة مخطوطة نادرة كتبها أحمد بابا التنبكتي آخر مشاهير أسرة أقيت الصنهاجية في عام (١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م) ، وكان الغرض من تأليفه هو تجميع الأسئلة التي أُشكلت عليه وإرسلها إلى علماء مصر للإجابة عنها .

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى عدة نقاط هي :

١ - وصف المخطوط .

٢ - القيمة المصدرية للمخطوط .

١ - وصف المخطوط :

المخطوط الذى نتناوله بالدراسة هو صورة من نسخة المؤلف المخطوطة والتى كتبها بنفسه، ومن ثمَّ فهى تكشف عن ثقافته ومنهجه فى الكتابة. وقد حصلت على نسخة مصورة منه فى المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٥٣٨٢ ، وعدد ورقاته ١١ ورقة مزدوجة (٢٢ صفحة) مرقم ما بين ٦٣و إلى ٧٢ظ.

وكتب هذا المخطوط بقلم مغربى متأثر بمنطقة السودان الغربى ، وهو بصفة عامة مقروء ، ومتناسق فى عدد سطور الصفحة الواحدة ، ومسطرة الصفحة من ٢٢ سطراً إلى ٢٤ سطراً ، وقد استخدم المؤلف التعقيبة فى صفحتين فقط من الكتاب هما ص ٦٤ظ و ٧١ظ، والمخطوط خالٍ من صفحة العنوان وموجود ضمن مجموع ، ولكن عند قراءة أول صفحة من المخطوط نجد أن أحمد بابا التنبكتى يذكر سبب تأليفه بقوله "إنها أسئلة كنت قد وجهتها إلى علماء مصر" ، وفى آخر صفحة يقول "انتهت الأسئلة الموجهة"(٨٦) وعند رصد مؤلفات أحمد بابا نجد أن له مؤلفاً تحت عنوان "أسئلة إلى علماء مصر". أما عن تاريخ كتابة هذه الأسئلة فكانت فى ربيع الأول من العام (١٠١٤هـ/١٦٠٥م) ، وقد وجهها إلى علماء مصر فى أوائل ربيع الثانى من العام نفسه(٨٧).

أما عن موضوع المخطوط فهو يضم واحداً وعشرين سؤالاً تدور حول أمور متعددة ، منها: استجابة الدعاء، ومعنى بعض الأحاديث، وأسئلة تتعلق بدعوة المنجمين، والأذكار الواردة عقب الصلاة، وأسئلة أخرى فقهية، وأخرى تتعلق بالنحو وأسرار الحروف والمنطق(٨٨).

وسوف أقوم بتحقيق هذا المخطوط في المستقبل إن شاء الله .

٢ - القيمة المصدرية للمخطوط :

يكشف المخطوط عن مجموعة من المعلومات الهامة ، منها :

أن هذه الأسئلة التى وجهها أحمد بابا إلى علماء مصر كانت ضمن الشواغل الفكرية التى أشكلتْ عليه أثناء دروسه ، سواء فى تنبكت أو فى مراكش. واستوقفته وسئل عنها وشاهد بنفسه شيوعها فى المجتمع ، فأراد أن يعرف رأى علماء مصر فيها لوضع الحل السليم خاصة أن هؤلاء كان مشهوداً لهم بالرأى

السديد والمشورة العلمية ، فنجده يستكثر من العبارات داخل المخطوط لطلبه هذا بقوله "حدثونى بما عندكم من ذلك نقلاً وعقلاً" ، "وبينوا لنا أيدكم الله ما عندكم من ذلك منقول ومعقول" ويذكر أنه لا يتبع سوى أجوبتهم(٨٩).

ونجده أيضاً يستكثر من عبارات الثناء والدعاء لهم مثل قوله "أدام الله تعالى معاليكم "أسعد مساعيكم" الله يرعاكم ولسبل الخيرات يرقيكم، أدام الله عزكم، والله يزيدكم علماً نافعاً"(٩٠) فكل هذه العبارات تدل على مكانة علماء مصر فى نفس أحمد بابا التنبكتى.

ويقدم المخطوط دليلاً قوياً على الصلات الثقافية بين علماء السودان الغربى ومصر، ويكشف عن نوعية الحوار الذى كان يدور بينهما، وكانت هذه الصلات الثقافية تتركز فى أسئلة واستفسارات أشكلت عليهم ، وأحياناً كانت لهم أراء فى بعضها ويريدون أن يعرفوا منهم الإجابات الصحيحة وآراءهم السديدة التى كانوا دائماً يضعونها موضع تقدير واحترام.

ويمكن أن نعتبر هذه الأسئلة استمراراً لأسئلة أخرى أرسلها أحمد بابا التنبكتى إلى علماء مصر قبل عام ١٠١٠هـ/١٦٠٠م حول بعض الأسئلة التى يكتنفها الغموض وعدم الإيضاح فى مختصر خليل ، وفى بعض اجتهاداته الفقهية ويريد أن يعرف هل اجتهاداته صحيحة أم لا(٩١).

ويعتبر هذا دليلاً قوياً على استمرار الصلات والحوار مع علماء مصر ، وأن هذه الصلات لم تنقطع رغم وجود أحمد بابا فى مراكش ببلاد المغرب ، وأغلبية هذه الأسئلة أسئلة فقهية تتفق مع الثقافة الفقهية التى كانت شائعة فى المغرب وفى السودان الغربى ، وكان منبعها هو الفقه المالكى الذى كان سائداً هناك، ويرجعون إليه كل أمور حياتهم.

ويقدم المخطوط عدداً من الأسئلة التى شغلت أحمد بابا التنبكتى ، وكانت تمس جوانب متعددة من مكانة الإسلام وشرائعه فى حياة الناس ، وكان منها ما يخص أداء الفرائض والشرائع التى فرضها الإسلام. وهى تعكس ما كان سائداً ويمارس عندهم ، وقد سعى فئة العلماء ومنهم أحمد بابا فى طلب الإجابة الشافية عما يمارس ، ويطلبون الرأى السليم فى أداء هذه الممارسات من كبار العلماء الذين يعتمدون على الكتب الفقهية الأساسية السائدة .

وقد بلغ عدد الأسئلة عن معنى الأحاديث المختلفة حوالى عشرة أسئلة(٩٢) ، فقد كان أحمد بابا ملماً بالحديث الذى أخذه عن والده(٩٣) وزاد اهتمامه بعلم الحديث أثناء وجوده مع أهل العلم بمراكش(٩٤). ورغم قيامه بسماعه وبتدريسه فقد أشكلت عليه بعض الأحاديث فكان يستفسر عن معانى البعض منها ويستشهد بآراءه بعض العلماء المشهورين وأقوالهم وذلك من خلال الرسائل المتبادلة بينه وبين علماء مصر. وكان يعتمد على نقولات من كتب الأحاديث المشهورة المتوفرة لديه مثل حديث مسلم والإمام أحمد والطبرانى وحديث أبى داوود ، وحديث ابن السنى عن أبى هريرة وحديث "الموطأ" وحديث "الترمذى" ، وحديث بعض الائمة المتأخرين، كحديث ابن مردوبة عن أنس، وحديث الحاكم والبيهقى عن أبى هريرة والنووى(٩٥)، ويذكر المخطوط أن من ضمن الأسئلة التى طلب التحقيق والتأمل فيها بعض المسائل الموجودة فى كتاب القاضى عياض السبتى(٩٦).

كما يقدم المخطوط دليلاً على استشهاد أحمد بابا بما قاله أهل المائة التاسعة من الشافعية حول معنى أحد الأحاديث(٩٧) ، فهذا يكشف عن ثقافة أحمد بابا الموسوعية لبقية المذاهب الدينية الأخرى مثل المذهب الشافعى ، فقد كانت له مراسلات مع شيخ علماء الشافعية بمصر بعد ذلك بعام فى ١٠١٥هـ/١٦٠٦م وهو العالم صالح البلقينى المصرى الذى قام بتقريظ مؤلفاته وعمل على نشرها بين طلبة العلم بالجامع الأزهر ، وعنهم انتقلت إلى بلاد اليمن وبلاد الحجاز(٩٨) ، ويذكر فى كتابه أنه على معرفة تامة بما قاله تاج الدين السبكى(٩٩) بمصنفاته واطلع على شراحه .

ويكشف المخطوط أيضاً أن أحمد بابا ناقش رأى الحنفية فى بعض الأسئلة وكان يعرض رآيه، ثم يطلب التأمل(١٠٠) ، وهكذا نجد تنوعاً فى الأسئلة إذ تناقش أراء متعددة منها فى المذهب الشافعى والحنبلى والحنفى مما يشير إلى التيارات الفكرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وإلمام أحمد بابا بمضموناتها الفكرية المختلفة.

ومن ضمن الشواغل الفكرية التى تبينها الأسئلة أيضاً أنها احتوت على دعوة إلى التأمل فى بعض أقوال السنوسى(١٠١) فى علم التوحيد ، فمن المعروف أن علم التوحيد كان من أهم العلوم التى شغلت فكر أحمد بابا التنبكتى ، وكان له مؤلفات فيه(١٠٢) وهذا دليل على الاهتمام والعناية بكل ما يرتبط بالعلوم

الشـرعية، فاهتم بمعرفة بعض أقاويل علماء هذا العلم ، إذ إنه كان محل جدال وحوار فى حلقات الدرس سواءً فى تنبكت أو فى مراكش.

كما يقدم المخطوط أيضاً صورة من حوار العلماء حول المسائل العلمية التى احتاجت إلى جدال واستشارة بينهم فى علم النحو ، كما شغل أحمد بابا بانتشار استعمال الحروف المقطعة أو المجتمعة فى كلمات غير واضحة المعنى يزعم كاتبها أنها أسماء الله الحسنى ويسأل هل يجوز استعمالها أم لا(١٠٣) كما أنه يسأل عن استعمال علم أسرار الحروف والأوفاق فى أشياء يمنعها الشرع ، وبخاصة أن هذا العلم يتوقف على الخوض فى علم النحو والأوفاق العددية المبنية على الطبائع العجمية(١٠٤). ويسأل هل هذا العلم موجود فى زمن السلف الأول من الصحابة والتابعين وهل كان مشهوراً بينهم أم لا.

ويبين المخطوط طلبه التأمل والتحقيق فى كلام ابن البنا(١٠٥) وابن العباس البونى(١٠٦) وغيرهم من علماء علم أسرار الحروف(١٠٧) ، فهناك خمسة أسئلة يطلب التأمل والتحقيق فى أقاويل هؤلاء العلماء فيها. وهذا يعتبر دليلاً على أن هذا العلم كان من شواغله التى رغب فى السؤال عنها ، ويؤكد المخطوط أيضاً على رغبة أحمد بابا فى معرفة المزيد من علم المنطق ، فقد استشهد بآراء علماء الأندلس ومنهم أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه "الحوادث والبدع"(١٠٨) وكل هذه تعتبر من الخواطر التى شغلته.

يكشف المخطوط أيضاً عن بعض الظواهر التى كانت سائدة فى مجتمع السودان الغربى منذ القدم، هى انتشار وجود المنجمين ومن يسير على أقوالهم فى التشاؤم ببعض أيام السنة، واعتبار بعض الأزمنة مفرحة ، وبعضها عكس ذلك. وهذا دليل على التطير المنهى عنه(١٠٩). وهذه الظواهر كانت موجودة منذ القدم ، ولما دخل الإسلام هذه المناطق لم يتخلص الأهالى من ممارستها(١١٠) فعهد العلماء على بيانها وتوضيحها للناس حتى لا يستمروا فى ممارساتها ، وكانت هذه من ضمن الشواغل الفكرية التى سأل عنها أحمد بابا علماء مصر نظراً لانتشارها فى المجتمع.

وثمة إشارة فى هذا المخطوط أيضاً وهى حكم أحمد بابا على زمانه بأنه زمان كثرت فيه الشرور والبدع والمعاصى وقل فيه الخير(١١١) وهذا حكم ووجهة

نظر عالم وفقيه يرجو للمجتمع الذى يعيش فيه أن يكون مثالياً لا تكثر فيه المعاصى ولا البدع ، ويعتبر هذا السؤال آخر ما يرصد من الأسئلة التى طرحها أحمد بابا لعلماء مصر .

ويتبين من هذا المخطوط الحالة الثقافية لدى أحمد بابا التنبكتى وما يمثله تاريخ هذه الأسئلة بالنسبة له وبالتحديد عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥ وهذا التاريخ يعتبر مرحلة هامة من مراحل تطور الثقافة الفكرية لديه ، فقد حاول الاستفادة من كل ما يحيط به من ذخائر ونفائس الكتب الفقهية والمذهبية التى توفرت له أثناء وجوده بمراكش ، واطلاعه على ذخائر الخزانة السعدية وقيامه بالتدريس والإفتاء بجامع الشرفاء(١١٢)، لذا كان ملماً بما يدور حوله فنجده لم يكتف بدور عرض السؤال فقط وإنما يقوم بدور المجتهد الذى يعبر عن رأيه فى بعض هذه الأسئلة التى استوقفته ويدعم أسئلته بأدلة وأسانيد معتمدة وموثقة من المصادر(١١٣).

هذه خلاصة ما ترصده الأسئلة الموجودة في المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر"

رابعاً : المقارنة بين المخطوطين :

بعد دراسة مخطوطي أحمد بابا التنبكتي "أسئلة في المشكلات" و"أسئلة إلى علماء مصر" من المفيد أن نعقد مقارنة بينهما :

فبالنظر إلى المخطوط الأول نجد أنه عبارة عن صورة لنسخة مخطوطة كتبها ناسخ من نسخة المؤلف(١١٤) ، أما المخطوط الثاني فهو صورة من نسخة المؤلف المخطوطة والتي كتبها بنفسه(١١٥) .

كما أنه لا يوجد فصل زمني طويل بين فترة كتابة المخطوطين إذ نجد أن المخطوط الأول "أسئلة في المشكلات" كتبه أحمد بابا التنبكتي على ما يبدو قبل عام (١٠١٠هـ/١٦٠١م) أما المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر" فكتبه عام (١٠١٤هـ/١٦٠٥م) كما ورد من نص المخطوط (١١٦).

كما أن الأسئلة في المخطوطين كانت من ضمن الشواغل لفكرية التي أشكلت على أحمد بابا التنبكتي في أثناء دروسه في مدينة تنبكت أو في مدينة مراكش واستوقفته وأراد السؤال عنها من العلماء المصريين ، فكان المخطوط الأول "أسئلة

في المشكلات" يحتوي على ستة وثلاثين أشكالاً فقهياً وجهت إلى الفقيه سالم السنهوري مفتي المالكية في مصر وتدور أغلبها حول مختصر خليل بن إسحاق وفيها بعض اجتهادات فقهية من أحمد بابا نفسه(١١٧) .

أما المخطوط الثاني "أسئلة إلى علماء مصر" فهو يحتوي على واحد وعشرين سؤالاً تدور حول أمور متعددة ومتنوعة منها أمور فقهية ، ومنها ما يخص المجتمع بالإضافة إلى طلب التحقيق والتأمل في بعض المسائل الموجودة لدى بعض الفقهاء المشهورين في علوم مختلفة مثل علم التوحيد وعلم أسرار الحروف والأوفاق(١١٨) .

ورغم أن المخطوط الثاني يحتوي على عدد أسئلة أقل فإنها شاملة ومتنوعة في مضمونها تخص أموراً في الفقه وأموراً في العلم والثقافة أما طريقة عرض الأسئلة في المخطوطين فنجد أنها واحدة ، فأحمد بابا يقوم بدور المجتهد الذي يعبر عن رأيه في عرض السؤال ويدعم هذا الرأي بأدلة وأسانيد موثقة من مصادر ثقافته الفقهية المختلفة والمتنوعة .

وعبارات الثناء التي أثنى فيها أحمد بابا على العلماء المصريين أثناء عرضه للأسئلة هي عبارات متشابه تشابهاً كبيراً(١١٩) .

وأخيراً نجد أنه لا توجد ثمة تشابه بين الأسئلة في المخطوطين ومن الممكن أن نعتبرها مكملة أحدها للأخر .

على أن أهم ما يشير إليه المخطوطان هو استمرارية الصلات الثقافية والحوار مع علماء مصر وأن هذه الصلات كانت بصورة دائمة .

الخاتمة

بعد هذا العرض للمخطوطين يمكننا أن نضع أيدينا على عدة حقائق هامة وهي :

أن مؤلف المخطوطين هو أحمد بابا التنبكتي يمثل نموذجاً من نماذج علماء السودان الغربي البارزين الذين تشبعوا بالثقافة الفقهية السائدة في عصره ، وكان له دور وإسهام في الإنتاج الفكري ، فترك لنا مؤلفات وخواطر واجتهادات كان منها هذان المخطوطان اللذان قمنا بدراستهما .

وأن الفقه المالكي قد حظى باهتمام كبير لدى علماء السودان الغربي فشاع تدريس المختصرات الفقهية في تنبكت مثلما كان سائداً في المغرب ونال مختصر خليل بن إسحاق عناية كبيرة من أحمد بابا فقام بقراءته ودراسته فترة إقامته في صنغاي والمغرب ، مما أتاح له فرصة للمزيد من البحث والإضافة ، فكان له بعض الاجتهادات في بعض المسائل التي أستوقفت علماء تنبكت وعلماء تلمسان حول هذا المختصر.

وكان له اجتهادات في مسائل أخرى ، منها هذه الشواغل الفكرية التي أشكلت عليه أثناء دروسه سواء في تنبكت أو مراكش ، وأن هذه الشواغل كانت متعددة في جوانب مختلفة منها ما يتعلق بمسائل فقهية تمس أحوال الناس يطلب التأمل والتحقق فيها ، وهي تمثل التيارات الفكرية التي كانت سائدة في عصره .

ومنها شواغل عن العلوم التي كانت سائدة وكانت محل حوار بين علماء السودان الغربي وعلماء مصر مثل علم النحو وعلم أسرار الحروف والمنطق ، ومنها أيضاً كشف لبعض الظواهر التي شاعت في المجتمعات السودانية منذ القدم مثل وجود المنجمين ، وكان لأحمد بابا آراء في بعض هذه الأسئلة والاستفسارات والاجتهادات التي كان يدعمها بأدلة وأسانيد موثقة من كتب لعلماء المالكية المشهورين . ففي بعض المسائل كان يقوم بدور المحلل والمناقش ويقابل النصوص ويدلل على صحة كلامه بنصوص فقهية مختلفة .

وبذلك يتضح مدى تأثير الفقه المالكي في الثقافة داخل مجتمعات السودان الغربي خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

الخلاصة : يظهر من خلال دراسة هذين المخطوطين قيمتهما كمصدر تاريخي مهم لثقافة أحمد بابا التنبكتي وشواغله الفكرية المتنوعة، وأيضاً يقدمان نموذجاً هاماً للتواصل الثقافي والحوار بين علماء مصر وبين علماء السودان الغربي الذين كانوا دائماً يسترشدون بآرائهم السديدة، وأن هذا الحوار كان مستمراً ولم ينقطع ، فكانوا دائماً يضعون آراء علماء مصر في موضع تقدير واحترام .

وكل هذا يعد شاهداً حياً على الحالة الفكرية والثقافية التي استوعبتها الذهنيات في المجتمعات السودانية ، ومدى انعكاس ذلك على الصلات القوية بين علماء البلدين .

هوامش البحث

١ - مدينة تُنبُكْتُو ، بضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء والواو ذكرها السعدي بقوله "مادنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والذاهدين" وكانت مركزاً للتعليم الإسلامي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدهرت فيها تجارة الكتب ونسخ الكتب ، وقد وصفها حسن الوزان وصف دورها ومساجدها وقصورها ونشاطها التجاري والعلمي ، وحول تفاصيل نشأة المدينة وتطورها انظر :

السعدي : تاريخ السودان ، طبعة بردين ١٨٩٨ ، ص٢٠ - ٢٤ ، الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة ، راجعه الدكتور على عبد الواحد، طبعة الرياض ١٣٣٩هـ، ص٥٤٠ - ٥٤٢ ، محمد حجي ، ابن بطوطة والحسن الوزان في بلاد السودان الغربي وراء الصحراء - مجلة المناهل - عدد خاص عن ابن بطوطة ، عدد٦٠ ، يناير ٢٠٠٠ ، ص٦٠ .

٢ - أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشوراه كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى١٩٨٩، ص١١-١٨ .

ونظراً لمكانة هذه الأسرة العلمية والثقافية ذكرها السعدي في كتابه تاريخ السودان، ص٢٧ - ٣٧ - ٥٦ .

Cuoq.J. , la famille Aqit de tombouctou , revue de L'institut des belles lettres Arabes 1978., m41, Premier Semestre : P.86 , 96.

٣ - أحمد بابا : المصدر السابق ، ص١١ - ١٨ ، حسن الصادقي : مخطوطات أحمد بابا التنبكتي في الخزائن المغربية ، منشورات جامعة محمد الخامس، معهد الدراسات الأفريقية، الرباط١٩٩٦، ص٦ .

٤- أحمد بن سعيد سبط محمود بن عمر ولد عام (٩٣١هـ/١٥٢٥م) ، ودرس وتلقى تعليمه على يد جده لأمه في الرسالة وخليل ، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة ، جلس للتدريس من عام (٩٦٠-٩٧٦هـ/ ١٥٥٢-١٥٦٨م) وانتفع بعلمه الفقيهان محمد وأخوه أحمد ، وكانت له تأليف واستدراكات في الفقه وأيضاً حاشية على خليل ، واعتمد فيها على النقل والبيان والتحصيل ، توفي عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) . انظر

أحمد بابا : المصدر السابق ، ص١٤٢ ، ١٤٣ ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع - طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، بالرباط (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، جـ٢، ص١٣٩ .

٥ - أحمد بابا / نيل الابتهاج ، ص١٤٣ .

٦ - محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي ولد في عام (٩٩٣هـ/١٥٨٥م) يعرف ببَغْيغُ ، وأشتهر بحبه للعلم وأهله وأيضاً أشتهر بحبه للكتب نسخاً أو شراءً ، وهذه الكتب كان يعطيها لأي أحد يطلبها حتى ولو كان لا يعرفه ، وكان دائم القراءة من صلاة الصبح إلى وقت الضحى ، ثم يدرس إلى العصر ، وإذا صلى المغرب دّرس في الجامع إلى العشاء، وتعددت المنابع التي استقى منها علمه ، فقد أخذ العربية والفقه على أبيه القاضي الصالح محمود ، ولازم الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر ، وحجّ ، وفي مصر ألتقى بالعالم ناصر اللقاني والتاجوري والبحيري والشريف يوسف والبرهمتويتي الحنفي، ومن كل هؤلاء تعلم واستقى علماً كثيراً .

وقد استوطن في تنبكتو وأخذ الفقه والحديث عن ابن سعيد وقرأ عليه المدونة والموطأ والمختصر وأخذ عن والده الأصول والبيان والمنطق فقرأ عليه أصول السبكي ، ومن أهم مؤلفاته تعاليق على هفوات لشرح خليل وغيره ، وتتبع التتائي الكبير من أوله إلى آخره وله فتاوى عديدة وتوفى عام (١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) . انظر

نفس المصدر ، ص٦٠٠ - ٦٠٢ .

٧ - نفس المصدر ، ص٦٠٢ ، ٦٠٣ .

٨ - أحمد بابا : كفاية المحتاج ، جـ٢ ، ص٢٨٣ .

الإفراني : نزهة الحاوي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الدالي، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، الدار البيضاء ،ص١٧١ ، الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء ، تحقيق الدكتور عبد الكريم، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط ١٩٧٧، ص١٧٣ ، محمد الغربي؛ بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، طبعة بغداد١٩٨٢ ، ص ٥١٩.

٩ - محمد قرقزان : "أحمد بابا علم النهضة الثقافية في غرب أفريقيا" ضمن بحوث الندوة التي عقدها - إيسيسكو بعنوان أحمد بابا التنبكتي ، بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ، ص١٣٠ .

١٠ - محمد بنشريفه : إفادة أحمد بابا التنبكتي من الخزانة المغربية ضمن بحوث ندوة أحمد بابا - إيسيسكو (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ، ص٨٠ .

١١ - أحمد بابا : كفاية المحتاج ، جـ٢ ، ص٢٨٤، ٢٨٥ .

١٢ - محمود عبدو زبير : السيرة الذاتية لأحمد بابا التنبكتي ، ضمن بحوث الندوة التي عقدها إيسيسكو ، عام١٩٩٣ ، ص٧٥ .

١٣ - أحمد بابا ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٨٤ .

١٤ - أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص١٨ ، محمد بلو بن عثمان : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الأفريقية ، الرباط١٩٩١ ، ص٣٢١ ، المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ، جـ١ ، ص١٧١ .

١٥ - أحمد بابا ، كفاية المحتاج ، جـ٢ ، ص٢٨٢ .

١٦ - نفس المصدر والجزء ، ص٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ولمزيد من القراءة حول مؤلفات أحمد بابا ، انظر حسن الصادقي ، مرجع سابق ، ص١٤ _ ٤٣ .

١٧ - محمود عبدو زبير : السيرة الذاتية لأحمد بابا التنبكتي ، ضمن بحوث الندوة إيسيسكو ، عام١٩٩٣ ، ص٧٥ .

١٨ - الإفراني : مصدر سابق ، ص١٧٢ .

١٩ - المحبي : مصدر سابق ، جـ١ ، ص١٧١ .

٢٠ - هو ابن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين ابن عز العرب أبو النجا السنهوري ، ولد بسنهور ووفد إلى مصر وعمره إحدى عشرة سنة ، وتعلم وأخذ العلم على يد مجموعة من العلماء ، وأخذ عن الإمام المسند النجم محمد بن أحمد بن على بن أبي بكر الغيطي الأسكندري ثم المصري صاحب المعراج ، وأخذ عن الإمام محمد البنوفري المالكي ، كما أنه أدرك الناصر اللقاني وأخذ عنه ، وكان السنهوري في عصره مفتي المالكية ورئيسها وإليه كانت تأتي الرحلة من الأفاق ، وله مؤلفات كثيرة منها : حاشية على مختصر الشيخ خليل في الفقه ، ومنها رسالة في ليلة النصف من شعبان وغيرهما:

توفى في يوم الثلاثاء جمادي الأخرة سنة خمس عشرة بعد الألف ، ودفن بمقبرة المجاورين وقد بلغ نحو سبعين عاماً ، وأرخ بعضهم في وفاته بقوله :

مات شيخ الحديث بل كل علم   سالم ذو الكمال أفضل حبر

قلت من غير غاية لبكاء   أرخوه قد مات عالم مصر

انظر : المحبي : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص٢٠٤

٢١ - أحمد بابا التنبكتي : مخطوطة "أسئلة في المشكلات" ، الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك٤٧٠ ، ص١٩ .

٢٢ - نفس المصدر، ص٢٣ .

٢٣ - ذكر الدكتور حسن الصادقي في دراسته لمخطوطات أحمد بابا التنبكتي أن الناسخ قام بنسخ العديد من المخطوطات منها : مخطوط "إرشاد الواقف على تحرير وخصصت نيه الحالف" ، ومنها أيضاً مخطوط بعنوان "إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع" أو "النكت اللوامع في مسئلة النكاح بالمنافع" ، ومخطوطة "إمتاع الأسماع بما قيل

من إجراء ألفاظ ورواة الحديث مجرى السماع" ، ومخطوطة "خمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر" ، ومخطوطة "الزند الوري في مسألة تخيير المشتري" ، ومخطوطة "غاية الأمل في فضل النية على العمل" ، ونسخ مخطوط "فتح الرزاق في مسئلة الشك في الطلاق" ، ونسخ "مخطوطة وسيلتي وشافعتي في ثبوت الاستدلال بألفاظ الإمام الشافعي" ، ولمزيد من التفاصيل ، انظر

حسن الصادقي : مرجع سابق ص١٥، ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٥.

٢٤ - انظر ، أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، صفحات ٣ظ ، ص١٥و،ص١٦و، ص٢٣و .

٢٥ - هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب عرف بالجندي ضياء الدين ، ويعتبر من علماء القاهرة البارزين في مذهب مالك ، كان يداوم على عقد مجالس لإقراء الفقه والحديث والعربية والفرائض ، وقد قرأ على يد علماء مشهورين، منهم على الرشيدي في العربية والأصول ، وعلى يد الشيخ المنوفي في فقه المالكية ، واشتغل بالتدريس والإفتاء بالشيخونية .

ومن أهم مؤلفاته "مختصر في المذهب" الذي وضح فيه المشهور مجرداً مع الإيجاز البليغ ، فقد أقبل عليه الطلبة ودرسوه ، ونظراً لأهمية مختصره فقد كثرت عليه الشروح والتعاليق حتى عليه أكثر من ستين تعليقاً ما بين شرح وحاشية ، ويذكر الإمام العلامة خليل بن إسحاق سبب تأليفه للمختصر "أن جماعة طلبوا منه مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس يضمنه ما له من فتاوى أي يذكر القول الراجح الذي قوى دليله من الكتاب أو السنة أو المشهور الذي قال به كثير من علماء المذهب الذين درسوا أصوله وعرفوا أدلته" ويعتذر لما وقع في هذا الكتاب من تقصير ... فقلما يخلص مصنف من الهفوات .

كذلك كان لخليل بن إسحاق تصنيفات أهمها شرحه على ابن الحاجب الذي كان له قبول كبير من الناس ، وكان له شرح آخر مثل شرحه على ألفية ابن مالك ، وشرح على المدونة لم يكمل ، ويقال إن مختصره لخص منه في حياته حتى موضوع النكاح ، أما بقيته فقد وجد في تركته في أوراق مسودة جمعها أصحابه ، وضموه لما لخص فأكملوا الكتاب . وكانت وفاته عام ستة وسبعين وسبعمائة ، انظر :

خليل بن إسحاق بن موسى : مختصر خليل في فقه الإمام مالك ، طبعة القاهرة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م ، ص٢، ٣، أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص١٦٩ - ١٧٢ ، كفاية المحتاج ، جـ١ ، ص ١٩٨ - ٢٠٠١ .

٢٦ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، ص ١ظ ، ص٢٣و .

٢٧ - المحبي : مصدر سابق ، جـ١ ، ص١٧١ ، محمد بلو : مصدر سابق ، ص٢٢٠ .

٢٨ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، ص ٢و - ص ٢٢ظ .

٢٩ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات، ص ٢و، ص ٢ظ ، ص ١٠ظ ، ص٢٢ظ .

٣٠ - نفس المصدر : صفحات ٢ظ، ٤ظ، ٥و، ٧و، ١٣ظ، ١٥و، ١٦و، ١٦ظ، ١٧ظ، ١٨ظ، ٢١و، ٢٢ظ .

٣١ - نفس المصدر : ص ٣و .

٣٢ - نفس المصدر : صفحات ٢و، ٤ظ، ١٠و، ١٢و، ١٢ظ، ١٩ظ .

٣٣ - نفس المصدر: صفحات ٣ظ، ٤ظ، ٨ظ، ١٠و، ١١و، ١١ظ، ١٢و، ١٨و، ١٩ظ، ٢٠و، ٢٠ظ .

٣٤ - ابن الحاجب هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الرويني ، ثم المصري الدمشقي ثم الإسكندري المعروف بابن الحاجب ولد عام (٥٩٠هـ/١١٩٣م) تفقه على مذهب مالك وبرع في العربية والقراءات وبرع في العلوم الدينية وأتقنها ، أستوطن مصر ثم استوطن الشام ثم رجع إلى مصر فاستوطنها وأهم مؤلفاته : كتاب "الكافية" في النحو وآخر في التصريف سماها "الشافية" وأهم كتبه الدينية : له مختصر في أصول الفقه ، ثم اختصره فاهتم به الناس شرقاً وغرباً ، كذلك صنف في القراءات والعروض وله "الأمالي" في ثلاثة مجلدات . و"شرح المفصل" للزمخشري، و"نظم الكافية" سماه "الوافية في نظم الكافية" ، توفي عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .

انظر: ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب دراسة وتحقيق - مأمون بن محيى الدين الجنان ، دار الكتب العلمية _ بيروت _ الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص٢٨٩ - ٢١٩ .

٣٥ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، ص ٢و .

٣٦ - نفس المصدر : صفحات ٢ظ، ٤ظ، ٧و، ١١ظ، ١٨ظ، ٢٢ظ .

٣٧ - فهناك دلائل كثيرة على استمرارية هذا التواصل في عهد سلطنة صنغي منها رسالة من أحد علماء صنغي المشهورين ، وهو الفقيه شمس الدين محمد اللمتوني ، أرسلها إلى جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ/ ١٤٤٥-١٥٠٥م) في عام (٨٩٨هـ/١٤٩٣م) تدور حول مسائل وتساؤلات فقهية مختلفة تحت عنوان : "مطلب الجواب بفصل الخطاب" ، وكان رد السيوطي عليها واضحاً في بيان الأوجه الصحيحة والإجابة عن هذه الاستفسارات بعثها إلى بلاد التكرور في رسالة سماها "فتح المطلب المبرور برد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور" انظر

السيوطي : الحاوي في الفتاوي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،جـ١، ص ٤٤٢، ٤٤٣ ، الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، حققه جبرائيل سليمان جبور، طبعة بيروت ١٩٤٥ ، جـ١ ، ص٢٢٨ ، سوزي أباظة : صورة لمجتمع غرب أفريقيا من خلال أسئلة اللمتوني والأسكيا ، ضمن ندوة الإسلام والمسلمون في أفريقيا، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طبعة ١٩٩٨ ، ص٦٢ - ٧٧ .

٣٨ - يذكر ذلك أحمد بابا عندما تحدث عن الفقيه بن عبد الله الانصمني المسوفي (ت٩٥٠هـ/١٥٤٣م) أنه كانت له تأليف في جزء من وجوب الجمعة بقرية انصمن خالف غيره من شيوخ بلده فجاء إلى مصر لاستبيان الصواب .

أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص٣٥٣ .

٣٩ - المحبى : مصدر سابق، جـ٢، ص٢٠٤.

٤٠ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، صفحات ١ظ، ٢ظ، ٤ظ، ٥ظ، ٧و، ١٥و.

٤١ - نفس المصدر ، ص ١٨ظ ، ص ٢٣و .

٤٢ - محمد الظريف : التواصل الثقافى بين المغرب والسودان خلال القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين، ضمن أعمال ندوة أحمد بابا التنبكتى، ايسيسكو ١٩٩٣م، ص٦١.

أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص٣٥٣ .

٤٣ - أحمد بابا التنبكتى : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، تحقيق سعيد سامى، المملكة المغربية جامعة محمد الخامس، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٢٩-٣٥.

٤٤ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، ص ٢و _ ص ٢٣ظ.

٤٥ - نفس المصدر: ص ٢و.

٤٦ - ويرجح أن الحجاج قد أخذوه إلى بلادهم إبان حجة السلطان منساموسى سلطان مالى فى القرن الثامن الهجرى وذلك لأن هذا السلطان قد عاصر حياة مؤلفه، ولكنه لم ينتشر بصورة كبيرة إلا فى عهد سلطنة صنغى فأصبح قاعدة للدراسات الفقهية عندهم.

عبد العزيز العلوى : التأثيرات الدينية والفكرية المغربية على السودان الغربى الوسيط، جـ٢، ص٣٦٢ .

٤٧ - كان أول من بدأ الاهتمام به وألف فيه كتاباً فى جزأين وجعله محل مجادلة ومناقشة بين العلماء هو القاضى والفقيه أمام تنبكت محمود بن عمر بن محمد أقيت (٧٦٧-٩٥٥هـ/١٤٦٣-١٥٤٧م) ذاع صيته وأخذ العلم منه جماعة منهم : والد أحمد بابا وأولاده الثلاثة القضاة محمد والعاقب وعمر وغيرهم، وكان كثيراً ما يقرأ مختصر خليل وعنه انتشر إقراؤه هنالك.

أنظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٦٠٧، ص ٦٠٨ ، السعدى : مصدر سابق ، ص ٣٨.

وقد سار على ضربه عدد من العلماء، كانت لهم تعاليق وحواشى على مختصر ، وهما بالترتيب : الفقيه محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى (٨٧٤-٩٣٦هـ/ ١٤٧٠-١٥٢٩م)، المحقق والمحدث الذى رحل إلى تكدة ثم إلى الشرق والتقى بجماعة من العلماء أخذ منهم الحديث ثم رحل إلى بلدة كشن وتولى القضاء بها وتوفى عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) ومن أهم مؤلفاته "تقاليد على مختصر خليل".

ومنهم الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت (٩٢٩هـ-٩٩١هـ/١٥٢٢م-١٥٨٣م) قام برحلة حج ولقى جماعة من العلماء، ثم عاد إلى بلاده، وكانت له تأليف منها / شرح تخميسات العشرينيات الفازازية وشرح منظومة المغيلى، ومن أهم كتاباته "تعاليقه على شراح الخليل" مثل تعليقه على ما كتبه محمد بن إبراهيم التتائى وشرحه على المختصر فى كتابين الأول اسمه "فتح الجليل" والأخر اسمه "جواهر الدرر" وكتب حاشية بين فيها مواضع السهو من خليل وعلى شرحه للتتائى.

انظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ١٤١، ١٤٢، ٥٨٨ ، والسعدى : مصدر سابق، ص ٤٣.

ومنهم الفقيه أحمد بن سعيد الذى كانت له حاشية على خليل أهتم فيها بالنقل والبيان والتحصيل، عاصره أحمد بابا وحضر دروسه، انظر :

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ١٤٢، ١٤٣ ، وكفاية المحتاج، جـ١، ص ١٣٩.

ومنهم الفقيه العاقب بن عبد الله الانصمنى المتوفى (٩٥٠هـ/١٥٤٣م) من بلدة أكدس بالقرب من بلاد السودان كانت له تعاليق، ومن أحسنها تعليقه على قول خليل، وهو محاولة منه لإيضاح ما أشكل من كلام الشيخ خليل فى القسم بالطلاق، هل يحصل بالنية أم باللفظ؟ انظر

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٣٥٣.

ومنهم العالم محمد بن محمود بن أبى بكر الونكرى التبكتى عرف ببَغْيعُ من أهم مؤلفاته "تعاليق وحواشى على شراح خليل، بين فيها ما وقع لشراح خليل وغيره، وتتبع ما فى الشرح الكبير للتتآى من السهو نقلاً وتقريراً من أوله إلى أخره.

انظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٦٠٠، ٦٠٢، الولاتى : فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى ومحمد حجى، دار الغرب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١، ص ٣٢.

٤٨- وذكر أنه قرأ مختصر خليل مرات عديدة وختمه بقراءته وقراءة غيره بحث وتحقيق على يد أستاذه وشيخه محمد بن محمود بَغْيعُ أكثر من عشر مرات، وقد ذكر أحمد بابا أنه وضع شرحاً عليه، جمع فيه خلاصة كلام كل من وقف عليه من شراحه وهم أكثر من عشرة، مع اهتمامه بالاختصار وتقرير الألفاظ وتنزيله على النقول .. ولكنه لم يكمل بسبب محنة مراكش.

ولما دخل مراكش أعطى التعليق للفقيه إبراهيم الشاوى فاعتمد عليه ونقل منه فى دروسه، وكذلك كان لأحمد بابا كتاباته وتحريرات وتعاليق على كثير من مشكلاته.

وفى أثناء وجوده فى مراكش كان يواظب على متابعة مختصر خليل، وقد ذكر أنه

رأى فى خزانة جامع الشرفاء السفر الأول من شرح آخر للخليل للفقيه إبراهيم بن قائد بن موسى هلالى الزوواى (٧٩٦هـ-٨٥٧هـ/١٣٩٣م-١٤٥٣م) فقد كان له اهتمام وشروح لمختصر خليل أخرجها فى ثمانية مجلدات. وسماه تسهيل السبيل لمقتطف أزهار روض الخليل.

أما أهم الاختصارات والتعاليق لأحمد بابا فهو تعليقه على ما كتبه الفقيه العاقب بن عبد الله الانصمنى المسوفى خصصت نية الحالف، فقد أختصره فى جزء مع كلام غيره سماه "تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف". انظر :

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ١٧١، ١٧٣، ٣٥٣ ، كفاية المحتاج، جـ١، ص ٢٠٢.

٤٩ - شوقى الجمل : تفاعل أحمد بابا التنبكتى مع البيئة المراكشية الجديدة وأثرها على حياته العلمية، ضمن ندوة أحمد بابا التنبكتى التى عقدها إيسسيكو، ١٩٩٣م، ص١٢٥.

٥٠ - الشيخ ناصر الدين اللقانى (٨٧٣-٩٥٨هـ/١٤٦٨م-١٥٥١م) كان من رجال العلم والفُتيا المشهورين فى مصر، جلس لإقراء العلوم على أختلافها وقرأ الفقه نحو ستين سنة، وله مؤلفات عديدة، منها ما كتبه على نسخة التوضيح وتقييد على المحلى شارح السبكى وله شرح السعد للعقائد وشرح للتصريف العربى وشرح خطبة المختصر.

تولى الفتوى بمصر واستفتى من جميع الأقاليم فى العلوم العقلية والنقلية، وتتلمذ على يده جماعة كبيرة من شيوخ أحمد بابا، كان منهم أحمد بن أحمد، والقاضى العاقب والفقيه محمد بَغْيُعُ وأخوه أحمد. انظر.

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٥٩٠، ٥٩١ ، كفاية المحتاج، جـ٢، ص ٢٣٠-٢٣٢.

٥١ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، ص ٩ظ.

٥٢ - نفس المصدر : ص ٣و.

٥٣ - نفس المصدر : ص ٩ظ.

٥٤ - أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ١٧١ ، كفاية المحتاج، جـ١، ص ٢٠٠.

٥٥ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، صفحات ٢و، ٣و، ٤و، ١٠و، ١٢ظ، ١٣و، ١٥و.

٥٦ - نفس المصدر : ص ٢ظ، ٣و، ٣ظ، ١٥ظ.

٥٧ - نفس المصدر : صفحات ١٢و، ٢ظ، ٥ظ، ٦و، ١٢و، ٢٢ظ.

٥٨ - نفس المصدر : ص ١٣و، ١٥و.

٥٩ - أحمد بابا : كفاية المحتاج، جـ٢، ص ٢٨٥.

٦٠ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، ص ١٤.

٦١ - نفس المصدر : ص ٢و.

وعن المحنة التى تعرض لها علماء تنبكت ومنهم أحمد بابا وأهل بيته ، انظر :

الإفرانى : مصدر سابق، ص ١٥٩-١٧٢ ، الفشتالى : مصدر سابق، ص ١٧٣ ، محمد الغربى : مرجع سابق، ص ٥١٩.

٦٢ - عبد العزيز العلوى : مرجع سابق، ص ٣٥٤، ٣٥٩.

٦٣ - حسن الوزان : مصدر سابق، ص ٥٤١.

٦٤ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، ص ٢و _ ٢٣ظ.

٦٥ - هو بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عوض، وهو قاضى قضاة مصر برع فى مذهبه، أفتى ودرّسَ بالشيخونية، وله مؤلفات منها شرحه الكبير والصغير وهو من أهم الكتب المعتمد عليها فى الفتوى، واعتبر من أجلّ من تكلم على مختصر خليل وله الدرة الثمينة تبلغ نحو ثلاثة آلاف بيت شرحها بخطه، ذاع صيته فأخذ عنه جماعة منهم شمس البساطى وغيره ... توفى عام (٨٠٥هـ/١٤٠٢م).

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ١٤٧-١٤٩.

٦٦ - هو يوسف بن خالد بن نعيم الطائى البساطى، أشتغل بالقضاء والحسبة، وكان فاضلاً فى عدة علوم وله مؤلفاته منها شرح مختصر خليل والبردة وشرح ألفية ابن مالك وله مؤلف محاضرة خواص البرية فى الألغاز الفقهية .. وقد شرح المختصر فى سفرين سماه الكفؤ الكفيل وهو الذى وقف عليه أحمد بابا بخطه ونهب مع كتبه .. توفى عام (٨٢٩هـ/١٤٢٥م).

نفس المصدر : ص ٦٢٩ ، كفاية المحتاج، جـ٢، ص ٢٦٨.

٦٧ - وهو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى، وسمى سحنوناً بأسم طائر حديد، لحدته فى المسائل الفقهية، أخذ العلم من القيروان على يد مشايخها مثل على بن زياد وابن غانم وابن أشرس وأبى زياد الرعينى. رحل فى طلب العلم إلى مصر والحجاز وسمع خلال رحلته من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم ، أشتهر بفقه وزهده وأمامته.

ومن أهم تأليفه المدونة التى أعتمد عليها أهل القيروان وعنه انتشر مذهب مالك فى المغرب، تولى قضاء أفريقية (٢٣٤هـ/٨٤٨م) وكان العباد الذين يحضرون مجالسه العلمية أكثر من طلبة العلم. وقد توفى فى عام (٢٤٠هـ/٨٥٤م).

عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، علق عليه محمد بن تاويت الطنجى، الرباط ١٩٦٥، جـ٤، ٤٥-٨٨.

٦٨ - وهو محمد ابن عبد السلام الهوارى التونسى ولد سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، وهو قاض وإمام الفقه والنحاة، وعماد الفتيا فى تونس. أشتهر بفنون العلوم وعدله بالأحكام، وقد قرأ الموطأ على يد الأستاذ المقرئ أبى العباس البطرنى وعلى يد الشيخ أبى محمد عبد الله بن هارون الطاءى وهما سندان لا يوجد مثلهما فى المغرب علواً واتصالاً بالقراءة والسماع.

وقد ذكر البلوى أنه حضر دروسه وسمع وأخذ عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفرعى وإجازه فيه أكثر من مرة، كما أنه سمع منه بمنزله بتونس جميع موطأ الإمام بن أنس وأذن له فى روايته عنه وكان ذلك فى عام (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) وتوفى عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

البلوى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق : تحقيق الحسن السائح، الرباط ١٩٧٧، ١٩٧٨، الجزء الأول : ص ١٧٦-١٨٧ ، أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٤٠٦، ٤٠٧.

٦٩ - هو محمد بن أحمد بن على بن غازى المكناسى ثم الفاسى، ولد فى عام (٨٤١هـ/١٤٣٧م) وهو شيخ الجماعة وخاتمه علماء المغرب ومحققيهم، أشتهر بعلوم كثيرة بالقراءات وعلم التفسير والفقه والحديث والفرائض والعربية والحساب والعروض، تولى خطابة وإمامة مكناسة ثم فاس ثم جامع القرويين.

وقام بوظيفة التدريس وذاع صيته فيها، فقد حضر أحمد بابا مجالس إقرائه تفسيراً وحديثاً وفقهاً.

ومن أهم تأليفه : "شفاء الغليل فى حل مقفل خليل" بين فيه هفوات وقعت لبهرام، وله أيضاً "مشكلة من المختصر" شاعت شرقاً وغرباً، كما أن له "تحليل التعقيد على المدونة"، وله حاشية على الألفية، و"بغية الطلاب" و"ذيل الخزرجية فى العروض" ، و"نظم مشكلات والرسالة"، و"إنشاء الشريد فى منوال القصير"، و"الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون"، والجامع المستوفى بجداول الحوفى"، و"المسائل الحسان المرفوعة إلى حبر فاس وتلمسان"، و"نظم مراحل الحجاز وشرحه"، وتوفى عام (٩١٩هـ/١٥١٣م).

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٥٨٢ ، ٥٨٢.

٧٠- هو محمد ابن محمد بن محمد ابن محمد بن عاصم هو القاضى العلامة أبو بكر الاندلسى الغرناطى، تولى قضاة الجماعة بها، أشتهر بالقراءات والمنطق وأصول الفقه والأدب والأحكام، تلقى علمه على يد مجموعة منهم أبو سعيد بن لب والإمام القيجاطى وعلى يد ناصر السنة إبى اسحاق الشاطبى والقاضى ابن علاق.

وكانت له مؤلفات عديدة منها : "تحفة الحكام" "وزجز مَهْيع الأصول" فى أصول الفقه، و"نيل المنى فى لختصار الموافقات" "وكنز المفاوض" فى الفرائض، كما كان له مسائل متعددة فى فنون كثيرة. توفى عام (٨٢٩هـ/١٤٢٥م).

أحمد بابا : كفاية المحتاج، جـ٢، ص ١٢٨-١٣٠.

٧١- هو عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشى، ولد بمصر عام (١٢٤هـ/٧٤١م)، من أشهر فقهاء مصر، وقد روى عن ربعمائة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين، وقد صحب ابن وهب مالك حتى وفاته، وكان يكتب كل شئ يقوله مالك، وقيل أن مالكاً لم

يكتب لأحد بالفقه إلا إلى ابن وهب وكان ابن وهب كثير العلم فذاع صيته واستشاره أصحاب مالك بالمدينة واستشاره أهل الحجاز وأهل العراق.

قال ابن وهب قوله المشهور "لولا أن الله انقذنى بمالك والليث لضللت فقيل له: كيف ذلك؟ قال أكثرت من الحديث فحيرنى ، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث فيقولان لى : خذ هذا ودع هذا"، وقد قسم وقته جزء للعبادة وجزء يعلم الناس، وحج ست وثلاثين حجة، وكانت له مؤلفات جليلة منها : "سماعة من مالك ثلاثون كتاباً" و"موطأة الكبير" و"جامعة الكبير" و"كتاب الأهوال" و"كتاب تفسير الموطأ" و"كتاب البيعة" و"كتاب المناسك" و"كتاب المغازى" و"كتاب الردة"، كما كانت له أيضاً مصنفات فى الفقه، توفى بمصر عام (١٩٦هـ/٨١١م).

عياض : مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٢٨ - ٢٤٢ ، ابن فرحون : مصدر سابق، ص ٢١٤ - ٢١٧.

٧٢- هو محمد بن إبراهيم بن عيدوس بن بشير، أصله من العجم وكان من أبرز أصحاب سحنون ومن أكبر أئمة وقته فى مذهب الإمام مالك، ويعتبر من المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا فى عصر من أئمة المذهب منهم : أثنان مصريان هما : ابن عبد الحكم وابن المواز وإثنان قرويان هما ابن سحنون وابن بشير. انظر

عياض : مصدر سابق، جـ٤، ص ٢٢٢.

٧٣ - هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ابن الليث مولى عميرة، ولد عام (١٥٦هـ/٧٧٢م) سمع مالك والليث وابن لهيعة، وهو من أشهر المحققين فى مذهب مالك فى مصر، وقيل عنه أنه كان أعلم أصحاب مالك بمختلف أقواله، فقد روى كثيراً عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب.

وكان له تأليف كثيرة منها : كتاب "الأهوال" وكتاب "القضاء فى البنيان" وكتاب "فضائل عمر بن عبد العزيز" وكتاب "المناسك".

وتعتبر المختصرات أهم ما ألفه، فقد أهتم الناس بها بعد الموطأ والمدونة، وكان أهمها المختصر الكبير الذى تضمن ثمانية عشر الف مسألة، أما مختصره الأوسط فكان فيه أربعة آلاف مسألة، وأما المختصر الصغير فقد قصره على علم الموطأ، وألف فيه مائتى مسألة. وتوفى عام (٢١٤هـ/٨٢٩م). انظر : نفس المصدر ، جـ٣، ص٣٦٣ - ٣٦٨.

٧٤ - هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن عرف بابن محرز ولد (٥٦٩هـ/١١٧٣م) قرأ بالاندلس ثم ارتحل عنها إلى بجاية التى أستوطنها، قرئ عليه كتب الفقه والحديث واللغة والأدب .. وقيد عنه أصحابه الكثير، وكان له تقييد على التلقين حسن الحجج، توفى ببجاية عام (٦٥٥هـ/١٣٥٦م).

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٣٨٠ ، كفاية المحتاج، جـ٢، ص ٢٣.

يكتب لأحد بالفقه إلا إلى ابن وهب وكان ابن وهب كثير العلم فذاع صيته واستشاره أصحاب مالك بالمدينة واستشاره أهل الحجاز وأهل العراق.

قال ابن وهب قوله المشهور "لولا أن الله انقذنى بمالك والليث لضللت فقيل له: كيف ذلك؟ قال أكثرت من الحديث فحيرنى ، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث فيقولان لى : خذ هذا ودع هذا"، وقد قسم وقته جزء للعبادة وجزء يعلم الناس، وحج ست وثلاثين حجة، وكانت له مؤلفات جليلة منها : "سماعة من مالك ثلاثون كتاباً" و"موطأة الكبير" و"جامعة الكبير" و"كتاب الأهوال" و"كتاب تفسير الموطأ" و"كتاب البيعة" و"كتاب المناسك" و"كتاب المغازى" و"كتاب الردة"، كما كانت له أيضاً مصنفات فى الفقه، توفى بمصر عام (١٩٦هـ/٨١١م).

عياض : مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٢٨ - ٢٤٢ ، ابن فرحون : مصدر سابق، ص ٢١٤ - ٢١٧.

٧٢- هو محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير، أصله من العجم وكان من أبرز أصحاب سحنون ومن أكبر أئمة وقته فى مذهب الإمام مالك، ويعتبر من المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا فى عصر من أئمة المذهب منهم : أثنان مصريان هما : ابن عبد الحكم وابن المواز وإثنان قرويان هما ابن سحنون وابن بشير. انظر

عياض : مصدر سابق، جـ٤، ص ٢٢٢.

٧٣ - هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ابن الليث مولى عميرة، ولد عام (١٥٦هـ/٧٧٢م) سمع مالك والليث وابن لهيعة، وهو من أشهر المحققين فى مذهب مالك فى مصر، وقيل عنه أنه كان أعلم أصحاب مالك بمختلف أقواله، فقد روى كثيراً عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب.

وكان له تأليف كثيرة منها : كتاب "الأهوال" وكتاب "القضاء فى البنيان" وكتاب "فضائل عمر بن عبد العزيز" وكتاب "المناسك".

وتعتبر المختصرات أهم ما ألفه، فقد أهتم الناس بها بعد الموطأ والمدونة، وكان أهمها المختصر الكبير الذى تضمن ثمانية عشر ألف مسألة، أما مختصره الأوسط فكان فيه أربعة آلاف مسألة، وأما المختصر الصغير فقد قصره على علم الموطأ، وألف فيه مائتى مسألة. وتوفى عام (٢١٤هـ/٨٢٩م). انظر : نفس المصدر ، جـ٣، ص٣٦٣ - ٣٦٨.

٧٤ - هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن عرف بابن محرز ولد (٥٦٩هـ/١١٧٣م) قرأ بالاندلس ثم ارتحل عنها إلى بجاية التى أستوطنها، قرئ عليه كتب الفقه والحديث واللغة والأدب .. وقيد عنه أصحابه الكثير، وكان له تقييد على التلقين حسن الحجج، توفى ببجاية عام (٦٥٥هـ/١٣٥٦م).

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ٣٨٠ ، كفاية المحتاج، جـ٢، ص ٢٣.

النوازل والأحكام مثله، وكانت له تأليف فى المذهب مشهورة مثل شرح الرسالة وشرح ابن الحاجب وهذا الشرح وقف عليه أحمد بابا وكان فيه أبحاث مع ابن عرفة إلا أنه أختصر فى أوائله جداً، وله شرح على المدونة وحضر عليه أحمد بابا أيضاً بعض تفسير القرآن، وجميع صحيح البخارى وبعض مسلم والرسالة والتهذيب، توفى عام (٨٦٣هـ/١٤٥٨م).

أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص ص ١١٦ ، ١١٧.

٨٠ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، صفحات ٧و، ٨ظ، ١٠و، ١٠ظ.

٨١ - حسن الصادقى : مرجع سابق، ص ٤١.

٨٢ - انظر مخطوط معراج الصعود، صورة من بعثة معهد المخطوطات عن الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٢٩/٢٣٥٦٥ ورقم ٢٠٤ فقه مالكى.

وتحت رقم D1.79 - B.6.2 تحت اسم الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان.

وانظر أيضاً مخطوط قواعد العالم العلامة أحمد بابا السودانى فى حلية الدخان مخطوطة تحت رقم ٢٥١ نيجيريا.

٨٣ - أحمد بابا : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، ص ٣٤.

٨٤ - محمد بن عبد العزيز الدباغ : معالم من شخصية أحمد بابا السودانى من خلال كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ضمن بحوث الندوة التى عقدها إيسسيكو نشرت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٩٣.

٨٥ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات، صفحات ١ظ، ٢و، ٥ظ، ٨ظ.

٨٦ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، مخطوطة داخل المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٥٣٨٢ ، ص ٦٣و ، ٧٢و.

٨٧ - نفس المصدر ، ص ٧٣و ، ٦٣و.

٨٨ - نفس المصدر ، ص ٦٣و 73 ـو.

٨٩ - نفس المصدر ، ص ٦٤و ، ٦٥ظ ، ٦٩ظ ، ٧١و ، ٧٢ظ.

٩٠ - نفس المصدر ، ص ٦٥ظ ، ٦٩و ، ٦٩ظ ، ٧١ظ ، ٧٢ظ.

٩١ - أحمد بابا : أسئلة فى المشكلات ، ص ٢و-٢٢ظ .

٩٢ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر، ص ٦٣و، ٦٣ظ ، ٦٤و ، ٦٩و ، ٧١و.

٩٣ - فقد ذكر أحمد بابا أنه أخذ هذا العلم عن والده ودَرس عليه الصحيحين سماعاً، وكتاب الشفاء للقاضى عياض. وأخذ عن معلمه محمد بَغْيعُ ، فقرأ عليه الحديث وختم عليه الموطأ وحضر معه المنتقى والمدونة والفية العراقى فى علم الحديث مع شرحها ، كما جلس لسماعه كثيراً عند قراءته من البخارى ومسلم ، وسمع بقراءة غيره دروساً فى معنى الرسالة والألفية. انظر

- أحمد بابا : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، جـ١ ، ص ١٢ ، ٦٠٢ ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج فى دراسة وتحقيق محمد مطيع، حـ٢ ، ص ص ٢٨٢-٢٨٥ .

٩٤ - فقد ذكر أنه أثناء وجوده فى مراكش قرأ "تسهيل ابن مالك" و"ألفية العراقى" فختم عليه نحو عشر مرات ، و"جمع الجوامع للسبكى" و"حكم ابن عطا الله" و"الجامع الصغير لجلال الدين السيوطى" والصحيحين عدة مرات ، وكذلك "الشفاء" و"الموطأ" و"المعجزات الكبرى للسيوطى" و"شمائل الترمذى" وغيرها. انظر أحمد بابا: كفاية المحتاج ، جـ٢، ص ٢٨٤.

٩٥ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٤و ، ٦٤ظ.

٩٦ - نفس المصدر ، ص ٧٢و.

٩٧ - نفس المصدر ، ص ٧١و.

٩٨ - رسالة من صالح البلقينى إلى أحمد بابا بمراكش _تقريظ مؤلفاته ضمن مجموع ص ١٩٨ ، ج.ع.ك. انظر: حسن الصادقى: جوانب من التواصل الثقافى فى شمال- جنوب ، ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافى والاجتماعى بين الأقطار الإفريقية على جانبى الصحراء ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/١٩٩٩م ، ص ٢٦٦ و ٢٦٧.

٩٩ - هو عبد الوهاب بن على الشافعى السبكى ٧٢٧-٧٧١هـ/١٣٢٧-١٣٧٠م كان من أشهر الفقهاء ، له تصنيفات كثيرة منها طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى، كما له مؤلف حول شرح مختصرات ابن الحاجب وشرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوى، وتوشيح مسائل التصحيح والإشارات إلى أماكن الزيارات، والقواعد المشتملة على الأشباه والنظائر وطبقات الفقهاء الكبرى والوسطى والصغرى، وله جمع الجوامع فى أصول الفقه وشرحه بشرح سماه "منع الموانع" كما أنه شرح المنهاج فى الفقه للنووّى اشتهر بأنه إمام بارع فى سائر العلوم. دَرسَّ بالعادلية والغزالية والأمينية والناصرية ودار الحديث والاشرفية والشامية والبرانية، وتولى قضاة دمشق أربع مرات، وخطب بالجامع الأموى. انظر

- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، علق عليه محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، جـ١١، ص٨٦، ٨٧.
- ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، تحقيق محمد الارناؤوط، طبعة دار ابن كثير الطبعة الأولى ١٩٩٣م ، جـ٨ ، ص ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، الطبعة الأولى١٩٩٣م، جـ٢، ص٣٤٣.

١٠٠ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٧٢و.

١٠١ - هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب التلمسانى ٨٣٠-٨٩٥هـ وهو عالم جليل تفوق فى علم التوحيد واشتهر بعُلم الباطن ، وكانت له مؤلفات ، منها "شرحه الكبير المسمى

المقّرب المستوفى على الحوفى" و"عقيدته الكبرى" أول ما صنفه فى التوحيد وشرحها والوسطى وشرحها والصغرى وشرحها، كما كانت له مؤلفات كثيرة . انظر:

- أحمد بابا : كفاية المحتاج ، جـ٢ ، ص ٢٠٦-٢٠٩.

١٠٢- فقد اهتم أحمد بابا بهذا العلم وكتب فيه مؤلفاً مشهوراً سماه "اللألى السندسيَّة فى الفضائل السنوسية" و"مختصر المواهب القدوسية فى المناقب السنوسية" انظر :

- سامى سعيد : مساهمة فى دراسة تاريخ الحياة الدينية فى السودان الغربى خلال العصر الوسيط "الدين والعلم فى عصر الاسكيين" ، فاس ١٩٩١، ص ٥٥٧-٥٦٠.

١٠٣ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٩و.

١٠٤ - نفس المصدر ص ٦٥ظ ، ٦٦و ، ٦٨ظ.

١٠٥ - هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى أبو العباس المراكشى عرف بابن البنا، اشتهر بالنظر فى النجوم وعلوم السنة ، وقرأ القرآن والعربية وأخذ العروض والفرائض والحديث والتهذيب وعلم السنن وعلم النجوم والطب على يد مجموعة مشهورة من العلماء، وكانت له تأليفات كثيرة منها "تفسير الباء فى البسملة و"منتهى السؤال فى علم الأصول" وله رسالة فى الرد على مسائل مختلفة فقهية ونجومية ، كما كانت له مؤلفات فى العربية مثل "الروض المريع فى صناعة البديع" ومراسم الطريقة فى علم الخقيقة وشرحه ، وله مؤلفات مشهورة أيضاً منها ، "تأليف فى أحكام النجوم" ومقالة فى علم الأسطرلاب وله جزء فى الأنواء فيه صور الكواكب وله مقالة فى الحملاء الستة بجدول وقانون فى معرفة الأوقات بالحساب وقانون فى فصول السنة وقانون فى ترحيل الشمس، وغير ذلك كثير . انظر:

أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص ٨٣-٩٠.

١٠٦ - هو أحمد بن على بن يوسف البونى القرشى (أبو العباس) كان عالماً بعلم الحروف، وكانت له تصنيفات عديدة منها : "مفاتيح أسرار الحروف" و"مصابيح أنوار الظروف" و"شرح المعارف الكبرى" و"إظهار الرموز وإبداء الكنوز" ، و"اللمعة النورانية ولطائف الإشارات فى أسرار الحروف العلويات" ، "وشرح الشجرة النعمانية الكبيرة الأصول فى علم البسط" والتكسير فى الحروف و"الاوفاق العديدة وسر الحكم فى الكهانة" و"علم الغيب" انظر :

رضا كحالة : مرجع سابق ، ص ٢١٣.

١٠٧ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر، ص ٦٤ظ، ٦٥ظ، ٦٦و، ٦٨ظ، ٦٩و.

١٠٨ - نفس المصدر ، ص ٦٦و ، وقد سبق معرفة أن أحمد بابا كان مهتماً بعلم المنطق ، فقد حضر على يد أستاذه دروساً فى الهاشمية فى التنجيم ومقدمة التاجورى ورجز المغيلى

في المنطق. انظر :

أحمد بابا : نيل الإبتهاج ، ص ٦٠٢.

١٠٩ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٤ظ 65 _ظ.

١١٠ - هذه الظاهرة قديمة في مجتمعات السودان الغربي وسادت فشغلت فكر العلماء ، ومنهم مثلاً الفقيه العالم اللمتوني الذي أرسل يستفسر عن هذه الظاهرة ووجودها في المجتمع، ويطلب الرأي السديد والنصيحة من الفقيه وعالم مصر جلال الدين السيوطي وكان ذلك في عام ٨٩٨هـ/١٤٩٣م. انظر التفاصيل في

- السيوطي : الحاوي في الفتاوي ، جـ١، ص٤٤٧ ، سوزي أباظة : صورة لمجتمع غرب أفريقيا من خلال أسئلة اللمتوني والأسكيا ، ص ٦٢-٧١ .

١١١ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٧١ظ.

١١٢ - محمد بنشريفة : إفادة أحمد بابا التنبكتي من الخزانة المغربية ، ص ٨٠.

١١٣ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٣و - ٧٢ظ.

١١٤ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، ص٢٣ .

١١٥ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ٧٢ ظ.

١١٦ - نفس المصدر ، ص ٦٣و - ٧٢ ظ

١١٧ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات ، ص ٢و - ٢٢ظ .

١١٨ - أحمد بابا : أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٣و ، ٧٣و ، ٧٢و ، ٦٥ظ ، ٦٦و ، ٦٨ظ ، ٦٤ظ ، ٦٥ظ .

١١٩ - أحمد بابا : أسئلة في المشكلات، ص ١ظ ،٢ظ ، ٤ظ ، ٥ظ ، ٧و ، ١٥و. أسئلة إلى علماء مصر ، ص ٦٤و ، ٦٥ظ ، ٦٩و ، ٦٩ظ ، ٧١و ، ٧١ظ ، ٧٢ .

ملاحق البحث

أولاً : نشر الصفحة الأولى والأخيرة من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

لأحمد بابا التنبكتي

ثانياً : نشر الصفحة الأولى والأخيرة من مخطوط "أسئلة إلى علماء مصر"

لأحمد بابا التنبكتي

أولاً : نشر الصفحة الأولى والأخيرة من مخطـوط "أسئلة في المشكلات"

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد [illegible]

الحمد لله وحده وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى [illegible]

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أدام الله تعالى [illegible] سادتنا

في عرايس الكمال [illegible] ونفايس علومهم [illegible] الهموم [illegible]

[illegible]

الصفحة الأولى من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
الحمد لله وحده وكفى سلام على عباده الذين اصطفى ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أدام الله تعالى محاسن ساداتنا
في عرائس الكمال مزينة ونفائس علومهم لإرباب الفهوم مبينة
وأكواب نكتهم الفريدة موضوعة ونمارق لطفهم المحسنة مصفوفة
تقرب لمرتادها من عجائبها قاصيتها وتملك لمبتغيها من دقائقها
ناصيتها ولا زالوا موجهين سليم أفكارهم لتحقيق ما أشُكل ولتحرير
ما ساتعجم على ذوي القصور أمثالنا خصوصاً من سارت ميمون
أوصافه لأقصى البقاع وتشرفت بجميل صفاته بطول الرقاع من إقامة
مولانا سبحانه لنفع العباد وشرف قدره وطاب ذكره في كل البلاد فأحيا
من العلم ما درس وعفا وجدد ما ذهب ومحا سيدنا ومولانا العلامة
الهمام صاحب التعريف والتبيان وكاين الفهوم من حلل الدقائق بدائع
المعاني والبيان أبي النجا سالم السنهوري سلمه الله في جميع الأحوال
وأدامه مقصوراً على النفع في كل الأفعال وظل إفادته لطالبيها تتفيا
وفوائد ألقابه تتسهل وتتهيأ آمين ، وبعد.
فيقول كاتبه الفقير لربه ذو القصور والتقصير أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر
أقيت الصنهاجي التكروري التكبتي وفقه الله على صلاح رشده أمين.
المأمول من أفضل مولانا المذكور ومن يقف بعده من أفاضيل العلماء.

الصفحة الأولى من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

١٢٣و

وانظر وايضا ما الفرق بين قول ابن شاس ان تغير الذات يفيت المثلي كما نقله عنه
في التوضيح وبين قول اللخمي والمازري وابن بشير انه لا يفيته كما ذكره عنهم في التوضيح
وعلله بان المثل يقوم مقامه فهل هو خلاف في التسمية فقط او ينبني عليه ثمرة
فتأملوه وقد يقال يظهر ثمرة الخلاف فيما اذا باع المثلي بيعا فاسدا مختلفا فيه
عند العلماء فتغيرت ذاته عنده بسوس ونحوه ثم اطلع على الفساد فان قلنا
ان تغير الذات في المثلي فوت كما في ابن الحاجب وابن شاس مضى البيع بينهما بالثمن ولم يفسخ
وان قلنا انه غير فوت كما عند اللخمي ومن تابعه فسخ العقد وهل ان رجع في مثله
بالحال تغيره ومثله يقوم مقامه او غير شبيه المتغير مع قيمة ما نقصه التغير
نعم انما يظهر الثمرة في قول الفسخ على ما رحمه الله تعالى حيث علل عدم الفوات في المثلي
بقيام مثله مقامه مع انه قدم في المثلي يفوت بفوت البيع الفاسد انه يرجع بمثله
فتأملوا هذا فهو اشكال عال وبينوه والله تعالى يوفقكم للتكلم على ما سألتم
وبيان النفع لكم على الدوام [illegible] وقد كتبت هذا الكلام بمجرد ما انقدح لي من غير
مراجعة للنقول فتأملوه على جميع [illegible] هذا آخر ما تيسر الآن كتبه من مشكلات
هذا المختصر وبقي عندي كثير [illegible] والله تعالى يعيننا واياكم على القيام
بما وجب بجاه نبيه محمد واله صلى الله عليه وسلم انتهى

وكتبه عبيد الله تعالى [illegible] والتقصير الراجي عفو مولاه الغني
المغني به عما سواه المستشفع اليه بجاه حبيبه ومصطفاه صلوات الله وسلامه
عليه [illegible] محمد بن محمد [illegible] بن احمد [illegible] محمد بن [illegible] البرلاني [illegible]
ثم [illegible] سامح الله تعالى الجميع بفضله ونعمته لسيدي
المكرم وحبيبه المعظم الفقيه النبيه العالم الجليل [illegible] بيت الصلاح [illegible] محمد
[illegible] ادام الله تعالى توفيقه وجمع شمله وبلغه [illegible] صلى الله عليه
في عافيته وادام [illegible] واد خله دار [illegible] ونفعنا به [illegible]

الصفحة الأخيرة من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

وانظر وايضا ما الفرق بين قول ابن شاس ان تغير الذات يفيت المثلي كما نقله عنه
في التوضيح وبين قول اللخمي والمازري وابن بشير انه لا يفيته كما ذكره عنهم في التوضيح
وعلله بان المثلي يقوم مقامه مثله فهل خلافهم في التسمية فقط او ينبني عليه ثمرة
فتأملوه وقد يقال يظهر ثمرة الخلاف فيما اذا باع المثلي بيعا فاسدا مختلفا فيه
عند العلماء فتغيرت ذاته عنده بسوس ونحوه ثم اطلع على الفساد فان قلنا
ان تغير الذات في المثلي فوت كما لابن الحاجب وابن شاس مضى البيع بينهما بالثمن ولم يفسخ
وان قلنا انه غير فوت كما عند اللخمي ومن تابعه فيفسخ العقد فاذا رجع في مثله
لاجل تغيره ومثله يقوم مقامه [illegible] غير شبيه المتغير مع قيمة ما نقصه التغير
نعم انما يظهر [illegible] في قول الفسخ [illegible] رحمه الله تعالى حيث علل عدم الفوات في المثلي
فقيام مثله مقامه مع انه قدم في المثلي يفوت بفوت البيع الفاسد انه يرجع بمثله
فتأملوا هذا فقد اشكل علي وبينوه والله تعالى يبقيكم [illegible] سالم
ويديم النفع بكم على الدوام امين وقد كتبت هذا الكلام بمجرد ما انفتح لي من غير
مراجعة للنقول فتأملوه على جميع [illegible] مشكلات
هذا المختصر ويبقى عندنا [illegible] والله تعالى يعيننا واياكم على القيام
بأوامره بجاه نبيه محمد واله صلى الله عليه وسلم انتهى

وكتبه عبيد الله تعالى المعترف بالذنب والتقصير الراجي عفو مولاه القدير
الغني به عما سواه المستشفع اليه بجاه حبيبه ومصطفاه صلوات الله وسلامه
عليه [illegible] محمد بن محمد [illegible] محمد بن محمد [illegible]
ثم [illegible] سامح الله تعالى الجميع بفضله ونسخته لسيدي
المكرم وحبيبه المعظم الفقيه النبيه العالم الجليل [illegible] الصلاح [illegible] محمد
[illegible] ادام الله تعالى توفيقه وجمع شمله وبلغه [illegible] المصطفى صلى الله عليه وسلم
في عافية [illegible] في [illegible] وادخله دار [illegible]

الصفحة الأخيرة من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

وانظر أيضاً ما الفرق بين قول ابن شاش أن تغير الذان يفيت المثلى كما نقله عنه
في التوضيح وبين قول اللخمي والمازري وابن بشير انه لا يعينه كما ذكره عنهم في التوضيح
وعلل بان المثلى يقوم مقامه هل هو خلاف في التسمية فقط أو يبني عليه بمرة
فتاملوه وقد يقال يظهر ثمرة الخلاف فيما إذا باعه المثلى بيعاً فاسداً مختلفاً فيه
عند العلماء فتغير ذاته عنده بسوس ونحوه ثم اطلع على الفساد فات قلنا
أن تغير الذات في المثلى فوت كما في ابن الحاجب وابن شاس معنى البيع بينهما بذلك ولم يفسخ
وإن قلنا انه غير فوت كما عند اللخمي وتابعيه فسخ العقد فأما أن يرجع في مثله
لأجل تغيره ومثله يقوم مقامه أو في عين شيبه المتغير مع قيمته ما نقصه التغير
نعم انما يبقى النظر في قول الشيخ خليل رحمه الله تعالى حيث علل عدم الفوات في المثلث
بقيام مثله مقامه مع انه قدم في المثلى هون بمفوتى البيع الفاسد انه يرجع بمثله
فتاملوه هذا فقد اشكل على وبينوه والله تعالي يبقى بركتكم على الإسلام
ويديم النفع بكم على الدوام امين وقد كتبت هذا الكلام لمجرد ما انقدح لي من غير
مراجعة للنقول فتاملوه هل صحيح أم لا فهذا اخر ما تيسر الآن كتبته من مشكلات
هذا المختصر وبقي عدة ضاق الوقت عن كتبتها والله تعالى يعيننا وإياكم على القيام
باوامره بجاه نبيه محمد واله صلى الله عليه وسلم انتهى.
وكتبه عبيد الله تعالى المقر بالذنب والتقصير الراجي عفو مولاه الفقير
الغني به عما سواه المتشفع إليه بجاه حبيبه ومصطفاه صلوات الله وسلامه
عليه وعلى من والا محمد بن محمد المختار بن أحمد بن اندغمحمد بن محمد بن اندنص بن علي الولاتي التكروري
ثم التنيكتي المالكي مذهباً الأشعري عقيدة ، سامح الله تعالى الجميع بفضله ونسخه لسيده
المكرم وحبيبه المعظم الفقيه النبيه العالم الجليل الأديب بيت الصلاح والدين إبي محمد
الشريف عبد الله بن الشريف محمد أدام الله تعالى توفيق وجمع شمله وبلغه لغير جده المصطفى صلى الله عليه
في عافية واطال بقاءه في عز طاعته وادخله دار كرامته ونفعنا باسلافه امين.

الصفحة الأخيرة من مخطوط "أسئلة في المشكلات"

بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
الحمد لله وكفى والسلام على عباده الذين اصطفى ومن تبع سبلهم
واقتفى هذه أسئلة كنت وجهتها إلى علماء مصر عمرها الله تعالى
بذكره أوائل ربيع الثاني عام الرابع عشر وألف أولها ما ورد من الأحاديث
الكريمة في إجابة الدعاة كحديث الصحيحين خير يوم طلعت عليه الشمس
يوم الجمعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا
أعطاه إياه وحديث مسلم أن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسائل
الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة
ورواه الإمام أحمد أيضاً وحديث الطبراني اسم الله الأعظم الذي إذا دعى
به أجاب وهذه الآية قل اللهم مالك الملك وكذا حديث اسم الله الذي
إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس وحديث أبي داوود أنه
عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك بأني أشهد الحديث
وفيه لقد سألت الله تعالى بالاسم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب إلى الخ وحديث
ابن السني عن أبي هريرة مرفوعاً من أوى إلى فراشه طاهراً وذكر الله
تعالى حتى يدركه النعاس لم ينقلب ساعة من الليل سأل الله فيها
حاجة أو خيراً من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه إلى غيرها
مما ورد في هذا المعنى ما المراد بالإجابة فيها هل هي اعطاوه مطلوبه
بعينه أياما كان فإن لم يتصف بشروط الإجابة بمعنى أن من أجرى الدعاه
على لسانه في ذلك الوقت وذكر بذلك الاسم الأعظم استجيب له فيكون
هذا هو الفرق بينها وبين سائر الأدعية التي لم يرد فيه ذلك أو معناه
أنه يجاب بشرط أن يأتي بشروط الدعاء وأركانه وحينئذ فما الفرق بينها.

الصفحة الأولى من مخطوط "أسئلة إلى علماء مصر"

بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
الحمد لله وكفى والسلام على عباده الذين اصطفى ومن تبع سبلهم
واقتفى هذه أسئلة كنت وجهتها إلى علماء مصر عمرها الله تعالى
بذكره أوائل ربيع الثاني عام الرابع عشر وألف أولها ما ورد من الأحاديث
الكريمة في إجابة الدعاة كحديث الصحيحين خير يوم طلعت عليه الشمس
يوم الجمعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا
أعطاه إياه وحديث مسلم أن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسائل
الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة
ورواه الإمام أحمد أيضاً وحديث الطبراني اسم الله الأعظم الذي إذا دعى
به أجاب وهذه الآية قل اللهم مالك الملك وكذا حديث اسم الله الذي
إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس وحديث أبي داوود أنه
عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك بأني أشهد الحديث
وفيه لقد سألت الله تعالى بالاسم الأعظم الذي إذا دعى به أجاب إلى الخ وحديث
ابن السني عن أبي هريرة مرفوعاً من أوى إلى فراشه طاهراً وذكر الله
تعالى حتى يدركه النعاس لم ينقلب ساعة من الليل سأل الله فيها
حاجة أو خيراً من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه إلى غيرها
مما ورد في هذا المعنى ما المراد بالإجابة فيها هل هي اعطاوه مطلوبه
بعينه أياما كان فإن لم يتصف بشروط الإجابة بمعنى أن من أجرى الدعاه
على لسانه في ذلك الوقت وذكر بذلك الاسم الأعظم استجيب له فيكون
هذا هو الفرق بينها وبين سائر الأدعية التي لم يرد فيه ذلك أو معناه
أنه يجاب بشرط أن يأتي بشروط الدعاء وأركانه وحينئذ فما الفرق بينها.

الصفحة الأولى من مخطوط "أسئلة إلى علماء مصر"

الأجوبة عنها ولا حول ول قوة إلا بالله العلي العظيم على يد منشيها
كاتبه أحمد بابا ابن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت غفر الله تعالى
له ذنوبه وستر عيوبه وختم بالحسنى أعماله
وغفر لوالديه وأشياخه وأسلافه أمين
بتاريخ الخامس عشرين ربيع الأول عام
الرابع عشر وألف أرانا الله ختمه
في عافيه وصلى الله تعالى
على نبينا محمد وأله
وصحبه وسلم
تسليماً
تمت .

الصفحة الأخيرة من مخطوط "أسئلة إلى علماء مصر"

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

- أحمد بابا (أبو العباس أحمد بن عمر التكرورى التنبكتى (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)

• "أسئلة إلى علماء مصر" مخطوطة داخل المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٥٣٨٢ .

• "أسئلة في المشكلات"، مخطوطة داخل الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ضمن مجموع رقم ك ٤٧٠.

• "قواعد في حلية الدخان"، مخطوطة تحت رقم ٢٥١ نيجيريا.

• "معراج الصعود"، مخطوطة مصورة من بعثة معهد المخطوطات العربية عن الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٢٩/٢٣٥٦٥ ـ تحت رقم ٢٤ فقه مالكى.

ثانياً : المصادر العربية :

- أحمد بابا التنبكتى (أبو العباس أحمد بن عمر التكرورى التنبكتى (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)

• "تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء"، تحقيق سعيد سامى، جامعة محمد الخامس، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط ١٤١٣-١٩٩٢م.

• "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" ، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) جزءان.

• "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" ، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

- الإفرانى (محمد الصغير ابن الحاج محمد بن عبد الله (ت ١١٥٧هـ/١٧٤٥م).

"نزهة الحاوي بأخبار ملوك القرن الحادي"، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الطبعة الأولى الدار البيضاء (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

- البلوى (خالد بن عيس البلوى (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)

"تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق" ، تحقيق الحسن السائح، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية ، الرباط (١٩٧٧، ١٩٧٨).

- ابن تغري بردي(أبو المحاسن) :

"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، علق عليه محمد حسين شمس الدين ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ج١١ .

- الحسن الوزان (الحسن بن محمد الفاسى المولد حوالي (٨٨٨هـ/١٤٨٣م).

"وصف أفريقيا"، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة، مراجعة الدكتور على عبد الواحد، طبعة الرياض ١٣٣٩هـ.

- خليل بن إسحاق بن موسى (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

"مختصر خليل فى فقه الإمام مالك"، طبعة القاهرة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م).

- السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران (ت ١٠٦٤هـ/١٦٥٥م) .

"تاريخ السودان"، وقف على طبعة هوداس، طبعة بيردين، انجى ١٨٩٨م.
- السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر الخضيرى الشافعى (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .
"الحاوى فى الفتاوى"، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الجزء الأول.
- ابن العماد (عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) :
"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ، تحقيق محمد الأرناؤوط ، طبعة دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ ، الجزء الثامن .
- عياض (ابن موسى بن عياض السبتى (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) .
"ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، علق على حواشيه محمد بن تاويت الطنجى، الرباط ١٩٦٥م.
- الغزى .
"الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة"، حققه جبرائيل سليمان جبور، طبعة بيروت ١٩٤٥، الجزء الأول.
- ابن فرحون (القاضى ابراهيم بن نورالدين المالكى (ت ٧٩٩هـ/١٤١١م) - "الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب"، دراسة وتحقيق مأمون بن محيى الدين الجنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- الفشتالى (ابى فارس عبد العزيز الفشتالى (ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م) .
"مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء"، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم، مطبوعات وزارة الاوقاف بالرباط والشئون الإسلامية ١٩٧٧.
- المحبى (محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) .
"خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر"، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، الجزء الأول.
- محمد بلو (أبو عثمان بن فودى (ت ١٢٥٣هـ/١٨٣٢م) .
"إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور"، تحقيق بهيجة الشاذلى، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ١٩٩٦.
- الولاتى (أبو عبد الله الطالب البرتلى (ت ١٢١٩هـ/١٨٠٤م) .
"فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور"، تحقيق محمد إبراهيم الكنانى ومحمد صبحى، دار الغرب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١.

ثالثاً : المراجع العربية :

- حسن أحمد محمود :
"الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا"، دار الفكر العربى، الطبعة الثالثة ١٩٨٦.
- حسن الصادقى :
"مخطوطات أحمد بابا التنبكتى فى الخزائن المغربية"، منشورات جامعة محمد الخامس، معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، ١٩٩٦ .

- عمر رضا كحالة :
"معجم المؤلفين" ، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م الجزء الأول والثانى.
- محمد الغربى :
"بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى"، إشراف الدكتور نقولا زيادة، المكتبة الوطنية ببغداد عام ١٩٨٢.

رابعاً : المقالات والدوريات :

- حسن الصادقى :
"جوانب من التواصل الثقافى فى شمال-جنوب" ، ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافى والاجتماعى بين الأقطار الأفريقية على جانبى الصحراء، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الطبعة الأول ١٤٢٤هـ/١٩٩٩م.
- سوزى أباظة :
"صورة لمجتمع غرب أفريقيا من خلال أسئلة اللمتونى والأسكيا"، بحث ضمن بحوث ندوة الإسلام والمسلمون فى إفريقيا، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٩٨.
- شوقى الجمل :
"تفاعل أحمد بابا التنبكتى مع البيئة المراكشية الجديدة وأثرها على حياته العلمية"، بحث ضمن بحوث ندوة أحمد بابا التى عقدها إيسيسكو عام (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) .
- محمد بن عبد العزيز :
"معالم من شخصية أحمد بابا السودانى من خلال كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، بحث ضمن بحوث ندوة أحمد بابا التنبكتى _ إيسيسكو عام ١٩٩٣م.
- محمد بن شريفة :
"إفادة أحمد بابا التنبكتى من الخزانة المغربية" ، بحث ضمن بحوث ندوة أحمد بابا التنبكتى، عقدها إيسيسكو عام ١٩٩٣م.
- محمد صبحي :
"ابن بطوطة والحسن الوزان في بلاد السودان الغربي وراء الصحراء"، مجلة المناهل، عدد خاص عن ابن بطوطة ، العدد ٦٠ ، يناير ٢٠٠٠م .
- محمد الظريف :
"التواصل الثقافى بين المغرب والسودان خلال القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين"، بحث ضمن ندوة أحمد بابا التنبكتى إيسيسكو ١٩٩٣م.
- محمود عبدو زبير :
"السيرة الذاتية لأحمد بابا التنبكتى"، بحث ضمن بحوث ندوة أحمد بابا التنبكتى عقدها إيسيسكو عام ١٩٩٣م.

خامساً : المراجع الأجنبية :

1 - Cuoq.J., La Famille Aqit de Tombouctou, Revue de L'institut des Belle Lettres Arabes 1978, M.41, Premier Smestre, .

سادساً : الرسائل الجامعية :

- سامي سعيد : "مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط : الدين والعلم في عهد الأسكيين ١٤٩٣ - ١٥٩١ ، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس١٩٩١.
- عبد العزيز العلوى : "التأثيرات الدينية والفكرية المغربية على السودان الغربى الوسيط"، رسالة دكتوراه غير منشورة ، المملكة المغربية ، فاس ١٩٩٩م.

٥- مخطوطات إقليم توات
عرض وتقديم لمخطوط توازل الشيخ باي الكنتي

د. محمد حوتيه
جامعة أدرار - الجزائر

يعتبر إقليم توات(١) مجموعة من واحات الصحراء الجزائرية الجنوبية الغربية ويقع جنوب القطاع الوهراني وشمال الهقار، يحده من الشمال العرق الغربي، وهضبة تادميت، ومن الجنوب هضبة مويدر وتطلق كلمة توات على ثلاث مناطق.

أ - تنجورارين: تضم عدة قصور من الصحراء الغربية الوهرانية، تحيط بها أرض من السبخة ممتدة من الشمال إلى الجنوب وتتخللها واحات على مسافة مائة كم ابتداءاً من تبلكوزة شمالا إلى الزرزور جنوباً ومن الشارف شرقاً إلى ناحية شروين غرباً.

وقد زار "جيرار رهلفس" المنطقة وأفدنا بمعلومات منها عدد القصور تسعون قصراً وعاصمة الإقليم "تيميون".

ب - تيدكلت: تقع في أقصي الشرق من الواحات التواتية وجنوب هضبة تادميت وشمال هضبة مويدير وتمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة مائة وخمسين كلم.

سقى هذه الواحات بالمياه المنحدرة من المرتفعات في شكل وديان بعد سقوط الأمطار وفي حالة عدم جريانها تختزن مياهها في باطن الأرض لتستغل عن طريق الآبار.

واحات تيدكلت تقع في منحدرات تيدمايت وبها غابة تقع في وادي رابة، ومراعيها تمتد على طول واد أكاريا، وبهذا فالإقليم متنوع من الناحية الطبيعية مما ساعد الإنسان على استغلاله.

تمتد قصورها من الشرق إلى الغرب، يبلغ عددها الخمسين، تنقسم إلى ستة أقسام فقارة الزوي وإقستن بهما خمسة عشر قصر، وعين صالح القصور وأنغر

وتيط وأولف تضم كلها تسعة قصور، وهذه المنطقة مجاورة لتوات من الجنوب الشرقي، أما أقبلي فتوجد خارج هذا الخط وبها سبعة قصور.

ج - توات: يحدها من الشمال قورارة ومن الجنوب الشرقي تيدكلت ويطلق على المجموعة الجنوبية الغربية التي تقع في حوض وادي الساورة الذي يأتي من المغرب ويرفده واد زورفانا وعندما يحمل واد الساورة عادة ما يصل إلى القصور الشمالية من توات، ونادراً ما يصل إلى المناطق الوسطي.

أما عدد قصورها فهي حوالي ثلاثمائة قصراً تقع في مناطق مختلفة تمتد على مسافة مائتي كلم فبودا بها اثنا عشر قصراً وتمي تسعة وثلاثون قصراً وهي أكثر سكانا وبه عاصمة الإقليم "أدرار".

تمنطيط بها خمسة قصور، بوفادي بها أربعة قصور، وغربها توجد تسفاوت وفتوغيل بها سبعة عشر قصراً وإلى الجنوب منها تقع تامست وبها أربعة عشر قصراً ثم زاوية كنتة وبها أربعة وعشرون قصراً، وأنزجمير أو توات الحنا بها ثلاثة عشراً قصراً وجنوب غرب هذه القصور تقع سالي وبها ثلاثة عشر قصراً وفي أقصي جنوب توات توجد رقان وبها خمسة عشر قصراً.

الأهمية التاريخية:

أشارت المصادر العربية الإسلامية لمنطقة توات، على أنها واحة بعيدة عن سواحل البحر الأبيض المتوسط وجسر لعبور الحضارة العربية الإسلامية إلى بلاد السودان.

وهكذا ظلت روابط الود والتفاهم قائمة بين هذه الإقاليم التواتية وسكان السودان لاعتمادهم على القوافل القادمة من توات التي ساعدت على ترويج تجارتهم وازدهار أسواقهم.

ففي منتصف القرن الخامس عشر بعث سلطان "بورنو" برسالة يشتكي فيها إلى علماء توات تتعلق بقلة التجار القادمين إلى بلادهم، وهذا راجع إلى أن "الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو عملوا على عدم السماح للتجارة التي سيطر عليها اليهود من المرور بأراضيهم.

ومما سبق قوله نلاحظ أن الإقليم ساهم في ازدهار اقتصاد جنوب الصحراء من خلال السلع التواتية التى لقيت إقبالا في أسواق تمبكتو وآقدر وغيرها.

- فاذا عرفنا نشاط الاقليم بالنسبة للناحية الجنوبية فالي أي مدي وصل بالنسبة إلى الشمال؟

تتبع المنطقة من الناحية التجارية الجنوب الوهراني وتتم العملية عن طريق المقايضة، وهناك عدة طرق ربطت إقليم قورارة بمختلف أنحاء الوطن مثل طريق حميان الحيشة الذي يعتبر أقصر هذه الطرق وأصعبها مسلكاً ومدته ١٠ أيام، وطريق بريزنا وأوقروت ومدته أربعة عشر يوماً، وطريق البيض سيدي الشيخ إلى لمحارزة ومدته إحدى عشر يوما، طريق الشعانبة بين المنيعة وتيميمون.

وعليه فالإقليم استفاد من موقعه الوسيط بين المنطقة الجنوبية الصحراوية، والمنطقة الشمالية التلية فأفرز تفاعل تجاري هناك أدي إلى انحدار تجاري إلى جنوب الصحراء.

إلى جانب هذا التطور الاقتصادي اعتبرت المنطقة مركزاً ثقافياً منذ عهود خلت تجلت لنا في الزوايا المنتشرة عبر المنطقة وفي الخزائن العلمية الموجودة في العديد من القصور كإقبلي(٢)، وأولف(٣) وزاوية كنتة(٤)، تمنطيط، ملوكة(٥)، بودة، المطارقة، أولاد عيس بتيميمون.

عملية الجرد تتطلب من الدارس الوقوف في عين المكان وتحمل المشاق من أجل بلوغ هذه الغاية فعملية جرد مخطوطات إقليم توات نجدها مترامية الأطراف توجد بعدة قصور نذكر منها قصر ملوكة، وتعود خزانته إلى العائلة البلبالية.

فمخطوطات هذه الخزانة نجدها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم منها في حالة جيدة من حيث أوراقها وتحتاج إلى تجليد.

٢- قسم ثاني أفسدته العوامل الطبيعية ولا يمكن الاستفادة منه.

٣- القسم الثالث فيحتاج إلى تصنيف وترتيب.

أما المكتبة في حد ذاتها فهي غير صالحة بحكم تصدع جدرانها وتآكل سقفها وانعدام التهوية بها. أما بمنطقة تيدكلت فنأخذ مكتبة الشيخ باي كنموذج لهذه المكتبات فهي في حالة جيدة سواء من حيث التصنيف أو التجليد أو المنطقة الموجودة بها.

فهاذين العينتين يمكن أن نطبقهما على باقي مكتبات إقليم توات الموجود بتمنطيط والمطارفة، زاوية كنتة، زاوية الدباغ، أولاد سعيد، تسابيت ، بودة...إلخ.

وقد أخذنا كعينة من هذه المخطوطات توازل الشيخ باي الكنتي، فعند تساؤلنا من هو هذا الشيخ وإلى أي أسرة ينتمي.

التعريف بالشيخ الباي الكنتي أسرته وحياته:

تكون "الكنتة" احدي القبائل الأكثر عدداً وفي نفس الوقت الأكثر تشتتاً، فحسب أصولهم يرجعون إلى عقبة بن نافع، قدموا من شمال الجزائر، وانحدروا إلى إقليم توات ثم إلى "الأزواد" ومنذ القرن السابع والثامن نمي كل فرع من هذه القبائل باستقلال عن باقي الفروع الأخرى وبقيت تربطه مع القبائل علاقات أسرية متينة لذا يشترك "الكونتيون" في عدة خصائص:

أ - انتمائهم للطريقة القادرية.

ب - يكونون قبائل عريقة، لها تقاليد ومؤلفات عديدة.

ج - أصولهم عربية، يهتمون بالتجارة وزراعة النخيل(٦).

أما الشيخ "سيدي المختار الكنتي"(٧) فيرجع له الفضل في إزدهار الطريقة القادرية التي قادها، إضافة إلى تجديده في المذهب المالكي وبهذا أحرز على نفوذ وشهرة في كل الأزواد.

وفي نفس القرن الذي توفي فيه الشيخ سيدي المختار كان مولد الباي ابن سيدي عمار بن الشيخ سيدي محمد الذي ولد نحو ١٨٦٥م وعند موت أخيه سنة ١٨٩٦ م أصبح القائد الديني "لكنته" بعدما تعمق في التقوي والدراسة وعيشة الزهد البعيدة عن الأنظار مع كثرة الصيام وعلى هذا المنهج كّون عدة أجيال على أسس إسلامية مما جعل عدة قبائل من الطوارق تخضع له.

وفي ١٩٠٠ أصبح يقيم في "تليا"، وبعدما خضعت قبائل "الكونته" للفرنسيين سنة ١٨٩٩م وعندما أصاب الجفاف هذه المنطقة إرتحل إلى النيجر وبقي بعيدا عن مفاوضات فرنسا ظنا منه أن ابتعاده عن "قاو" هو سبب كاف لابتعاده عن الفرنسيين.

وفي سنة ١٩٠٢ م دخل في علاقات بمنطقة "عين زيزة" مع القائد الفرنسي لبيرين(٨) الذي استغل علمه القظائي وراسله لينظر في قضية الخلاف بين قبائل "تايتوق" اهنات "وافوراس أدرار" فبتدخله خفف من حدة النزاع بينهما وعندئذ أصبحوا يقدمون له النزاعات وحولوه إلى القاضي الرسمي بالمنطقة، اضافة إلى كونه داعية للإسلام في أوساط الطوارق "الايفوراس" ومقدماً في الطريقة القادرية.

تقديم توازل الشيخ باي الكنتي:

وحتى تتضح الرؤيا للقارئ الكريم إرتئينا تقديم نموذج من هذه المخطوطات لتبيه أهميتها ويستطيع الباحث معرفتها والإطلاع عليها.

وقد وقع اختيارنا على توازل الشيخ باي الكنتي لأسباب عدة:

١- لكونها لم تدرس بعد.

٢- لتناولها موضوعات إجتماعية وإقتصادية وثقافية.

٣- لربطها بين منطقة توات وإفريقيا جنوب الصحراء.

وقد إتبعنا في تقديم هذه التوازل الخطة التالية:

١- تقديم التوازل.

٢- محتواها.

٣- نموذج من مسائل منها.

٤- أهمية التوازل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية.

تقديم التوازل:

تعتبر توازل الشيخ باي الكونتي حلولا لمشاكل عصره المتعلقة بالأحكام الشرعية كالزكاة والصيام والحج والمعاملات والطلاق والرضاعة والحضانة فقد شملت على ثمانمائة وأربعة وثلاثين صفحة تبتدئ توازله بـ:

سـئل رضي الله عنه عن شـرح هذه الألفـاظ وهي تفي الغـرض.... وتنتهي... وإن كانت المسألة على غير هذا النمط فأرسلي بياناً حقيقتها مع حامله، أما الخط فمكتوبة بخط نسخي في معظم الأحيان دون خلو بعض الصفحات من رقة الخط المؤدي إلى عدم الفهم كما هو حاصل ما بين الصفحة ٦٨٠ إلى ٧٨١ .

أما طريقة الكتابة فقد استعمل فيها كملة مسائل للدلالة على نهاية الفصل وبداية فصل آخر وهناك كلمات كررها من الناحية الكتابية كقوله: لتحتم _ وأجاب بما نصه _ كتب لبعضهم ...إلخ.

إضافة إلى تهميشه يمين أو يسار الصفحة بهدف توضيح أو تفسير أو تعليل لوجه من وجوه الصور الفقهية كما جاء في الصفحة ستمائة وعشرة وفي ترقيمه للصفحات فقد سلك طريقة تستند على كتابة آخر كلمة لتكون بداية للصفحة التي تليها.

محتوي التوازل:

تشتمل توازل الشيخ باي على ثلاثين مسألة يمكن تصنيفها في تعداد التوحيد والطهارة والعبادة والمعاملات ومسائل أخري فمحتوي هذه التوازل هي:

١- مسائل التوحيد والأوراد وما شابه ذلك.

٢- مسائل مآخذ الاوراد وحقيقتها.

٣- مسائل من المعفوات وما ضهاها من الطاهر وما فيه.

٤- مسائل من الطهارة المائية والترابية وما يتعلق بهما.

٥- مسائل النافلة.

٦- مسائل الجنائز.

٧- مسائل الزكاة.

٨- مسائل الصيام.

٩- مسائل الحج.

١٠- مسائل الذكاة وما شابهها.

١١- مسائل النكاح.

١٢- مسائل الطلاق صريحاً وكتابة.

١٣- مسائل من الخلع.

١٤- مسائل من الرضاع.

١٥- مسائل من الحضانة.

١٦- مسائل من البيع والسلف.

١٧- مسائل من القراض والشركة.

١٨- مسائل من الكراء والإجارة.

١٩- مسائل من العارية والوديعة واللقطة.

٢٠- مسائل الهبة والصدقة والحبس.

٢١- مسائل من الحجز والتفليس.

٢٢- مسائل من الغصب والتعدي والسرقة.

٢٣- مسائل من القضاء والشهادات.

٢٤- مسائل مستغرق الدمم والمدارات.

٢٥- مسائل من الجنايات والدماء والحدود.

٢٦- مسائل من الوصاية والتدبير والعتق.

٢٧- مسائل من الميراث.

٢٨- مسائل من الفطرة.

٢٩- جامع مسائل متفرقة.

أهمية التوازل من الناحية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية:

بعد دراستنا لهذا المخطوط يمكن الإستفادة منه والرجوع إليه من عدة جوانب:

١- من الناحية التاريخية:

تعرفنا من خلال هذه النوازل على العلماء الذين رجع إليهم مثل إبن رشد والمغيلي وهناك شريحة أخري لم نسمع بهم ولم يكشف عنهم النقاب وقد تركوا مؤلفات اجتماعية مثل نوازل القصري والنوازل الهلالية.

كما تعرفنا في نهاية النوازل على نسب كنتة فيري أن أهل الصحراء إتفقت قاطبة على أنهم من نسل عقبة بن نافع.

٢- أما الناحية الاجتماعية:

فقد أفادنا بالعادات الشائعة بين الكنتيين فتعرفنا على عادة المطلقات لا يحتفظن بأبنائهن وتعطي الحضانة للأب خلافاً للمذهب المالكي الذي يعطي حضانة الابن للأم، كما اهتمت هذه النوازل بتقنين الأحباس باعتبارها مورد هام لحياة السكان الذي به تسدد نفقات الصالح العام، ويظهر لنا من خلال هذه الدراسة أن سكان هذه المناطق ظلوا متشبثين بدينهم وغير مبالين بوسائل الإغراء الغربية، وقد تمثل ذلك في لباسهم وبخاصة اللثام، باعتباره خاصية لذلك المجتمع.

وعلى هذا يري الكاتب أنه من الضروري على المجتمع الإسلامي أن يقاطع المشركين ولا يتعاون معهم، فقد قسم الأرض حسب تفكيره إلى أربعة أقسام:

١- أرض إيمان وسنة وعافية.

٢- أرض إسلام وظلم وبدعة.

٣- أرض شرك وحرف وعافية.

٤- أرض شرك وظلم.

ولكل نوع من هذه الأراضي له رأي فيه فيما يتعلق بسكناه أو الهجرة إليه.

٣- من الناحية الاقتصادية:

اعتبرت هذه المناطق مراكز إزدهار اقتصادي بحكم أسلوب التبادل ما بين منطقتي توات والأزواد، فنظراً للقوافل التجارية التي كانت تنشط بين الإقليمين، عرفت كيف تطور من أسلوب المقايضة ما بين تمور وتبغ توات وأغنام وأشياء أخري بالأزواد.

الخاتمة

من خلا ل ما سبق يتضح لنا أن منطقة توات ظلت مركز إشعاع للعلم والمعرفة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ تم نسخ وتأليف عدد كبير من المخطوطات ، هذه الذخيرة تكون تراث المنطقة العريق وتساهم في كتابة التاريخ العربي بإعتبار أن هذه المناطق كانت نقطة التقاء ثقافي لكل الوافدين إليها وفي نفس الوقت كانت مصدر إشعاع ثقافي في جنوب الصحراء وأهم ما يمكن استنتاجه:

١ - تبين لنا أن هذه الأقاليم ترصدت بها رواسب الحضارة العربية الإسلامية في وقت قل فيه الاستقرار السياسي في حوض البحر الأبيض المتوسط نتيجة لعوامل الغزو الخارجية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

٢ - العديد من قصور توات لها مخطوطاتها وخزائنها وإنما تتفاوت هذه القصور فيما بينها من حيث عددها ونوعيتها ودرجة الاحتفاظ بها.

وعليه يمكن أن نصنف هذه المخطوطات إلى ما يلي:

١- قسم منها يهتم بالناحية الدينية والطرق الصوفية والعبادات وهو الأكثر انتشاراً.

٢ - قسم ثان يعالج الأغراض الأدبية واللغوية كالنحو الصرف.

٣- قسم ثالث يهتم بطبيعة العلاقات الاجتماعية كنوازل الزجلاوي والشيخ باي الكنتي.... إلخ.

٤- قسم رابع يهتم بباقي العلوم الأخري.

هذه النظرة الأولية سمحت لنا بضرورة إعادة النظر فيما كتب من طرف المدرسة الغربية خاصة فيما يتعلق بتاريخ الجزائر، فنوازل الشيخ باي الكنتي طرحت لنا إشكالية جديدة بينما كتبه "بول مارتي" وما دونه الشيخ باي الكنتي حول العديد من القضايا الاجتماعية مهما يكن من الأمر فإن أهمية هذه المخطوطات لا يمكن الاستغناء عنها ولا بد من الرجوع إليها، فظهورها يساعد على صياغة تاريخ الجزائر.

وما هذا البحث يعد مساهمة بسيطة نظراً لأهمية المضوع وتبقي هذه الدراسة نقطة بداية تنتظر من يواصلها ويتعمق فيها.

المصادر والمراجع :

١- توات: هذه التسمية ورد ذكرها في المصادر العربية أذ يذكرها السعدي في كتابه تاريخ السودان مطبعة بردين بمدية أنجي ١٨٩٨ ص ٧.

"وعلى موضع توات تخلف هناك كثير من أصحابه"

أما ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار المكتبة التجارية بمصر ج٢ ص ٢١٠ "وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ"

أما أصل التسمية فيذكرها السعدي في المرجع السابق ص٧ ، ١٨٩٨ "فتخلف هناك كثير من أصابه لوجع رجل أصحابه في ذلك المشي تسمي توات في كلامهم فانقطعوا بها وتوطنوا فيها فسمي الموضع باسم تلك العلة"

٢- أقبلي: قصر من قصور تديكلت تبعد عن عاصمة الولاية بحوالي ٢٤٥ كم.

٣- أولف: قصر من قصور تديكلت به مقر الدائرة يبعد عن مقر الولاية بحوالة ٢٣٠كم.

٤- زاوية كنتة: قصر من قصور توات يقع في منتصف الطريق ما بين رقان وادرار يبعد عن مقر الولاية بحوالي ٩٠كم.

٥- ملوكة: قصر من قصور تيمي تبعد عن مقر الولاية بحوالي ٦كم.

6- GENEVIVE Désiré _ Vuillemin Introduction á la Mauritanie Paris 1979.P80.

الشيخ سيدي المختار (١٧٢٩م-١٨١١م): إبن أحمد إبن أبي بكر رجل دين وسياسة ، في سنة ١٧٥٣ استقر في الهلة بالأزواد، أصبح مركز تقدير وإحترام وإشعاع في الطريقة القادرية، انشأ في الطريقة القادرية فرع المختارية التي ينتمي إليها أغلب القادريين في هذه المنطقة، تدخل عدة مرات ليوقف النزاع بين القبائل ، له أكثر من ستين مؤلف.

أنظر:

Nouvelle edition, Par Baswarth et les autres Paris 1986. T. 7. P.P395-396.

MARTY Panl, Etudes Sur L'islam et les Tribns du soudan Edition Ernest Leroux Paris 1920. T.I.P.P 118-119.

٨ - ليبرين: (فرانسوا هنري ١٨٦٠-١٩٢٠م).

جنرال فرنسي وقائد لمقاطعة الواحات في الجنوب الجزائري من ١٩٠٢م - ١٩١٠م ، أنشا الفرق الصحراوية ، قائد للمقاطعات الصحراوية ، توفي عند سقوط الطائرة التي كان على متنها والتي كانت تحاول ربط الجزائر بأفريقيا السوداء.

أنظر:

MICHEL Maurse – Dictionnaire d'histoire Universelle - Editions Universitaire 1968 T1. P1163

٦- العمائم والشاشية وأغطية الرؤوس في مصر والمغرب في العصر الإسلامي (دراسة وثائقية)

د. كرم كمال الدين الصاوي
مدرس التاريخ الإسلامي بالمعهد

نقاط البحث :

أ) العمائم وأغطية الرؤوس في الشريعة الإسلامية .

ب) العمائم وأغطية الرؤوس في ضوء الوثائق التاريخية .

ج) تطور صناعة العمائم في مصر والمغرب الإسلامي من خلال الوثائق التاريخية .

د) القيمة الجمالية والوظيفية للعمامة وأغطية الرؤوس في مصر والمغرب .

الخاتمة

(أ) العمائم وأغطية الرؤوس في الشريعة الإسلامية :

حظيت الملابس عند العرب باهتمام الباحثين المحدثين، ومن تلك الدراسات، الدراسة التي قام بها الدكتور صالح أحمد العلي الموسومة : "الألبسة العربية في القرن الأول الهجري، دراسة أولية" ؛ وأيضاً للمؤلف بحث عن ألوان الملابس موسوم بعنوان : "ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى"(٢) وله كذلك بحث بعنوان "الأنسجة في القرنيين الأول والثاني"(٣) .

ومن الأبحاث التي تطرقت إلى اللباس العربي : بحث مهدية الزميلي في كتابها الموسوم بعنوان "لباس المرأة وزينتها في الفقة الإسلامي(٤) ، وللدكتور محمد عبد العزيز عمرو : كتاب "اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية(٥) ؛ وفي هذا الكتاب انصب اهتمام المؤلف على اللباس من حيث موافقته لقواعد الشريعة الإسلامية وآدابها ، ولم يتطرق إلا لعدد يسير جداً من أنواع الملابس .

ولعل من أكثر الكتابات عن اللباس امتاعاً ، مؤلف يحيى الجبوري : الملابس في الشعر الجاهلي(٦) . فالكتاب ممتع في موضوعه ، شامل في مادته ، إلا أنه لم يخل من بعض المآخذ التي من بينها الخلط الواضح بين ما هو لباس وما هو فراش أو غطاء الرؤوس .

وكتب نوري حمودي القيسي عن : "الملابس في معجم لسان العرب"(٧) وعلى الرغم من غزارة المادة التي أخرجها من اللسان فإن البحث جاء غير واف بالغرض ، حيث لم يقم بدراسة لمواد اللباس بل اكتفى في غالب الأحوال بذكر مسمياتها .

ومن الكتب المفيدة في دراسة اللباس ، ما كتبه رنيهارت دوزي : "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب"(٨) ترجمة من الفرنسية إلى العربية د. كرم أكرم فاضل ، وقد استفدنا من هذا العمل في الرجوع إلى مادة العمامة وأغطية الرأس .

وقبل الحديث عن اللباس من حيث أغطية الرؤوس والعمامة نعرض لبعض الضوابط والآداب التي جاء بها الإسلام وحث عليها الرسول ﷺ ؛ فمن آداب

اللباس في السنة ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه: إما قميصاً أو عمامه، ثم يقول: "اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له"(٩).

وأشار القرآن الكريم إلى الخمار وطالب نساء المؤمنين الالتزام به ، فقال تعالى : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن"(١٠) .

وفي الوقت الذي نرى الإسلام يحدد فيه موقفه من بعض الأنسجة وبعض الألوان ويحذر من اتخاذ ملابس الشهرة والتعالي على الناس _ نراه في نفس الوقت ، يحث على التجمل وعلى اتخاذ الزينة المشروعة والظهور بالمظهر النظيف اللائق . فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"(١١) .

بعد هذه المقدمة نشرع بالحديث عن العمائم وأغطية الرؤوس في ضوء الوثائق التاريخية الإسلامية ، ومدى انتشارها في مصر وشمال أفريقيا .

وفي هذا السياق سنقدم تعريفاً بكل مادة من مواد العمائم وأغطية الرؤوس حسب ما جاء في معاجم اللغة .

أولاً - لباس الرأس :

- **الخِمَار :**

الخمار ما تغطي به المرأة رأسها ، وقد تخمرت بالخمار ، وهي حسنة الخِمْرة"(١٢) .

وجاء في الذكر الحكيم قوله تعالى : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن"(١٣) وحسب أحد المصادر فإن سبب هذا التكليف الإلهي يعود في أصله إلى أن النساء في ذلك الزمان إذا غطين رؤسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظهر ، فيبقى النحر والعنق والأذنان بلا ستر . فأمر الله تعالى بليس الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها(١٤) .

ومن نصوص بعض الأحاديث النبوية تظهر لنا أهمية الخمار في المجتمع المسلم آنذاك ، فقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله : "لايقبل الله صلاة حائض إلا بخمار" والمقصود بالحائض هنا ، المرأة التي بلغت سن المحيض ، أو البلوغ .

وامتثالاً لهذا الحديث النبوي ، فقد أصبح الخمار ملازماً للمسلمة في صلاتها وغير ذلك ولكن في الصلاة على وجه الخصوص . فقد كانت عائشة رضى الله عنها ، تصلي في الدرع والخمار(١٦) . وميمونة رضى الله عنها زوج رسول الله ﷺ كانت تصلي في الدرع والخمار ليس عليها إزار(١٧) .

ولا يشترط في الخمار أن يكون من نسيج معين أو ذا لون خاص ، فالمطلوب في الخمار أن يكون ساتراً وغير شافّ لما تحته . وحتى العمامة تصلح أن تكون خماراً . فقد روت عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، فاختبأت مولاة لها ، فقال النبي ﷺ : "حاضت؟" ، قالت: نعم فشق لها من عمامته ، فقال "أختمري بهذا"(١٨) .

وفي رواية أخرى أن الإزار "يمكن أن يكون خماراً . فقد تصدق رسول الله ﷺ بإزاره على جاريتين ليكون لها خمار(١٩) .

والخمار أنواع ، فمنه الرقيق والكثيف . فقد دخلت إمرأة على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار رقيق ، فشقته عائشة ، وكستها خماراً كثيفاً(٢٠) .

وللخمار ألوان من بينها الأصفر أو المصبوغ بالزعفران ، فقد لست عائشة رضى الله عنها خماراً مصبوغاً بزعفران ورشته بالماء ليفوح ريحه(٢١) .

ومن ألوانه الأخضر ، فقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، وعليها خمار أخضر(٢٢) .

كما أن الخمار يمكن أن يكون ضمن أكفان الموتى من النساء فقد كان الخمار من بين ما كفنت به أم كلثوم رضى الله عنها ابنة رسول الله ﷺ(٢٣) .

ومن الطريف هنا أن مسمى الخمار ليس مقصوراً على ما تستر به المرأة رأسها ، فإن ما يغطي به الرجل رأسه يسمى خماراً أيضاً . فقد جاء في رواية عن بلال رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مسح على الخفين والخمار(٢٤) . وخمرة المرأة قريبة الشبه من تعمم الرجل إلا أنها لية واحدة ، تقول أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وهي تختمر فقال : "لية لا ليتين"(٢٥) ، ومعنى ذلك لا تعتم مثل الرجل ، لا تكرره طاقاً أو طاقين(٢٦) .

ويظهر مما سبق أن الخمار في المجتمع المسلم أصبح ظاهرة بارزة غيرة المرأة المسلمة عن سواها ، كما أصبح من ضرورات اللباس في العبادات ، وأن الخمار يمكن أن يتخذ من أي لباس أو كساء ، وشترط فيه أن يكون ساتراً .

والمعلومات السابقة توحي أن الخمار على أنواع منه الغليظ ومنه الرقيق ، كما أن له ألواناً منها الأصفر والأخضر ، ومسمى الخمار لا يقع على ما تضعه المرأة على رأسها وصدرها وحسب، بل إن ما يضعه الرجل على رأسه من غطاء وعمامة ونحوهما يسمى خماراً.

• العصابة :

جاء في تعريف العصابة عند الأزهري / قوله : "... وكل شئ استدار بشئ فقد عصب به . والعمائم يقال لها : العصائب ، واحدتها عصابة ... ويقال للرجل الذي سوده قومه : قد عصبوه فهو معصب ، وقد تعصب . ومنه قوله المخبل في الزبرقان :

رأيتك هربت العمامة بعدما أراك زماناً حاسراً لم تعصب وهذا مأخوذ من العصابة وهي العمامة[٢٧] .

وجاء في تعريف آخر : "العصاب والعصابة : ما عصب به . وعصب رأسه ، وعصبه تعصيباً : شده ، واسم ما شد به : العصابة . والعصابة العمامة ، والعمائم يقال لها العصائب ، قال الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب منهم لها سلباً من جذبها بالعصائب[٢٨] .

وجاء في رواية أن الصحابي ابن أبي حدرج الأسلمي رضي الله عنه خرج إلى السوق وعلى رأسه عصابة، ومتزر ببرد. وفي نفس الخبر أنه نزع العمامة عن رأسه فأتزر بها[٢٩] .

وهذه الرواية تبين وجود مسميين لشئ واحد ، العصابة والعمامة وهو ما يلف على الرأس وأن بعض العمائم أو العصائب كبيرة حتى أنه يؤتزر بها وأن للعصائب ألواناً منها الأسود أو الدسماء[٣٠] .

• العمامة :

العمامة من لباس الرأس معروفة ، وجمعها العمائم ، وقد تعممها الرجل واعتم بها وأنه لحسن العمة وقال ذو الرمة :

"واعتم بالزبد الجعد الخراطيم"(٣١) .

وفي تعريف آخر للعمامة جاء فيه : "والعمامة: واحدة العمائم . وعممته : ألبسته العمامة وعمم الرجل : سود لأن العمائم تيجان العرب(٣٢) .

جاءت الإشارة إلى العمامة في الحديث النبوي في مناسبات كثيرة ، فقد روى عن النبي ﷺ قوله: "فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس"(٣٣).

وربما المقصود بهذا الحديث أن الفرق بين المسلم والمشرك من حيث اللباس هو العمائم على القلانس(٣٤) . وهذا يعكس أهمية العمامة بالنسبة للمسلمين في ذلك الحين .

ولبعض العمائم أسماء مميزة منها الحرقانية ، وقد شوهد على النبي ﷺ ، عمامة حرقانية(٣٥) . ومنها كذلك الحوتكية(٣٦) .

ومن أنواع العمائم كذلك القطرية ، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه ، رأيت رسول الله ﷺ توضأ وعليه عمامه قطرية(٣٧) .

مما سبق يتضح بأن العمامة من ألبسة الرأس وأن للمسلمين طريقة خاصة في التعمم أقتداء برسول الله ﷺ وأن للعمائم أسماء متعددة كما أن لها ألواناً مختلفة، وأن العمامة يمكن أن تتخذ من أي نسيج حيث لا يشترط نسيج مخصوص.

• القلنسوة :

جاء في تعريف القلنسوة : "القلنسية" وجمعها قلانس ، والقليسية جمعها قلاسي ، وقد تقلسنت وتقلسيت ، وقال : ويقال قلنسوة وقلانس(٣٨) .

وفي مصدر آخر يظهر أن القلنسوة ذات أصل أجنبي ، بالأحرى لا يتني(٣٩).

وذكرنا سلفاً أنه قد جاء عن النبي ﷺ قوله : "فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس"(٤٠) .

مشيراً إلى أن المشركين كانوا يلبسون القلانس دون عمائم ، وجاء المسلمون ليخالفوهم في الزي فجمعوا بين العمائم والقلانس(٤١) .

ولدينا اشارة إلى أن بعض القلانس تأتي من مصر(٤٢) ، ويمكن إجمال القول بأن القلنسوة من لباس الرأس ، وربما كان أصلها غير عربي ، وأن كانت معروفة في عهد الرسول ﷺ وأن المسلمين لم يكونوا يلبسونها إلا مع العمامة ، وذلك مخالفة للمشركين واتباعاً للتوجيه النبوي الكريم .

• النّصِيف :

يعرف الأزهري النصيف بأنه الخمار ، ولكنه ينقل عن أحد مصادره أن النصيف : "ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ، سمى نصيفاً لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها(٤٣) .

ويرى ابن منظور أن "النصيف : الخمار ، وقد نصفت المرأة رأسها بالخمار وانتصفت الجارية وتنصفت أي اختمرت"(٤٤) أما الفيروز آبادى ، فيذهب إلى أن النصيف : "كامير" الخمار والعمامة وكل ما غطى الرأس"(٤٥) فكأنه بهذا التعريف يتفق مع ابن منظور ، على أن النصيف غطاء الرأس . ومصدر رابع في حديثه عن ترتيب الخمار يشبه النصيف بأنه كالنصف من الرداء ويرى أن النصيف أكبر من الخمار(٤٦) .

أولاً - لباس الوجه :

• البُرقع :

في تعريف البرقع ينقل الأزهري عن الليث قوله: "جمع البرقع البراقع وقال: وتلبسها الدواب ، وتلبسها نساء الأعراب وفيه حزقان للعينين .

وقال توبة بن الحُمَيِّر(٤٧) :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت   فقد رابني منها الغداة سفورها

ولم يرد في مصادر الدراسة شئ عن رسول الله ﷺ بشأن البرقع ، لكن البخاري في صحيحه أشار إليه في باب ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأزر


منتدى سور الأزبكية

نصوص إحدى برديات مجموعة شوت رانيهارت المحفوظة في معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا(٦٥) ... وغيرها من المجموعات العالمية .

يلاحظ أن السوق المصري خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة كان رائجاً في صناعة المنسوجات والثياب بشتى أنواعها وأصنافها وخاماتها التي كانت لها مكانة متميزة في نفوس الناس ؛ ولقد أشارت بعض نصوص البرديات العربية إلى أسعار هذه المنسوجات ومنها العمائم المستوردة من أقاليم أخرى(٦٦) ذلك بسبب التنافس الشديد في الصناعة وجودة الخامات هذه بالإضافة لتكاليف الشحن والنقل وغيرها(٦٧) .

ومن المعروف أن مصر صدرت إلى بلاد المغرب المنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها مدينة دبيق (الحرير الدبيقي) ونوع آخر من الحرير الموشي في صنع الإسكندرية(٦٨) . وثياب القباطي(٦٩) ، والفرش الصوفية التي أشتهرت بها مدينة أسيوط وهي شبيهه بالفرش الأرمينية لجودتها(٧٠) .

وتشير أوراق البردي العربية إلى مدى الحاجة في الطلب على شراء المناديل التي كان يصنع منها العمامة في بعض الأحيان في مصر والمغرب(٧١) .

ولقد ورد هذا اللقب في نصوص بردية عربية محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تنسب للقرن ٣هـ/ ٩م(٧٢) بهذه الصيغة : "على الفضل بن بقار منديل تنيسى" وكلمة منديل لها عدة معان كما سبق أن أشرت : منها أنه ربما يكون معناها مرادفاً "لوزرة العمامة" أو ربما يكون معناها شاشي ، ومنها كذلك منديل للوجه ، ومنديل للرأس ، ولقد اشتهرت مصر منذ القدم بصناعة هذه المناديل ، وظهر منها عدة مدن شهيرة متخصصة في صناعة هذا النوع من الأقمشة(٧٣) ومنها مدن ارتبطت بها هذه الصناعة مثل : (منديل بهنسي)، ومنديل شطوي ومنديل دبيقي(٧٤) ومنديل قهقوي(٧٥) وتجدر الإشارة كذلك إلى أن هذه المناديل كانت غالية الثمن فكان يتراوح ثمنها بين خمسة دنانير وسبعين ديناراً(٧٦) ، وفي مقابل ذلك وجدت مناديل أخرى منخفضة الثمن نسبياً _ حيث أشارت البرديات العربية في نصوصها إلى قيمة بعض هذه المناديل فالمنديل

البهنسي كان سعره درهماً واحداً أشارت إلى ذلك بردية عربية محفوظة في مجموعة الأرشيدوق راينر (دليل المعرض في فيينا) وفي بردية أخرى نلاحظ أن المنديل الشطوى وصلت قيمته إلى عشرين درهماً وغيرها[٧٧] .

وقد عرف في بلاد المغرب غطاء للرأس يسمى بالشاشية[٧٨] ؛ يسمى عند أهل الصناعة (العمارة) وكلمة عمارة عربية وتطلق على غطاء الرأس ، ودخلت كلمة (كبوس) للغة الشعبية التونسية وذلك لأن الشاشية تكبس الرأس[٧٩] . ومثلما سميت الشاشية في الوسط الشعبي التونسي (كبوساً) سميت بمصر وجل بلدان المشرق (الطربوش المغربي) .

ونلاحظ أن الشاشية التي أثبت التاريخ عراقة وجودها بتونس ، وأكدت العادات والتقاليد أصالتها صارت أيضاً لقباً عائلياً من ذلك "آل شاشية" و"آل الشواشي"[٨٠] .

والشاشية معروفة في المشرق والمغرب العربيين منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ؛ أهتم بها الخلفاء والأمراء والوزراء والكتاب في مصر وبغداد وغيرهما ؛ وإن كان انتشارها بتونس كان أعم وأشمل ، إذ كانت زياً شعبياً عاماً ؛ وهذه الظاهرة نجدها في النصوص التاريخية وتبرزها العادات والتقاليد والتعابير الشعبية ، مما يدل على عمق وجودها بتونس وتواصل امتدادها التاريخي[٨١] .

وقد أشار إليها المقريزي عند ذكر الشاشية أثناء حديثه على محتويات خزائن الأكسية الفاطمية[٨٢] .

وقد استعمل اللثام في المغرب الإسلامي وخاصة عند الطوارق ؛ وهي عادة عربية قديمة ، إذ كان الحميريون يتلثمون وقد استشهد الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة عندما جلس متمثلاً ثم قام للخطبة ببيت لابن سحيم وهو شاعر عربي قديم : "أنا ابن جلا وطلاع الثنايا" متى أضع العمامة تعرفوني[٨٣] وهو هنا يقصد اللثام ولكنه لم يستعم الوزن فكنتى عنه بالعمامة .

ويقول ابن عذاري : "وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجهوهم ولذلك سموهم بالملثمين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف وسبب ذلك على ما قيل أن

حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد وتفعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم"(٨٤) .

وكان القماش المتنوع الأشكال والبسط والمنسوجات المصرية وخاصة القماش الأزرق ذا الصبغ الكحلي هو أفضل ما يقتنيه الطوارق ومن أغلى ملابسهم ويتخذون منه القمصان الواسعة والعمائم ويسمونه طاري ؛ ولا يمكن أن يتم مهر العروس بدونه يأتيهم من مصر عبر بلاد المغرب الأدنى(٨٥) .

(د) القيمة الجمالية والوظيفية للعمامة وأغطية الرؤوس في مصر والمغرب :

حرص الخلفاء العباسيون في مصرعلى إرتداء عمامة مدوره لطيفة لها طرف (عذبه) يتدلى خلف الظهر يطلق عليه اسم الرفرف(٨٦) ويبلغ طوله قدمين (٦٠سم) وعرضه قدم واحدة وهو مرسل من أعلى العمامة إلى أسفلها(٨٧) .

وقد ظلت العمامة المدوره طوال العصر المملوكي أحدى الشعائر السلطانية من التشريف الملكي ، إذ أنعم السلطان محمد بن قلاوون عام عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على حاكم السودان العمامة مع جبة سوداء وسيف مذهب(٨٨) .

وفي مناسبات خاصة كانت العادة أن يرتدي السلطان عمامة تسمى (التخفيفة الكبيرة) أطلق عليها العامة اسم الناعورة(٨٩) تستخدم "في مقام التاج" عند السلاطين المماليك(٩٠) . عندما ننظر إلى الناحية الوظيفية لهذه الملابس في مطابقتها لأحكام الدين نلاحظ من حين لآخر إنه كان يمتدح حاكمالا متاعه عن ارتداء الملابس المحرمة أو حتى الملابس المصنوعة من خامات أجازتها أحكام الشريعة الإسلامية ولكنها ظلت تعتبر من أدوات الترف ، ومن ثم فإنها كانت تعتبر غير مرغوب فيها .

ويشير المقريزي إلى لباس للرأس يمسى الشربوش يشبه التاج ، مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة أي لا يلف حوله منديل(٩١)، وتشير النصوص إلى أن لبس الشربوش استخدم في عصري الأيوبيين والمماليك البحرية ، وإن أكد المقريزي على أنه قد أبطل في عصر المماليك الشراكسة(٩٢)، ولما كانت العمامة وحدها رمز أرباب الأقلام أي أرباب العمائم أضحت الكلوته رمزاً للأرستقراطية العسكرية .

ومن ألبسة الرأس نوع يسمى الطاقية ؛ وكانت تشبه الكوفية التي كان يلبسها الصبيان والبنات فلبسها الرجال والنساء[٩٣] .

أما عن رجال الدين والعلماء المسلمين فهم الأكثر حرصاً على ارتداء العمامة لأنها الأكثر أهمية في ملبسهم ، أطلق عليهم اسم "أرباب العمائم" أو "المتعممون" وهذا لا يعني إنهم كانوا الوحيدين الذين لهم عمائم فوق رؤسهم ، غير أن عمائمهم كانت أكبر حجماً وأكثر أهمية من عمائم الآخرين ، ولو أنه حتى القرن السابع الهجري لم تكن العمامة جزءاً مكملاً لزي القاضي ، إذ كانت القلنسوة تستخدم حتى ذلك العهد[٩٤] .

وتتضح أهمية العمامة عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمائم الملونة[٩٥] التي كان يمكن أن نميز بها المسيحيين واليهود (أهل الذمة) عن المسلمين ، فقد ذكر القلقشندي "وألبس أهل الذمة بالشام : النصاري الأزرق واليهود الأصفر والسامره الأحمر "وينطبق هذا القول على العمائم دون أي جزء آخر من الملبس ، ومع مر العصور ازدادت العمامة كبراً وضخامة[٩٦] .

وكان يلبس تحت العمامة طاقية صغيرة يطلق عليها اسم "قبع" وكانت الطبقات الدينا من الشعب تلبس على ما يظهره الطاقية دون استعمال أي شئ آخر معها[٩٧] .

وفي القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدي القضاة والعلماء عمائم الحجم شاذه في ضخامتها ، وكان لبعضهم أطراف عمائم أي ، ذوائب تسترسل بين الكتفين حتى تبلغ "قربوس" سروجهم[٩٨] .

ووجدت قطعة أخرى من الملابس التي تميز زي الطبقة الرفيعة من رجال الدين الموظفين الا وهي الطرحة ، وهي عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين ، وكان الطيلسان هو أقرب الأزياء شبيهاً بالطرحة[٩٩] .

وقد كان لسلالة النبي محمد صلعم مكانة مرموقة دائماً في مصر والمغرب ويطلق عليهم اسم "السادة الأشراف" وهم الذين وضعوا قطعة قماش خضراء في عمائمهم[١٠٠] .

ومجمل القول أن الزي المميز لرجل العامة هو العمامة والملوطة وهذا يقابل التخفيفة.

وغنى عن البيان أن نساء المدينة كن يطفن محجبات وكانت توجد أشكال متنوعة من الحجاب وهي المقنعة والقناع والنقاب وكانت غالباً من الأنماط الآتية:

(أ) قناع شبكي أسود يغطي الوجه كله .

(ب) قناع مثل القناع الأول ولكن به فتحتان للعينين .

(جـ) قناع للوجه أبيض أو أسود يطلق عليه اسم البرقع يغطي الوجه إلى ما تحت العينين .

وإن كان ظهور المرأة بدون قناع بين الجمهور دليل على فقرها الشديد(١٠١) .

أما عن نساء لمتونة في العهد المرابطي فكن يكشفن عن وجوههن وأن يتلثم الرجال: وكان النبلاء يتخذون لثاماً مغايراً للثام العبيد ، كما كانوا يلبسون الثياب البيضاء ، وانعكس الرخاء الاقتصادي على حياة المجتمع المرابطي في عهد على بن يوسف في الملبس ؛ وتأنق الرجال والنساء في ملابسهم فارتدت النساء الملابس الحريرية الفاخرة المطرزة بالذهب . وكان عليه القوم من المرابطين يتخذون اللثم السوداء ، بينما كانت الطبقة الدنيا تتلثم باللثم البيضاء . أما عامة الناس من غير المرابطين سواء في المغرب أو الأندلس فلم يكن لباسهم يختلف عن اللباس التقليدي الذي كان شائعاً ؛ وكانت السمة العامة التي تغلب على الأزياء في ذلك العصر هي السعة المفرطة(١٠٢) .

واختص السلطان المريني بالعمائم الطويلة قليلة العرض ؛ المصنوعة من الكتان .

أما العلماء وأهل الصلاح والقضاة والعلماء والكتاب وعامة الناس يضعون على رؤسهم العمائم الخضراء(١٠٣) .

الخاتمة

نخرج من هذه الدراسة بالحقائق التالية :

أولاً : أن أوراق البردي العربية قد وضحت أنواع العمائم التي عرفت في مصر والمغرب منها العمائم السوسية ، والصنهاجية والعنابية .

ثانياً : وردت في نصوص البرديات العربية لفظ العمائمي وهي تنسب للقرنين ٤ _ ٥ هـ / ١٠ _ ١١م ، وقد أرتبطت هذه الحرفة باسم "ظلمي العمامي" .

ثالثاً : تم تحديد العديد من المواقع التي اشتهرت بصناعة قماش العمائم في مصر الإسلامية ومنها دبيق التي بلغ فيها سعر العمامة مائة دينار .

رابعاً : أبرزت الدراسة ضمن نصوص البرديات العربية أنواع العمائم منها العمامة الحمري والعمامة الخز والعمامة القطنية ، والعمامة الكتانية .

خامساً: لاحظنا ظهور الشاشية منذ أول القرن الثاني الهجري وهي التي كانت جزءاً من زي الوزراء والكتاب والفرسان في تونس والمغرب .

سادساً: استعمل اللثام في المغرب الإسلامي وخاصة عند الطوارق وهي عادة عربية قديمة لشدة الحر والبرد التي يقطعونها في الصحراء .

لقد صدق أبي الأسود الدؤلي حين قال عن العمامة "جنة في الحرب ومكنة من الحر ، ومدفأة من القر ووقار في الندى ، وواقية من الأحداث وزيادة في القامة وهي تعد عادة من عادات العرب نعم العمائم تيجان العرب .

الحواشـــي

١ . صالح أحمد العلي : الألبسة العربية في القرن الأول الهجري ، دراسة أولية ؛ مجلة المجمع العلمي العراقي (١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م) ، مج١٣ ، ص ص٣ - ٣٢ .

٢ . صالح أحمد العلي : ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى"؛ مجلة المجمع العلمي (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) مج٢٦ ص ص٧١؛ ١٠٧؛ ٦٢-١٠٠ (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .

٣ . صالح أحمد العلي : الأنسجة في القرنيين الأول والثاني ، مجلة الأبحاث ، ج٤ ، مج١٤ ، بيوت ١٩٦١، ص ص ٥٥ - ٦٠٠ .

٤ . مهدية شحاته الزميلي: لباس المرأة وزينتها في الفقة الإسلامي، عمان ١٤٠٢هـ، ص ص٩١ - ١٠٨ .

٥ . محمد عبد العزيز عمرو : اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية ، ط الثانية بيروت وعمان ١٤٠٥هـ ، ص ص ٢٥٩ - ٣٠١ .

٦ . يحيى الجبوري : الملابس العربية في الشعر الجاهلي ، بيروت ١٩٨٩م .

٧ . نوري حمودي القيسي : الملابس في معجم لسان العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج١ ، مج٣٨، بغداد ١٤٠٧هـ ، ص ص ٨٣ - ١١٩ .

٨ . رينهارت دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة عن الفرنسية د. كرم فاضل ، بغداد ، ١٩٧١ . وكتب د/ صلاح حسين العبيدي : الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني دار الرشيد ١٩٨٠ .

٩ . سليمان بن الأشعث ، أبو داود ؛ سنن أبي داود ، ط محمد محي الدين عبد الحميد (استانبول : المكتبة الإسلامية ، د/ت) ، ٤١/٤ ، وأنظر : محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ؛ سنن الترمذي ، ط أحمد محمد شاكر وآخرين ، ط٢ ، القاهرة مطبعة الحلبي ، ٣٩٨هـ ٢٣٩/٤ .

١٠ . النور : ٣١ ؛ وحثت السنة النبوية على الأحتشام والتستر في اللباس بحيث لا يُرى منها إلا الجه والكفين انظر : أبو داود ، ٦٢/٤ .

١١ . الأعراف : ٣١ .

١٢ . محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ط القاهرة د/ت، ٣٧٩/٧؛ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، (بيروت دار صادر ، د/ت)؛ ٢٥٧/٤ _ ٢٥٨. وانظر ما جاء في ترتيب الخمار عند أبي منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ط القاهرة مطبعة الحلبي، ١٣٩٢هـ، ص٢٢٧ .

١٣ . النور : ٣١ .

١٤ . محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٣٨٧هـ، ٢٣٠/١٢ .

١٥ . أحمد بن حنبل، المسند، القاهرة، مؤسسة قرطبة د/ت، ١٥٠/٦، وقارن ص ص،٩٦،٢٣٨ ؛ أبو داود، ١٧٣/١؛ ابن ماجه ، (محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ط بيروت د/ت، ٢١٥٠/١ .

١٦ . الإمام مالك : الموطأ (ت: ١٧٩هـ) ، ١٤١/٤ .

١٧ . مالك : ١٤٢/١ .

١٨ . ابن ماجه : ٢١٤/١ .

١٩ . ابن حنبل : ٩٦/٦ ، ٢٣٨ ، وانظر أبو داود ، ٦٤/٤-٦٥ حيث يذكر أن القباطي يمكن يستفاد منها خمراً ، انظر الخمار شكل رقم (٧) .

٢٠ . مالك : ٩١٣/٢ .

٢١ . ابن ماجه : ٦٣٤/١ .

٢٢ . البخاري : صحيح البخاري ، ط بيروت ١٤١٠هـ ، ٢١٩٢/٥ .

٢٣ . ابن حنبل : ٢٨٠/٦ .

٢٤ . ابن ماجه : ١٨٦/١ ؛ الترمذي ، سنن الترمذي ، ب/١٧٢ ، ابن حنبل ، ٢٥٤/٤ ، وربما كان المقصود بالخمار هنا العمامة .

٢٥ . أبو داود : ٦٤/٤ .

٢٦ . أبو داود : ٦٤/٤ .

٢٧ . الأزهري : ٤٨/٢-٥٠ وانظر : مادة عصب عند ابن منظور ، ٦٠١/١-٦٠٦ .

٢٨ . ابن منظور ، ٦٠٢/١ ، انظر العصابة شكل رقم (٨) .

٢٩ . ابن حنبل : ٤٢٣/٣ .

٣٠ . العصابة الدسمة والدسماء : بمعنى واحد أي سوداء انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ط بيروت ١٣٩٩هـ ، ١١٧/٢ .

٣١ . الأزهري : ١٢١/١ ، ابن منظور ٤٢٤/١٢ . وكتب الجبوري بحثاً شيقاً عن العمامة عبر العصور الإسلامية في كتابه الملابس العربية في الشعر الجاهلي، ط بيروت ١٩٨٩، ص ص١٩٦ _ ٢٤٥ .

٣٢ . إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح ، ط بيروت ١٤٠٤هـ، ١٩٩٢/٥، وانظر : دوزي ، ص٢٥١ .

٣٣ . الترمذي : ٤٢٧/٤-٢٤٨ ، أبو داود ، ٥٥/٤ ، انظر العمامة شكل (١) ، (٢) .

٣٤ . الترمذي : ٢٤٧/٤-٢٤٨ ، أبو داود ٥٥/٤ .

٣٥ . النسائي : ٢١١/٨ جاء عند ابن الأثير أن الحرقانية ما أحرقته النار كأنها منسوبة _ بزيادة الألف والنون _ إلى الحرق بفتح الحاء والراء انظر : ابن الأثير ٣٧٢/١ ، ابن منظور ، مادة "حرق" ٤٥/١-٤٤٦ .

٣٦ . الحوتكية : قيل هي عمامة تيعممها الأعراب تعرف بهذا الاسم . وقيل هي : مضاف إلى رجل يسمى حوتكا يتعمم هذه العمة انظر: ابن الأثير، ٣٣٨/١، ابن منظور، ٤١٠/١٠ .

٣٧ . ابن ماجه : ١٨٧/١ .

٣٨ . الأزهري ، ٣٩٩/٩ .

٣٩ . معروف الرصافي، الآله والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهنات ، ط العراق ١٩٨٠م ، انظر: حاشية ص٢٧٩ . وجاء عند ابن منظور أن "القلسوة والقساة والقلنسوة والقلنسية والقلنساة والقلنسية: من ملابس الرؤوس معروف ، والواو في قلنسوة للزيادة غير الإلحاق وغير المعنى "ابن منظور، ١٨١/٦ .

٤٠ . أبو داود ، ٥٥/٤ ، الترمذي، ٢٤٧/٤ _ ٢٤٨ . انظر القلنسوة شكل (٥) ، (٦) .

٤١ . انظر: محمد عمرو: اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية، ط بيروت ١٤٠٥هـ، ص٢٦٠ .

٤٢ . يذكر ابن سعد عن يزيد بن الحارث الغزاري قوله : رأيت على علي بن أبي طالب قلنسوة بيضاء مصرية . انظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت د/ت، ٣/ ٣٠ .

٤٣ . الأزهري ، ٢٠٣/١٢ - ٢٠٤ .

٤٤ . ابن منظور ، ٣٣٢/٩ ، انظر شكل رقم (٧) .

٤٥ . محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، القاموس المحيط، ط الأولى بيروت١٤٠٦هـ، ص١١٠٧ .

٤٦ . الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، ط القاهرة ١٣٩٢هـ ، ص٢٢٨ .

٤٧ . الأزهري، ٢٩٤/٣ ، وقارن ابن منظور ٩/٨ ، الفيروز آبادى ص٩٠٧ ، دوزي ، ص٥٩.

٤٨ . البخاري ، ٥٦٠/٢ ، انظر النقاب شكل (٩) .

٤٩ . ابن منظور ، ٥٣٣/١٢ ، انظر اللثام شكل رقم (٣) .

٥٠ . انظر: ابن حنبل : ٤٥٣/٥ ، البخاري ، ٥٦٠/٢ .

٥١ . الأزهري ، ١٩٨/٩ - ١٩٩ ، الثعالبي ، ص٢٢٨، انظر النقاب شكل رقم (٩) .

٥٢ . ابن حنبل : ٢٢/٢ ؛ الترمذي ، ١٨٥/٣ - ١٨٦ .

٥٣ . انظر: أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ٦ ، حققه د/ عبد العزيز الدالي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ، ص١٠٤ ، ١٠٥ .

وعن معنى العمائم وكيفية صنعها واستعمالاتها انظر ما كتبه دوزي :

R.Dozy : Dictionnaire D'etaille Des Noms Des vetemento . p. 305 .

٥٤ . انظر: عطيه القوصي : الأهمية التجارية لمدينة تستر ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العددان السابع والثامن ٧٦ / ١٩٧٧ ، ص٦٥ - ٧٤ .

٥٥ . يطلق هذا الاسم على ناحية كبرى من نواحي الجنوب تقع بين الأطلسين الكبير والصغير وتنقسم إلى أربع مناطق: هوراه - رأس الواد - شتوكة - ازغار وأهم مراكزها أكادير وتارودانت وتزنيت وتافراوت . انظر : الصديق بن العربي : كتاب المغرب ، ط المغرب ١٩٨٤ ، ص٢٣٣.

كذلك نلاحظ حول تجارة الملابس بين مصر والمغرب:

- صدرت مصر إلى بلاد المغرب المنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها مدينة دبيق (الحرير الدبيقي) ونوع أخر من الحرير الموشي من صنع الإسكندرية .

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): البلدان - طبع ليدين سنة ١٨٩١م ص٣٣٧، المسعودي (على بن الحسن بن على): مروج الذهب ومعادن الجوهر - طبع القاهرة ١٩٢٥م، جـ٢، ص١٦٢.

- صدرت مصر إلى بلاد المغرب الغربي العديد من أنواع الثياب ومن أبرزاها ثياب القباطي .

انظر في ذلك: د. زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر - طبع القاهرة سنة١٩٣٥م، ص٢٥٦ ، ديماند : الفنون الإسلامية - طبع القاهرة سنة ١٩٣٤ , ص٢٥٨ .

- صدرت مصر إلى بلاد المغرب أيضاً الفرش الصوفية التي اشتهرت بها مدينة أسيوط وهي شبيهه بالفرش الارمينية لجوداتها .

انظر : اليعقوبي : المصدر السابق ، ص٣٣١ .

٥٦ . انظر ياقوت: معجم البلدان نشر فستنفلد – ط ليبزج ١٨٦٧م ، جـ٢ ، ص٨٤٩ ؛ ابن حوقل: صورة الأرض ط ليدن ١٨٧٣م ، جـ٢ ، ص٢٢٣، انظر العمائم شكل (١) ، (٢) .

الوشاء : كتاب الموشي – نشر برنو R.E. Brunnow ليدن ١٨٨٦م ، ص٦٤ .

٥٧ . العمائمي هو صانع العمائم وبائعها ؛ ويلاحظ اختفاء الهمزة في لفظة عمامي وذلك شائع عموماً في نصوص البرديات العربية انظر: سعيد مغاوري : الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية ، ط دار الكتب المصرية ٢٠٠٠م ، جـ٢ ، ص ص ٦٣٦ ، ٦٣٧.

٥٨ . تحمل رقم سجل (Asab 120) مساحتها ١٢,٢ – ١٨سم

Grohmamm: Arabische Papjri Aus Der Sammlung Carl wessely Im Orintalis -chen Institut zu pray. Arch cr. X. lg38. pp 1. 12. No.32 Tafel. 11.

٥٩ . هـذه البـرديـة فـي مجـمـوعـة كـارل فسلي C. Wessely في مدينة براغ تحـمل رقم سجل C. Wessely السطر ١١ انظر : سعيد مغاوري : مرجع سابق : جـ١ ، ص٣٩٦ .

٦٠ . ورد لقب دبيقي ضمن نصوص العديد من البرديات العربية وهي إحدى مدن شرق الدلتا؛ والتي اشتهرت بصناعة المناديل وصيغته هكذا "منديل دبيقي" .

انظر: الصولي "أبو بكر محـمـد بن يحي" : "أدب الكتـاب – نشـره Hywarth Dumme طبع القاهرة ١٩٣٥، جـ٢، ص٦؛

د. سعيد مغاوري: مرجع سابق ، جـ١ ، ص٣٩٦ . وانظر كذلك المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ط بولاق ١٢٧٠هـ ، جـ١ ، ص٤٢٣ .

٦١ . ابن ظهيره: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة تحقيق مصطفي السقا ، جـ١ ، ط دار الكتب المصرية ١٩٦٩ ، ص١٤٦ ؛ عاصم رزق: مركز الصناعة في مصر الإسلامية ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ ، ص١٨٤ .

٦٢ . تحمل رقم سجل (٥٥٢) مساحتها ٣٢,٥ _ ١٩,٥سم .

جروهمان: المرجع السابق ، جـ٦ ، ص٩٠ _ ١٤ رقم (٣٩٤) لوحة رقم (١٠ ، ١١).

٦٣ . الخز وهو نسيج حريري مصنوع من سداة حريرية ولحمة صوفية وهو نسيج مخملي ثقيل مثل القطيفة .

ابن عبد ربه : العقد الفريد – ط القاهرة ١٣١٦هـ ، جـ٣ ، ص٢٥٧ .

٦٤ . من بينها بردية برقم سجل (PER.N 6009)

جروهمان : المرجع السابق ، جـ٦ ، ص٩١ .

٦٥ . من بينها بردية برقم سجل (P.SR.N. 394) السطر ١٥ .

جروهمان : المرجع السابق ، جـ٦ ، ص١٠٤ .

سعيد مغاوري : مرجع سابق _ جـ٢ ، ص٦٣٧ .

٦٦ . انظر : جروهمان : المرجع السابق ، جـ٦ ، ص١٠٤ .

٦٧ . سعيد مغاوري : مرجع سابق ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

٦٨ . انظر اليعقوبي : البلدان ، ط ليدن ١٨٩١ ، ص٣٣٧ .

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط القاهرة ١٩٢٥م ، جـ٢ ، ص٦٢ .

٦٩ . ذكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ، ط القاهرة ١٩٣٥م ، ص٢٥٦ ، ديماند : الفنون الإسلامية ط القاهرة ١٩٣٤ ، ص٢٥٨ .

٧٠ . اليعقوبي : المصدر السابق ، ص٣٣١ .

٧١ . انظر: بملحق البحث، خطاب يتعلق بالسلام والاطمئنان وطلب شراء ثياب وأقمشة، رقم PERF B75 No, مجموعة الأرشيدوق رنير وخطاب شخصي يتعلق بطلب شراء مناديل رقم PERF No 75L0 على ورق أطوالها ١٤,٨ - ٥,٧ سم وينسب للقرن ٨هـ /١٤م .

٧٢ . تحمل رقم سجل:٥٥٢ تتكون من٤ قطع اللقب الذي نحن بصدده يقع في القطعة(ب) مساحتها ١٩,٥x٣٢,٥سم وهي عبارة عن "قائمة ثياب مختلفة" .

٧٣ . تقع هذه الكتابة في السطر الثاني عشر جروهمان : المرجع السابق ، جـ٦ ، ص٩٠ -١١٣ رقم ٣٩٤ . لوحة ١٠ ،١١ .

٧٤ . عن هذه المدن : البهنسا وشطا وديبق _ من حيث مواقعها وتجارتها وصناعتها انظر عاصم رزق : المرجع السابق ١٤٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٨ .

٧٥ . جروهمان : المرجع السابق ، جـ٦ ، ص١٠٦ – ١٠٧ .

٧٦ . المقريزي : الخطط ، جـ١ ، ص٤١٠ ، ٤٧١ .

٧٧ . A.Grohamamm: Texte Zur Wirtschaftsgesch _ ichte Agyptens . p. 458 .

78. انظر : أبو بكر الكافي : الشاشية تاريخها وتقاليدها وتطورها ، مجلة الفكرة ، العدد٦ ، مارس ١٩٨٢ ، ص٣٣ وما بعدها .

٧٩ . سماها أهل العراق الفاسية نسبة إلى مدينة فاس المغربية فالمعنى شاشية حمراء لون الطربوش وأهل ليبيا يسمونها الطاقية التونسية . المرجع نفسه ، ص٣٤ .

٨٠ . المرجع نفسه ، ص ٤٣٧ .

٨١ . نفسه ، ص٣٥ .

٨٢ . انظر : الخطط المقريزية ، جـ٢ ، ص ٢١٤ _ ٢٥٦ .

٨٣ . محمد سعيد القشاط : التوارق عرب الصحراء الكبرى ، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، ط الثانية ١٩٨٩ ، ص٩٠ .

٨٤ . ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الرابع ، ط دار الثقافة ، بيروت ، بدون ، ص١٢٨ .

٨٥ . لقد سردت أساطير عديدة حول قضية اللثام الذي يدعى بالبربرية تاغلموست والطوارق أنفسهم يجهلون أصله ، ويظهر أنه لدفع أمر محرم حقيقي إلا وهو القم البلوغ يبدأ وضع اللثام ويكون ذلك مناسبة لاحتفال عائلي صغير .

انظر: ليو الأفريقي: وصف أفريقيا، ط الرياض ١٣٩٩هـ ، ص ٦٩ ، حاشية (١٤١) .

٨٦ . يشير القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ط القاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٧٦ إلى أن الرفرف نصف ذراع في ثلث ذراع .

٨٧ . المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٨٠، ماير في الملابس المملوكية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٢٤ .

٨٨ . انظر ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ط ١٣٠٥هـ ، ص١٩٥.

٨٩ . الناعورة اسم للساقية السورية . ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٣٥٤ _ ٣٧٢ .

٩٠ . انظر . ماير: مرجع سابق ، ص٣٨ .

٩١ . الخطط ، ج٢ ، ص٩٩ ؛ انظر أيضاً

ماير : مرجع سابق ص٥١ .

٩٢ . انظر : جروهمان : أوراق البردي العربية لوحة رقم١٨ شكل (١) ، ولوحة رقم (٣١) .

٩٣ . الجمع (كوت) ، قاموس الملابس ، ص٣٨٨ .

٩٤ . انظر : ماير ،ص٢ ، رما بعدها .

٩٥ . انظر لمزيد من الدراسة عن هذه الوظيفة عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، القاهرة ١٩٥٥ ، جـ٢ ، ص٣٠ ، ماير : مرجع سابق ، ص١١٦ ، ١١٩ .

٩٦ . القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص٣٧٨ .

٩٧ . ماير : مرجع سابق ، ص٩٠ .

٩٨ . نفسه ، ص٢٤ ، ١٩ ، ١١٩ .

٩٩ . نفسه : ص٩٤ .

١٠٠ . انظر : السلوك ، ذو الحجة سنة ٨٣٢هـ ، ماير : مرجع سابق ، ص٩٧ .

١٠١ . ماير : نفسه ، ص١٣٠ .

١٠٢ . انظر : سلامة محمد سلمان الهرفي : دولة المرابطين في عهد على بن يوسف بن تاشفين ، ط بيروت ، بدون ،ص٢٩٨ .

١٠٣ . عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، ط دار الشروق ، بدون ، ص٢٢٢ .

الملاحـــق

أولاً : الوثائق

١- تجارة الملابس بين مصر وبلاد المغرب (خطاب يتعلق بالسلام والاطمئنان وطلب شراء ثياب وأقمشة من مجموعة الأرشيدوق راينر بفيينا) ، على ورق الكاغد .

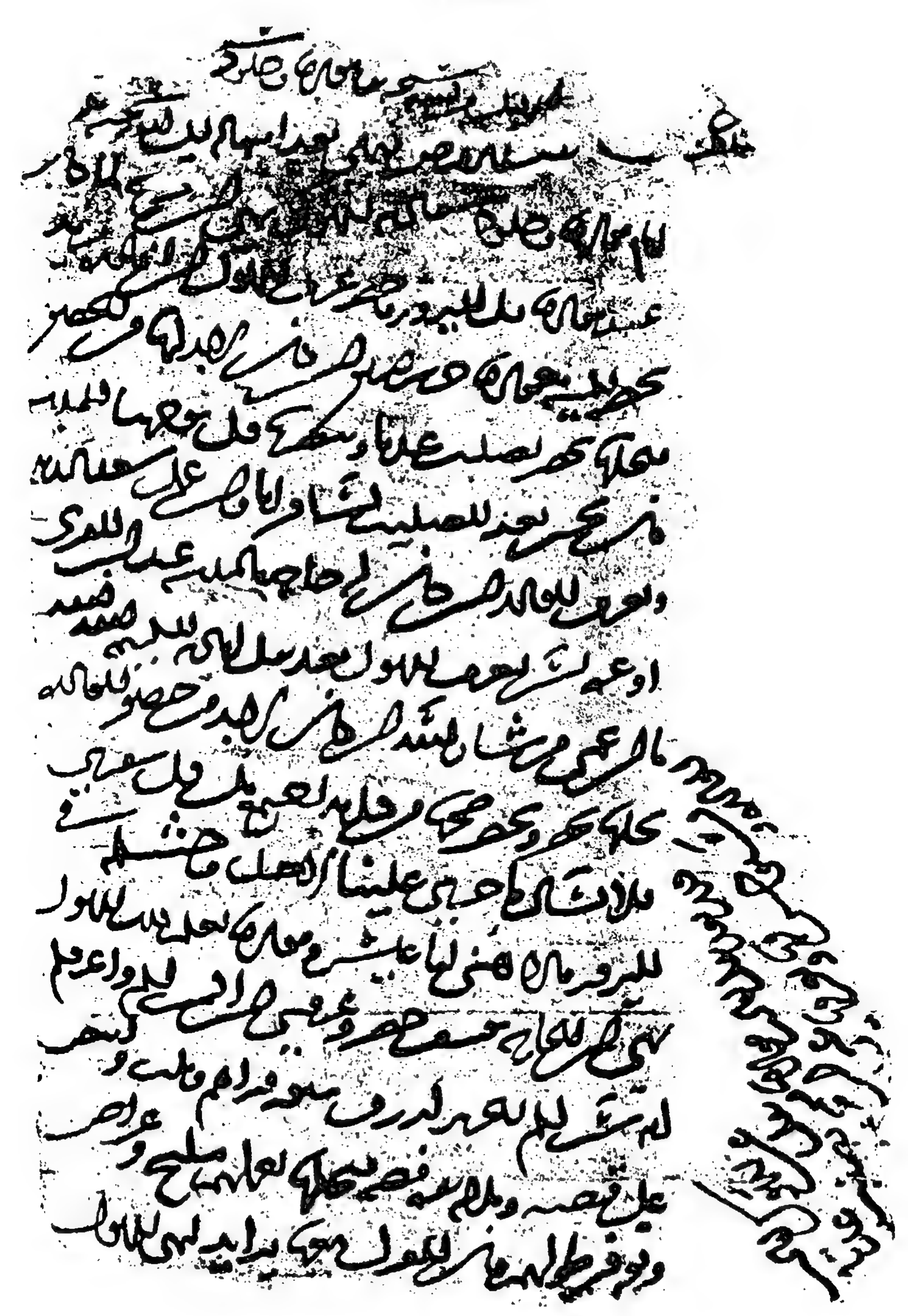
٢- خطاب شخصي يتعلق بطلب شراء مناديل (مجموعة راينر بفيينا)، على ورق الكاغد.

٣- خطاب من عبد لسيدة كتب بأسلوب الخط المغربي ، على ورق الكاغد .

ثانيهما : نماذج من أغطية الرأس في مصر والمغرب

- شكل (١) العمامة وعذبتها من الجانب
- شكل (٢) العمامة وعذبتها من الخلف
- شكل (٣) عمامة اللثام
- شكل (٤) العمامة في العصر العباسي
- شكل (٥) القلنصوة القصيرة
- شكل (٦) القلنصوة الطويلة
- شكل (٧) الخمار للنساء
- شكل (٨) العصابة للنساء
- شكل (٩) النقاب للنساء
- شكل (١٠) الإزار في العصر العباسي
- شكل (١١) الطيلسان على الرأس
- شكل (١٢) البرنس للنساء

شكل (١)



بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب يتعلق بالسلام والاطمئنان وطلب شراء ثياب وأقمشة

شكل (١)

هذا الخطاب محفوظ في المكتبة الوطنية النمساوية "مجموعة الأرشيدوق راينر" برقم سجل (PERF. No1375) ٢٣ أطوالها ١٤م / ٨هـ للقرن تتسب_ . الكاغد ورق من قطعة على كتبت ١٣سم

نص الخطاب :-

١- (المملوك) ناجي : الأمل من الله سبحنه بقامولانا وخلود (سعادته) .

٢- يقبل الأرض وينهي بعد إبتهاله إلى الله سبحنه بد (وام) .

٣- أيام مولانا وخلود سعادته المملوك ينهي أن (فـ) رح لما كان .

٤- عند مولانا قبل النيروز وحضر عرض المملوك أن الوالدة تريد .

٥- تحضر إليه فمولانا حرسه الله تعالى إن كان لابد لها من الحضور

٦- فيخليها تحضر بصليب عندنا ونتضرها قبل توجهنا للمدينة .

٧- فإن تجي بعد الصليب تسافر أنا وابن عمك سعده الله تعالى .

٨- ويعرف الوالد إن كان له حاجة بالمدينة عند ابن القرى .

٩- أو غيره يسير بعرف المملوك بعد تقبيل أياديه الكريمة الله الله .

١٠- يا بن عمي من شأن الله إن كان لابد من حضور الوالدة .

١١- تخليها تحضر وتحضر صحبتها من كل بد اجتمع بك قبل سفري .

١٢- فلا تسأل ما جرى علينا لأجل وحشتكم في .

١٣- النيروز فلا هنى لنا عيش ومولانا يعلم ذلك المملوك .

١٤- ينهي أن الحاج يوسف حضر وعرفني أن أكتب لكم وأعرفكم .

١٥- أنه يسير لكم الحرير أزرق سبعة دراهم وثلث وأبيعن .

١٦- على قصبه وثلاثة عشرة فضة فتخليها تعملهم مليح وعراض .

١٧- وتوفر طولهم فإن الغزل معها يزايد النهي المملوك .

١٨- ذلك بعد تقبيل أيادي مولانا ويقبل عن المملوك أيادي .

١٩- الوالدة ويستوحش منها ويعرفها عني أن تحضر بصليب عندنا .

كتابة الظهر

١- فإن المثل يقول استغنموا الاجتماع فإن الفرقة واقعة والعالم .

٢- الله من يعيش ومولانا يقبل أيادي الـ(.....) الشمس ويسلم على سعادة .

٣- ويسير يعرفني أخبارها أن كانت توجهت العام فإنني متشوش .

٤- بسببها ويسلم على الأخ يونس وأم عيشه وعيشه وساير .

٥- الأصحاب وجميع من حوته الدار المعمورة عمرها الله ببقا مولانا والوالد .

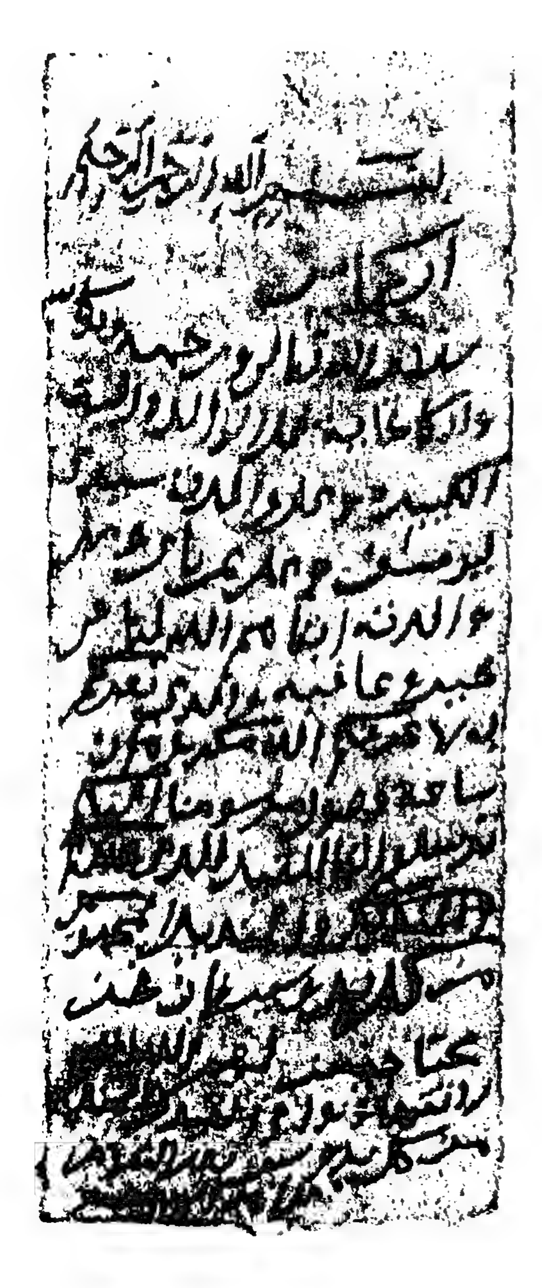
٦- والوالدة أن شاء اتلله تعالى ومولانا لا يهمل أمر الصنف الذي حكت .

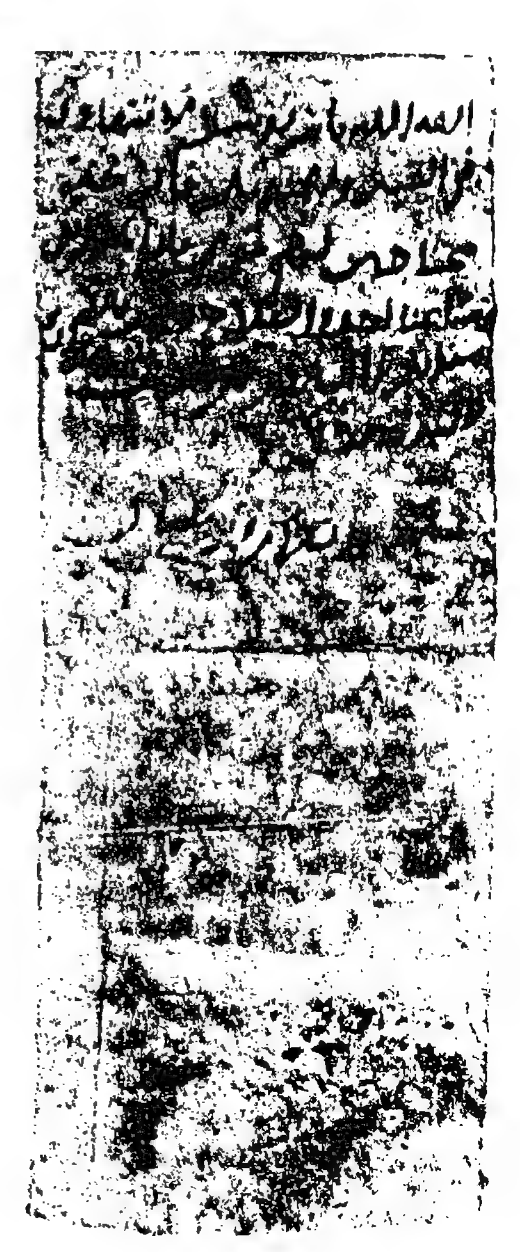
٧- عنه مولانا يأخذ من جملة ثمنه خرقة طرح للطراحة بخمسة ويسير .

٨- صنف قلت هذا أن أحسن مولانا إن شاء الله تعالى والسنى الله باكتماله .

٩- وقال لكم الحاج يوسف الذي تروه من الصلح افعلوه في أمر الحاشية .

شكل (٢)





بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب شخصي يتعلق بطلب شراء مناديل

شكل (٢)

هـذا الخطـاب الهـام محفوظ حالياً في المكتبة الوطنية النمساوية "مجموعة الأرشيدوق راينر" فى فيينا بالنمسا - برقم سجل (PERF. NO,7510) كتب على قطعة من ورق الكاغد - أطوالها ١٤,٨ x ٥,٧ سم - ينسب للقرن ٨هـ / ١٤م ، وردت به معلومات عن طلب شراء مناديل .

نص الخطاب :

١- بسم الله الرحمن الرحيم .

٢- أركماس .

٣- سلام الله تعالى ورحمته وبركاته .

٤- وأزكا تحايته على الوالدة الست .

٥- الكبيرة وعلى والدت سيدي .

٦- يوسف وعلى تمر باي وعلى.

٧- والدته أبقاهم الله لنا في .

٨- خير وعافية والذي نعر < فـ > كم

٩- به لا عرفكم الله مكروه أن .

١٠- ساعة وصول مرسومنا إليكم .

١١- ترسلوا لنا القيد الذي عندكم .

١٢- (والمنديل) والمنديل المحبوك .

١٣- من كل بد وسبب فإن نحن

١٤- محتاجين لهم الله الله

١٥- لا تتهاونوا في القيد والمنديل

١٦- من كل بد وسبب بعد السلام

١٧- على أهل البيت

كتابة الظهر :

١- الله الله يام يوسف لا تتهاون

٢- في القيد والمنديل فإن نحن

٣- محتاجين لهم قوى فإن المنديل

٤- متاعنا أخذه الفلاح ونحن بلا

٥- منديل والسلام على است المنديل أولا

٦- والحمد لله وحده

٧- والسلام على سليمان

شكل (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب من عبد لسيدة كتب بأسلوب الخط المغربي

شكل (٣)

هـذا الخطـاب محفـوظ حـالياً فـي المكتبة الوطنيـة النمسـاوية "مجموعة الأرشيـدوق راينر" فى فيينا بالنمسا برقم سجل (PERF.A. ch. 102570) كتب على قطعة من ورق الكاغد أطوالها ٢٠,٨x ٢١,١ سم ، ينسب للقرن ٨هـ / ١٤م ، يلاحظ في هذا الخطاب ظهور أسلوب الكتابة المغربية من حيث طريقة ليونة الحروف وتقويس بعض بدايات ونهايات الكلمات وغيرها.

نص الخطاب :

١- سلام الله تعالى والرحمة وبركاته وأزكا تحياته

٢- على سيدي وسندي من هو أعزى في الناس عندي

٣- الشيخ ناصر الدين الكتاب إليكم

٤- من العبد الفقير الحقير إلى الله تعالى مرجان

٥- أما بعد سلاماً من الحب الذي لم سلاكم

٦- ولا قصيده في الناس خلا سواكم لو أكون

٧- من من كان له بقته عيني

٨- في الكتاب تراكم أنا عبدكم وعبيدكم

٩- ومحبكم ومملوكم في بيعكم وشراكم

١٠- أخذنا عظام أينا سرتم وأينا حللتم

١١- فادفنها حداكم ولا تدفنوني تحت

١٢- كرم يضلني على جبل العالي لعلي

١٣- أراكم تعالى يقبر فنادوني بسمكم

١٤- تحن عظام حين أسمع نداكم

١٥- بعد السلام عليكم

كتابة الجهة المقابلة :

١- أول ما بنتدى بالأمام كوجه أمام أجاناب

٢- العالي جناب مولانا الدفتدار أمين السلاطين

٣- أدام الله تعالى عزه



العمامة وعذبتها من الأمام

العمامة وعذبتها من الخلف.

عن : صبيحه رشيد رشدي ، هناء عبد الجليل برتو : الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية ، بغداد ١٩٨١ ، ص ١٠١ .



عمامة اللثام

لوحة رقم ٣

عن : صبيحة رشيد رشدي : مرجع سابق ، ص ١٠١ .



العمامــة في العصر العباســي
عمامة الخلفاء والخاصة

لوحـة رقم ٤

عن : صبيحه رشيد رشدي : مرجع سابق ، ص ١٠٣ .



القلنسوة القصيره لوحة رقم ٥	القلنسوه الطويلة لوحة رقم ٦

عن : صبيحه رشيد رشدي : مرجع سابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ .



الخمار للنســاء

لوحــة رقم ٧

العصــابة للنســاء

لوحــة رقم ٨



النقاب للنســـــاء

لوحـة رقم ٩

الازار في العصر العباســـي

لوحـة رقم ١٠



الطيلسان على الراس
لوحة رقم ١١



البرنس للنساء
لوحة رقم ١٢

٧- مساهمة حول تحقيق مخطوط "أشهي العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر" للشيخ موسي كمرا[١]

د. أحمد الشكري
معهد الدراسات الأفريقية
جامعة محمد الخامس. السويسي. الرباط

تظهر بين الفينة والأخرى ترجمات لبعض المخطوطات العربية السودانية إلى اللغة الفرنسية أو غيرها من اللغات اللاتينية، وعلى الرغم مما تحظي به مثل هذه الأعمال من ترحيب وتنويه، خاصة لدي الباحثين غير المتمكنين من اللغة العربية، فإنه سرعان ما يتملك الباحث نوع من القلق المشروع، تتراجع بسببه ، تدريجيا، مساحة الإشادة والتنويه.

ويعود أصل المشكل إلى كون تلك الترجمات لا تتوفر على تحقيق، ولو أولى، للمتن العربي، مما يزعج القارئ ويغذي شكوكه حتى وإن كان متأكدا من كفاءة ومصداقية القيمين على الترجمة.

والعمل الذي نقدمه اليوم لجمهور المهتمين والمختصين يندرج ضمن هذا التوجه، حيث سبق للأستاذ عامر صمب، المدير السابق للمعهد الأساسي لأفريقيا السوداء (إيفان)، أن قام بترجمة مؤلف الشيخ موسى كمرا، "أشهي العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر" إلى اللغة الفرنسية، ونشر الترجمة في سلسلة من المقالات بمجلة إيفان (IFAN) بداية من سنة ١٩٧٠.

والمجال هنا لا يتسع للوقوف عند المعددات والهواجس المعرفية التى غشيت الباحث السنغالي عامر صمب، وحملته على اصطناع هذا التوجه، بيد أن الاعتبارات التي شفعت له وقتئذ لم يعد لها ما يبررها حاليا[٢].

إن صعوبة حصول الباحثين العرب على المخطوطات العربية السودانية يدفعهم دفعاً إلى الإعتماد على الترجمات الفرنسية أو الإنجليزية في أعمالهم، مع ما ينتج عن ذلك من مخاطر ومنزلقات مجانية يصعب حصرها هنا.

ولتجاوز هذا الموقف المحرج حري بنا أن نولى المخطوط العربي السوداني العناية التى يستحقه وفي هذا الباب، فإن عملاً كثيراً ينتظر الباحثين العرب وغيرهم من الأفارقة المستغربين، المشتغلين في حقل الدراسات الإفريقية.

"أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر" للشيخ موسى كمرا

- ترجمة المؤلف.

ولد موسى بن أحمد المعرف بالشيخ موسى كمرا في قرية كربيك بمنطقة فوت تور عام ١٨٦٤م، وهنالك تلقي تعليمه الأولي، ولتعميق معرفته شد الرحال إلى بلاد البيضان بغاية ملازمة المحاضر الشنقيطية(٣) ، ثم انتقل إلى فوت جلو (غينيا) وغيرها برسم متابعة حلقات دروس ثلة من فقهاء المناطق المعنية.

وبعد أن تقلب في جهات مختلفة من بلاد شنقيط ومالي فضلا عن منطقة السنغامبيا، عاد ليستقر في كنكل، وهي قريبة من مسقط رأسه، وبها توفي عام ١٩٤٥.

ولئن كان اعتماد السياحة أو الرحلة كوسيلة لطلب العلم قد سمح لموسى كمرا بتكوين علمي معتبر، أهله في مرحلة لأحقة لخوض تجربة الكتابة بنهم كبيراً، فإن هذا النزوع (السياحة) ساهم من جهة أخري في فتح عينه على أحوال البلاد والعباد، كما مكنه من نسج شبكة من العلاقات والصداقات الوطيدة، في مختلف المناطق التي شملتها رحلاته، طالت حتى بعض رجالات الإدارة الاستعمارية الفرنسية(٤).

وقد أتاحت له هذه التجربة الخصبة حصاداً علمياً مشهوداً جعله محيطا وملماً بأغلب العلوم المتاحة في زمنه من عربية وفقة وما إليها من علوم الحديث والقرآن، ثم استكمل عُدتّه بأن انخرط في سلك الطريقة القادرية بإيعاز من أحد أساتذته، وكانت القادرية وقتئذ تعرف انتشاراً واسعاً وتنافساً حاداً مع الطريقة التجانية(٥).

وبحكم الوسط التربوي والزاد المعرفي، فقد كان طبيعياً أن يطغى الجانب الديني على جل إنتاجاته(٦) بيد أن هذا التوجه لم يمنعه من التفاعل والتعاطي مع أحداث عصره، المتميز بظاهرة الاستعمار، من ثمة ولج حقل صناعة التاريخ (التدوين التاريخي)، وفي هذا الإطار، يندرج مؤلفه الضخم، زهور البساتين في تاريخ الوادين(٧) "وكتابه موضوع تحقيقنا: "أشهي العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر"(٨) وغيرهما من المصنفات ذات القيمة المعتبرة.

لقد تميزت المرحلة التى عاصرها مؤرخنا بالتسلط الاستعماري الفرنسي على السودان الغربي، ولعل أهم ما يشدنا بهذا الخصوص هو أن صاحبنا إدراك وعايش أبعاد هذه الظاهرة في أوج تطورها عند نهاية القرن ١٩م ومطلع القرن الموالي، وقتها كانت فرنسا قد بسطت جناحيها بقوة السلاح على جل أنحاء المنطقة، وأخمدت جميع التحركات العسكرية المناوءة لها، مثل الحركة الإصلاحية، الجهادية التى قادها الحاج عمر الفوتي(٩) ومن جاء بعده (أحمد شيخو، وأحمد الأمين، وساموراي).

في ظل هذه الظروف ، نجد الشيخ موسي كمرا يصادق ويصاحب بعض رجالات الإدارة الاستعمارية، ويسعي لخدمة أهدافهم من خلال جملة(١٠) من أعماله ويبدو موقفه المناهض لأية دعوة للجهاد ضد المستعمر أكبر تعبير عن هذا التوجه(١١) كما أن إلحاحه المتواصل على تضمين مؤلفاته معلومات ذات طابع اثنوغرافي ولسني، يدلنا على مقدار إخلاصه ووفائه لتلك الصداقة المصاحبة، ويؤكد من جهة أخري على مدي حاجة الفرنسيين إليه في فهم أوضاع البلد.

وتأكيدنا على هذه العلاقة ، التى تبدو مريبة في مثل هذه الظروف ، لا يستبطن من جهتنا أية خلفية أو نزعة قدحية، ولا انتقاص من شخصية الرجل أو قيمته العلمية، وإنما يستهدف الوقوف عند المحددات الذاتية والموضوعية، التى يمكنها أن تساعدنا في فهم وتفهم أعماله(١٢).

- وصف المخطوط:

بعد محاولات متعددة لم نتمكن من الحصول سوي على نسخة واحدة من أشهي العلوم، شكلت عمدتنا في عملنا، والمخطوطة متوفرة حاليا في خزانة المعهد الأساسي لأفريقيا السوداء (IFAN) بدكار، وذلك ضمن مجموعة أو رصيد الشيخ موسى كمرا، كناش رقم ٩، وتشتمل النسخة على ١٩٢ صفحة من الحجم المتوسط ، وهي بخط مغربي زمامي دقيق باستثناء ثلاث صفحات (٤١-٤٢-٤٣) مرسومة بخط زمامي صحراوي مضغوط، وبصفة عامة، فإن رسم الخط لا يطرح صعوبات كثيرة في القراءة.

وبمقارنة النسخة المتوفرة لدينا مع عدد من مخطوطات الشيخ موسى كمرا، يصعب علينا تاكيد ما إذا كانت من نسخه أو نسخ غيره، وإن كنا نميل ونرجح أنها بخط يده مع استعانته بأحد النساخ(١٣).

ولم يذكر المؤلف تاريخ تسويده للمتن ، لكن يظهر من بعض القرائن أنه ألفه في العشرية الأخيرة من حياته (توفي عام ١٩٤٥)، الأمر الذي يتوافق مع اقتراح عامر صمب مترجم النص إلى اللغة الفرنسية، حيث يحدد سنة ١٩٣٥(١٤). والأكيد لدينا أن أكثر الراغبين الذي مر علينا قبل قليل في هامش رقم ١١ متقدم زمنيا على أشهر العلوم.

ومما يشجعنا على هذا القول ، أنه بقدر ما كان موسى كمرا متحملا على الحاج عمر في كتابه الأول، بقدر ما التزم جانب الموضوعية والرصانة في كتابه الثاني، ومثل هذه الموضوعية والرصانة الملبوستين بنضج علمي وأخلاقي، تدلنا، بما لا يدع مجالا للشك، على تقدمه في السن، والحالة هذه لا يعقل أن نقلب الآية سيما وأن من تقاليد الشيوخ الأفارقة في آخر سني حياتهم، ميلهم إلى المصالحة وتقوية وشائج الأخوة الإسلامية مع الخصوم والمنافسين حتى أن بعضهم يسمي أبناءه اللذين ولدوا في آخر إيامهم، بأسماء أكبر خصومه، ليعطي برهاناً حيا على المصالحة.

- المضمون :

يعد "أشهي العلوم" أقدم سيرة للحاج عمر كتيت باللغة العربية، ويتناول تجربة الرجل وما اكتنفها من تطورات سواء قبل أو بعد رحلته الحجية والعلمية. كما يعرض الكتاب لكفاح وجهاد الحاج عمر من أجل إقامة دولة إسلامية تجانية (في السودان الغربي) على أنقاض الإمارات الوثنية والمسلمة المعارضة له.

وعند تفصيل كلامه عن أصل ونسب الحاج عمر، اندفع موسي كمرا كعادته ليبرهن على معرفته الجيدة بأصول وعادات وتقاليد القبائل المنتشرة فوق المجال السنغامبي ومحيطه وسمحت له هذه الفرصة بمعالجة مسألة تهافت البعض على ادعاء النسب النبوي ، وعلو البعض الآخر في تقديس الشيخ الصوفي، وقد كان كمرا صارماً في شجبه لهذه البدع الدينية، التي شاعت بين عامة الناس في بلده.

على أن هذه الجرأة في التعبير عن رأيه إزاء البدع الدينية، سوف تحتفي لحساب الحياد واللباقة الأدبية ذات المسوح الصوفية، أثناء تناوله صراع الحاج عمر مع الشيخ أحمد بن أحمد أمير ماسن، ذلك أنه اتخذ موقفا محايدا في مسألة التكفير المتبادل بينهما، واكتفي باعتبار الشيخين مجتهدين، وأن ما وقع بينهما إنما هو فتنة بين المسلمين.

ودونهما إغراق في استعراض الجوانب الأخري من الكتاب (تراجم ، كرامات، أشعار إلخ)، مما سيطلع عليه القارئ، فإن أهم ما يستوقفنا ويشدنا في عمل الشيخ كمرا، هو اندماغ مؤلفه بحس تاريخي مرهف، الشي الذي ألهم قلمه الصدق، وأنضج منهجه في التعاطي مع المادة التاريخية، وعمق رعية بالنتمائه وهويته تجاه الآخر (الاستعمار الفرنسي).

إن الرجل الذي كان مغلوبا على أمره بقوة الآلة العسكرية الفرنسية، والمنبهر في ذات الوقت بمنجزات وحضارة فرنسا، أصبح يعي ولو بشكل حسي أن عمقه الثقافي والروحي مختلف ومتمايز، ولا يمكنه بأي حال أن ينصهر كلية في الآخر سواء في شكل تبعية مفروضة أو إرادية.

وفي سياق هذا الإدراك الحدسي، يندرج الحافز أن التبرير الذي دفع به موسى كمرا حينما هم بتدوين سيرة الحاج عمر، فقد أعلن في مقدمة تأليفه (الصفحة الأولي)، أنه رأي نفسه في المنام وهو يتتلمذ على يد الشيخ الحاج عمر ويتعلم منه شيئا من اللغة العربية، وعلى إثر هذه الرؤيا، اختار أن يخدم الشيخ يتخليد ما أثره وذكر بعض مناقبه وكراماته.

حقا إنه تبرير خجول ومحتشم، لكنه مع ذلك يعكس في تقديرنا انقلابا جوهرياً في مواقف الرجل ونظرته تجاه أبناء جلدته، خاصة حركة الحاج عمر الجهادية.

وقد اعتمد الشيخ كمرا في تأليفه على مصادر موثوقة، منها جملة من كتابات الحاج عمر نفسه أو تآليفه لبعض أنصاره وحوارييه، كما أستعان ، بمواد تاريخية ودينية وأدبية أخري، فضلا عن الرواية الشفوية[١٥] ومكنتة هذه العُدّة المتنوعة من تقديم صورة متكاملة إلى حد ما عن الأحداث والوقائع التى رصدها

وبفضل حنكته وحسه النقدي، الذي لا يخلو من صرامة في بعض الأحيان[١٦] كان حريصا على إطلاع القارئ على مختلف الروايات المتاحة، حتى ولو كانت متضاربة ثم يروم بتواضع العالم إلى إعمال فكره فيها، ليتركنا في النهاية مع حصيلة خصبة ومحفزة للنظر[١٧].

وهذه اللوازم العلمية التى افصح عنها في "أشهي العلوم" جعلت كتابه يتمتع بمصداقية معتبرة، خاصة إذا علمنا أنه اجتهد كل الاجتهاد في توثيق مصادر، ولم يحد من هذا النهج إلا نادرا[١٨] وفي هذا الباب يمكننا القول بالكثير من الثقة، إن كمرا كان على قدر كبير من الصدق والأمانة العلمية.

ومن الجوانب المثيرة للأنتباه في عمله، أنه أغفل الحديث عن مواقف رجالات الإدارة الفرنسية إزاء الحاج عمر، وغير ذلك من القضايا المرتبطة بالموضوع (الاستعمار الفرنسي في السودان الغربي)، ولم يتعارض لهذا الجانب إلا لماما، والواقع أنه لم يكن من الصعب على الرجل، وهو الذي اجتهد في خدمتهم، أن يقتنص أو يلتقط لنا هذا الجانب الهام من الصورة (أبعد انقلاب حاله)، سيما وأن الحاج عمر كانت له جولات سياسية وعسكرية مع الاستعمار الفرنسي.

فهل يندرج هذا التغيب المقصود ضمن ذلك الإدراك الحدسي الذي أثرناه سابقا، أم أنه يعبر بكل بساطة عن مدي حميمية صداقاته للفرنسيين، لدرج عجز معها إحداث أي مس أو خدوش بها؟!

سؤال يفرض علينا نفسه بإلحاح، ويدعونا مرة أخري إلى ضرورة إجراء بحث أو دراسة معمقة وشاملة لسيرة الشيخ موسى كمرا بالعلاقة مع كتاباته.

- عملنا في التحقيق:

إن حداثة النص (حوالى عام ١٩٣٥) وقلة تعقيدات خطة، إضافة إلى إعفائنا من جهد المقابلة بحكم توفرنا على نسخة وحيدة من المخطوط[١٩] ، كل هذه العناصر تخلف انطباعاً مبدئيا بيسر المهمة، بيد أنه بمجرد إغراقنا في العمل ، برزت صعوبات ومشاكل جمة، لعل أهمها : اختلاف رسم أعلام الأشخاص والقبائل والأماكن.

ونري أن أصل المشكل يكمن بالدرجة الأولي في مزاوجة المؤلف، في بعض الأحيان، بين العربية الفصحي والدارجة العامية المحلية، فضلا عن استعمال بعض العبارات السودانية وفي حالات أخري يستحضر الشيخ موسي كمرا أسماء أعلام بشرية أو جغرافية، ويرسمها صواتيا بحسب اللهجات أو اللغات المحلية، كالفولانية والولوفية والحسانية وغيرها، ونتج عن هذا الاستعمالات اللغوية المختلفة، أن اكتسبت بعض الحروف العربية قيمة سودانية موحدة[٢٠] والأمثلة أو النماذج التى نقترحها على القارئ تبرز صعوبة الموقف وتوضحه:

كاس = خاس (ك = ج) جامن = انيامن (ج = ان)

مغن = مخن (غ = خ) تتبكت = تمبكت (ن = م)

عن = كن (غ = ك) بنيـر = بمبـر (ن =م)

ومما تناسل عن هذا الشكل، أن حروف المد كالواو والألف الممدودة والمقصورة، كانت تضاف أو تسقط من نفس الكلمات المستعملة بحسب اللغة المعتمدة (ساخ = ساخو)، وفوق ذلك كانت لا تأتي في محلها أحيانا (غدى ، دعي ، مهمي).

ومن الأشياء الطريفة في هذا الباب، أن المؤلف أو الناسخ حاول مرات عديدة استعمال مصطلحات وكلمات فرنسية بيدو أنها كانت شائعة ومتداولة في الدارجة المحلية

سدا = = Soudanالسودان.

مَسُنْ = Maçon = بنّاء

كُمَدا = Commandant = قائد أو رائد.

كورينو = Gouverneur = حاكم

وكما المحنا قبل قليل، فإن رسم المخطوط لم يطرح أمامنا مشكلا عويصا، بيد أن صغيان اللغة الشفاهية في التأليف، جعل عملية تنظيم الكلام (بما لها من أثر في تبين المعني المقصود) أكثر عسراً، الشي الذي أجهدنا حين توظيفنا لعلامات الوقف بهدف حصر الجمل والعبارات، أو حين ترتيب الفقرات.

وليس هذه الخاصية الوحيدة، التي يشترك فيها "أشهي العلوم" مع المصادر العربية السودانية المعروفة، بل هناك خصائص مشتركة أخري ، نذكر منها -

- ضعف تأطير الأحداث والوقائع بالبعدين الزمني والمكاني.
- استعمال كلمة أو مصطلح المغرب بمعني الغرب، والغرب بمعني المغرب الأقصي.
- إطلاق تسمية بحر على وديان وأنهار المنطقة.

وبالنظر إلى الغني اللغوي أو اللسني لـ "أشهي العلوم" فقد حرصنا على إخراج المتن كما في الأصل، حتى نقدم للمختصين في العلوم اللسانية فرصتهم أيضا للإشتغال عليه، بيد أننا وجدنا أنفسنا مضطرين لإجراء بعض التدخلات. أهمها مسألة توحيد رسم الإعلام البشرية والجغرافية، وبموازاة مع ذلك حاولنا تصحيح بعض الأخطاء، الإملائية أو تلك الناتجة عن السهو، وكانت تدخلاتنا بهذا الشأن قليلة وقليلة جدا.

وقد أضطررنا لمثل هذا التدخلات، التى لم تتجاوز الحدود المنوه بها، بغاية تيسير فهم النصر، وحتى لا تختلط الأمور على القارئ فيعتقد أنه أمام شخصيتين أو موقعين مختلفين، وبذلك يضيع المعنى، وفي غير هذا، احتفظنا بالأصل، وبينا ما نعتقده صوابا في الهامش، وكل إضافة أو مزيد في المتن وضعناه بين معقوفتين () لتمييزه عن الأصل، ومن ذلك أرقام صفحات المخطوط، والمقابل الفرنسي لبعض أسماء الأشخاص والمواقع.

وعلى الرغم من سعينا في تذليل بعض الصعوبات بتعليقات في الهامش، فقد أثرنا عدم إثقال النص بها، لأن قصدنا ألأساسي أم إخراج المخطوط وفق شروط علمية مقبولة، واستهدف وصوله وتداوله بين الباحثين والمختصين لا غير وذلك على أصل أن يحظئ في مرحلة لأحقة، من طرفنا أو من طرف غيرنا، بدراسة دقيقة، تسمح بفتح مغالقة وتقصي جوانبه المختلفة.

وفي أفق إنجاز دراسة وفية حول المخطوط، نأمل أن يستثير عملنا هذا همم المختصيين والغيورين على المخطوط السودائي، وأن يحفزهم أكثر للعمل على إنقاذه من الضياع والتلف، وليس أحسن من أن يرعي مثل هذا المشروع مؤسسات مختصة كمعهد الدراسات الأفريقية بالرباط والمعهد الأساسي لأفريقيا السوداء ، بدكار.

الهوامش

❖ – صدر لنا هذا العمل، الذي أنجزناه بتعاون مع الأستاذ خديم أمباكي من السنغال، ضمن منشورات معهد الدراسات الأفريقية لهذه السنة ٢٠٠١.

١- كنموذج على هذا التقليد الجديد، الذي يسعى إلى الإكتفاء بالترجمة دون تحقيق المتن العربي، تحيل القاري على أعمال جان لوي تريبو وجان سميث.

– بيان ما وقع للحاج عمر الفوتي.

– زهور البساتين للشيخ موسى كمرا.

ولنا عودة لهذين المؤلفين.

٢- يظهر أن حظوظ نشر مؤلف باللغة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء تبدو صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة زد على هذا أن السنغال بلد تطغى عليه الثقافة الفرنسية بحكم ظروف الاستعمار.

٣- فضلا عن الطلبة الراغبين في تكوين علمي متقدم، فقد كان من عادة علماء وفقهاء منطقة السنغامبيا القيام برحلة علمية لبلاد شنقيط، نذكر منهم الحاج عمر الفوتي، موضوع التأليف قيد التحقيق، أنظر:

أحمد ولد الحسن، الحاج عمر الفوتي وبلاد شنقيط، ملاحظات في العلاقات الثقافية والسياسية، ضمن أعمال الندوة العالمية المنعقدة بتنبكت ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زعوان، تونس ١٩٩٧، ص ٣١-٥٠.

٤- باستعراض مؤلفاته، يظهر أن هذه العلاقات ساعدته في تشكيل رصيد مصدري غاية في الأهمية، حيث كان زملاؤه يمدونه بما يحتاجه من معلومات عن المناطق التى يجهل أحوالها وعاداتها، وبالنسبة للفرنسيين فقد ربطته صلات حميمية مع عدد من الأسماء، مثل الباحث الإثنوغرافي موريس دولافوس (M. Delafosse) وقبله الحاكم الفرنسي هنري كادن H. Caden الذي حمله على تأليف بعض كتبه التاريخية، خاصة زهور البساتين في تاريخ السوادين.

٥- شكل السودان الغربي مجالا لصراع محتدم فيما بين القادريين والتجانيين، واللافت للنظر بهذا الشأن أن بعض مريدي القادرية هادنوا وسالموا وصادقوا السلطات الاستعمارية، عملا بالمبدأ الفقهي المعروف: ارتكاب أخف الضررين وترك أعظم المفسدتين، في حين ناوء وقاوم العديد من مريدي التجانية الاستعمار الفرنسي.

٦- كان موسى كمرا غزير الإنتاج ، وتوزعت كتاباته ما بين الفقه والأدب والتاريخ . أنظر:

Catalogue des Manuscrits de l' I.F.A.N., serie Catalogues et Documents de l' I.F.A.N., Dakar, 1967. pp. 93-96.

٧- يعرف أيضاً تحت عنوان : انتصار الموتور في ذكر قبائل فوت تور ، وبهذا العنوان ورد ذكره في المخطوط قيد التحقيق. ويعتبر زهور البساتين من أهم مؤلفات الشيخ كمرا، ويناهز

عدد صفحاته ١٧٣٤ صفحة ؛ وقد انتهى من تسويده عام ١٩٢٤ ، غير أنه ظل يضيف إليه وينقحه بعد هذا التاريخ . وتعمل منذ عدة سنوات مجموعة من الباحثين تحت إشراف جان سمث (Jean Schmitz) على ترجمته إلى الفرنسية. وقد صدر الجزء الأول من هذا العمل عام ١٩٩٨، تتصدره مقدمة بقلم المشرف ، نحيل القارئ إليها لما تتضمنه من معلومات وتحليلات هامة حو سيرة الشيخ موسى كمرا . انظر :

Jean Schmitz (Sous la direction), Florilége au Jardin de l' Histoire des Noirs (ZUHUR AL BASATIN), Tome I, Vol. I,CNRS ÉDITION, Paris, 1998.

٨- قام الأستاذ عامر صمب منذ سنة ١٩٧٠ بترجمته إلى الفرنسية ، وذلك في سلسلة من المقالات بمجلة إيفان (IFAN) سلسلة : B. وبعد ذلك نشر الترجمة كاملة . انظر :

Cheikh Moussa Kamara, La Vie d'EL HADJ OMAR. Traduit de l'Arabe Par Amr Samb. Êd. Hilal, Dakar, 1975.

٩- ولد عمر بن سعيد بن عثمان تال الفوتي حوالي عام ١٧٩٧ بمنطقة فوت تور بالقرب من بودور (Podor) وقام برحلة حجية وعلمية استغرقت زهاء عقدين من الزمن ، نهل خلالها من العلم الشرعي والورد الصوفي ما جعل منه شعلة متوقدة . ويظهر أن لقاءه بمحمد الغالي (المغربي)،خليفة التجانية بالحجاز ، والذي عينه بدوره خليفة للتجانية في بلاد السودان ، كان له أبلغ الأثر في مسار حياته ؛ إذ أحس الرجل في نفسه أن العناية الإلاهية قد اختصته ليقود ويتزعم مسلمي بلاده. وحينما عاد الحاج عمر إلى وطنه عام ١٨٣٧م. وجده غارقاً في الفوضى السياسية والظلم الاجتماعي، فضلاً عن تنامي قوة الإمارات الوثنية. وهذه المعطيات، شجعت بدورها السلطات الاستعمارية المتمركزة في السواحل لكي تتأهب بجدية لفرض سيطرتها على المجالات الداخلية لمنطقة السنغامبيا .
وأمام هذا الوضع المتأزم ، وبعد محاولات سلمية للتصحيح ، انتقلت حركة الحاج عمر من مرحلة الدعوة السلمية على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مرحلة المواجهة العسكرية عام ١٨٤٩م. ونجح بعد حين في إقامة دولة إسلامية تجانية في إقليم ماسن ، ثم تابع جهاده للمستعمر الفرنسي والإمارات الوثنية ، كما حارب الإمارات المسلمة المتحالفة مع الوثنيين . وظل على هذه الحال إلى أن استشهد عام ١٨٦٤، وهو نفس التاريخ الذي ولد فيه موسى كمرا؛
وقد كان الحاج عمر الفوتي فقيهاً علاّمة قبل أن يصبح صاحب رئاسة وزعامة دنيوية ، وترك العديد من المؤلفات لا يسمح المجال هنا برصدها . انظر أعمال الندوة الدولية بتبكت المنوه بها آنفاً (هامش رقم ١)، خاصة مقالي أحمد ولد الحسن وأحمد الأزمي. وكذلك:

David Robinson, la guerre Sainte d' Al Hajj Umar, Traduit de l'Anglais Par H. Tournoux – et J.C Vuillenmie, Ed. Karthalla, Paris, 1988.

- Madina ly-Tall,un Islam miliant en Afrique Occidentale au XIXè : La Tijaniyya de shekhu Umar contre les Pouvoirs traditionnels et la Puissance coloniale, ACCT - IFAN, L' Harmattan, Paris, 1991.

١٠- لم يعد خافياً على المتبعين أن فرنسا اجتهدت _ في إطار سياستها الاستعمارية- في استقطاب واحتضان عناصر من النخبة المتنورة المحلية ، مثل الفقيه القاضي ابن المقداد المتوفي عام ١٨٨٠، وذلك بغاية استعمالها لتطويق النزعات الدينية أو الثقافية المعادية لها. من ثمة يتضح لنا أن موقف موسى كمرا لا يشكل حالة فريدة أو شاردة .

١١- انظر مولفه: أكثر الراغبين في الجهاد ممن يختارون الظهور وملك العباد ولا يبالون بمن هلك في جهادهم من العباد، وهو تصنيف يعارض ويتنفد فيه حجج الحاج عمر في جهاد ومقاومة المستعمر، وفي غير ذلك من القضايا مثل لجو الشيخ إلى طلب الإمامة، والمخطوط متوفر في خزانة إيفان (IFAN) وراجع إحالتنا في هامش رقم ٦.

١٢- على الرغم من جدية المحاولات التي تظهر بين الفينة والأخري، نعتقد أن سيرة الرجل بالعلاقة مع انتاجاته، ما تزال تحتاج إلى دراسة معمقة وشاملة.

١٣- بغاية الترتيب أو الترقيم، فقد جرئ عرف النساخين أن يعيدوا كتابة الكلمة الأخيرة في أول الصفحة الموالية وقد اصطلح المغاربة على تسميتها بالرقاص، بينما يسميها المشارقة التعقيبية. والملاحظ أن الصفحات الأولى من المخطوط ، اعتمدت هذه القاعدة ، ثم تخلت عنها نهائيا باستثناء، بعض الصفحات، وفي نفس السياق، نلاحظ أن الصفحات ٤١-٤٢-٤٣ مرسومة في جملتها بخط مغاير للخط الأصلي.

١٤- انظر تقديم عامر صمب، ص ٧.

١٥- لعل كمرا من بين المؤرخين السودانيين القلائل، الذين انتبهوا إلى أهمية توثيق أسم صاحب الرواية الشفوية، وهذه الحساسية الإيجابية تفتقدها كثيرا في المصادر العربية السودانية المعروفة، مثل "تاريخ الفتاش" وتاريخ السودان" "وتذكرة النسيان" ونعتقد أن علاقة موسي كمرا بالمؤرخ الفرنسي موريس دولافوس كان لها أثر بهذا الشأن.

١٦- أثناء معالجته لمسألة النسب والشرف: اضطر لتفنيد بعض الروايات الشائعة فقال وأصل هذا الكلام ما يوجد في بعض التواريخ الواهية بأيدي السودان الفولانيين من أهل الفوتيتن" ص ١٥٧ من المخطوط.

١٧- في كثير من الأحيان كان ينهي أحاديثه بالمقاولات التالية: ومن عنده علم بما يزيل هذا الأشكال فليكتبه هنا مشكوراً ص ٨٨، وم عنده علم أثبت من هذا فليثبته، ص ١٢٨، ومن على شيئا أوفق من هذا فيثبته هنا مفيدا مشكورا.

١٨- الإفادات الواردة عنده بغير توثيق، يفتتحها أو ينهيها بمثل العبارات التالية: وفي رواية بعضهم، وفي بعض التواريخ، ورايت في بعض التأليف، وهكذا رأيت هذا الكلام في بعض التواريخ لبعض تلامذة الحاج عمر، ورأيت مكتوبا في بعض الورقات ...إلخ.

١٩- إن مغامرتنا بالأقدام على تحقيق هذا العمل اعتماداً على نسخة فريدة، لا تلغي حسرتنا وقلقنا المستمرين إزاء الموقف، ولعل ما يشفع لنا مغامرتنا هاته هو حالة المخطوطات في مراكز التوثيق بأفريقيا جنوب الصحراء.

٢٠- ومما ترتب عن ذلك أننا وجدنا صعوبة كبيرة حين إعدادنا لفهارس التأليف.

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد
وسلم
الحمد لله الذي فتح لأوليائه أبواب نعمه وآلائه وأجزل
صلواته وتسليماته على سيد الأنبياء [illegible]
سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته
وبعد فإن موسى بن أحمد غفر الله له ذنوب القلب
والجسد أخبر أن خادم الشيخ الحاج عمر رضي الله
عنه في ذكر بعض مناقبه وكراماته نفعنا الله
تعالى وبعد [illegible] بركاته الهم وكراماته [illegible] رضي
الله تعالى عنه قد قال لي شيخنا في المنام حتى علمني
كلمات [illegible] من اللغات العربية مع جملة كلامية
وأنا متوجه حينئذ لزيارة شيخنا الشيخ [illegible]
رضي الله تعالى عنه [illegible]
هذه الرؤيا على شيخنا المذكور فقال لي إن الشيخ
الحاج عمر ولي بلا شك وقد أكرمنا الله تعالى
بأن [illegible] إن شاء الله تعالى و[illegible] رأيت
الشيخ الحاج عمر حيا [illegible]
[illegible] الشيخ [illegible]
وأنا حينئذ ابن أربع وعشرين سنة [illegible]
[illegible] والحمد لله رب العالمين
[illegible]

الصفحة الأولى من المخطوط

وراء العناية لاختلفت عيونها، ثم بالصحابة والتابعين
إحسان ربنا اغفر لنا ذنوبنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك
رءوف رحيم وقد أعانني على ذلك ظفري بتأليف
لتلميذيه في أمره وغزواته رضي الله عنه ولكن
في ذلك التأليف نسخته خاسرة وعبارته ركيكة
بل فيها خطأ فاحش وفيها تغيير وتحريف وتصحيف
كثير وجعلت ذلك التأليف بنقل ما وجدته فيها كاملا
وجدته بشرط ثقة كتبه أو صححته وإلا تركته ثم
وجاوزت عنه إلى ما بعده لأن أخراك البحث أولى
من حوائف الباطل والعقلاء والله أعلم وما ذكرته ثابت في
للشيخ الحاج عمر فيما وقع بينه وبين أحمد بن أحمد ولكن
قد صححته لدى الشياخ والجيوش والشيوخ منها ولكن
تركت منه ما ليس بحسنة - فجاز تأليفا قاصرا وما لا بد
ورتبته على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة فالمقدمة
في ابتداء أمر الشيخ الحاج عمر في سفره للحج ورجوعه
منه، الباب الأول في جهاده وغزواته إلى أن قتله
أهل ماسينا بعد قتله للإمام أحمد بن أحمد الباب الثاني
فيما نقلته من كلام الشيخ الحاج عمر فيما وقع بينه
وبين أحمد بن أحمد لتزيد الحق بيانا على ما تقدم الباب
الثالث فيما يتعلق بما تقدم من ذكر سبب الفتنة

الصفحة الثانية من المخطوط

وهم سليمان وقومه فهزم الله بهم جيوشنا

كرنك ثم خرج سار بن جب الى كاسو وارسل الى الفا عمر

ان يمده بمدد منه وامر عبد السلام ان يخرج لاغاثتهم

ووجدوهم قد تقاتلوا واستشهد سار بن جب بنفسه

وبعد ذلك جاء كرنك ودخل مع جيشه في [illegible] نكو

واخرج الفا عمر جيشا وامر عليه سار بن خالد ووقع عليه

فيها فهزمهم الله وتركوا جميع ما اتوا به في [illegible] نكو

من الاموال والنساء والخيل واجتمعوا الى اخر ما [illegible]

وفي بعض التواريخ ايضا ولما [illegible] الشيخ [illegible] سار بن

جب الى قرية [illegible]

يقال له [illegible] ووجد اهله [illegible] الاعداء [illegible] الشيخ [illegible]

فارسله الى [illegible] البلد ونزل به [illegible] ابا [illegible]

سلطان الكفار بجيوش كثيرة ووجد سار بن جب [illegible]

[illegible] فهزم الله جيوش المشركين

واخذ الرئيس [illegible] واخذ منهم الخيل [illegible] بموضع

يقال له [illegible] ليلة واحدة ورجعوا الى [illegible] بلدهم

[illegible] وقتلوا [illegible] وباتوا خمس ليال

الصفحة 41، وهي ضمن ثلاث صفحات
مرسومة بخط مغاير للخط الأصلي للمخطوط

ورحمه الله بما لم يعلم الا هو سبحانه وتعالى فلما ان لما
توفي [illegible] انكار المشركين فقدم الله لنا امد [illegible]
و[illegible] فتح البلاد ووصل لنا جماعة عشرة [illegible] واحد
في مصالحة المشركين وهو الا [illegible] و[illegible] بعضهم
حتى اشتغلوا فيما هو اهم ما قدر الله ان ياتيه من الحرام
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ما ان هؤلاء
المشركين مات جد الشيخ احمد في [illegible] وماث
ابو احمد [illegible] الشيخ [illegible] ايضا ومات [illegible] ثمانية
اعوام [illegible] هذه المدة [illegible] [illegible]
و[illegible] [illegible] ولا [illegible] والاثنين والبعض
[illegible] ثم ان الله تعالى قدم لنا [illegible] المشركين في
[illegible] [illegible] [illegible] المشركين [illegible]
[illegible] [illegible] في اخر يوم من الربيع الاول من
سنة [illegible] [illegible] قريب ١٢٨١ وهذا سنة [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في
المشركين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] اليه [illegible] [illegible] [illegible] ايها الجماعة
المومنون المخلصون واعلموا انه لا [illegible] ولا [illegible] بيننا
وبينكم الا ان [illegible] [illegible] [illegible] مسلمين [illegible] اخوة
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة
في قوله يا ايها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من
الكفار [illegible] وليجدوا فيكم غلظة [illegible] [illegible] [illegible]
او [illegible] [illegible] واحد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] المشركين [illegible] بيننا الا [illegible] و[illegible]

والله [illegible]

16

صفحة 72 من المخطوط

قد تواتر عليها الأخبار وزعم أهلها أنها ثيبية
وهي حبلى من زوجها بأنه حكم بموته قلت ويدل على
ذلك قول تشهد [illegible] على الولد [illegible] لو طال الولد
منه لما تبرأه يذهب عنه مع أمه الآن يكون
الولد فيما غيره كعبده ونحو ذلك والله تعالى
أعلم بحقيقة الحال انتهى وقد فسر الشيخ الحاج
عمر جد هؤلاء كلهم [illegible] و[illegible] و[illegible] وأهل
[illegible] وأحمد [illegible] جميعا كفار وأكلهم في ملكه
وتحت حكمه الآن [illegible] كفار الكل تحت
حكمهم والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آية
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا
وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا [illegible]
رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث
فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة
توفني مسلما وألحقني بالصالحين اللهم صل
وسلم على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين

الصفحة الأخيرة من المخطوط

المصادر والمراجع

١- أبو عبد الله الطالب البرتالي الولاتي :

فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، بيروت دار الغرب الإسلامي ١٩٨١ ، تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد حجي .

٢- أحمد الأزمي :

قراءات وتأ/لات في بعض مؤلفات الحاج عمر الفوتي ضمن أعمال الندوة العالمية المنعقدة بتنبكت ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان - تونس١٩٩٧ ، ص٥ - ١٨ .

٣- أحمد ولد الحسن :

الحاج عمر الفوتي وبلاد شنقيط ، ضمن أعمال الندوة العالمية المنعقدة بتنبكت ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان - تونس ١٩٩٧، ص٣١-٥٠.

٤- عبد الرحمان السعدي :

تاريخ السودان ، أنجي ، بريدن ١٨٩٨ ، تحقيق وترجمة هواس وبنوة .

٥- عبد الكريم المغيلي :

أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٤ ، تحقيق عبد القادر زبادية .

٦- مجهول :

تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، باريس ، ميزونوف ١٩٦٦ ، تحقيق وترجمة هواس وبنوة .

٧- محمد بلو بن عثمان فودي :

إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، الرباط مطبعة المعارف الجديدة ١٩٩٦ ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط - المغرب ، تحقيق بهيجة الشاذلي .

٨- محمود كعت :

تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيرش وأكابر الناس ، أنجي ، بريدن ١٩١٣ ، تحقيق وترجمة هواس ودولافوس .

٩- موسى كمرا :

أكثر الراغبين في الجهاد ممن يختارون الظهور وملك العباد ، مخطوط بخزانة المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء ، ودكار - السنغال.

٨- وثيقة أهل السودان
للشيخ عثمان بن فودي وآثارها

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أستاذ التاريخ بالمعهد

نقاط البحث

مقدمة:

أولا: مناطق جهاد الفولاني

ثانياً: ظهور الشيخ عثمان وإعلان الدعوة الإسلامية.

ثالثاً: قيام الجهاد وتأسيس الدولة الإسلامية.

رابعا: نص الوثيقة وآثارها.

خامساً: الخاتمة.

مقدمة:

انتشر الدين الإسلامي في مناطق كثيرة من غرب أفريقيا، وقامت دول إسلامية على أنقاض الإمارات الوثنية مثل دولة مالي التي ساهمت بنصيب كبير في نشر الدعوة الإسلامية خصوصا عندما ذهب ملوكها إلى أداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وعادوا حاملين لواء هذه الدعوة منهم على وجه الخصوص نذكر السلطان منسي موسى (١٣٠٧-١٣٣٣) الذي كان موكب حجه في عام ١٣٣٤ ومروره على مصر والبلدان الإسلامية الأخرى من أهم العوامل التي جعلته من أكبر دعاة الإسلام في غرب القارة بعد أن امتدت دولته إلى مدينة (جاو) في بلاد النيجر حاليا واخترق الصحراء الكبرى وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوباً(١).

وبعد انهيار دولة مالي ظهرت دولة صنغي على أنقاض هذه الدولة وحمل ملوكها لواء الدعوة الإسلامية ابتداء من القرن الرابع عشر وتوسعوا أيضا ناحية الجنوب، وظلوا يمارسون هذا الدور حتى أواخر القرن السادس عشر عندما تعرضت هذه الدولة للغزو المراكشي من بلاد المغرب بعد الحملة التي قام بها القائد جودار باشا، ودخل عاصمة هذه الدولة (تمبكت) وقضي على ما بقي من ملوك صنغي في عام ١٥٩١، وذلك عندما أرسل المنصور السعدي سلطان مراكش بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن في عام ١٥٧٨، هذه الحملة إلى صنغي للحصول على الذهب الذي اشتهرت به هذه الدولة، واستطاع جيش المنصور السعدي المكون من أربعة آلاف جندي أن يدخل تمبكت وينهي دور هذه الدولة الإسلامية ، ولتصبح قصة الغزو المغربي احلك حلقة من حلقات التاريخ الدامي بالنسبة للممالك الإسلامية في غرب القارة.

لقد كان أثر هذا الغزو مدمرا حيث ساءت أحوال السودان الغربي وعاش الناس في عزلة اقتصادية، وتشرد العلماء، وتم سجن رجال الدين، وصادر المغاربة أملاكهم وهرب أغلب المشتغلين بالعلم إلى المشرق الإسلامي، فساد في هذه المناطق الإسلامية العنف، وصارت طبقة الرماة هي الطبقة الأرستقراطية،

وبدأت غارات البدو من الطوارق على هذه المدن الإسلامية، وانقسمت الدولة إلى عدد من القبائل المتنافرة، لم تعد هناك دولة تجمع شعوب المنطقة تحت زعامة واحدة، وعاد السكان إلى الديانات المحلية الوثنية وصار الدين الإسلامي غريبا بين سكان هذه المناطق، وبالتالي اختلطت البدع والعادات الوثنية بالقيم الدينية، ولم يعرف السودان الغربي سوى السلب والسطو والنهب والحرب المستمرة، والصراعات الدائرة على السلطة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وباختصار جاءت حملة المنصور السعدي إلى غرب أفريقيا تحمل معها الخراب والدمار بدلا من العلم والمعرفة، وقطعت أواصر النسب والارتباط بين شعوب المنطقة(٢).

ولم ينقذ هذه المنطقة من حالة الفساد والفوضى إلا ظهور جماعات الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودي الذي أعلن ثورة الجهاد الإسلامي ضد الوثنيين، وضد الحكام المسلمين الذين عرفوا من الإسلام مظاهره، ونسوا تطبيق الشريعة في أمور حياتهم، وكان ظهور هذا الشيخ بداية الصحوة الإسلامية الكبرى في غرب أفريقيا، كما كان إعلانه الجهاد الإسلامي في أوائل القرن التاسع عشر بداية مرحلة جديدة في تاريخ غرب أفريقيا ، وفي منطقة شمال نيجيريا التي كون فيها إمبراطورية الفولاني التي حملت عبء هذه الدعوة الإسلامية(٣).

وإذا كنا قد تحدثنا عن الشعب الوفلاني الذي قاد مسيرة الجهاد في القرن التاسع عشر. فإن الأمر يتطلب استعرضنا للمنطقة التي ستكون مسرح هذا الجهاد ونواة الدولة الإسلامية الكبرى، وبداية انطلاق حركات الإصلاح في جميع مناطق غرب القارة.

أولا: منطقة جهاد الفولاني:

بدأ الجهاد بزعامة الشيخ عثمان بن فودي هي بلاد الهوسا التي تقع حاليا ضمن الجزء الشمالي من دولة نيجيريا، والهوسا ليسوا مجموعة قبلية، بل أنهم ينتمون إلى أصول جنسية مختلفة، يتحدثون لغة مشتركة هي لغة الهوسا، وقد

ظهرت هذه الجماعة نتيجة الهجرات من شمال أفريقيا إلى السودان الغربي ربما في القرن العاشر الميلادي، ثم اختلاط المهاجرين مع السكان المحليين ونتج عن ذلك ظهور مجتمع جديد اتخذ من النظام العشائري أسلوبا له في الحياة، ولم يخضع لأي سلطة مركزية، وقام المهاجرون ببناء المدن المسورة، ونشأت المدينة الدولة التي سيطرت على الريف المجاور.

وفي القرن السادس عشر سيطرت إمبراطورية البرنو على هذه الدويلات التي صارت تعرف باسم دويلات الهوسا السبع وهي : دورا ، وكانو ، ورانو، وكاتسينا وزارو، وجوبير، وجارون جاباس(٤).

ودخل الدين الإسلامي إلى هذه الإمارات في أوائل القرن الرابع عشر، وقامت نظم ثابتة للحكم استمدت نصوصها وتعاليمها من الشريعة الإسلامية، وتكونت المدينة الدولة، وقامت صناعات على خام الحديد، وراجت التجارة عبر الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا.

ورغم انتشار الإسلام في هذه الإمارات إلا أن الوثنية ظلت سائدة بل واختلطت البدع والخرافات مع المفاهيم والتعاليم الإسلامية، وتبادل الحكام الوثنيون السلطة ومراكز القوة في هذه الإمارات، وظهرت المنافسة التجارية بين إمارات الهوسا(٥).

وكانت السلطة السياسية هي التي تحدد مصير كل إمارة لأن الصراع كان يتركز حول كيفية الوصول إلى حدود آمنة وثابتة، وبرزت قوة كل من إمارات كانو وكاتسينا وكيبي وجوبير، وفي القرن السابع عشر انهارت إمارة كيبي وبرزت زمفرا كأقوى الإمارات في القرن الثامن عشر وبسطت نفوذها على غيرها من الإمارات، ورغم هذا فقد فشلت في تكوين دولة موحدة في تلك الفترة لأن الضعف كان قد انتاب الإمارات، وصار الصراع طابع الحياة السياسية، كما كان ظهور إمارة جوبير من أهم العوامل التي ساعدت على القضاء على إمارة زمفرا(٦).

وفي انصف الثاني من القرن الثامن عشر، استطاعت إمارة جوبير انتزاع

السيادة من إمارة زمفرا، وتصارعت مع كل من كاتسينا وكيبي وكانو، وقد أدي هذا الصراع المستمر إلى استنزاف موارد الإمارات والتفكك وعدم الاستقرار، وأدي ذلك إلى ضايع الطاقات البشرية في هذه الصراعات، ورغم نجاح جوبير في ضم إمارة زمفرا عام ١٧٦٤ إلا أنها لم تتمكن من توحيد بقية الإمارات أو تكوين دولة واحدة تشمل كل بلاد الهوسا(٧).

في هذا الجو الذي تحكمه الصراعات المحلية والمفاسد الدنيوية نسى الناس أصول الدين ، وتفشت البدع والعادات الوثنية ، وصار الحكام المحليون لا يعرفون كثيراً عن دينهم ، بل وتقلد السلطة بعض الوثنيين. وكانت الجماعة الوحيدة التي ظلت متمسكة بالقيم الإسلامية هي جماعة الفولاني التي مارس رجالها أعباء نشر الدعوة ، وصار منهم القضاة والمدرسون والأئمة، وبذلت هذه الجماعات جهداً كبيراً لنشر الدعوة الإسلامية بين حكام يدينون بالإسلام شكلا ومظهراً، وتصدي رجال الدين لهذه القيادة الوثنية، واصبح الطريق ممهداً لنشر مبادئ الدين الحنيف على أسس سليمة هو طابع الحياة في هذه المرحلة، وكان التحدي من جانب الحكام المحليين في إمارات الهوسا وخاصة في إمارة جوبيير الدافع الأساسي لقيام أكبر حركة جهاد شهدتها المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر(٨).

وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين _ أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده، وصارت إمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية، التي غيرت مجري حياة السكان، وأعادت الدين الإسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة، وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودي(٩).

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الإصلاحية فضل كبير رفي نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا، ولازلت نيجيريا تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي

جعلها أكبر دولة إسلامية في غرب أفريقيا. لم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود إعلان حرب على الوثنيين، بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة الإسلامية في سوكوتو، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوربيين الذين جاءوا غازين لديار الإسلام والمسلمين، فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة الإسلامية في غرب أفريقيا في أوائل القرن العشرين(١٠).

ثانياً: ظهور الشيخ عثمان وإعلان الدعوة الإسلامية:

كان ظهور الشيخ عثمان بن فودي في إمارة جوبير، إيذانا بقيام دولة إسلامية في غرب أفريقيا، ولد هذا الشيخ في مكان يدعي (مارتا) في أرض جالمي بإمارة جوبير في ١٥ ديسمبر عام ١٧٥٤، واشتهر والده باسم فوديو أو فودي (Fodi) التي تعني بلغة الفولاني "المتعلم" وانتقلت أسرته إلى ديجل (Degel) حيث حفظ القرآن الكريم، وعاش في بيئة متدينة، وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وزادت مداركه، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع، واختلطت به الخرافات وعبثت به أيدي المضللين(١١).

ولما بلغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم، وسلك طريق القادريين حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشاراً في غرب أفريقيا، وبصفة أبنه بأنه نشا عفيفاً متديناً، ذا خلال مرضية وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين، أحيا السنة، وأمات البدعة ونشر العلوم، وكشف الغموم، وبهر علمه العقول، فسر القرآن سنين عديدة، وبث العلوم فملأ القطر المغربي معارفاً وتلاميذا وكان شيخاً فاضلاً، حسن الخلق جميل العشرة(١٢).

ونظراً لأن الحديث عن الشيخ طويل، وحياته حافلة بالنضال والكفاح، لأنه وهب نفسه لخدمة الدين الإسلامي، وأعلن حربا لأهوادة فيها على المشركين، فسنحاول التركيز على دوره الجهادي، والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية، فبعد أن حفظ كتاب الله وأهتدي بسنته، واحتك بعلماء عصره

سواء بطريق مباشر أو غير مباشر _ جمع حوله صفوة المثقفين المسلمين، وازداد اتباعه يوما بعد يوم _ الأمر الذي أرق مضجع أمير جوبير، فحاول اعتراض طريقة، ولكنه أحس بخطورة الموقف فانحنى للعاصمة وترك الشيخ وسبيله، بل ووافق على قيام مجتمع إسلامي في مدينة (ديجل) وبدون أن يتعرض للشيخ لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يكن طامعا في ملك أو سلطان، بل كان عاكفا على العلم والتعليم(١٣).

مات حاكم إمارة جوبير وجاء من بعده حاكم أخر يدعي نافاتا (Nafata) أدراك قوة اتباع الشيخ عثمان، وأحس بالخطر على ملكه فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة:

أولها : عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الإسلامي إلا من ورثه عن أجداده.

ثانيها: لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم، وألا تضرب أمراه بخمارها على وجهها.

ثالثها: عدم السماح لأحد بالوعظ إلا للشيخ عثمان.

إذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد في الدعوة المحمدية، وعودة النساء إلى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الإسلامية، وقصر الوعظ والإرشاد على الشيخ نفسه، وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد ونشر الدعوة(١٤).

وكان من الطبيعي أن يعارض فريق من اتباع الشيخ هذه الأوامر، وخصوصا عبد الله بن فودي الأخ الأصغر للشيخ وساعده الأمين في حركته الإصلاحية، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الإجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق _ لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تشتت جهوده، وتتبدد محاولاته، وينصرف عن هدفه الأسمى نحو إعلاء كلمة الدين، ورفع راية الإسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين، وفي نفس الوقت أدراك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل

إلى حين، وأن الوقت لم يحن للقضاء على أعداء الدين، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين أن الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين، لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية حتى يحين الوقت لإعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين(١٥).

وكان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا، حتى أن بعض المؤرخين يعتبره الطلقة الأولي التي أشعلت نار الجهاد - لكن شاءت الأقدار أن يموت هذا الحاكم في عام ١٨٠٣ بعد قليل من إصدار مرسومة وخلفه أبنه يونفا أحد تلاميذ الشيخ عثمان، ووعد الحاكم الجديد بإنهاء ما جاء في المرسوم وطاعة أوامر أستاذه والسماح له بحرية الوعظ والإرشاد، لكن شعر هذا الحاكم بخطر الشيخ فانقلب رأسا على عقب، ووصلت به الحال إلى التفكير في قتل سيده وأستاذه، والتآمر على أتباعه وأعوانه، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءا بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعو عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيري الذي هاجم بلدة عبد السلام والناس نيام في شهر الصيام(١٦). وتمادي هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان، حيث طلب منه ترك الجماعة والعيش في المنفي وحيدا - لكن الشيخ رفض ترك جماعته، وقرر التحرك بهم إلى مكان بعيد يدعي جودو (Gudo) ، وهنا أصدر الحاكم أمراً بالقبض على الشيخ ، وطلب من حكام الإمارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم، وغزو القرى الإسلامية ونهب ما فيها، فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الدولة الإسلامية(١٧).

بعد هذا اصبح الشيخ قائداً وإماماً لجماعة المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعاً لشانهم، وتمجيداً لأمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وسلاحه ضد قوي البغي والضلال(١٨).

ثالثا: قيام الجهاد وتأسيس الدولة الإسلامية:

كانت الهجرة إلى مدينة (جودو) بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها، وأخذ الشيخ معه الأنصار والاتباع إلى

أطراف الصحراء ، وهناك اقروا له بالطاعة والولاء، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة، وحمل الشيخ لقب (أمير المؤمنين) ، ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ ، كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان، وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده.

كانت هذه البيعة بداية الجهاد، وإيذانا بتأسيس الخلافة الإسلامية ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا واصدر الشيخ وثيقة أهل السودان التي صارت إعلانا رسمياً للجهاد حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد، مثل الهجرة من بلاد الكفار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتباع الكتاب والسنة باعتبارهما أهم مصادر التشريع، وقد أقرت الوثيقة هذه المبادئ بشكل مفصل، وأعلنها الشيخ حرباً على الكفار والوثنيين حيث أصر على قتال البغاة، والملك المرتد الذي خرج عن دين الإسلام إلى دين الكفر(١٩).

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم إلى إخوانه الأمراء في كاتسنا، وكانو ودورا يطلب منهم المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها، وصار فوق احتماله القضاء على خطورتها.

وتعتبر وثيقة أهل السودان من الوثائق التاريخية الهامة التي قام السير بالمر بجمعها والتعليق عليها، وهي من المخطوطات النادرة التي وقع ناسخها اسمه تحتها، ويدعي محمد ساعي ابن أمير دورا واسمه اسحق.

وسميت وثيقة أهل السودان لأنها عبارة عن رسالة موجهة ليس فقط إلى أهالي جوبير بل إلى كل سكان السودان الغربي، حيث أعلن الشيخ من خلالها الحرب على كل الوثنيين، وقد تضمنت الوثيقة سبعة وعشرين بندا هي خلاصة المبادئ والتعاليم التي نادي بها الشيخ في الفترة الأولي من جهاده، وانتهت الوثيقة كغيرها من وثائق غرب أفريقيا بدون تاريخ مكتوب في أخرها، كما أنها لا تشير إلى شخص معين، ولا موقف محدد، ولا مكان ما .

ومن أهم هذه التعاليم أن الأمر بالمعروف واجب إجماعاً، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعاً، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعاً، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعاً، وأن الجهاد واجب إجماعاً.

وقد صدرت هذه الوثيقة بعد أن أشتد النزاع، وتفاقم الخلاف بين الشيخ وحاكم جوبير، وأصبح التفاهم صعبا بين الطرفين، وهي باختصار خطاب مفتوح يحدد النقاط الرئيسية لتعاليم الشيخ عثمان وشكواه من معارضيه، كما أنها تقدم المبرارت لإعلان الجهاد الإسلامي ضد الحكام الوثنيين.

تزعم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين، ولم يجد الشيخ بدا من إعلان الجهاد في سبيل الله، فلبى تلاميذه النداء، لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس بل كان الارتباط عميقا بالحب والتقدير، فكانوا له مؤيدين تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير وقرر حاكمها تأديب الشيخ عثمان، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح، بعد أن أغار حاكم جوبير على قري وممتلكات الموحدين(٢٠).

وفي الرابع من يونيه عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودي الذي أخلى مواقعه في جودو توقعا لهجوم من سلطان جوبير، واتجه إلى بحيرة تابكين كونو، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات خصومهم ، ودارت عليهم الدائرة ، فهرب من وجد سبيلا لذلك، وسقط في ساحة المعركة الكثيرون، وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد ـ لكن النصر لم يكن نهائياً لأن قوات المشركين عادت بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ وبدأت الهجوم الجديد على الشيخ وجماعته، ودارت (معركة تسونسو) التي هزم فيها المسلمون، وراح منهم أكثر من آلف شهيد لكن المسلمين صمدوا وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيبي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد، وتوالي سقوط إمارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفا للشيخ واتباعه حتى تحقق النصر ودخل عاصمة الإمارة وتسمي (الكالاوا) في عام ١٨٠٨، وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه، وانتهت مقاومة الوثنيين، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا، وتوافدت القبائل ذرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الولاء والدخول في الإسلام، والانضمام إلى حلف المسلمين، وتوسعت إمبراطورية الفولاني، وتكونت إمارات

جديدة، وأعطي الشيخ شارات وأعلام إلى أعوانه الذين واصلوا الجهاد في مختلف المناطق من بلاد الهوسا، وتوسعت الدولة، ودخل الناس تحت رايات الجهاد، وانتقل الشيخ على مدينة سيفاوا في عام ١٨٠٨، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو، والملاحظ _ في معظم دول غرب أفريقيا - استخدام اصطلاح إمبراطورية مثل إمبراطورية هذا البونو وإمبراطورية التوكولور وإمبراطورية الفولاني، واستخدام هذا اللفظ يعني فقط بناء دولة تخضع في سيادتها إلى زعيم واحد، يسيطر على مناطقها وعلى كل الحكام الداخلين تحت لوائه، وقد اختلفت مساحة الإمبراطورية من مكان لآخر حسب قدرة زعيم الجهاد على ضم مناطق إلى نفوذه(٢١).

رابعاً: نص وثيقة أهل السودان للشيخ عثمان بن فودي وآثارها:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليماً، الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان والإسلام وهدانا بسيدنا ومولانا محمد عليه من الله تعالي أفضل الصلاة وأذكي السلام.

أما بعد فهذه الوثيقة من ابن فودي أمير المؤمنين عثمان إلى جميع أهل السودان وإلى من شاء الله من الإخوان في البلدان وهي وثيقة نافعة في هذه الأزمان، فأقول وبالله التوفيق(٢٢).

"فاعلموا يا أخواتي أن الأمر بالمعروف واجب إجماعاً وأن النهي عن المنكر واجب إجماعاً وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعاً، وأن موالاة المؤمنين واجبة إجماعاً وأن طاعته وجميع نوابه واجبة إجماعاً، وأن الجهاد واجب إجماعاً، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعاً وأن تأمير القضاء واجب إجماعاً وأن تنفيذهم أحكام الشرع واجب إجماعاً وأن حكم البلد حكم سلطاته إجماعاً، وإن كان مسلما كان البلد بلد إسلام، وأن كان كافرا كان البلد بلد كفر وجبت الهجرة منه، وأن قتال الملك الكفار الذي لا يقول لا إله إلا الله أصلا واجب إجماعاً، وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعاً، وأن قتال الملك الكافر الذي لا يقول لا إله إلا الله بسبب عرف البلد ولم يكن يدع الإسلام واجب إجماعاً وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعاً وأن قتال الملك المرتد الذي خرج عن دين

الإسلام إلى دين الكفر واجب إجماعاً وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعاً، وأن قتل الملك المرتد الذي لم يخرج عن دين الإسلام لكنه يدعي الإسلام ويخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر كمملوك حوس غالباً واجب إجماعاً وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعاً وأن قتال المسلمين الذين لم يكونوا تحت بيعه أمير من أمراء المؤمنين واجب إجماعاً إذا دعوا إلى البيعة وأبوا حتى يدخلون في البيعة، وأن تكفير المسلمين بيدع الأعمال حرام إجماعاً، وأن تكفير المسلمين بالمعاصي حرام إجماعاً، وأن المقام في بلاد الحرب حرام إجماعاً وأن عدم الدخول تحت بيعة أمير المؤمنين ونوابه حرام إجماعاً، وأن قتال المسلمين الذين كانوا في بلاد الإسلام حرام إجماعاً، وأن أكل أموالهم بالظلم حرام إجماعاً وأن استرفاق الأحرار من المسلمين حرام إجماعاً، سواء كانوا في بلاد الإسلام أو في بلاد الحرب، وأن قتال الكفار على الأمانة حرام إجماعاً، وأن أكل أموالهم بالظلم حرام إجماعاً، وأن استرقاقهم حرام إجماعاً وأن قتال جماعة المرتدين واجب إجماعاً وأن أموالهم في وان في استرقاقهم قوامين المشهود المنع ولا يعمر من فعله أن قتل من يقول بجوازه، وأن قتال المحاربين واجب إجماعاً، وأن أموال الفيء وأن استرقاقهم حرام إجماعاً، وأن قتال البغاء واجب إجماعاً، وأن أكل أموالهم بالظلم حرام إجماعاً، وأن استرقاقهم حرام إجماعاً، ويستعان بسلاحهم عليهم ثم يرد لهم وأن في أموال المسلمين المقيمين ببلاد الحرب فهناك رأيان الصحيح منهما أنه يجوز الاستيلاء عليها.

وهنا انتهت وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الخوان بحمد الملك المنار مصليا ومسلماً على المصطفي من نسل عدنان وعلى أله وأصحابه وجميع أهل الإيمان.

وجميع أهل الإيمان

الحمد لله رب العالمين

كاتبه محمد ساعي

أبن أمير دورا

ويدعي إسحاق

الخاتمة

ويلاحظ على هذه الوثيقة ما يلي:

أولاً - أن هذه الوثيقة من المخطوطات النادرة التي جمعها السير بالمر وعلق عليها وقد سميت بهذا الاسم لأنها رسالة موجهة ليس فقط إلى أهالي جوبير بل إلى كل سكان السودان حيث أعلن الشيخ الحرب في كل بلاد السودان ضد الكفار.

ثانياً - تضمنت الوثيقة سبعا وعشرين بندا وهي خلاصة المبادئ والتعاليم التي نادي بها الشيخ عثمان في الفترة الأولي من جهاده ومن أبرز المبادئ التي نادي بها أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعاً وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعاً، وأن موالاة المؤمنين واجبة إجماعاً، وأن الجهاد واجب إجماعاً ، وأن قتال البغاة واجب إجماعاً.

ثالثاً - تعتبر هذه الوثيقة نموذجاً لوثائق السودان العربي التي كانت تصدر بدون تاريخ في أخرها ولا تشير إلى شخص معين ولا إلى موقف محدد ولا مكان ما، وهي تحتوي فقط على أسم ناسخها وهو محمد ساعي أبن أمير دورا ويدعي اسحق.

رابعاً - هذه الوثيقة تعالج المشكلات السياسية والاجتماعية التي عانت منها إمارة جوبير فهي عبارة عن خطاب مفتوح يحدد النقاط الرئيسية لتعليم الشيخ وشكواه من معارضيه وهي مبرر للأسباب التي من أجلها أعلن الشيخ الجهاد.

خامساً - هذه الوثيقة هي خلاصة فكر الشيخ عثمان الذي أرسى دعائم دولة إسلامية في غرب أفريقيا اتخذت من الجهاد في سبيل الله وسيلة لنشر الدين الإسلامي في غرب أفريقيا دعوة الشيخ كانت إيذانا بالجهاد في سبيل الله والذود عن ديار الإسلام ودعت إلى الهجرة من أرض الكفر ولذا كانت هذه الوثيقة البداية الحقيقية لثورة الشيخ عثمان على الحاكم في إمارة جوبير كما إنها الأساس الذي أتخذ منه أتباع الشيخ مبرراً لمحاربة الكفار والوثنيين.

٩- التراث العربي في وثائق دير سانت كاترين في العصور الوسطى بشبه جزيرة سيناء

د. سعيد مغاوري محمد
باحث بالمجلس الأعلى للآثار
المشرف علي البرديات العربية بدار الكتب المصرية

تمهيد :

تقتني مكتبة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء مجموعة هامة ونادرة من الوثائق التاريخية كتبت في العصور الوسطى حصل عليها رهبان وأساقفة وقساوسة الدير من خلفاء مصر الإسلامية في العصر الفاطمي ومن سلاطين الأيوبيين والمماليك وآل عثمان _ هذه الوثائق التاريخية النادرة عبارة عن مراسم ومناشير وتواقيع وفرمانات وأوامر إدارية وأوامر صادره من الحكام وفتاوى وحجج شرعية ومعاهدات وعهود أمن وأمان وفواتير وأوقاف ومحاضر ورسائل وكشوف حسابية وكشوف جرد وإيصالات[١]..... وغيرها جميع هذه الوثائق بلغ عددها تقريبا (١٠٧٢) وثيقة كتب أغلبها علي ورق الكاغد والبعض الآخر كتب علي الرق (حوالي ٢٩ وثيقة منفذه علي الجلد)[٢] وهى مختلفة في الأنواع والأحجام والتواريخ .

ترجع أهمية هذه الوثائق التاريخية الهامة إلي كونها تراث سياسي عربي ينسب في أغلبه للعصور الوسطى لم ينشر منها سوى أعداد قليلة والباقي رهين الحفظ والصيانة والترميم ، تحتوى هذه الوثائق معلومات بالغة الأهمية عن حسن سياسة حكام المسلمين في العصور الوسطى تجاه رهبان دير سانت كاترين من حيث رعايتهم وحمايتهم ودعمهم بالأموال والأوقاف والنظر في مصالحهم وغيرها من الأمور التي تعكس جانبا سياسيا هاماً تجاه النصاري في العصور الوسطى .

أولاً : نبذة تاريخية عن دير سانت كاترين ومقتنياته التراثية :-

يقع دير سانت كاترين في قلب شبه جزيرة سيناء وبالتحديد في منطقة وادى شعيب علي ارتفاع (٤٨٥٤ قدما) فوق سطح البحر - أمر ببناؤة الإمبراطور البيزنطى جستنيان فيما بين سنوات ٥٤٠-٥٤٥ ميلادية[٣] في البقعة المباركة التى كلم الله تعالى فيها نبيه الكريم موسى عليه السلام ونقرأ قوله تعالى في محكم التنزيل :-

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) ﴾ (٤) .

جدير بالذكر أن هذا الدير تمت إحاطته بسور حصين متوسط ارتفاعه حوالي (١١مترا) وسمك جدرانه حوالي مترين وذلك لحمايته وحماية من بداخله من الرهبان والنساك من غزو وبطش واعتداءات البدو واللصوص وغيرهم في هذه المنطقة القاحلة الخالية من السكان . وبالدير بئر للمياه عميقة هذا بالإضافة إلي مخازن ومطاحن للغلال وأفران ومعاصر للزيوت وقلايات (أماكن للعبادة) للرهبان ، وعزف للوافدين والمترددين علي الدير من زوار سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين ، أيضا يضم الدير عدة مطابخ لتجهيز الطعام للرهبان والضيوف _ وأبرز ما يضمه الدير إلي جانب الأشياء السابق ذكرها مسجداً نادراً بنى في العصر الفاطمي وبالتحديد سنة ٤٩٧هـ الموافق ١١٠٣م _ يقع إلي جوار كنيسة التجلي وبهذا المسجد حتى اليوم العناصر الفنية المعمارية والإسلامية الهامة مثل المنبر والكرسي اللذين صنعا سنة ٥٠٠هـ الموافق سنة ١١٠٦م وهما من الخشب(٥) - نقش علي الجوانب الأربعة من الكراسي سطران كتبا بأسلوب الخط الكوفي الجميل هذا نصهم :-

"بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمل هذا الشمع والكراسي المباركة والجامع المبارك الذي بالدير الأعلى والثلاث مساجد الذي ..... فوق مناجاة موسى عليه السلام والجامع الذي فوق جبل دير فاران والمسجد الذي تحت فاران الجديدة والمنارة التي بحضر الساحل الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبي منصور أنوشتكين الأمري......"(٦) وبالإضافة إلي هذه الكتابة هناك كتابة كوفية أخري منفذه علي جوانب المنبر الخشبي النادر المحفوظ حاليا في أحد جوانب المسجد الفاطمي بالدير نص هذه الكتابة كالتالي في ستة أسطر:

"بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير . نصر من الله وفتح

قريب لعبد الله ووليه أبي على المنصور الأمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلي أبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين . أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاه المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلي كلمته وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمسمائة . أثق بالله "(٧) .

جدير بالذكر أن أهم مقتنيات الدير تكمن في مكتبة العامرة بأمهات الكتب والمخطوطات النفيسة وهي تعتبر من أهم وأعظم المكتبات في العالم وتقدر بحوالي (٤٥٠٠)(٨) كتبت بعدة لغات مختلفة غالبيتها كتب باللغتين العربية واليونانية هذا بالإضافة لمخطوطات أخرى كتبت باللغات السريانية والقبطية والسلافية والحبشية القديمة والفارسية والجورجانية واللاتينية والارمينية والبولونية وغيرها .

وما يعنيني حقيقة في هذه الدراسة هو إلقاء الضوء علي مجموعة المخطوطات والوثائق التاريخية التي كتبت باللغة العربية ، فقد ذكر الدكتور مراد كامل أن المخطوطات العربية بمكتبة هذا الدير وصل عددها (٦٠١) مخطوطة(٩) يتراوح تاريخ أغلبها بين القرن الأول حتى الثالث عشر الهجريين الموافق السادس حتى التاسع عشر الميلاديين . ولقد تم جمع هذه الكمية الفخمة من المخطوطات والوثائق التاريخية النادرة علي يد الرهبان المقمين في الدير والذين كانوا يفدون إليه من كل أنحاء الأمبرطورية البيزنطية والعالم المسيحى في أوروبا وأسيا وأفريقيا . فقد كان الدير ومازال من الأماكن المقدسة فى الأرض المصرية - لجأ إليه العديد من الرهبان الأرثوذكس للعبادة وأقام فيه العديد من الزوار والسياح ورؤساء الكنائس في العالم المسيحي كله وللدير فروع أخرى منتشرة في منطقة الطور والسويس والقاهرة وأسمره وسورية ولبنان وقبرص وكريت وأثينا وغيرها .

وكان الأباطرة والملوك والأفراد والأمراء يولونه عنايتهم ويمدونه بالعديد من العطايا والهبات والمنح والأوقاف الخيرية للإنفاق علي الرهبان والمنقطعين للعبادة به(١٠) .

جدير بالذكر أن مكتبة الدير تقتني مجموعة هامة ونادرة من مخطوطات للكتاب المقدس وبخاصة الأناجيل الأربعة والمزامير تنسب للشام والعراق كتبت علي الرق(١١) بأسلوب الخط الكوفي يرجع تاريخها إلي القرون الأولي للهجرة وبالتحديد بين القرنيين ٣-٥هـ/٩-١١م(١٢) وكما هو معلوم لدى العديد من الباحثين في مجال التاريخ والحضارة الأسلامية أن ترجمة الكتاب المقدس في مصر تأخرت عن ترجمة الشام والعراق بقرنين من الزمان - فقد بدأت في هذين القطريين حتى نهاية القرن ٥ هـ /١١م بينما في مصر فقد بدأت الترجمة في القرن السابع الهجرى الموافق الثالث عشر الميلادي(١٣) .

ثانياً : عهود الأمن والأمان من ولاة أمور المسلمين لأهل الذمة :-

منذ أن إنتشر دين الإسلام في ربوع الأرض حرص ولاة أمور المسلمين علي تنظيم العلاقة بينهم وبين أهل الذمة في الأقاليم المفتوحة في مصر والشام وغيرها من بقاع الأرض آنذاك. ومن الأمور الجديرة بالذكر أن رهبان دير سانت كاترين قد درجوا منذ سنوات طويلة علي القول بأن رسول الله ﷺ قد منحهم عهد أمن في أوائل سنوات الهجرة النبوية الكريمة ، ومازالت بالدير حتى هذا اليوم عدة صور أو نسخ من عهد الأمن والأمان الذي يعتقد الرهبان بأن رسول الله ﷺ قد كتبه لرهبان الدير والذي تضمن حمايتهم وكنائسهم ومنع فرض الجزية والمغارم عليهم وتجدر الإشارة إلي أن هذا العهد كتب عليه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر ، عمر ، على ، عثمان) - ومازال الرهبان يستندون إلي هذا العهد في التمسك بحقوقهم ومطالبهم التي كثيراً ما أفصحوا عنها ورفعوها إلي السلاطين والخلفاء وأمراء المسلمين استناداً إلي هذا العهد الذي يعتقدون أن رسول الله ﷺ قد كتبه لرهبان الدير(١٤) .

ولقد ظل هذا العهد محفوظا في الدير حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ الموافق سنة ١٥١٧م - فأخذه السلطان العثمانى سليم الأول إلي القسطنطينية - وأعطى السلطان سليم لأهل الدير صورة من هذا العهد(١٥) .

وفي واقع الأمر أن المتأمل لهذه الواقعة وهى استناد الرهبان في هذا الدير لعهد الأمن والأمان الذي يعتقد بأن رسول الله ﷺ قد أعطاه ومنحه للرهبان

أنما يدل دلاله واضحة علي سماحة دين الإسلام وعدالة شريعته الغراء حيث ترك حرية العبادة لهؤلاء الأقوام من قساوسة ورهبان ورجال دين وغيرهم عملا بقوله تعالى في محكم التنزيل :-

"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ..." . صدق الله العظيم ومن العهود المعروفة في التاريخ والحضارة الإسلامية أيضا - عهد الأمن والأمان الذي أعطاه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب لأهل أيلياء (القدس) في سنة ١٥هـ والذي يتضمن معلومات بالغة الأهمية عن حماية ولاة أمور المسلمين لأهل الذمة وكنائسهم ودور عبادتهم فنقرأ في نص العهد هذه العبارات الدالة على حسن سياسة حكام المسلمون لأهل الذمة[١٦] :

"بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون علي دينهم ، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بأيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلي أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه أمن علي نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو أمن ، وعليه مثل ماعلي أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فأنهم أمنون علي أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما علي أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلي أهله ، لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم ، وعلي ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الحلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية"

شهد على ذلك   كتب وحضر سنة ١٥هـ

خالد بن الوليد   عمرو بن العاص   عبد الرحمن بن عوف   معاوية بن أبي سفيان

عمر بن الخطاب

المتأمل في عهود الأمن والأمان التي منحها ولاة أمور المسلمين لأهل الذمة ورجال دينهم من قساوسة ورهبان وبطاركة وأساقفة وغيرهم إنما تدل دلالة واضحة علي مدى سماحة شريعة الدين الإسلامى الحنيف ومدى عطفه ورحمته بالضعفاء من يتأمى ونساء وأرامل وعجزة وشيوخ وأطفال ورجال دين منقطعين للعبادة في الصوامع والأديرة وغيرهم .

وعلي النقيض تماما فإن الحروب الصليبية قد عاشت في أراضي المسلمين فسادا ذريعا في مصر والشام حيث كانت تعتدى هذه الحملات التي خرجت تحت راية الصليب وقتلت الأبرياء من المسلمين في العديد من المدن والقرى المصرية والشامية في العصور الوسطى وعهود الأمن والأمان التي منحها خلفاء مصر الأسلامية في العصر الفاطمي وسلاطين المماليك والأيوبيين وآل عثمان لرهبان دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء تؤكد القول بأن حضارة الإسلام لم تكن في يوما من الأيام حضارة دماء بل هى حضارة بناء ولقد تمثل ذلك في وجود العشرات من نصوص وثائق دير سانت كاترين تنسب للعديد من حكام المسلمين تتوعد بالعقاب لكل من يعتدى علي رهبان هذا الدير وإنزال أشد ألوان العذاب بالمجرمين الذين يحاولون النيل من مهابة الرهبان وكذلك العطف عليهم والإحسان إليهم ومدهم بالمؤن والعتاد . وغيرها من مظاهر الحضارة الإسلامية العزاء.

ثالثاً : المشاكل التي يتعرض لها رهبان دير سانت كاترين :-

وردت في العديد من نصوص الوثائق التاريخية التي عثر عليها في مكتبة دير سانت كاترين معلومات تفيد وجود عدد كبير من المشاكل والمضايقات التي كانت تواجه رهبان الدير وزواره ومريديه من مسيحيين ومسلمين عبر عصور التاريخ أغلب هذه المضايقات والمشاكل كانت ناجمة عن قبائل العربان القاطنين في سيناء وخاصة في المناطق المجاورة للدير _ ففي مرسوم السلطان برقوق نقرأ هذه العبارة :-

".... ويضربوا بوابينهم والقائمين في أشغال ديرهم والهجوم عليهم في الدير وأختطاف أقواتهم كرها بالتهديد والضرب وقد هج أكثر الرهبان وهم ببرية شاسعة وليس لهم يد ولا لسان"(١٧) .

وفي مرسوم آخر ينسب للسلطان خشقدم - وكذلك مرسوم آخر ينسب للسلطان حسن - نقرأ هذه العبارة التى تكشف عن بطش العربان بالرهبان في الدير :

"... تسلط عليهم جماعة من العربان النازلين بالقرب منهم ويدخلون عليهم ويشوشون عليهم وينهبون قوتهم من يدهم ويضربونهم ..."(١٨) .

وفى مرسوم للسلطان خشقدم والسلطان تمربغا والسلطان قايتباى نقرأ عبارات أخرى تفيد اعتداء جماعات من العربان على ساكني الدير من قساوسة ورهبان حتى أنهم أستولوا علي طعامهم وأقواتهم - فنقرأ هذه العبارة :-

"إن جماعة الرماكين والنجابة يشوشون علي الرهبان ويتعرضون لهم ، ويأخذون منهم زيتا وعسلاً ودقيقا وتمرا وشمعاً ويكلفونهم مالا قدرة أو طاقة لهم عليه من الأمور ، أو يقطعون من ثمرات النخيل والكروم والزروع بغير طريق أو مستند شرعي وباليد العادية ، وقد أضر ذلك بحالهم ..."(١٩) - وفي مرسوم آخر للسلطان قلاوون نقرأ هذه العبارة :-

".... إن العربان تسلطوا علي النخيل الذى لهم يقطعونها ويؤذون الرهبان ويشوشون عليهم ..."(٢٠) .

وبالإضافة إلي ذلك وردت شكاوى أخرى من بعض الرهبان عبارة عن حوادث فردية كان يتعرض لها بعض هؤلاء الرهبان من حيث تعرضهم للضرب والأذى والسرقة في بعض الأحيان . منها مرسوم للسلطان قاتيباى نقرأ فيه هذه العبارة :-

"....أن جماعة من أولاد علي ديني سليمان تسلطوا علي موسى الراهب المتولي أمور المخازن والحواصل الموقوفة علي الدير في بندر الطور ، وطلبوا شيئا لم يكن به عادة وضربوه فشجوا رأسه وجرحوه جراحات كثيرة ولم يمكنوه من الأشغال الملتزم بها ..."(٢١) .

ومما يلفت النظر وجود بعض شكاوى الرهبان علي بعض العربان الذين يحاولون التمسح بالدين الإسلامي ويرغبون في دخول الدير لأداء الصلاة في

وفي مرسوم آخر ينسب للسلطان خشقدم - وكذلك مرسوم آخر ينسب للسلطان حسن - نقرأ هذه العبارة التى تكشف عن بطش العربان بالرهبان في الدير :

"... تسلط عليهم جماعة من العربان النازلين بالقرب منهم ويدخلون عليهم ويشوشون عليهم وينهبون قوتهم من يدهم ويضربونهم ..."(١٨) .

وفى مرسوم للسلطان خشقدم والسلطان تمربغا والسلطان قايتباى نقرأ عبارات أخرى تفيد اعتداء جماعات من العربان على ساكني الدير من قساوسة ورهبان حتى أنهم أستولوا علي طعامهم وأقواتهم - فنقرأ هذه العبارة :-

"إن جماعة الرماكين والنجابة يشوشون علي الرهبان ويتعرضون لهم ، ويأخذون منهم زيتا وعسلاً ودقيقا وتمرا وشمعاً ويكلفونهم مالا قدرة أو طاقة لهم عليه من الأمور ، أو يقطعون من ثمرات النخيل والكروم والزروع بغير طريق أو مستند شرعي وباليد العادية ، وقد أضر ذلك بحالهم ..."(١٩) - وفي مرسوم آخر للسلطان قلاوون نقرأ هذه العبارة :-

".... إن العربان تسلطوا علي النخيل الذى لهم يقطعونها ويؤذون الرهبان ويشوشون عليهم ..."(٢٠) .

وبالإضافة إلي ذلك وردت شكاوى أخرى من بعض الرهبان عبارة عن حوادث فردية كان يتعرض لها بعض هؤلاء الرهبان من حيث تعرضهم للضرب والأذى والسرقة في بعض الأحيان . منها مرسوم للسلطان قاتيباى نقرأ فيه هذه العبارة :-

"....أن جماعة من أولاد علي ديني سليمان تسلطوا علي موسى الراهب المتولي أمور المخازن والحواصل الموقوفة علي الدير في بندر الطور ، وطلبوا شيئا لم يكن به عادة وضربوه فشجوا رأسه وجرحوه جراحات كثيرة ولم يمكنوه من الأشغال الملتزم بها ..."(٢١) .

ومما يلفت النظر وجود بعض شكاوى الرهبان علي بعض العربان الذين يحاولون التمسح بالدين الإسلامي ويرغبون في دخول الدير لأداء الصلاة في

٨- عدم سداد الأجرة المتفق عليها من أملاك الدير من العربان المستأجرين للعقارات والأراضي الزراعية الموقوفة علي الدير في مصر والشام .

٩ - مطالبة العربان للرهبان بدفع أجرة الخفاره (الحراسة) المتفق عليها قبل موعدها وأخذها عنوه من الرهبان .

١٠- مطالبه الرهبان بسداد أموال (ضريبة)أو ما يسمى بالجمارك (٢٥) علي الرغم من كونهم لديهم إعفاء من سداد هذه الرسوم للدوله.. وغيرها من الأمور .

رابعاً : نماذج مختارة من الوثائق العربية لرهبان الدير :-

هناك المئات من الوثائق العربية الهامة والنادرة التي كتبها خلفاء مصر الإسلامية في العصر الفاطمى وسلاطين الأيوبيين والمماليك وآل عثمان لحماية دير سانت كاترين وحماية ما به من أنفس وممتلكات وغيره جميع هذه الوثائق النادرة تلقي الضوء علي السيادة السياسية للدولة الإسلامية ومدى قدرتها علي حماية جميع المنشآت بها سواء الموجودة بالمدن الرئيسية في الفسطاط أو العسكر أو القطائع أو القاهرة الفاطمية ... وغيرها من المدن الرئيسية في مصر مثل الأسكندرية ورشيد والأشمونين والبهنسا وإدفو والفيوم وغيرها من البقاع التي تضم العديد من الأديرة والكنائس في الوجهين القبلي والبحرى في مصر(٢٦) .

ومن الوثائق النادرة التي أستوقفتنى منشور ينسب للخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله فقد وردت به عبارة ذات مغزى ودلالة سياسية كبيرة مؤداها فرض الحماية علي رهبان الدير ورعاية أهل الذمة والرحمة بهم _ فنقرأ هذه العبارة : "... إنه لما كان من شيمنا إزالة المحدثات وتعفية آثارها ، والمنع من الإستمرار عليها وتأكيد إنكارها ، ورعاية من يحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة واعتمادهم بما نسبغ عليه من ملابس الحنو والرحمة ليتساوى في عدلنا الصغير والكبير، ويشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير ..."(٢٧) .

أيضا من الوثائق الأيوبية النادرة هذه الوثيقة التى تنسب للسلطان العادل أبو بكر بن أيوب والمحفوظة في مكتبة الدير والتى وردت فمن ثناياها هذه العبارة ذات المغزى والدلالات المؤثرة :

"... إنا لم نزل ولله الحمد تدب عن الرعاية الذين فوض الله تعالي أمرهم الينا ، واحالت الشريعة الطاهرة في حياطهم علينا فنكف كف الأذى عنهم ... ونقيل عثرتهم ونكشف كربتهم وغمتهم ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم وقسيسيهم وكهانهم وساكني الصوامع من زهادهم والمنقطعين بالديره من عبادهم ..."(٢٨) .

وبالإضافة إلي ذلك وردت معلومات هامة في منشور ينسب للعصر الفاطمي وبالتحديد الخليفة الظافر بالله - محفوظ في مكتبة الدير - تضمن هذا المنشور النادر عبارات تشير إلي مدى رعاية وعناية خلفاء الفاطميين في مصر بأمور الدير والرهبان - فنقرأ فيه هذه العبارة :

".... برعاية الرهبان المقدم ذكرهم ومن ينتجع إليهم ويطرأ عليهم وأصحابهم وأهل ملتهم التابعين لهم والتصرفين في تحصل أقواتهم وغير ذلك من مصالحهم التي لا غني عنها لأمنهم وحفظهم وحياطتهم وصونهم في أنفسهم ولأصحابهم والسالكين سبيلهم وكف الأيدى من الحاضرة والبادية عن أذيتهم وعن الإمتداد بسوء إليهم ..."(٢٩) .

أيضا هذا مرسوم آخر ينسب للأمير خاير بك تضمن معلومات عن حماية الدولة لرهبان الدير وإكرامهم واحترامهم ورعايتهم وكف الأذى والضر عنهم .. وغيرها . بهذا النص :-

".... بالوصية بهم وبجماعتهم .. والوصية التامة بهم وإكرامهم واحترامهم ورعايتهم وكف الأذى والضرر عنهم وعن ديورتهم وما يتعلق بهم...من غير إحداث حاث ولا تجديد مظلمة..."(٣٠)

وفي موضع آخر من نفس المرسوم السابق نقرأ هذه العبارة أيضا :

".... وأن لا يعارضهم أحد من الحكام في حيشاتهم ولا شئونهم وأن لا ينزل

بها أحد إلا برضاهم والقيام بالأجرة .. ولا يتعرضوا إليهم بأذية ولا ضرر ولا تشويش ولا كلفة وأنه لا طعمه عليهم .."(٣١) .

ومن مراسيم الأمير خاير بك أيضا هذا المرسوم الذى تضمن عبارة هامة تكشف عن هيمنة الدولة علي أملاكها ورعاية مصالحها وحماية رعاياها من مسلمين وأهل ذمة علي السواء. فنقرأ هذه العبارة :

"... وأن لا يعارضهم أحد من الحكام في حيشانهم وبيوتهم وأن لا ينزل فيها أحد الإ برضاءهم مع وصول الأجرة لهم وخلاص حقوقهم فمن هى في جهته من حقول وكروم ونخيل وغير ذلك وأن لا يدخل العربان عليهم في ديرهم المذكور ولا يقفوا لهم في طريق ولا يأسوا عليهم ولا يسكنوا بقربهم إلا مسافة طريق يوم علي يوم العادة المعروفة للمسافرين وأن لا يكلفوا إلي شئ قيمته الدرهم الفرد وأن لا يحدث عليهم طعمه جملة كافية ..."(٣٢) .

والمتأمل في النص الأخير يلاحظ أن الأمير خاير بك قد حدد شروطاً للعربان بعدم التعرض بالأذى للرهبان وبالأ يسكنوا إلي جوار الدير الأعلي مسافة يوم كامل من السفر لضمان عدم البطش بالرهبان وأحترام جوارهم وبعدم الوقوف في طريقهم وعدم الأعتداء علي زراعتهم وحقولهم وعدم دخول منازلهم إلا برضاهم ، مع سداد أجرة المنازل والأراضي والعقارات التي تخص الدير والمؤجرة للعربان ـ والذين كانوا عادة ما يتخلفون عن سداد مستحقات الدير الواجبة علي العربان وهي عبارة عن مبالغ مالية اتفق عليها بين العربان ورؤساء الدير من رهبان وقساوسة .. وغيرها من الوثائق التاريخية الهامة التي تبرز مكانة ومهابة الدالة الاسلامية في العصور الوسطى .

خامساً : المطلوب عمله حيال هذه الوثائق السياسية النادرة :-

سبق أن ذكرت أن هذه الوثائق النادرة تزيد عن الألف وثيقة - لم ينشر منها إلا القليل وغالبيتها مازال يحتاج إلي عناية ورعاية خاصة من قبل المؤسسات العلمية والبحثية في الوطن العربي ، خاصة وأن هذه الوثائق معرضة للتلف والتدمير نظرا للظروف الجوية القاسية التي تحيط بالدير حيث ارتفاع نسبة

الرطوبة في المكتبة وخاصة في فصول الشتاء والخريف ، أيضا لضعف الإمكانيات المادية والفنية في الدير ، هذا بالإضافة للمحاولات التي تقوم بها العديد من المكتبات والمتاحف والجامعات في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكذلك بعض المعاهد البحثية اليهودية في إسرائيل من سرقة هذه الوثائق والمخطوطات النادرة من مكتبة الدير والعبث بها بين الحين والأخر يهدف طمس ما بها من معلومات وعبارات تشير إلي مظاهر الحضارة الإسلامية وسيادة خلفاء وسلاطين مصر الإسلامية في العصور الوسطى .

واعتقد بأنه قد أن الأوان لوضع خطة علمية للحفاظ علي هذا التراث العربي والإسلامي الفريد من نوعه والمتميز في موضوعاته والغنى في مادته العلمية بالعمل علي تصويره باستخدام التقنيات الحديثة مثل الشرائح الميكروفيلمية وشرائح الـ (CD ROM)(٣٣) وغيرها . ومن ثم تيسيرها للطلاب والباحثين في مصر والوطن العربي من المحيط إلي الخليج خاصة وأن دراسة هذه الوثائق النادرة قد توقفت حاليا بسبب ندرة المتخصصين في مجال علوم الوثائق بصفة عامه بعد أن أنتقل إلي جوار ربهم العديد من كبار الباحثين والعلماء العرب المعينين بعلم التراث الإسلامى المخطوط في مصر والوطن العربي منهم علي سبيل المثال المرحوم العلامه محمود شاكر والدكتور محمود الطناحى ... وغيرهم .

الحواشي والتعليقات

١- اورد المرحوم الدكتور عبد اللطيف ابراهيم علي في بحثه "دراسة في الوثائق العامة في العصور الوسطى" (١) دير سانت كاترين _ بيانا تفصيليا اوليا عن مجموعة الوثائق العربية المخطوطة بهذا الدير حسب موضوعاتها وعدد منها ستة عشر قسما هى كالتالى مع ارقام سجلها في كشوفات الدير :-

١/ عهود نبوية بأرقام سجل من ١-٥

٢/ مناشير ومراسم من الخلفاء والسلاطين في العصور الوسطى من رقم ٦-١٢٤

٣/ فرمانات من العهد العثمانى بأرقام سجل من ١٢٥-١٩٩

٤/ معاهدات من رقم سجل ٢٠٠- ٢٦٦

٥/ فتاوى من رقم سجل ٢٦٧-٢٧٩

٦/ حجج شرعية (وثائق فقهية) من رقم سجل ٢٨٠-٩١٩

٧/ محاضر من رقم سجل ٩٢٠-٩٥٥

٨/أوامر إدارية من رقم سجل ٩٥٦-٩٦٨

٩/ أعمال عادية من رقم سجل ٩٦٩-٩٩١

١٠/ رسائل من رقم سجل ٩٩٢-١٠٤٠

١١/ أوامر صادرة من الحكام من رقم سجل ١٠٤١-١٠٤٤

١٢/ كشوف جرد من رقم سجل ١٠٤٥-١٠٥٠

١٣/ كشوف حسابات من رقم سجل ١٠٥١-١٠٥٢

١٤/ فواتير من رقم سجل ١٠٥٣-١٠٥٨

١٥/ إيصالات من رقم سجل ١٠٥٩-١٠٦٥

١٦/ متنوعات من رقم سجل ١٠٦٦-١٠٧٢

القسم الأخير من هذا البيان وهو المتنوعات يشمل خاصة بالدير وأعماله مثل أسماء حراس الدير وإنشائه وبعض الشكاوى وغيرها من الموضوعات التي لها علاقة بأعمال الدير والرهبان .

٢- هناك خلاف بين بعض الباحثين في مجال الوثائق والمكتبات وخاصة الذين زاروا هذا الدير وعملوا في مكتبته العامرة بأمهات الكتب والمخطوطات والوثائق التاريخية عن عدد الوثائق العربية المحفوظة في الدير فيذكر الدكتور / مراد كامل في كتابه "فهرست دير سانت كاترين" في الجزء الأول _ صفحة (٣) أن عدد وثائق الدير (١٠٧٢) وثيقة _ بينما

يذكر الدكتور عزيز سوريال عطية وهو من الباحثين الذين زاروا الدير مرات عديدة قبل أن يستقر به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد فيذكر في بحثه الذى يحمل عنوان :

The Arbic Treasures .p. 8-14 .

فيذكر أن عدد وثائق الدير (١٠٧١) وثيقة _ ثم عاد وذكر رقما آخر في كتابه الذى يحمل عنوان :-

The Arbic Manuscripts .p. xxvlll .80 .

فذكر أن عدد وثائق الدير (١٠٦٧) .

٣- عن موقع الدير وتفاصيل بناؤه وموقعه انظر :-

أثناسيوس باليوراس : دير سيناء المقدس ، مطابع شركة تزافيرس باليونان سنة ١٩٨٦ م .

٤- القرآن الكريم _ سورة طه- الآيات أرقام (٩ ،١٠ ،١١ ،١٢) .

٥- د. زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، طبع العراق _بغداد سنة ١٩٥٦- ارقام اللوحات (٣٥٦-٣٥٧-صفحة٤٤٣ ،٤٤٤) .

6- Repertoire Chronologique d`epigraphie Arabe (B.I.F.A.O)
T.8-PP.69-71.NO,2912-2913 .

٧- جدير بالذكر أن المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف ابراهيم قد رجح بناء هذا الجامع الفاطمي داخل الدير علي يد الأمير أبو المنصور أنوشتكين وهو من رجال عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، أما الأفضل أبو القاسم شاهنشاه الذي ورد إسمه في نقوش كتابة المنبر فيرجح أنه الذي أمر بصنع المنبر في سنة ٥٠٠هـ عندما كان وزيرا للخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله الذي حكم بين سنوات (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٢٩م).
د. عبد اللطيف ابراهيم : دراسة في الوثائق العامة في العصور الوسطي ، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية- العدد الأول ١٩٦٨م /١٣٨٨هـ ، ص١٥٧ .

٨- أورد هذا الرقم الباحث اليوناني أثناسيوس باليوراس في كتابة دير سيناء المقدس _ صفحة (٣٣)- ويذكر أيضا أن العالم الألماني (تشيندروف) الذي زار الدير وطلب استعارة (مخطوطات السينائيين) التي تعتبر من أندر المخطوطات في العالم والتي تضم النص اليوناني الكامل للكتاب المقدس والذي يرجع تاريخه إلي منتصف القرن الرابع الميلادي _ حيث طلب استعارتها لحساب إمبراطور روسيا علي أن يعيدها مرة أخري لمكتبة الدير فيما بعد وكتب علي نفسه بذلك إيصالا. إلا أنه لم يفي بوعده وتم تهريبها وفي سنة ١٩٣٣م اشترى المتحف البريطاني بلندن هذه المخطوطات النادرة ومازالت محفوظة به حتى اليوم .

أثاسيوس باليوراس : المرجع السابق صـ٣٣ .

٩- د. مراد كامل : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء _ جزءان- القاهرة ١٩٥١م .

١٠- د. عبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق صـ١٦٠ .

١١- د. عبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق صـ١٦٧ .

١٢- توجد بالدير العديد من القطع الفنية المسيحية من أبواب وشبابيك وكؤوس وأباريق وتحف وهدايا متنوعة كانت قد أهديت للدير عبر تاريخه الطويل من قبل السلاطين والملوك والأمراء_ ومن أبرز مقتنيات الدير غير الكتب المخطوطة والوثائق التاريخية مجموعة الأيقونات النادرة وهي عبارة عن رسوم ولوحات زيتية تمثل بعض الرموز المسيحية للسيد المسيح والسيدة العذراء _ وتذكر بعض المصادر التاريخية أن العصر الأموي قد شهد حركة كسر الأصنام والتماثيل ومحو صور الأيقونات فقد أورد المؤرخ المقريزي في كتابه الخطط ج٢صـ٤٩٢- أنه في ولاية حنظلة علي مصر سنة ١٠٤هـ الموافق القرن ٨هـ - قام أسامة بن زيد التنوخي تنفيذا لأوامر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام والتماثيل ومحو صور الأيقونات لقد أورد المؤرخ المقريزي في كتابة الخطط ج٢ صـ٤٩٢_ أنه في ولاية حنظلة علي مصر سنة ١٠٤هـ الموافق القرن ٨ هـ - قام أسامة بن زيد التنوخي تنفيذاً لأوامر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام والتماثيل ومحو الصور و الأيقونات التى كانت منتشرة في العديد من مدن وقري مصر . ونظراً لبعد دير سانت كاترين عن هذه المحنة فقد تم الحفاظ علي مجموعة الدير من اللوحات والأيقونات التاريخية حتى اليوم .

ساويرس بن المقفع :- سير الأباء والبطاركة صـ١٤٤ .

إبراهيم طرخان :- الحركة اللا أيقونية في الدول البيزنطية طبع القاهرة _ لجنة التأليف والترجمة ص٨ - ١٥ .

١٣- تجدر الإشارة إلي أن أقدم المخطوطات لعربية في دير سانت كاترين عبارة عن مخطوطتين تنسبان للقرنين ٣-٤ هـ ٩-١٠ م المخطوطة الأولي عبارة عن نسخة من الأناجيل الأربعة (متي ، مرقص ، لوقا ، يوحنا) كتبت بأسلوب الخط الكوفي بالحبر الأسود والعناوين كتبت بالمداد الأحمر _ تاريخ هذا المخطوط كما ورد به في شهر المحرم سنة ٢٨٤ هـ .

أما المخطوط الثاني فهو أيضا مخطوط يتعلق بالأناجيل الأربعة كتب أيضا بأسلوب الخط الكوفي مؤرخ في شهر ذو القعدة سنة ٣٩٢ هـ .

د.عبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق صـ ١٦٧ .

١٤- أنظـر فـي ذلك مجموعة وثائق العهود النبوية المحفوظة في مكتبة الدير أرقام سجل (١-٥).

Atayis .A.S:, The Arabic Manuscripts .P. xxix .

١٥- د. عبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق صـ١٦٩ .

١٦- ورد هذا العهد في تاريخ الطبري - أنظر أيضا .

منظمة المؤتمر الإسلامي : وثيقة القدس - الأردن - عمان صـ٣٣ .

١٧- انظر في ذلك مرسوم السلطان برقوق المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٢٩)، السطور من (١٧-٢٩) _ والمرسوم الآخر لنفس السلطان برقم سجل (٤٣)، السطور من (١٧-٢٣) .

١٨- أنظر في ذلك مرسوم السلطان خشقدوم المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٢٧) في السطور من (٧-٩) ، وكذلك مرسوم السلطان حسن المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٣٠) في السطور من (٦-٧) ، والمرسوم الآخر لنفس السلطان برقم (٣٦) في السطور من (٦-٧) .

١٩- أنظر في مرسوم السلطان خشقدوم المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٥٤) في السطور من (٨-٩) وكذلك مرسوم السلطان قايتباي برقم سجل (٦٠) في السطور من (٢٠-٢١) . وغيرها من المراسم .

٢٠- أنظر في ذلك مرسوم السلطان قلاوون المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٢١) في السطور من (١٣-١٦) .

٢١- أنظر في ذلك مرسوم السلطان قايتباي (عصر مماليك الجراكسة) المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٦٧) في السطور من(١١-١٣) .

٢٢- أنظر في هذا الخصوص مرسوم السلطان خشقدوم المحفوظة في مكتبة الدير برقم سجل (٢٧) في السطور من (١٢-١٧) .

٢٣- أنظر في ذلك مرسوم السلطان قطز المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (١٧) السطر (٣٧) وكذلك مرسوم السلطان محمود بن السلطان قلاوون المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٣٣) في السطور من (٨-٣٢) وغيرها من المراسيم .

٢٤- أنظر في هذا الخصوص العديد من المراسيم التي تنسب للعديد من سلاطين المماليك ومنهم السلطان قطز _ في مرسوم محفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (١٧) في السطور من (٤٢-٤٥) ، وكذلك مرسوم ينسب للسلطان بيبرس البندقداري المحفوظ في سجلات مكتبة الدير برقم سجل (١٨) في السطور من (٤٨-٥١) .. وغيرها من المراسيم .

٢٥- أنظر في ذلك ما أورده أيضا المرحوم الدكتور عبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق صـ١٨٨-١٨٩ .

٢٦- هناك العديد من الأديرة القبطية في مصر _ ذكرها المؤرخ المقريزي في كتابه الخطط ج١ صـ٥٠١ وعدد منها (٨٦) ديرا في العصور الوسطى أشهرها أديرة وادي النطرون وقد زارها ثلاثة من سلاطين المماليك هم الظاهر بيبرس ، والناصر محمد بن قلاوون والأشرف قايتباي وقد وصف هذه الأديرة بن فضل الله العمري الذي زارها بصحبة السلطان محمد بي قلاوون ، ومن أديرة مصر العليا الشهير دير المحرق في أسيوط ودير القلمون في المنيا ، وفي الصحراء الشرقية بمصر يوجد القديس أنبا أنطونيوس ودير القديس أنبا بولا .. وغيرها من الأديرة .

تاريخ وآثار مصر الإسلامية _ الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٨٧ م صـ٩١٢ .

٢٧- أنظر في ذلك المنشور المحفوظ في مكتبة الدير والذي يحمل رقم سجل (١٠) في السطور من (١٢-٢٠) والمنشور الآخر الذي يحمل رقم سجل (٩٦٣) في السطور من (٨-١١) والسطور من (١٨-٢٣) .

٢٨- أنظر في ذلك منشور السلطان الأيوبي العادل أبو بكر بن أيوب وهو منشور محفوظ بمكتبة الدير برقم سجل (١١) السطور (١٤-٢٣) .

٢٩- أنظر في ذلك المنشور الفاطمي المحفوظ في مكتبة الدير والذي ينسب للخليفة الظافر بالله برقم سجل (٩) _ السطور من (٤-٨) .

٣٠- أنظر اللوحة المرفقة رقم (١)

وكذلك أنظر المنشور المحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (١٠٦) السطور (٢٥-٢٧) .

٣١- نفس المنشور السابق _ السطور من (١٩-٢٢) .

٣٢- أنظر في ذلك المنشور الذي ينسب للأمير خاير بك _ والمحفوظ في مكتبة الدير برقم سجل (٩١) _ في السطور من (٢١-٢٨) .

٣٣- في زيارتي الأخيرة وجدت ترحيب كبيرا من رهبان الدير للتعاون مع المؤسسات الثقافية في مصر والوطن العربي بغرض حماية مقتنيات الدير من مخطوطات ووثائق وأيقونات نادرة بترميم التالف منها وتصويره وفهرسته وإعداده للطلاب والباحثين .

لوحة رقم : (١)

جزء من النص الافتتاحي لمرسوم الأمير خاير بك

لرهبان دير سانت كاترين - رقم (١٠٥) بمكتبة الدير

لوحة رقم : (٢)
جزء من النص الختامي لمرسوم الأمير خاير بك رقم (١٠٦) بمكتبة دير سانت كاترين

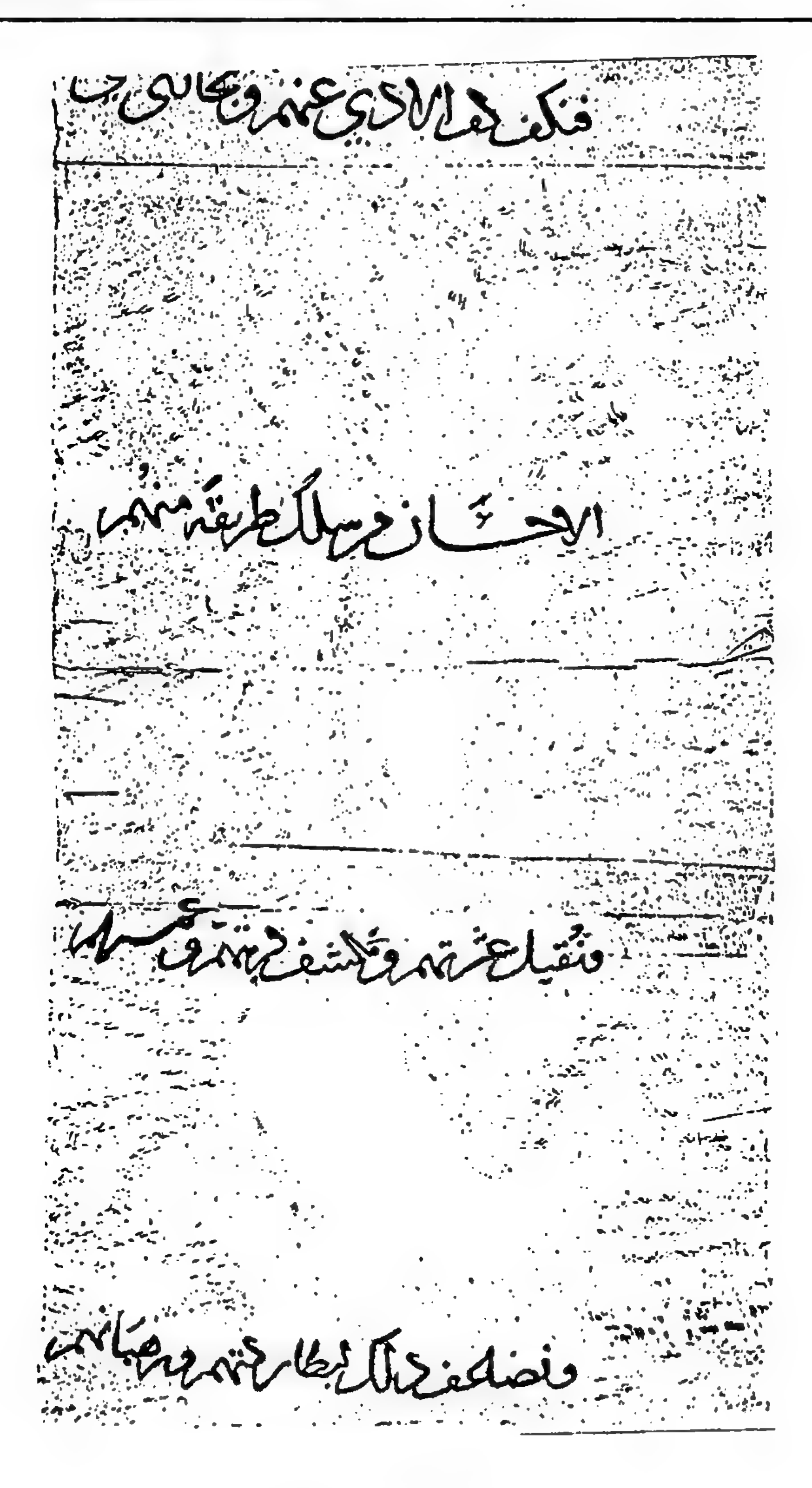


لوحة رقم : (٣)

مرسوم الأمير طومان باي لرهبان دير سانت كاترين

محفوظ في مكتبة الدير برقم (٨٤)

لوحة رقم : (٤)
النص الختامي لمرسوم الأمير طومان باي المحفوظ بمكتبة دير سانت كاترين برقم (٩٧)



فكف أيدي الأذى عنهم وتجافى عن

الإحسان وسلك طريقه منهم

لوحة رقم : (٥)

جزء من منشور السلطان الأيوبي الملك العادل أبو بكر بن أيوب
محفوظ في كتبة دير سانت كاترين برقم سجل (١١)

١٠- رسالة موسى بن كعب
إلى ملك النوبة

د.جاسر خليل أبو صَفِيَّة
الجامعة الأردنية

اكتشفت جمعيّة الاستكشاف المصريّة سنة ١٩٧٢م أربع لفائف برديّة في قصر إبريم جنوب أسوان. ثلاث برديّات منها باللّغة القبطيّة، والرّابعة وهي أكبرها حجماً باللّغة العربيّة. ويبلغ طولها ٢٦٤,٥سم وعرضها ٥٣,٥سم. وهي رسالة مكتوبة على ورق البرديّ مرسلة من موسى بن كعب، والي مصر في العصر العبّاسي (١٤١هـ/٧٥٨م) إلى ملك النّوبة(١).

وقد نشر بْلَمْلي (Plumley) سنة ١٩٧٥م ترجمة لهذه الرّسالة مع تعليقات طفيفة، ونشر صورة لجزء من الرّسالة، وأشار في مقالته إلى أنّ الدّكتور هِنْدز (Hinds) والأستاذ حمدي سكّوت قد نسخا الرّسالة لنشرها(٢).

وتمّ لهما ذلك سنة ١٩٨١م؛ إذ نشرا دراسة مختصرة للرّسالة في الكتاب التّذكاري المهدى إلى الدكتور إحسان عبّاس. ونشرا مع الدّراسة صورة البرديّة كاملة مع نصّها العربي وترجمته إلى الإنجليزيّة(٣).

مسوّغات إعادة نشر البَرْديّة :

١ - انصَبّت مقالة هِندز وسكّوت على دراسة عهد عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، ومَسّا رسالة موسى بن كعب إلى ملك النّوبة مسّاً رفيقاً؛ إذ اكتفيا بذكر بعض التّشابه بين رسالة موسى بن كعب وعهد عبد الله بن سعد، كما رواه المقريزيّ؛ وبعض التشابه مع رواية أحد الشّيوخ المتقدّمين، وتعليقات طفيفة على بعض المسائل في الرّسالة(٤).

٢ - عدم وجود دراسة باللغة العربيّة لهذه البرديّة حسب علمي، باستثناء ما أخبرني به الأخ الصّديق الأستاذ إبراهيم شبّوح، مدير مؤسّسة آل البيت في عَمّان، من أنّه أعدّ دراسة لهذه البرديّة لم تنشر، ولم أستطع الاطلاع عليها.

٣ - أغفلت المصادر العربيّة التّاريخيّة ذكر هذه الرّسالة المهمّة التي تلقي ضوءاً على مسألة مهمّة في العلاقات العربيّة المصريّة مع أهل النّوبة.

٤ - صلة هذه البرديّة بالعهد الذي عقده عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع النّوبة؛ إذ جاءت لتؤكده وتنفي ما دار حوله من شكوك الدّارسين المُحدَثين الغربيّين والعرب.

٥ - عدم تفسير مصطلح "البَقْط" تفسيراً يتّفق ودلالته في برديّة موسى بن كعب.

٦ - التّخليط في دلالة المصطلحات الفقهيّة المتّصلة بالعهود والمواثيق كالعهد والأمان والهدنة والموادعة والصّلح.

وعلى هذا كان لا بُدّ من إعادة نشر هذه البرديّة مدروسة ومحقّقة. ولا يفوتني هنا أن أسجّل للدكتور هندز والأستاذ سكّوت وبْلمْلي فضل السّبق في إظهار هذه البرديّة وتقديمها للباحثين. ولولا جهودهم هذه ما تسنّى لي أن أعرف عنها فضلاً عن دراستها، وكنت أتمنّى لو أنّني اطّلعت على دراسة الأستاذ شبّوح.

عَهْد عبد الله بن سعد :

لمّا كانت برديّة موسى بن كعب تشير إلى عهد سابق مع النّوبة، فلا بُدّ من البحث عن هذا العهد والوقوف على مضمونه ومناقشته مناقشة علميّة على ضوء منهج علماء الحديث في دراسة السَّند والمتن.

وترد أقدم إشارة إلى الصّدام مع النوبة في كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري (٢٧٩هـ) مسندة إلى أبي الخير، مرثد بن عبد الله اليَزنيّ (٩٠هـ)، نقلها عنه يزيد بن أبي حبيب (١٢٨هـ) قال : "لمّا فتح المسلمون مصر، بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهريّ... فدخلت خيولهم أرض النّوبة، كما تدخل صوائف الرّوم، فلقي المسلمون بالنّوبة قتالاً شديداً، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنّبل حتّى جُرح عامّتهم. فانصرفوا بجراحات كثيرة وحَدَق مَفْقوءَ ة، فسُمّوا رماة الحَدَق"(٥).

وتكرّر الصّدام سنة إحدى وثلاثين للهجرة في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ إذ قال يزيد بن أبي حبيب: "كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان على مصر في سنة إحدى وثلاثين فقاتلته النّوبة(٦).

وذكر ابن لهيعة أنّهم سُمّوا رماة الحَدَق في هذه الوقعة وليس كما ذكر البلاذري عن أبي الخير(٧).

وهنا تظهر أوّل إشارة إلى الصّلح بين المسلمين والنّوبة، ويُسْنِد ابن عبد الحكم الرّواية إلى يزيد بن أبي حبيب "وأنّ عبد الله صالحهم على هدنةٍ بينهم، على أنهم لا يغزونهم، ولا يغزوا النّوبةُ المسلمين، وأنّ النّوبة يؤدّون كلّ سنةٍ إلى المسلمين كذا وكذا رأساً من السَّبْي، وأنّ المسلمين يؤدّون إليهم من القمح كذا وكذا، ومن العَدَس كذا وكذا في كلّ سنة"(٨).

وفي رواية يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عند البلاذري أنّ الصّراع استمرّ بين المسلمين والنّوبة إلى أن وُلّي عبد الله بن سعد مصر فسأله النّوبة "الصُّلح والموادعة، فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلاثمئة رأس في كلّ سنة، وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعاماً بقدر ذلك"(٩).

والاضطراب واضح في هاتين الرّوايتين مع أنّ راويهما واحد؛ ففي الأولى صالحهم عبد الله على هُدْنة بينهم، وتوقف القتال، وتبادل الهدايا. والرّاوي هنا يجهل عدد السّبي الذي سيقدّمه النّوبة للمسلمين كما يجهل مقدار ما يؤدي المسلمون من الموادّ الغذائية إلى النّوبة، يتّضح ذلك في قوله: "كذا وكذا".

ومِمّا يبعث على الشّكّ في هذا الكلام قوله: "من القمح"؛ والمعروف أنّ لفظة القمح لم تكن مستخدمه في ذلك الوقت، وإنّما لفظة الطّعام التي تعني القمح(١٠).

وفي الرّواية الثانية عن يزيد أنّ النّوبة هم الذين سألوا عبد الله الصُّلحَ والموادعة، فأجابهم على غير جزية. وهو أمر مفهوم واضح. لكنّه قال: "على هُدْنةٍ ثلاثمئة رأس في كلّ سنة"؛ إذ لا تضاف لفظة هدنة إلى مقدار ما يدفع؛ لأنّ الهدنة تعني : الصّلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفّار، وبين كلّ متحاربَيْن. وربّما جُعلت للهدنة مدّة معلومة، فإذا انقضت المدّة عادوا إلى القتال(١١).

ولّما كان أهل النّوبة هم الذين طلبوا الصّلح والموادعة، فلا يُكلّف المسلمون دفع شيءٍ لهم كما جاء في الرّوايتين، على اختلاف ألفاظهما، وكما سيرد لاحقاً في روايات أخر ليزيد بن أبين حبيب ومَن روى عنه.

وقد أوضح الفقهاء هذه المسألة فنصّوا على أنّ العدو الذي يقاتله المسلمون إذا بَذَل "مالاً على الموادعة، فيجوز أن يقبله (أمير الجيش) منهم، ويوادعهم عليه. وهو على ضربين :

أحدهما : أن يبذلوه لوقتهم، ولا يجعلوه خراجاً مستمراً؛ فهذا المال غنيمة؛ لأنّه مأخوذ بإيجاف الخيل والرّكاب، فيقسم بين الغانمين، ويكون ذلك أماناً لهم في الانكفاف به عن قتلهم في هذا الجهاد، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد.

الضّرب الثاني: أن يبذلوه في كلّ عام، فيكون خراجاً مستمراً، ويَستقرّ به الأمان. والمأخوذ منهم في العام الأوّل غنيمة تقسم بين الغانمين، وما يؤخذ في الأعوام المستقبلة هو فيء يقسم في أهل الفيء.

ولا يجوز أن يعاد جهادهم ما كانوا مقيمين على بذل المال؛ لاستقرار الموادعة بالأمان على نفسه وماله" فإن منعوا المال زالت الموادعة، وارتفع الأمان، ولزم جهادهم، وهم كغيرهم من أهل الحرب.

فإن حمل أهل الحرب هديّة، ابتدأوا بها، لم يحصل لهم بالهديّة عهد، وجاز حربهم بعدها ؛ لأنّ العهد كناية عن عقد"(١٢).

وإن سأل أهل الحرب الأمان والمهادنة، فيجوز ذلك،، عند تعذّر الظّفر بهم، وعند أخذ المال منهم(١٣).

ولا تجوز المهادنة أكثر من عشر سنين(١٤).

وذكر ابن عبد الحكم قولاً آخر ليزيد بن أبي حبيب تناقله من جاء بعده، وهو قوله : "ليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، إنّما هي هدنة أمان بعضنا من بعض"(١٥).

ونقل هذا القول أبو عبيد في الأموال(١٦) من رواية ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال : "ليس بين أهل مصر والأساود عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة بيننا وبينهم، نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ، ويعطونا رقيقاً، ولا بأس أن نشتري رقيقهم منهم ومن غيرهم".

ومعروف عند أهل الحديث أنّ عبد الله بن لهيعة ضعيف الحديث، لا يُحتَجّ بحديثه، وكثرت المناكير في رواياته لتساهله، وكان لا يضبط روايته(١٧).

وقوله : "ليس بين أهل مصر والأساود عهد ولا ميثاق" ينقصه ما جاء في رسالة موسى بن كعب كما سيتّضح لاحقاً، ولا سيّما أنّ الهدنة تعني الصّلح والموادعة، أي هناك عهد مكتوب. ويؤيّد ذلك ما رواه اللّيث بن سعد عن وجود صلح بين المصريّين والنّوبة، على ما في روايته من خلل باشتراط إعطاء النوبة طعاماً؛ إذ لا حقّ لهم في ذلك كما أشير آنفاً، وكما سيتّضح من رسالة موسى بن كعب(١٨).

ومِمّا يُضَعّف روايات يزيد بن أبي حبيب أَنّها مرسلة؛ إذ توفي يزيد سنة (١٢٨هـ) ، وكُتِب عهد عبد الله بن سعد مع النّوبة سنة (٣١هـ)، وبينهما بون شاسع.

ويزيد في إضعافها وجود عبد الله بن صالح وعبد الله بن لهيعة وغيرهما من الضّعفاء في سلسلة السّند(١٩).

ويتّضح من رواياته أنّه يتحدّث عن شيء لا علم له به، وأنّه لم يطّلع على ما في ديوان الفسطاط من وثائق تَتّصل بالمسألة. والرّواية التّالية تبيّن عدم اطلاعه وأنّه غير مستوثق مِمّا يروي.

قال ابن عبد الحكم نقلاً عن يزيد من رواية ابن لهيعة قال: "وكان الذي صولح عليه النّوبة، كما ذكر بعض مشايخ أهل مصر، على ثلاثمئة رأس وستّين رأساً في كلّ سنة. ويقال: بل على أربعمئة رأس في كلّ سنة، منها لفيء المسلمين ثلاثمئة رأس وستون رأساً، ولوالي البلد أربعون رأساً، قال: "فزعم بعض المشايخ أنّ منها سبعة عشر مُرْضِعاً"(٢٠).

فلو كان الرّاوي على علم بالعهد المكتوب لما شكّ في العدد الذي يقدّمه النّوبة للمسلمين.

ثُمّ ذكر ابن عبد الحكم رواية متضمّنة بعض الشّروط في عهد عبد الله بن سعد، مَعْزُوّة إلى "بعض المشايخ المتقدّمين أنّه نظر في بعض الدّواوين بالفسطاط، وقرأه قبل أن ينخرق(٢١)، فإذا هو يحفظ منه: إنّا عاهَدْناكم وعاقَدْناكم أن توفونا في كلّ سنة ثلاثمئة رأس وستين رأساً. وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم. على أنّكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً، فقد بَرئت منكم الهُدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبداً، فقد برئت منكم الهدنة. وعليكم ردّ أُبّاق المسلمين وَمَن لجأ إليكم من أهل الذّمّة"(٢٢).

ومع أنّ هذه الرّواية عن شيخ مجهول، لا يُعْتَدُّ بروايته ولا بحفظه عند علماء الحديث، فإنّها أوّل إشارة إلى عهد مكتوب قرأه هذا الشّيخ في ديوان الفسطاط قبل أن يتخرّق العهد. وفي روايته هذه بعض الشّروط التي ذكرها المقريزيّ لعهد عبد الله بن سعد، وإن كانت بصياغة مختلفة؛ لأنّها من حفظ الشّيخ.

وقد تكرّرت آراء يزيد بن أبي حبيب في المصادر المعاصرة لابن عبد الحكم أو التي جاءت بعده، على تباين في ألفاظها(٢٣).

وانفرد المقريزيّ، من بين المصادر المتقدّمة والمتأخرة، بإيراد نصّ كامل لعهد عبد الله بن سعد مع النّوبة دون أن يذكر سنده.

قال(٢٤): "وكتب لهم كتاباً، نسخته بعد البسملة:

عَهْدٌ من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النّوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عَقده على الكبير والصّغير من النّوبة، من حدّ أرض أسوان إلى حدّ أرض عَلْوَة: أنَّ عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين مِمّن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذّمة.

إنكم، معاشر النّوبة، آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمّد النّبيّ، صلى الله عليه وسلّم، ألاّ نحاربكم، ولا نَنْصِب لكم حَرْباً، ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشّرائط التي بيننا وبينكم :

على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه.

وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه، من مسلم أو مُعَاهَد حتّى يخرج عنكم. وإنّ عليكم ردّ كلّ آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتّى تردّوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تَمْنَعوا منه، ولا تتعرّضوا لمسلم قصَده وحاوره إلى أن ينصرف عنه.

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفِناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصَلّياً، وعليكم كنسُه وإسراجه وتكرمته.

وعليكم في كلّ سنة ثلاثمئة وستّون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، ويكون فيها ذُكْرانٌ وإناث، ليس فيها شيخ هَرِم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحُلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

وليس على مسلم دفع عَدُوّ عَرَض لكم ، ولا مَنْعه عنكم، من حدّ أرض عَلْوَة إلى أرض أسوان.

فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مسلمًا أو معاهَداً، أو تعرّضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناءِ مدينتكم بهَدْم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمئة رأس والستّين رأساً، فقد برئتَ منكم هذه الهدنة والأمان، وَعُدْنا نحن وأنتم على سواء، حتّى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّتة وذمّة رسوله محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح وذمّة الحواريّين وذمّة من تعظّمونه من أهل دينكم وملّتِكم، الله الشّاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين".

ويُفْهَم من قول المقريزيّ: "نُسْخَتُه بعد البَسْمَلة" أنّه نقله من وثيقة مكتوبة، وتذكر رواية الشّيخ المتقدّم أنّه قرأ عهد عبد الله بن سعد قبل أن يتخرّق(٢٥). وهذا يوحي بوجود خرم في بعض مواضع الكتاب بفعل الأرَضَة، وهذا الشّيخ متقدّم على المقريزيّ، فهل نقل المقريزيّ عهد عبد الله بأمانة دون تحريف أو تغيير أو حذف؟ أم أنّه عمل على إتمام ما خُرِم من الكتاب؟

ليس من السّهل الإجابة عن هذين السُّؤالين. ولكنّ المقريزيّ يروي لنا في موضع آخر من كتابه "الخطط" أنّ الأمير عبد الله بن طاهر، الوالي العبّاسيّ على مصر سنة ٢١١هـ ، سأل جلساءه عن البَقْط، فأجابه عثمان بن صالح.

ثمّ روى المقريزيّ عن عثمان بن صالح قال: "فوجّه الأمير إلى الدّيوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النّوبة، فوجده كما ذكرت، فسَرَّه ذلك"(٢٦).

ويدلّ هذا الخبر على وجود نصّ مكتوب نَقَله المقريزي بنصّه أو بشيء يسير من التّغيير الذي لا يفسد المضمون، ولا سيّما إذا كان في الكتاب تخريق.

وقد وقف الباحثون المحدثون مواقف متباينة من نصّ المقريزي؛ فمنهم من شكّك فيه ومنهم من قبله، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً من النّصّ.

وفيها يلي عرض لمواقف الباحثين من نصّ المقريزيّ :

(أ) الذين شكّكوا في النّصّ :

رفض هولت (Holt) قبول النّصّ، وعدّه من باب الأساطير، وأنّ الغرض منه إثبات العلاقات بين المسلمين والنّوبة في حقبة مبكّرة، مع أنّها من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلاديّ(٢٧).

ويرى بْرِت (Brett) أنَّ نصّ المقريزيّ من اختراع الفقهاء، وأنّه خرافيّ(٢٨).

وذهب يوسف فضل حسن إلى القول إنّ نصّ المقريزي امتداد لما أشار إليه يزيد بن أبي حبيب من تبادل تجاريّ بين النوبة والمسلمين. وعليه فهو يَشُكّ في صحّة نصّ المقريزيّ، مُتّكئًا في شكّه على أنّ عبد الله بن سعد لم يحَقّق انتصاراً حاسماً على النّوبة؛ لأنّه كان يقاتل عدوًا كُفُؤاً له، فلم يكن هناك قهر ولا تغلّب، إنّما هي هدنة كما قال يزيد بن أبي حبيب(٢٩).

ومِمّا يُشكّك في نصّ المقريزيّ، عند يوسف فضل حسن، الإشارة إلى المسجد في دُنقلة. وهو يفهم من هذا أنّ العلاقات بين الطّرفين كانت مستقرّة، وهو أمر مستحيل في ذلك الوقت المبكّر؛ لأنّ بناء المسجد يقتضي وجود مجتمع مسلم، وهو أمر يصعب قبوله(٣٠).

ويَحْتَجّ لذلك بأنّ ابن سليم الأُسوانيّ زارَ مدينة دنقلة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، ولم يشر إلى أيّ مسجد هناك، وذكر أنّ ستين مسلماً توجهوا خارج مدينة دنقلة لأداء صلاة عيد الأضحى، ممّا أغضب بعض النّوبيّين فأرادوا إيذاء المسلمين لولا تدخل ملك النّوبة(٣١).

وذكر يوسف فضل أنّ الإشارة الأولى إلى المسجد جاءت سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، عندما حوّلت الكاتدرائيّة إلى مسجد(٣٢). ويخلص إلى القول إنّ هذه المعاهدة بين النّوبة والمسلمين تصف العلاقة بينهما بعد القرن الثّالث الهجريّ/التّاسع الميلادي، وليس قبل ذلك(٣٣).

ويُرَدّ على مزاعم يوسف فضل من وجوه :

الأوّل : أنّ عبد الله بن سعد قد حقّق انتصاراً حاسمًا على النّوبة كما تبيّن من الرّوايات التّاريخيّة، وأنّهم هم الذين طلبوا الصّلح والموادعة، ولا يكون ذلك إلاّ إذا قُهِروا وغُلِبوا(٣٤).

ورسالة موسى بن كعب إلى ملك النّوبة خير دليل على تحقيق النّصر الحاسم كما سيتّضح لاحقاً.

الثّاني: مسجد دنقلة: تضمّن عهد عبد الله بن سعد أن يحفظ النّوبة من ينزل ببلدهم من المسلمين أو المعاهدين، تجاراً وغير تجّار. ووجود المسلمين في بلاد النّوبة يقتضي وجود مسجد لأداء الصّلاة. وبناء مسجد آنذاك لا يُفهم منه ما يفهم من المسجد المتعارف اليوم من عمارة وزينة، إنّما هو مجرّد موضع للصّلاة. وبناء المسجد تَمّ بِفناءِ مدينة دُنْقلة وليس في داخلها: "وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم...".

وفناء الدّار: سَعَة أمامَها(٣٥). أي ليس داخلها. وقد فَهِم ابن حزم هذه الدّلالة فقال: "وبنى على باب مدينة مُلْكِهم مسجداً، وشرط عليهم حفظه أبداً..."(٣٦).

أمّا احتجاجه بابن سليم الأسواني فلا وجه له؛ لأنّ ما ذكره الأسواني من إقامة صلاة عيد الأضحى بظاهر مدينة دنقلة، لا يدلّ على عدم وجود مسجد. والرّواية الدّقيقة لما قاله ابن سليم تختلف عَمّا ذكره يوسف فضل.

قال المقريزيّ عن ابن سليم: "وصَنّف كتاب "أخبار النّوبة والمُقُرَّة وعَلْوَة والبُجةَ والنّيل ومَنْ عليه ومَن قربَ منه"... وذكر فيه أنّه حصل عيد الأضحى وهو عند ملك النّوبة، فخرجَ إلى ظاهر المدينة في نحو ستّين من المسلمين، ونشر بَنْدَيْن عليهما اسم المعزّ لدين الله، وضَرب الطّبْل والبُوق، وصلّى بالجماعة صلاة العيد. فأحبّ أولياء الملك من صاحبهم الإنكار عليه، فأبى عليهم وقال: هذا رجل فارق أهله ووطنه، وهو يوم سرور، يريد أن يتجمّل بفعله هذا، فلا أبخل عليه به"(٣٧).

ثمّ إنّ السُّنّة في صلاة العيدين أن يصليها المسلمون في ظاهر المدينة وليس في المسجد إلاّ إذا كان مطر. ويطلق على المكان الذي يصلّى فيه العيد "مُصلّى" تمييزاً له عن المسجد(٣٨).

وأمّا قوله إنّ أوّل إشارة كانت إلى المسجد عندما حُوّلت كاتدرائيّة دنقلة إلى مسجد، فرَدّ عليه سكّوت وهِنْدز وذكرا أنّه يُشَكّ في أن تكون هذه البناية كاتدرائية(٣٩).

وشَكّ سكُّوت وهندز في نصّ المقريزيّ وأنكرا أن يكون هو نفسه اتّفاقيّة ابن أبي سرح معتمدين على الأسس التالية:(٤٠)

١- أسلوب العهد؛ إذ يَريَان أنّ نصّ المقريزي صيغ بأسلوب فيه براعة وإحكام ممّا لا يتناسب وأسلوب ذلك العهد المبكر(٤١).

ويكفي لإسقاط هذه الحجّة أن تُقرَأ النّصوص المختلفة اتي حُفِظَت لنا من الحقبة الإسلاميّة المبكرّة، ولا سيّما البرديّات العربيّة، التي صيغت بأسلوب عربيّ رصين. وليست رسالة موسى بن كعب، المؤرّخة في ١٤١هـ ببعيدة العهد عن وثيقة ابن أبي سرح، ومعروف أنّ الأسلوب لا يتغيّر بين ليلة وضحاها، وإنّما يحتاج إلى سنوات طويلة حتّى يبدأ في التّغيّر.

٢- مصطلح "إمام المسلمين":

يرى سكّوت وهندز أنّ هذا المصطلح لا يمتّ إلى حقبة عبد الله بن سعد بصلة، وأنّه مصطلح فاطميّ(٤٢). وهذا خلط عجيب في فَهم المصطلح؛ لأنّ لفظة "إمام" ليست وَقْفاً على الفاطميين، إلاّ إذا جاءت في سياق يدلّ على مذهب الأئمّة عند الشّيعة. وليس في النّصّ ما يُشْعِر بذلك.

فالإمام : كلُّ مَن ائْتَمَّ به قومٌ، كانوا على الصّراط المستقيم أو كانوا ضالّين. أو هو: ما ائْتُمَّ به من رئيس وغيره(٤٣).

ومصداق ذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُم أئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النّار) - (القصص: ٤١) وقوله: (وجَعَلْنا مِنْهم أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لمّا صَبَرُوا) (السّجدة: ٤٢).

ولفظة "الإمامة" تدلّ على الخلافة سواء أكانت سنّيّة أم شيعيّة. قال الماورديّ "الإمامة موضوعة لخلافة النّبوّة في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا"(٤٤).

ويؤيّد ذلك قول الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم: "الأئِمّة من قريش"(٤٥).

وعليه فلا حجّة للشَّكّ في عهد عبد الله بن سعد لوجود عبارة "إمام المسلمين" فيه.

٣- ذكرا المسجد في نصّ المقريزيّ، واعتمدا في ذلك على ما قاله يوسف فضل حسن، وقد تبيّن بطلان ما قال:

ومع أنّ حمدي سكّوت ومارتن هندز شكّكا في نصّ المقريزيّ، فقد خَلُصا إلى ذكر التشابه بين عهد عبد الله بن سعد ورسالة موسى بن كعب حسب رواية

الشّيخ المتقدّم التي رواها ابن عبد الحكم مع وجود بعض الفروق بين رسالة موسى ورواية الشّيخ المتقدّم(٤٦).

وعرض سكّوت وهندز لعهد عبيد الله بن الحَبْحَاب مع البُجَة، وذهبا إلى القول إنّ عبيد الله بن الحَبْحَاب أجرى تعديلاً على عهد عبد الله(٤٧)، وهو أمر يحتاج إلى دليل لم يقدّماه؛ لأنّ عهد عبد الله بن سعد مع النّوبة وعهد عبيد الله مع البُجَة، وهما عهدان مختلفان كما جاء في النّصوص الفقهيّة(٤٨).

(ب) الذين لم يشكوا في نصّ المقريزيّ:

يقول بيكر (Becker) إنّ التّشكيك في صحة نصّ المقريزيّ أمر صعب، ويرى أنّه صحيح وأصيل، ويعدّ وثيقة تاريخيّة(٤٩).

ودرس تْرمِنْغَام (Trimingham) نصّ المقريزيّ ولم يُشَكّك في صحّته(٥٠). وكذلك فعل مَجِيد خَدّوريّ(٥١)، وفيرسيرفس (٥٢) (Fairservis).

وقال بْلمْلي (Plamley) في مقدّمته لترجمة برديّة موسى بن كعب: "ما شُكّك فيه على أنّه اختراع من المؤرّخين أصبح الآن حقيقة"(٥٣).

ووقف فوراند (Forand) موقفاً متحفّظاً من نصّ المقريزيّ، فقال: "ويمكننا أن نتحقّق من صحّة النّصّ، ومع ذلك فنصوص العهد موجودة مفرّقة في مصادر أخرى"(٥٤).

ثمّ يشير إلى أنّ مسألتين في نصّ المقريزيّ قد تكونان مُلَفّقَتَيْن من مصادر أخرى، مع أنّه كتب النّصّ بصورة توحي بأنّه قرأ النّصّ الأصليّ للوثيقة، أو نسخة منها(٥٥).

ويذكر أنّ النّصّ الأصليّ قد ضاع في حريق الفسطاط، ولكن هناك دليل على أنّ نسخة منه قد تكون موجودة في سنة ٢١١هـ/٨٢٦م(٥٦). وهي الرّواية التي ذكرها المقريزي في عهد الأمير عبد الله بن طاهر كما تقدّم.

رسالة موسى بن كعب إلى ملك النوبة:

أُثْبِتُ فيما يلي نصّ رسالة موسى بن كعب إلى ملك النّوبة(٥٧)، ثمّ أعقّب بدراسة المسائل المهمّة فيها التي تؤكّد صحّة نصّ المقريزيّ.

١ - بسم الله الرحمن الرّحيم

٢ - من موسى بن كعب إلى...... صاحب مُقُرّ(ة) ونوبة. سلم على

٣ - أوليا الله وأهل طاعته... وأحمد إليهم الله ا

٤ - لذي لا إله إلاّ هو

٥ - أمّا بعد، فقد عَرَفْتَ الذي صُولحتُم عليه، والذي جَعَلْتُم على
٦ - أنْفُسِكم من الوَفا به، فأحْرَزْتم بذلك دماكم وأموالكم إن
٧ - أنتم وَفَيْتُم. والله تبارك وتعالى يقول في كِتابه[أَوْفُوا
٨ - بعَهْدِ اللّه إذا عَهَدْتُم، ولا تَنْقُضُوا الأيمانَ بَعْدَ
٩ - تَوْكيدِها، وقَدْ جَعَلْتُم الله عليكُم كفيلا، إنّ اللّهَ
١٠ - يَعْلمُ ما تَفْعلون]- وقال: [أَوْفوا بعهدي أوفِ بعَهْدِكم،
١١ - وإيّايَ فارْهَبون]- وقد وَفَيْنا لكم بالذي جَعَلنا لكم علينا من ا
١٢ - لكفّ عن دمائكم وأموالكم. وعَرَفْتَ أمنكم في بلادنا
١٣ - وسكونكم حيث أحببتم منها، واختلافَ تُجّاركم إلينا، لا يَصِل
١٤ - إليهم منّا ظلمٌ ولا غَشْمٌ، ولا يُعْتَدى على أحدٍ مِمّن قِبَلنا منكم
١٥ - ولا يُمنَع من حقه، ولا يُحَال بين تجّاركم وبين ما أرادوا آمنين
١٦ - مُطْمَانين حيث سلكوا من بلادنا، وفاً بعهدنا، وصدقاً لقولنا
١٧ - وإيماناً بِرَبّنا، وتَصديقاً لِنَبيّنا.
١٨ - وأنتم، فيما بيننا وبينكم على غير ذلك، لا تُودّون إلينا
١٩ - ما عليكم من البَقط الذي صولحتم عليه، ولا تَرُدّون من أبَق
٢٠ - إليكم من أرِقّاينا، ولا يأمن فيكم تُجاّرنا، ولا تعَجّلون تسريح
٢١ - رُسُلنا إلينا. وأنْتَ تعرف أنّ أهل الأديان كلّها
٢٢ - والمِلَل الذين لا يعرفون رَبّا، ولا يُؤْمنون ببَعْث، ولا يرجون ثواباً،
٢٣ - ولا يخافون عقاباً، لا يَهيجون تاجراً، ولا يَحْبسون رسولاً.
٢٤ - أنت تُظهر لأهل مِلّتك الإيمان بالذي خلقَ
٢٥ - السّموت والأرض وما بينهما، وتؤمن بعيسى بن مريم وبكتابه،
٢٦ - وتُظهرُ العَدْل لهم، والعَمل بالحقّ. وعَمَلكم فيما بيننا
٢٧ - وبَيْنكم مخالف لما تُظْهر؛ فقد أتاكم تاجر من تجّار أهل
٢٨ - بلدنا، يُقال له سعد، قد ذهبَ بأموال كثيرة رايغاً

٢٩ – بها من أهلها، فحَبَسْتموه قِبَلكم، وحُلتُم بينه وبين من يطلبه بحقّ،

٣٠ – ومَنَعْتُموه منه. وبَعَث إليكم رَجُلٌ من أهل أُسوان، يقال له

٣١ – محمّد بن زيد، تاجراً له في تجارته، وطَلَب حقوقٍ له فا

٣٢ – حْتَبَستموه وما كان معه من المال. فكتب إليّ عاملي

٣٣ – على أُسوان يذكر أنّه كتب إلى خليفتك

٣٤ –فيه، فكتب إليه خليفتك يَسَلْه أن يبعث إليه محمّد

٣٥ – بن زيد، صاحب ذلك التّاجر، ليَسْتَخْلِفَه على ما كان معه من

٣٦ – المال، فبَعثه إليه في رَهطٍ مِن المسلمين، فضربه ضرباً

٣٧ – سيّئاً، وكسر يدَه، وحبَسه ثلث ليالٍ عنده حتّى ظنّ أنّه قاتله

٣٨ – ثمّ خَلّى سبيله، فدعاه سلم بن سليمان، عاملي على أُسوان، بالبيّنة

٣٩ – على وصولِ تاجره إليكم، وعلى ما صَنَع به خليفتك

٤٠ – فأتاه برَهْطٍ من المسلمين عدول، من سُكّان أُسوان فشهدوا

٤١ – له بما ذكر من أمره وأمْرِ تاجره. فكتبَ إليّ بذلك كلّه

٤٢ – وبَعَث إليّ محمّد بن زيد، صاحب ذلك التّاجر، فوافى

٤٣ – قدوم بَطْره، رسولك إلينا، فجَمَعْتُ بينهما، ومع بطره

٤٤ – رَهْطٌ من أهل مِلّتك. فذكروا أنّهم

٤٥ – ظنّوا حين أخذوه أنّه كانَ مِمّن يُغيرُ عليهم من البُجَه.

٤٦ – فأمرْتُ غَوْث بن سليمن، قاضي أهل مصر، أن ينظر في أمرهم.

٤٧ – ثمّ تحَمّلْتُم على مثلِ ما تحمّل عليه النّاس من الحقّ والعَدْل

٤٨ – فقضى على بطره، أن يُرَدَّ ذلك التّاجرُ وما كان معه من

٤٩ – المال، إن كان حيًا، وإن كان قد قُتِل فعليكم دِيَتُه

٥٠ – ألْف دينر

٥١ – وبعث إليكم سَلْم رسولاً له منذ تسعة أشهر، ورسولاً منذ أربعة

٥٢ – أشهر، فحبَسْتموهم مَعَمَا عندكم من أرقاّ أهل الإسلم

٥٣ - وأهل ذمّتنا، ومَا عليكم من البَقْط، فإنه قد ذكر

٥٤ - لي أنّ عليكم بَقْطَ سنين، لم تُودّوه. وما بَعَثْتُم به من البَقْط

٥٥ -بعثتم بما لا خيرَ فيه. بين أعور أو أعرج أو كبير ضعيف

٥٦ -أو صبيّ صغير

٥٧ - فانظر فيما كتبتُ إليك به، وعَجّل

٥٨ - البعثة إلينا بما بقى عليكم من البَقْط لِلسّنين التي

٥٩ - قِبَلكم. ولا تَبْعث بما لا خيرَ فيه، فلا نقبله. وابعث

٦٠ - إلينا بتاجر محمّد بن زيد، وبما كان معه من المال، إلاّ أن

٦١ - يكون قد قتل، فتَبْعث بألف دينر دِيَته وبما كان معه

٦٢ - من مال، وابْعث إلينا بِسعد التّاجر الذي قِبَلكم،ولا توَخّر

٦٣ - من ذلك شيًا، إن كنتم تحبّون أن نفي لكم بعهدنا،

٦٤ - ونكون على ما كنّا عليه من الاستقامة لكم. وعجّل

٦٥ - ذلك ولا تُوَخّره، وإن أنتَ لم تمتَثِل، رأيتُ فيما

٦٦ - بيني وبينكم راي، إن شا اللّه، فإنّي أحببتُ أن أُعْذِرَ

٦٧ - إليكم، وأتّخذ الحجّة عليكم. والسّلام على أوليا

٦٨ - اللّه وأهل طاعته. وكتب ميمون يوم الأحد

٦٩ - لإحدى عشرة ليلةً بقيت من رجب سنة إحدى وأربعين وماية.

مناقشة الرسالة:

اتّبعتُ في مناقشة الرّسالة المنهج المتّبع في دراسة البرديّات، وهو أن يناقش المضمون سطراً سطراً.

٢- موسى بن كعب:

هو موسى بن كعب بن عُيَيْنَة بن عائشة بن عمرو بن سَريّ بن عايذة بن الحارث بن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم بن مرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار، أبو عُيَيْنة التّميمي، أحد نقباء بني العبّاس الذين اختارهم محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس من أهل خراسان(٥٨).

حَدّث عن أبيه، وحدّث عنه سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلّي، ومن مروياته قول الرّسول، صلّى الله عليه وسلم: "الحرب خُدعة"(٥٩).

وانفرد ابن عساكر بالقول إنّه كان قائد غزوة بحريّة لم يذكر في أيّ سنة كانت(٦٠).

وقد خلّط فيه الطّبري وبعض من تابعه على روايته، تخليطاً عجيباً، فبعد أن ذكر عزله عن مصر سنة ١٤١هـ، وأنّه مات في تلك السّنة، نراه حياً في سنة ١٥٨هـ، ويبدو أنّ الأمر اختلط على الطبري ومن تابعه فجعلوا موسى اثنين(٦١).

يبدأ موسى بن كعب بالظّهور على مسرح الأحداث سنة ١٢٩هـ، عندما افتتح "أبيوَرْد" بتوجيه من أبي مسلم، الدّاعية العبّاسي(٦٢). وفي سنة ١٣٠هـ تمّ اختياره من بين النقباء الاثني عشر، وأنّه افتتح "أبيوَرْد" سنة ١٣٠ وليس ١٢٩، وكتب بذلك إلى أبي مسلم(٦٣). وفي هذه السّنة صُرف موسى من "أبيورد" إلى أبي مسلم، فأرسله إلى جُرجان(٦٤).

وشخص سنة ١٣٢هـ للقاء أبي العبّاس السّفّاح، فوجهه أبو العبّاس في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبد الله بن علي، أحد قادة العبّاسيين، لمحاربة مروان ابن محمّد، آخر خلفاء بني أميّة، وكان موسى يشير على عبد الله بن عليّ في الأمور العسكريّة، واشترك في قتال مروان بن محمّد في وقعة "الزّاب"(٦٥).

وفي سنة ١٣٤هـ أيضاً كان بحَرّان في ثلاثة آلاف من الجند، فحاصره اسحق بن مسلم، القائد الأمويّ، وأخرجه من حرّان، فذهب لملاقاة أبي العبّاس السفّاح(٦٦).

وفي سنة ١٣٤هـ تدخل موسى بن كعب في شفاعة لدى أبي العبّاس(٦٧). وفي هذه السّنة وجّهه أبو العبّاس إلى الهند لقتال منصور بن جهور فانتصر عليه، واستخلف مكانه على شرطة أبي العبّاس المسيّب بن زهير(٦٨).

وذكر الطّبريّ أنّ موسى بن كعب كان على السّند سنة ١٣٤هـ(٦٩). وتوقّف الطّبري بعد سنة ١٣٤هـ عن ذكر موسى بن كعب إلى أن جاءت سنة ١٤١هـ فقال: "فيها توفي موسى بن كعب، وهو على شُرَط المنصور وعلى مصر والهند، وخليفته على الهند ابنه عُيَيْنَة"(٧٠). ثمّ قال: "وفيها عزل موسى بن كعب عن مصر، ووليها محمّد بن الأشعث"(٧١).

وبعد أن مات موسى بن كعب عند الطبري وغيره، نراه قد بُعث حيًّا سنة ١٥٥هـ ليستعمله المنصور على حرب الجَزيرة وخراجها(٧٢).

وفي سنة ١٥٨هـ وجّه المنصور ابنه المهدي إلى الرَّقَّة وأمره أن يعزل موسى بن كعب عن الموصل ويولّي خالد بن برمك عليها(٧٣).

وفي رواية: أنَّ المنصور غضب على موسى بن كعب، وكان عامله على الجزيرة والموصل، وأمر بتقييده(٧٤).

وهذه الرّواية تناقض ما ذكره ابن عساكر من تعظيم المنصور لموسى، قال: "وَلي إمرة مصر مِن قِبَل أبي جعفر المنصور سبعة أشهر، وصرف في ذي القعدة سنة إِحدى وأربعين ومئة، وكان المنصور حسن الرأي فيه، مُعَظّماً لِقَدْره"(٧٥).

ويؤكّد الكندي ذلك فيقول: "وذكر أشياخ مصر أنّ أبا جعفر كتب إلى موسى ابن كعب حين عزله: إنّي عزلتك عن غير سُخط، ولكن بلغني أنّ عاملاً يقتل بمصر يقال له موسى، وكرهت أن تكون هو"(٧٦). وعلى ما في هذه الرّواية من تهافت وإيمان بأقوال العرّافين، وهو ممّا لا يفعله المنصور، ففيها دلالة على تعظيم المنصور لموسى.

ومن ذلك أنّ أبا جعفر كتب إلى موسى بن كعب وهو على السّند: "أنِ استخلفْ ابنكَ عُيَيْنَة واقدم، وقد أمرت لك بخمسمئة ألف درهم فاقبضها"(٧٧).

وذكر الطّبري في أحداث سنة ١٥٨هـ أنّ موسى بن كعب كان على شُرَط المنصور ببغداد لمّا مات المنصور(٧٨). وتابعه على ذلك ابن الجوزي في "المنتظم" بعد أن ذكر أنّه مات سنة ١٤١هـ(٧٩).

ومن أخبار موسى بن كعب التي لم يذكرها الطبري أنّ أبا العبّاس السّفّاح أجلس موسى بن كعب لأخذ البيعة له على النّاس(٨٠). وفي رواية ابن عساكر أنّ موسى بن كعب هو الذي تولّى إخراج أبي العبّاس وإجلاسه، وهو أوّل من بايعه(٨١).

وفي "النّجوم الزّاهرة" أنّه أوّل من بايع أبا العبّاس السّفّاح بالخلافة في مبدأ أمره، وأخرجه إلى الناس، وكان هو القائم بأمر بني العبّاس مع أبي مسلم الخراساني(٨٢).

ومن أخباره: أنّه نهى الجند أن يتوجّهوا إليه أو يتكلّموا معه إلاّ في أمر مُهِمّ، وألا يفعلوا به كما كانوا يفعلون بالأمراء من قبْله(٨٣).

وفي "النّجوم": "ولمّا صُرِف موسى بن كعب عن إمرة مصر، استخلف على الجند خالد بن حبيب، وعلى الخراج نَوْفل بن الفرات. وخرج موسى من مصر لستّ بقين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ومئة، وكانت ولايته على مصر سبعة أشهر وأيّاماً. ولمّا خرج من مصر سار حتّى قدم على الخليفة أبي جعفر المنصور، فأكرم الخليفة نُزُله وولاّه على الشّرطة ثانياً، ومات بعد مدّة يسيرة. وقيل: إنّه توجّه مريضاً فمات في أثناء قدومه، ولم يَلِ الشّرطة ولا غيرها. وعلى القولين فإنّه مات في هذه السّنة رحمه الله تعالى"(٨٤).

ومع هذا التّناقض والاضطراب في أخبار موسى بن كعب، فلم يذكر أحد من المؤرّخين المسلمين أنّه أرسل رسالة تحذير إلى ملك النّوبة، ممّا يدلّ على أنّ مؤرّخينا لا يستقون أخبارهم من مصادر مدوّنة موثوقة، وإنّما من روايات شفويّة تكون مضطربة في كثير من الأحيان. ومن هنا يأتي دور الوثائق البرديّة في كشف الزّيف والتّحريف في كثير من الرّوايات الشّفويّة، وأنّ الوثائق البرديّة أهمّ مصدر في إعادة كتابة التّاريخ الإسلاميّ(٨٥).

٢- صاحب مُقرّة ونوبة:

ذكر بُلَمْلي (Plumley) أنّ التّلف الذي أصاب البرديّة ذهب باسم ملك النّوبة، الذي وُجّهت الرّسالة إليه. وأحال إلى كتاب "تاريخ الكنائس" لأبي صالح الأرمنيّ، الذي نقل بدوره عن ياقوت الحمويّ فيما يتّصل بلقب الملك(٨٦).

قال ياقوت: "ولقب ملكهم كابيل، وكتابته إلى عُمّاله وغيرهم: مِن كابيل، ملك مُقُرَّى ونوبة"(٨٧).

ويرى سكُّوت وهِنْدز أنّ هذا الملك هو قِرياقوس (Cyriacus) حسب التّاريخ المذكور في البرديّة(٨٨). وألحق د.مصطفى محمد مسعد بكتابه "الإسلام والنّوبة في العصور الوسطى" ثبتاً بأسماء ملوك النّوبة الشّمالية (مُقُرّة) في المدّة بين ٧٤٤م-٨٦٨م، كان من بينهم قيرياقوص(٨٩).

٢ - ٤ صيغة السّلام والتّحميد:

تختلف صيغة السّلام والتّحميد في هذه الرّسالة عمّا كانت عليه في صدر الإسلام والدّولة الأمويّة وأوّل الدّولة العبّاسيّة؛ إذ كانت صيغة السّلام إلى غير المسلم: "سلامٌ على من اتّبع الهدى"، والتّحميد: "فإنّي أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو"(٩٠).

٥ - أسقط سكّوت وهِنْدز حرف الفاء من "فَقَد"، ومعروف أنّ الفاء تقع في جواب "أما بعد"، وهي موجودة في النّصّ الأصليّ.

٥ - ٧ تتضمّن الأسطر الثلاثة مسألة مهمّة تنقض أقوال من زعم أنّ عبد الله بن سعد لم يحقّق نصراً حاسماً على النّوبة. كما يؤكّد مضمون هذه الأسطر أنّ الأمر لم يكن مجرّد هدنة بالمعنى الذي أشار إليه يزيد بن أبي حبيب واتّكأ عليه يوسف فضل حسن، وإنّما هي صلح كما أشير إلى ذلك عند الحديث عن رواية اللّيث بن سعد.

ومثل ذلك مصطلح "الموادعة"؛ لأنّها شبه المصالحة والتّصالح. يقال: أعطيته وديعاً، أي عهداً[٩١]. وفي الحديث أنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، "وادع بني فلان"، أي صالحهم وسالمهم على ترك الحرب والأذى. وحقيقة الموادعة: المتاركة، أي يدع كلّ واحد منهما ما هو فيه[٩٢].

فقول موسى بن كعب لملك النّوبة: "فقد عرفتَ الذي صولحتم عليه، والذي جعلتم على أنفسكم من الوفاء به" يدلّ على أنّهم تعهدوا بالوفاء لما صولحوا عليه، وهو مذكور في عهد عبد الله بن سعد.

ويقابل ذلك عند المسلمين أن يكفّوا عن قتلهم وأخذ أموالهم: "فأحرزتم بذلك دماءكم وأموالكم إن أنتم وفيتم". وهي عبارة تدلّ دلالة قاطعة على أنّ المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد قد حقّقوا نصراً حاسماً على النّوبة، ويؤكّد ذلك ما ذكر آنفاً من أنّهم هم الذين طلبوا الصّلح من عبد الله بن سعد.

كما يؤكّد ذلك قوله في سطري (١١ و ١٢) من رسالة موسى بن كعب وهو قوله: "وقد وَفَيْنا لكم بالذي جعلنا لكم علينا من الكفّ عن دمائكم وأموالكم".

٧-١١ الآية الأولى من سورة النّحل: (٩١).

والآية الثانية من سورة البقرة: (٤٠).

ففي هاتين الآيتين تذكير لملك النّوبة بأن يفي بالعهد الذي كُتب عليهم.

١٢-١٦ يُذكّر موسى بن كعب ملك النّوبة بنصوص العهد المكتوب بينهم وبين المسلمين، وأنّ المسلمين وفوا بعهدهم، وهو تحقيق الأمن لِتجّار النّوبة وغير التّجّار في بلاد المسلمين.

١٣- استدلّ سكّوت وهِنْدز من قول موسى بن كعب: "وسكونكم" على تناقض بين ما جاء في نصّ المقريزي وما جاء في رسالة موسى؛ إذ قال المقريزي: "مجتازين غير مقيمين".

وحقيقة الأمر أنّ عبارة "سكونكم" في رسالة موسى، لا يُفهم منها ما ذهب إليه سكّوت وهِندز من معنى الإقامة؛ وإنّما تدلّ على الطّمأنينة والأمن في بلاد المسلمين. يؤكّد ذلك قول موسى في سطر (١٦): "مطمأنّين حيث سلكوا". وهو مأخوذ من قوله تعالى: (هُوَ الذي جَعَلَ لكم اللّيلَ لتسكنوا فيه والنّهارَ مُبْصِرا)، ﷺيونس:٦٧رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أي الهدوء عن الاضطراب(٩٣).

ومثله قوله تعالى: [ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لكُم مِنْ أَنْفُسِكم أزواجاً لِتَسْكُنُوا إليها]]الرّوم:٢١رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وبذلك يبطل التّناقض بين نصّ المقريزي ورسالة موسى.

١٨- إشارة إلى عدم التزام النّوبة بشروط العهد الذي كتبه عليهم عبد الله بن سعد، من ذلك:

١٩-• عدم تأدية البَقط المستحقّ عليهم من سنين.
• عدم الالتزام بردّ مَن أَبَق من أرقّاء المسلمين.
• عدم توفير الأمن لتُجّار المسلمين، وسلب أموالهم.
• عدم التّعجيل بتسريح رُسل المسلمين.

■ **البَقـــط:**

وردت هذه اللّفظة عدّة مرّات في الرّسالة، منها:

س ١٩: " لا تُؤدّون إلينا ما عليكم من البَقْط".

س ٥٣ : " وما عليكم من البَقْط".

س ٥٤ : " فإنّه قد ذُكِر لي أنّ عليكم بَقْطَ سنين".

: "وما بعثتم به من البَقْط بعثتم بما لا خير فيه بين أعور أو أعرج أو كبير ضعيف أو صبيّ صغير".

س ٥٨ : "عجّل البعثة إلينا بما بقي عليكم من البَقط للسّنين التي قِبَلكم".

اختلف الباحثون في بيان دلالة هذه اللّفظة وأصل اشتقاقها؛ واعتمد جُلّهم

على ما قاله كايتاني أوبيكر؛ فَسَكّوت وهِنْدز مثلاً نقلا رأي كايتاني، وخلاصته أنّ هذه اللّفظة سواء أكانت مشتقة من اليونانيّة (pakton) أو من اللاّتينيّة (pactum)، أو من المصريّة (bak)، فإنّها تدلّ على ضريبة بعينها(٩٤).

أمّا بيكر فقال: "البَقْط: هي الضّريبة التي كانت تدفعها بلاد النّوبة. وربّما كانت كلمة مصريّة قديمة معناها عبد، ظهرت في المصنّفات العربيّة اصطلاحاً على الضريبة التي كانت تدفعها النّوبة النّصرانيّة إلى عامل مصر من قِبَل الخلفاء بمقتضى معاهدة رمضان عام ٣١هـ (أبريل _ مايو عام ٦٥٢م)"(٩٥).

ثمّ قال تحت مادّة "مصر": "ويمكن أن يُضاف هنا أنّ اللّفظة قد تكون مشتقّة من اللاّتينيّة "(pactum)(٩٦).

والغريب أنّ الذين نقلوا عن بيكر معنى البقط أخذوا المعنى الثّاني الذي أضافه، وتركوا قوله الأوّل، باستثناء ترمنغام (Trimingham)، الذي أشار إلى احتمال اشتقاق اللّفظة من المصريّة القديمة (bak). ولكنّه ذكر أنّ البقط لم يكن ضريبة(٩٧).

وذكر الدّكتور مصطفى مُسعد أنّ "البَقْط ما كان يؤخذ من النّوبة في كلّ عام في قرية القصر، على بعد خمسة أميال جنوبي مدينة أسوان. ولفظ البَقْط حسب اجتهاد بعض الباحثين مشتق من أحد أصلين: الأوّل لاتيني يونانيّ الأصل، وهو (pactum)، ومعناه: الاتّفاق أو الموادعة. والثّاني مصري قديم، وهو باقٍ، ومعناه الضّريبة التي تدفع عيناً"(٩٨).

فهل تتضمّن اللّفظة اللاّتينيّة (pactum) معنى البقط المذكور في رسالة موسى بن كعب؟

نجد في المعجم اللاّتيني الإنجليزيّ لفظتين من جذر واحد الأولى (pactio) وتعني: اتّفاقيّة أو عقد، أو ميثاق أو معاهدة(٩٩). والثّانية (pactum) وتعني: صفقة أو عقد أو اتّفاقيّة(١٠٠).

وجَذْر هاتين اللّفظتين (pax) من جذر آخر هو (pac)، الذي تفرّعت منه ألفاظ أخرى، ودخل بعضها في اللّغة اليونانيّة(١٠١). ويدلّ على الهدوء والسّكون في الملامح أو المشاعر، كما يدلّ على رضاء الآلهة(١٠٢).

أمّا الذين أرجعوا لفظة "البقط" في رسالة موسى بن كعب إلى اليونانية (pakton) = (paxton)، فليس لديهم ما يؤيّد قولهم في اللّغة اليونانيّة؛ لأنّ المعجم اليونانيّ يذكر أنّ جذر (pakton) هو (pak) الذي أخذ من الجذر اللاتيني (pax) بالمعنى الذي أشير إليه آنفاً. وتفرّع منه في اليونانيّة (paknomi)، وتعني: ثبت، استقرّ في مكان، ثبّت خيمة، أسّس شيئاً كنسياً، قويّ وغيرها(١٠٣). كما يكتب هذا اللّفظ في اليونانيّة بصورة أخرى هي (pagnumi) بإبدال الكاف جيماً مصريَّة. وانتقلت دلالة(pactum) اللاّتينيّة إلى اللّغة اليونانيّة بالمعنى نفسه، أي اتّفاقيّة أو معاهدة ليس غير.

أمّا البقط في رسالة موسى فيدلّ على ضريبة بعينها وهو المعنى الذي أشار إليه د. مسعد. ويؤكّد ذلك السّياق الذي وردت فيه لفظة بقط في الرّسالة، ومنها قوله : "لا تؤدّون إلينا ما عليكم من البقط"، وقوله : "وما بعثتم به من البقط بعثتم بما لا خير فيه بين أعور أو أعرج أو كبير ضعيف أو صبيّ صغير".

فهذه النّصوص تدلّ دلالة قاطعة على أنّ البقط ضريبة وليست معاهدة أو عقد أو اتّفاقيّة كما زعم الذين أرجعوها إلى اللاّتينيّة أو اليونانيّة.

وممّا يؤسف عليه أنّ المعجمات العربيّة لم تحدّد دلالتها كما جاءت في رسالة موسى ابن كعب؛ ففي "لسان العرب" نجده يذكر عدّة دلالات للبقط منها(١٠٤):

في الأرض بَقَطٌ من بَقْل أو عُشْب، أي نَبَذٌ مرعى.

والبَقْط : جمعه بُقوط، وهو ما ليس بمجتمع في موضع ولا منه ضيعة كاملة، أي متفرّق.

والبَقْط : الفِرْقة أو القطعة.

والبَقْط : التّفرّق.

والبَقْط : أن تعطي الجنّة على الثُّلث أو الرُّبع.

والبَقْط : ما سقط من التّمر إذا قُطع يُخطئه المِخْلب، أي المنجل بلا أسنان.

وعَرَض المقريزيّ لدلالة البَقْط فقال: "البَقْطُ: ما يقبض من سبي النّوبة في كلّ عام، ويُحمل إلى مصر ضريبة عليهم"(١٠٥). وهو المعنى الذي يُستخلص من رسالة موسى.

ثُمّ حاول المقريزيّ أن يجد صلة بين هذه الدّلالة والمعنى الذي جاء في رسالة موسى، فقال: "فإن كانت هذه الكلمة عربيّة، فهي إمّا مِن قولهم: في الأرض بَقّط من بقل وعشب، أي نبذ مرعى، فيكون معناه على هذا نبذة من المال. أو يكون من قولهم: إنّ في بني تميم بَقْطاً من ربيعة، أي فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا: فرقة من المال أو قطعة منه... والبَقّط: أن تعطى الجنّة على الثّلث أو الرّبع، والبَقّط أيضاً: ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المِخرَف، فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النّوبة"(١٠٦).

وأضاف المقريزيّ أنّ هذا البقط "كان يؤخذ في قرية يقال لها القصر، مسافتها من أُسوان خمسة أميال، بين بلد بلاق وبلد النّوبة، وكان القصر فرضة لقوص"(١٠٧). وأوّل ما تقرّر هذا البقط على النّوبة في إمارة عمرو بن العاص، لمّا بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بعد فتح مصر، إلى النّوبة سنة عشرين، وقيل سنة إحدى وعشرين(١٠٨).

أمّا ما قيل عن اشتقاق البَقّط من اللّفظة المصريّة القديمة (bak)، وتعني العَبْد أو الضّريبة التي تدفع عيناً، فلها في العربيّة القرآنيّة ما يؤيّدها؛ إذ قال في "لسان العرب". يُقال: فلانٌ أبَكٌ بني فلان، إذا كان عسيفاً لهم يسعى في أمورهم(١٠٩). والعسِف: المملوك المستهان به، وشاهده قول نبيه بن الحجّاج:

أعَادَتْني عسيفاً، عَبْدَ عَبْدِ   أطَعْتُ النّفْسَ في الشّهواتِ حتّى

وقيل: كلّ خادم عسيف(١١٠).

ويتّفق هذا المعنى وما جاء في الأكّديّة، أقدم اللّهجات العروبيّة كتابةً: وهو لفظ : baktu (١١١) .

وخلاص القول في البَقّط، كما جاء في رسالة موسى بن كعب، أنّه ضريبة مرتبطة بالعبيد أو من يقومون بالخدمة؛ لأنّ موسى بن كعب يطلب من ملك النّوبة ألاّ يرسل في البقط من لا يستطيع القيام بالأعمال التي سيكلّف بها، مثل: الأعور والأعرج أو الكبير الضّعيف الذي لا يقوى على العمل، أو الصّبيّ الصّغير.

ولكنّي وجدت في بعض البرديّات العربيّة أنّ مصطلح "البقط" يرد بدلالة تختلف عمّا هي عليه في برديّة موسى بن كعب، ففي برديّة مؤرّخة في رمضان

سنة ١٧٨هـ : هذا البَقط"(١١٢) وفي برديّة ثانية مؤرّخة في ٢١٢هـ : "سألتني أن أُكريك من بقط أبو بكر، رضي الله عنه ، بمدينة أشمون"(١١٣).

وفي برديّة من مجموعة "Wessely" مؤرّخة في ٢٤٦هـ، يقول: "أرض البقط والمقبوضة " (١١٤) وفي برديّة من مجموعة برلين، مؤرّخة في القرن الثالث الهجريّ: "وطلبت إليّ أن أكريك ثلاثة فدادين ونصف، أرض طين سوداء، من أرض بَقْط"(١١٥).

ونشر ديلافيدا برديّة مؤرّخة في ٢٥٥هـ، جاء فيها: "أدّى بن جريج على يديه، عمّا يلزمه من خراج البقط"(١١٦).

وفي برديّة من القرن الثّالث الهجريّ، نشرها جرومان نجد العبارتين التّاليتين: "متقبّل البقط" و "أن أكريك ثلاثين فدّاناً من البقط المعروف بسفط"(١١٧).

قال جرومان (Grohmann) في حاشيته على البرديّة رقم ٧٩ (طراز ١١٤)، المؤرّخة في القرن الثالث الهجريّ: "وقد عثرنا في هذه الوثيقة، للمرّة الأولى، على هذا التّعبير، وهو "متقبّل البقط والمقبوض" الذي أخذ عن (paxton) ومعناها الإيجار وليس معناه فقط كراء قطعة أرض، بل كراء أرض أو استغلالها"(١١٨).

وقول جرومان إنّ لفظة "البقط" هنا مأخوذة من اليونانيّة (paxton) بمعنى الإيجار، ليس له ما يؤيّده في المعجم اليونانيّ كما تقدّم القول في ذلك؛ ولا سيّما أنّه أوضح بعد ذلك أنّ معناها ليس مجرّد كراء قطعة أرض، وإنّما كراء قطعة أرض لزراعتها، وهو ما يعرف في الفقه الإسلاميّ بالمزارعة(١١٩).

ومعنى البقط، كما جاء في هذه البرديّات، له ما يؤيّده في لسان العرب؛ فمن معاني البقط التي ذكرها ابن منظور والمقريزي: "أن تعطي الجنّة على الثّلث أو الرّبع"(١٢٠)، وهي التي تحمل معنى الكراء أو الإيجار، وليس اللّفظة اليونانيّة أو اللاتينيّة.

وقد ترجم الأستاذ خوري "أرض بقط" إلى الألمانيّة (pachtlande)، وإلى الفرنسية (terre a bail)، أي الأرض المؤجّرة. وفي الإيطاليّة (paga).

ويلاحظ أنّ لفظة "البقط" العربيّة قد احتفظت بحروفها الأساسيّة، مع قليل من التّحوير والتبديل الصّوتي، حين دخلت في اللّغات الأوروبيّة.

١٩-٢٠ عدم ردّ مَنْ أبق مِن أرقاء المسلمين:

ذكر بَلَمْلي أن أكبر برديّة قبطيّة اكتشفت مع برديّة موسى بن كعب، تؤكّد لجوء الأرقّاء المسلمين إلى بلاد النّوبة، وأنّ بعضهم التجأ إلى قصر ملك النّوبة(١٢١).

٢٠-٢٣ لا يأمن فيكم تجارُنا:

من القضايا المهمّة التي تضمّنتها رسالة موسى بن كعب عدم تحقّق الأمن لتجّار المسلمين في بلاد النّوبة. ولهذا يُذَكِّر موسى بن كعب ملك النّوبة "أنّ أهل الأديان كلّها والملل الذين لا يعرفون ربًّا، ولا يؤمنون ببعث... لا يهيجون تاجراً".

وَقَبْل أن أناقش قضيّة التّجار المسلمين الذين تعرّضوا للاعتداء عليهم في بلاد النّوبة، أقف عند لفظة "يهيجون" التي قرأها سكّوت وهندز" يهجمون"، وهي قراءة لا يؤيّدها رسم الكلمة في البرديّة ولا دلالة اللّفظة اللّغويّة؛ لأنّ معنى هجم" ساق وطرد(١٢٢).

أما يهيج فتتضَمّن معنى الاعتداء المقصود في الرّسالة؛ ففي حديث الملاعنة أنّ رجلاً "رأى مع امرأته رجلاً، فلم يَهِجْه" أي لم يُزْعجه ولم يُنَفّره(١٢٣).

وفي حديث آخر، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لا يحلّ لأحدكم من مال أخيه شيءٌ إلاّ بطيب نفسه". فقال له عمرو بن يَثْربيّ: أرأيتَ إن لقيتُ غنَمَ ابن عمّي، أأَجْتَزِرُ منها شاة؟ قال: "إن لقيتَ نعجةً تحمل شفرَةً وزناداً بِخَبْتِ الجَميش، فلا تَهِجْها"(١٢٤). أي لا تعرض لها بأذى.

أما عدم تحقّق الأمن لتجّار المسلمين في بلاد النّوبة، فَيتّضح من مثالين ذكرهما موسى بن كعب لملك النّوبة. أحدهما: يتّصل بتاجر اسمه سعد (س٢٨)، قد أخذ أموالاً من الناس، وهرب بها إلى النّوبة، فحبسوه عندهم، وحالوا بينه وبين من يطلبه بحقّ، ومنعوه ممّن يطلبه (الأسطر ٢٨-٣٠).

وذكر سكّوت وهندز أنّ بَلمْلي أخبرهما أنّ البرديّة القبطيّة أشارت إلى هذا التّاجر، وأنّه كان محبوساً في دُنقلة في عهد الوالي العبّاسي على مصر محمد بن الأشعث(١٢٥).

والقضيّة الثّانية تَتّصل بتاجر من أُسوان يقال له محمد بن زيد، أرسل تاجراً له في تجارته، وطَلب حقوق له في بلاد النّوبة، فحبسه أهل النّوبة وأخذوا ما كان معه من مال. (الأسطر ٣٠-٣٢، ٣٤-٣٥، ٤٢).

وهذه القضيّة، كما جاءت في رسالة موسى بن كعب، تدلّ على أنّ القضاء الإسلاميّ قد بلغ الغاية في الدّقة والعدل والتّثبّت في معالجة مثل هذه القضايا، ويتّضح ذلك في الأمور التّالية:

- إخبار الوالي في مصر بالقضيّة مِنْ قِبَلِ والي أُسوان.
- خليفة ملك النّوبة يطلب من العامل على أسوان أن يرسل إليه محمّد بن زيد ليستخلفه على ما كان معه من مال.
- أُرسل محمّد بن زيد في رهط من المسلمين إلى خليفة ملك النّوبة.
- ضُرب محمد بن زيد ضرباً سيّئاً، وكُسِرت يده، وحُبِسَ ثلاث ليالٍ حتّى ظنّ أنّ خليفة ملك النّوبة سيقتله. ثمّ أُخلي سبيله.

ومع ذلك استدعى سَلْم بن سليمان، عامل موسى بن كعب على أسوان، محمّد بن زيد، وطلب منه البَيّنة على وصول تاجره إلى النّوبة، وعلى ما فعله به خليفة الملك.

- فقدّم محمد بن زيد بَيّنته، وشهد معه رهط عدول من المسلمين من سكّان أُسوان، وأكّدوا ما قاله.
- كتب سَلْم بن سليمان بالقضيّة كلّها إلى موسى بن كعب، كما أرسل إليه التّاجر محمّد بن زيد.
- وفي هذه الأثناء يصل رسول ملك النّوبة (بطره=بطرس) إلى موسى بن كعب.
- لم يكتف موسى بن كعب بما قاله عامله على أسوان في القضيّة، فأراد أن يتحقّق بنفسه، فجمع بين بطره ومحمّد بن زيد.
- اعترف بطرس، ومن معه، بما فعلوا بمحمد بن زيد التّاجر وبتاجره، وادّعوا أنّهم ظنّوه مِمّن كان يغير عليهم من البُجه(١٢٦).

ومع كل هذه الشّهادات والبيّنات، فإن موسى بن كعب يحيل القضيّة إلى قاضي أهل مصر،غوث بن سليمان(١٢٧)، لينظر فيها.

- فحكم القاضي بتحميل النّوبة الحق، وأصدر أمره أن يَرُدّ بطرس تاجر محمّد بن زيد، إن كان حَيّاً، وما كان معه من المال، وإن كان قد قُتِل فعلى النّوبة أن تدفع الدّية، ومقدارها ألف دينار.

٢١- عدم تسريح رُسل المسلمين:

ذكر بْلملي أنّ لفظة الرّسل جاءت في البرديّة القبطيّة (Beretarios)، وباللاّتينيّة (Veretarius)، وبالإنجليزيّة (Courier)، أي السّاعي أو الرّسول (١٢٨).

ووجدتُ في المعجم اللاّتيني أنّ الرّسول الذي ينقل الأخبار يطلق عليه (nuntius)(١٢٩).

وأشار بْلملي إلى أنّ أحد الرّسل المصريين قد ذكر اسمه في البرديّة القبطيّة. ولأنّ الجزء الأيسر من البرديّة مفقود، فيمكن أن يقرأ ما تبقّى من الاسم، وهو ابن Abdeiusa(١٣٠) واللّفظ العربيّ للاسم هو "ابن عبدوس".

كما ذُكِر اسم رسولين من رسل النّوبة في البرديّة القبطيّة، هما (Jacobos) و(Petros). (١٣١) أي يعقوب وبطرس أو بَطره كما جاء في رسالة موسى، وهو المذكور في سطر٤٣ من الرّسالة العربيّة.

وحسب ما جاء في البرديّة القبطيّة، فإنّ بطرس كان مُوَثّقاً عاماً (كاتب عدل). وفي أثناء وجوده عند الوالي المصريّ كان مهدّداً بالسّجن، ريثما يصل ما يرضي الوالي من النّوبة(١٣٢).

ثمّ قال بلملي لِهِنْدز وسكّوت إنّ هذا الوالي هو محمّد بن الأشعث، الذي وَلي مصر بعد عزل موسى بن كعب، وقد احتجز بطرس مدّة أربعة أشهر(١٣٣).

ويتّضح من كلام موسى بن كعب : "ولا تُعَجّلون تسريح رسلنا إلينا" "ولا يَحْبسون رسولاً"، أنّ النّوبة كانوا يؤخّرون تسريح رسل المسلمين إليهم. وهو أمر لا تقرّه الشّرائع السّماويّة وغير السّماويّة؛ فقد قال الرّسول، صلّي الله عليه وسلّم لرسولَيْ مُسَيْلمة: "لولا أنّ الرُّسل لا تقتل لضَرَبْتُ أعناقكما"(١٣٤).

وحول عدم حبس الرّسل قال الرّسول، صلّى الله عليه وسلم، لأبي رافع، رسول قريش إليه: "إنّي لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد، فارجع إليهم آمناً"(١٣٥).

وذكر ابن الفَرّاء أنّ المعتصم أخّر رسول ملك الرّوم ستّة أشهر، لانشغاله بأمور، ثمّ لمّا أذن له بالدّخول عليه قال له المعتصم: "أرانا قد أضْرَرْنا بك لطولِ مقامك"(١٣٦).

٣٣- خليفتك:

وقف بْلمّلي عند مصطلح "خليفتك"، أي خليفة ملك النّوبة، وذهب إلى القول إنّه قد يشير إلى أعلى منصب في قصر إبريم، الذي وجدت فيه برديّة موسى بن كعب، أي خليفة ملك النّوبة، وهو لقب "Eparch".(١٣٧) وهو في الأصل مصطلح كنسيّ، يُطلق على راعي الكنيسة. ثم أطلق في العهد البيزنطيّ على الحاكم الذي يحكم مدينة، ويدير شؤونها الماليّة والإداريّة والتّجاريّة والصناعيّة(١٣٨).

٣٦- مصطلح "المسلمين":

أشار سكّوت وهِنْدز إلى أنّ مصطلح "المسلمين" الذي ورد ذكره في رسالة موسى في سطر ٣٦ و٤٠، مستوحىً من برديّة رقم (٦٢٤)، مؤرّخة سنة ٧٩٣م (=١٧٧هـ)، ذكرها كراباتشك في كتابه "PERF"، على أنّها أقدم برديّة مؤرّخة يظهر فيها هذا المصطلح. وقد اعتمدا في هذا على ما قاله مؤلّفا كتاب"Hagarism"(١٣٩).

ولا يلام مؤلّفا كتاب "Hagarism"؛ لأنّهما لم يطّلعا على برديّة موسى بن كعب المؤرّخة في (١٤١هـ/٧٥٨م، ولاسيّما إذا علمنا أنّ غرضهما لم يكن متّسماً بالتجرّد والعلم؛ لأنّ مصطلح "المسلمين" قديم قِدَم الإسلام، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك. ويكفي أن أشير هنا إلى آيتين يخاطبُ الله، سبحانه وتعالى، فيهما، نبيّه محمّداً، صلّى الله عليه وسلّم، بقوله:(قُلْ: إنّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ وَمَماتي لِلّهِ رَبِّ العَالمين. لا شَريكَ له، وَبذلكَ أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين) (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

والبرديّة التي أشارت إليها باتريشيا كرون ومايكل كوك في كتابهما المشار إليه آنفاً، نشرها جرومان في كتابه "From the World of Arabic papyri". وهي من سفيان ابن قُرْعَة، عامل الأمير عبد الله بن المسيّب على كورة أهناس والبهنسى وواحها. وذلك قوله: "إلى جميع من بكورة أهناس من المسلمين وأهل الذّمّة"(١٤٠).

٣٨- عامل موسى بن كعب على أُسوان:

ذكر بْلمّلي أنّ البرديّة القبطيّة أشارت إليه بلقب "أمير" دون أن تذكر اسمه(١٤١)، وأنّ لقب Seemuoulos كان وقفاً على الوالي في مصر(١٤٢).

ونقل سكّوت وهندز عن بَلَمْلي قوله لهما إن الوثائق القبطيّة أشارت إلى أنّه عزل عن أسوان سنة ٧٥٩م/١٤٢هـ، وعُيِّن بدلاً منه عيسى بن عثمان(١٤٣).

وبعد أن انتهى موسى بن كعب من ذكر الأمور التي لم يَفِ أهل النّوبة بها، كما جاءت في العهد المكتوب بينهم وبين المسلمين، أمر موسى ملك النّوبة بما يلي:

- التّعجيل بإرسال ما بقي على النّوبة من البقط للسّنين الفائتة.
- عدم إرسال ما لا خير فيه من البقط.
- إرسال تاجر محمّد بن زيد وما كان معه من المال، إن كان حيّاً.
- دفع ألف دينار، دية التّاجر إن كان قد قتل، وإرسال ما كان معه من مال محمّد بن زيد.
- إرسال التّاجر سعد الذي هرب بأموال المسلمين.

ثمّ يحذّرُ موسى بن كعب ملك النّوبة من مغبّة التأخر في إنفاذ هذه الأوامر، إن كان راغباً في بقاء المسلمين على الوفاء بعهدهم.

وإن لم يمتثل ملك النّوبة لما طُلب منه، فسيرى موسى فيه وفي النّوبة رأياً. وهي عبارة تحمل التّهديد والوعيد، يؤيّدها قوله:

٦٦ : "... فإنّي قد أحببتُ أن أُعذِر

٦٧ : إليكم وأتّخذ الحجّة عليكم".

وقوله هذا يدلّ على التزام موسى بن كعب بمبادئ الإسلام في التّعامل مع الأعداء، بتقديم الوعيد والإنذار وتقديم الحجّة؛ فمن خصال السّياسة في الإسلام، وتدابير المناجزة : "تقديم الوعيد والإيعاد، والتّحذير والإنذار، وإقامة الحجّة، وإبلاغ المعذرة"(١٤٤).

ومن أقوال العرب: "أعْذَرَ مَنْ أَنْذر"، أي أقام العُذْر مَن خَوّف الفعل(١٤٥). وفي "مجمع الأمثال: "أي مَن حذّرك ما يحلّ بك فقد أعْذَر إليك، أي صار معذوراً عندك"(١٤٦).

٦٩ : رَجّح سكّوت وهِنْدز تاريخ كتابة الرّسالة يوم الأحد لاثْنَتَي عَشرة ليلة بقيت من رجب. وعلّلا ذلك بعدم وضوح أحرف الكلمة التي جاءت بعد "الأحد". وذكرا أنّ "إحدى" توافق يوم الأحد، ولكنّهما استبعداها(١٤٧).

وحقيقة الأمر أنّ لفظة "لإحدى" هي القراءة الصّحيحة، وإن كانت حروفها غير واضحة للعين المجرّدة. ولكنّي قرأتها على شاشة الحاسوب مكبّرة، فوجدتها مشابهة كلّ الشّبه لحروف كلمة "إحدى" التي جاءت بعدها.

الحواشـي

١- انظر حول اكتشاف البرديّة:

Plumley, Martin, An Eighth-Century Arabic Letter to the King of Nubia, The Journal of Egyptian Archaeology (JEA), vol.61, 1975, p.241; Martin Hinds and Hamdi Sakkout, A Letter from the Governor of Egypt to the King of Nubia and Muqurra Concerning Egyptian-Nubian Relations in 141/758, Stadia Arabica et Islamica Feststchrift for Ihsan Abbas, Beirut, 1981, p.209.

٢ – انظر: Plumley, p.241 .

٣ – سكّوت وهِندز، ص٢٠٩.

٤ – المصدر نفسه، ص٢١٤.

٥ – البلاذريّ، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق دي خويا، بريل، ١٩٦٨م، ص٢٣٦–, ٢٣٧

٦ – ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارلز توري، ليدن، ١٩٢١م، ص١٨٨.

٧ – المصدر نفسه، ص١٨٨.

٨ – نفسه، ص١٨٨.

٩ – فتوح البلدان، ص٢٣٧.

١٠ – حول معنى الطّعام في البرديّات العربيّة، انظر: جاسر أبو صفيّة، اللّغة والنّحو والصّرف والهجاء في البرديّات الأمويّة، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ، العدد (٦٠ –، السّنة الخامسة والعشرون، شوّال–ربيع الأوّل، ١٤٢٢هـ/ كانون الثاني–حزيران، ٢٠٠١م، ص١٤.

١١ – ابن منظور، لسان العرب: هَدَن.

١٢ – الماورديّ، أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب، الأحكام السّلطانيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٥١؛ الأحكام السّلطانيّة، لأبي يعلى، محمّد ابن الحسين الفرّاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٨.

١٣ – أحكام الماورديّ، ص٥١؛ أحكام الفرّاء، ص٤٨.

١٤ – المصدران نفسهما، ص٥١؛ ص٤٨.

١٥ – فتوح مصر، ص١٨٨.

١٦ – أبو عبيد، القاسم بن سلاّم، كتاب الأموال، تحقيق محمّد خليل هرّاس، مكتبة الكليّات الأزهريّة، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م–١٣٨٨هـ، ص٢١٥، رقم ٤٠١.

١٧- انظر في ابن لهيعة: ابن حجر العسقلانيّ، تهذيب التّهذيب، حيدر آباد الدّكن، ط١، ١٣٢٥هـ، ٣٧٣/٥ فما بعدها؛ ابن عديّ، الكامل في ضعفاء الرّجال، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ١٤٦٢/٤-١٤٧٢.

١٨ - انظر رواية اللّيث بن سعد في كتاب الأموال، ص٢١٥، رقم ٤٠٢.

١٩ - انظر في عبد الله بن صالح: تهذيب التّهذيب، ٢٥٦/٥-٢٥٩؛ الكامل في الضّعفاء، ١٥٢٢/٤ فما بعدها.

٢٠ - فتوح مصر، ص١٨٩.

٢١ - يَنخرق، هي القراءة الصّحيحة، وليس كما جاء في بعض الرّوايات "يُحْرق"؛ لأنّ رواية الحرق جاءت عن سويسروس بن المقفع، وليس لها سند يؤيّدها.

٢٢ - فتوح مصر، ص١٨٩.

٢٣ - من هذه المصادر: الأموال، ص٢١٥؛ فتوح البلدان للبلاذريّ، ص٢٣٧؛ الكنديّ، أبو عمر محمّد بن يوسف، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق رفن جَسْت، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٢.

٢٤ - المقريزيّ، تقيّ الدّين أحمد بن عليّ، الخِطط، تحقيق محمّد زينهم ومديحة الشّرقاويّ، مكتبة مدبوليّ، القاهرة، ١٩٩٨م، ٥٦٠/١-٥٦١.

٢٥ - جاءت هذه الكلمة مصحّفة إلى "يحرق" كما أشير في حاشية (٢١).

٢٦ - الخطط، ٥٦٣/١.

٢٧ - انظر: Holt, P.M., The Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970, vol.2, p.328.

٢٨ - انظر رأي (Bret – في مقالة هِندز وسكّوت، ص٢١١.

29 -Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan from the Seventh to the Early Sixteenth Century, Khartoum University Press, 1973, p.24.

٣٠ - نفسه، ص٢٥.

٣١ - نفسه، ص٢٥.

٣٢ - نفسه، ص٢٥.

٣٣ - نفسه، ص٢٥.

٣٤ - انظر: خطط المقريزيّ، ٥٦٠/١.

٣٥ - لسان العرب: فنى.

٣٦ - ابن حزم، أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد، جوامع السّيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق إحسان عبّاس وناصر الدّين الأسد، دار المعارف بمصر، ص٣٤٥.

٣٧ - المقريزي، تقيّ الدّين، كتاب المقفّى الكبير، تحقيق محمد اليعلاويّ، دار الغرب الإسلاميّ، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ط١، ٤/٥٧٥-٥٧٦.

٣٨ - انظر مثلاً: سنن أبي داود، ١/٣٠١، حديث رقم ١١٦٠؛ سنن ابن ماجه ١/٤١٦، حديث رقم ١٣١٣؛ موطأ مالك، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، القاهرة، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، ١/١٨٠-١٨١؛ ابن رشد القرطبيّ، محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٣، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ١/٢٢٠.

٣٩ - مقالة سكّوت وهندز، ص٢١١، حاشية ١٣.

٤٠ - نفسه، ص٢١١.

٤١ - نفسه، ص٢١١.

٤٢ - نفسه، ص٢١١.

٤٣ - لسان العرب: أمم.

٤٤ - الأحكام السّلطانية للماورديّ، ص٥.

٤٥ - الحديث في البخاريّ، طبعة دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت. ٤/٢١٨.

٤٦ - مقالة هندز وسكّوت، ص٢١٤-٢١٥.

٤٧ - نفسه، ص٢١٥.

٤٨ - انظر: فتوح مصر، ص١٨٩؛ البيان والتّحصيل، لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق د.أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٤/١٧٢.

٤٩ - انظر: Becker, C.H., Papyrusstdien, ZA, vol.22, p.142.

50 - Trimingham, J. Spencer, Islam in the Sudan, Frank Cas and Co. LTD., 1965, p.62.

51 - Majid Khadduri, War and Peace in the Law of Islam, The Johns Hopkins press, Baltimore, 1955, pp.259-261.

52 - Fairservis, Walter A. Jr., The Ancient Kingdoms of the Nile, The New American Library, New York 1962, pp.201-202.

٥٣ - بلمّلي، ص٢٤٢.

54 - Forand, P., Early Muslim Relations with Nubia, Der Islam, vol.48, 1972, p.114.

٥٥ - المصدر نفسه، ص١١٥.

٥٦ - نفسه، ص١١٥.

٥٧ - نصّ الرّسالة مأخوذ من دراسة سكّوت وهندز، مع مقابلة النصّ المطبوع على صورة الأصل المنشور في الدّراسة.

٥٨ - ابن عساكر، أبو القاسم عليّ بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محبّ الدّين العمرويّ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ط١، ٦١/١٩٦-١٩٧؛ كتاب المقفّى الكبير، ١٢٧/٤؛ ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، ١٩٦٣م، ٣٤٢/١. وقابل بِ جمهرة النّسب، للكلبيّ، هشام بن محمّد، تحقيق د.ناجي حسن، عالم الكتب ومكتبة النّهضة العربيّة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٢٥٠.

٥٩ - تاريخ دمشق، ٦١/١٩٦.

٦٠ - المصدر نفسه، ٦١/١٩٧.

٦١ - انظر: محمّد بن جرير الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الرّابعة، ٧/٥١١ و ٨/٤٧؛ تاريخ دمشق ٦١/١٩٨؛ وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت ط٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ٨/٣٥، ٢٠٩.

٦٢ - تاريخ الطّبريّ، ٧/٣٥٥.

٦٣ - المصدر نفسه، ٧/٣٨٠.

٦٤ - نفسه، ٧/٣٨٩-٣٩١.

٦٥ - نفسه، ٧/٤٣٢-٤٣٣.

٦٦ - نفسه، ٧/٤٤٦-٤٤٧.

٦٧ - نفسه، ٧/٤٦٢.

٦٨ - نفسه، ٧/٤٦٤.

٦٩ - نفسه، ٧/٤٥٦.

٧٠ - نفسه، ٧/٥١١.

٧١ - نفسه، ٧/٥١١؛ وقابل بتاريخ ابن عساكر ٦١/١٩٨.

٧٢ - تاريخ الطبريّ، ٨/٤٧.

٧٣ - المصدر نفسه، ٨/٥٤.

٧٤ - نفسه، ٨/٥٦.

٧٥ - تاريخ ابن عساكر، ٦١/١٩٦؛ النّجوم الزّاهرة، ١/٣٤٣.

٧٦ - كتاب الولاة والقضاة، ص١٠٨؛ ونقل رواية العزل هذه ابن تغري برديّ في النّجوم الزّاهرة، ١/٣٤٣.

٧٧ - المقفّى الكبير، ٤/٦٠٧.

٧٨ - تاريخ الطبريّ، ٨/١١٥.

٧٩ - المنتظم، ٨/٢٠٩.

٨٠ - المقفّى الكبير، ٤/١٥٣.

٨١ - تاريخ ابن عساكر، ٦١/١٩٧.

٨٢ - النّجوم الزّاهرة، ١/٣٤٣.

٨٣ - كتاب الولاة والقضاة، ص١٠٧، النّجوم الزّاهرة، ١/٣٤٣.

٨٤ - الولاة والقضاة، ص١٠٨؛ النّجوم، ١/٣٤٤.

٨٥ - انظر حول هذا الموضوع: جاسر أبو صفيّة، أهميّة البرديّات في كتابة التّاريخ الإسلاميّ، سلسلة المحاضرات العامّة (٢)، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، الرّياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٦ فما بعدها.

٨٦ - انظر: plumley، ص٢٤٤؛ وقابل بِ

Abu Salih, The Armenian, The Churches and Monastries of Egypt and Som Neighbouring Countries, Tr. by B.T.A. Evetts, Oxford, 1969, p.261, n.2.

٨٧ - ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٥/٣٠٩ (نوبة).

٨٨ - مقالة سكّوت وهندز، ص٢٢٦.

٨٩ - مصطفى محمّد مسعد، الإسلام والنّوبة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٨١.

٩٠ - انظر:

Jaser Abu Safieh, Umayyad Epistolography with Special Reference to the Compositions Ascribed to _Abd al-Hamid al-Katib, Ph. Dissertation, London, 1982, pp.40-43.

٩١ - لسان العرب: ودَع.

٩٢ - انظر: ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزّاوي ومحمد الطّناحي، المكتبة العلميّة، بيروت، د.ت.، ٥/١٦٧؛ وقابل بِ الأموال، ص٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٩.

٩٣ - القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٦م، ٨/٣٦٠.

٩٤ - سكّوت وهِندز، ص٢٢٧؛ وقابل بِ:

Leone Caetani, Annali Dell_Islam, Milano, 1911, vol.IV, pp.519-521.

وقد عَرض كايتاني لرأي المقريزيّ في البقط، ثمّ أشار إلى دلالته واشتقاقه.

٩٥ - بيكر، البَقْط، دائرة المعارف الإسلاميّة، التّرجمة العربيّة، ٤/٣٢؛ والنّصّ الإنجليزيّ ١/٦٠٨.

96 - Becker, C.H., Egypt, EI, ii, p.6.

٩٧ - من الذين أخذوا المعنى الثاني عن بيكر وتركوا الأوّل: حسن فضل، مرجع سابق، ص٢٤؛ فوراند (Forand) مرجع سابق، ص١١٦؛ مجيد خدّوري، مرج سابق، ص٢٦٠؛ ترمنغام (Trimingham)، مرجع سابق، ص٦٢؛ الإسلام والنّوبة، مصدر سابق، ص١٢، ح٢٢.

٩٨ - الإسلام والنّوبة، مصدر سابق، ص١٢ حاشية ٢٢.

٩٩ - انظر: Cassell-s Latin Dictionary, New York, 1957, p.388.

١٠٠ - المصدر نفسه، ص٣٨٩.

١٠١ - انظر المعجم اللاّتيني، ص٣٩٧.

١٠٢ - المصدر نفسه، ص٣٩٧.

١٠٣ - انظر: Liddell and Scott_s Greek-Englihs Lexicon, p.519, 558.

١٠٤ - لسان العرب: بَقَط.

١٠٥ - خطط المقريزيّ، ١/٥٦٠.

١٠٦ - المصدر نفسه، ١/٥٦٠.

١٠٧ - نفسه، ١/٥٦٠.

١٠٨ - نفسه، ١/٥٦٠.

١٠٩ - لسان العرب: بَكَك.

١١٠ - المصدر نفسه: عَسَف.

١١١ - انظر: Wolfram Von Soden, Akkadisches Handworterbuch, Wiesbaden, ١٩٨٥, vol. 1, p.97.

112 - انظر: Della Vida, G.L., Arabic Papyri in the University Museum in Philadelphia (Pennsylvania), Roma, 1981, p.14, no.7.

113 - انظر: Khoury, R.G. Chrestomathie de Papyrologie Arabe, Brill, Leiden,1993. p.123.

114 - انظر:

- Grohmann, A., Arabische Papyri aus der Sammlung C. Wessely, Archivum Orienta Pragense Zeitschrift des Orientalischen Institutes, band XIV, 1943, p.225, nr.89.

115 - Khoury, R.G., Papyrologische Studien, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden, 1995, p.99.

١١٦ - ديلافيدا، مصدر سابق، ص٢١-٢٢، رقم ١١، س٣.

١١٧ - جرومان، أدولف، أوراق البرديّ العربيّة في دار الكتب المصريّة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، جـ٢، ص٣٧؛ وانظر فيه إشارته إلى برديات أخرى ورد فيها ذكر البقط بمعنى كراء الأرض.

١١٨ - المصدر نفسه، ٢/٣٨.

١١٩ - انظر حول المزارعة: الشّرح الصّغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، لأبي البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدّردير، نشره د. مصطفى كمال وصفي، دار المعارف بمصر، ١٣٩٣م، جـ٣، ص٤٩٢، وجـ٤، ص٢٠.

١٢٠ - انظر حاشية رقم ١٠٥ و ١٠٦.

١٢١ - بْلَمْلي، ص٢٤٥.

١٢٢ - لسان العرب: هجم.

١٢٣ - الحديث في: النهاية في غريب الحديث، ٥/٢٨٦.

١٢٤ - الحديث في: الزّمخشريّ، جار الله محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط٢، د.ت.، ١/٢١٠؛ الهرويّ، أبو عبيد أحمد بن محمّد، كتاب الغريبين، تحقيق محمود محمد الطناحيّ، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ١/٣٩٣؛ النهاية في غريب الحديث، ١/٢٩٤، ٢/٤؛ وانظر حول خبت الجميش: جاسر أبو صفيّة، "الإخبات في القرآن الكريم _ دراسة دلاليّة"، مجلّة الدّراسات القرآنيّة، لندن، ١٩٩٩م، المجلّد الأوّل، العدد الأوّل، ص٢١٧.

١٢٥ - سكّوت وهندز، ص٢٢٧، ح٢٨.

١٢٦ - انظر حول البجه: بْلَمْلي، ص٢٤٥؛ بيكر، بجه، دائرة المعارف الإسلاميّة، التّرجمة العربيّة، ٣/٣٦١-٣٦٣ وما فيها من مصادر.

١٢٧ - غوث بن سليمان الحضرميّ، ولي قضاء مصر مرّتين، أولاهما سنة خمس وثلاثين ومئة، والثانية سنة أربعين ومئة. كان أعلم النّاس بمعاني القضاء وسياسته. (انظر فيه: كتاب الولاة والقضاة، ص٣٥٦-٣٥٩، و ٣٦٠-٣٦٢).

١٢٨ - بْلملي، ص٢٤٥.

١٢٩ - المعجم اللاّتيني، مصدر سابق، ص٣٧٠.

١٣٠ - بلملي، ص٢٤٥.

١٣١ - المصدر نفسه، ص٢٤٥.

١٣٢ - نفسه، ص٢٤٥.

١٣٣ - سكّوت وهندز، ص٢٢٨، ح٤٣.

١٣٤ - الحديث في: مسند أحمد بن حنبل، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت.، ٣/٤٨٨.

١٣٥ - الحديث في: مسند أحمد بن حنبل، ٦/٨؛ صحيح ابن حِبّان، نشره كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٧/١٩١.

١٣٦ – ابن الفرّاء أبو عليّ الحسين بن محمّد، رسل الملوك ومن يصلح للرّسالة والسّفارة، تحقيق صلاح الدّين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ص٦٨.

وانظر حول الرّسل وصفاتهم: رُسل الملوك، ص٣٣-٤١؛ الماورديّ، أبو الحسن عليّ بن محمّد، نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٥٠١-٥٠٣؛ أبو القاسم بن رضوان المالقيّ، الشّهب اللاّمعة في السّياسة النّافعة، تحقيق علي سامي النّشّار، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣٤٣-٣٤٦؛ ومجيد خدّوري، الحرب والسّلام، مرجع سابق، ص٢٤٠ فما بعدها.

١٣٧ – بَلْمَلي، ص٢٤٥.

١٣٨ – نفسه، ص٢٤٥؛ وانظر حول لقب "Eparch":

Louis V. Zabkar, The Eparch of Nubia as King, JENS, vol.xxii, 1963, pp.217-219.

١٣٩ – سكّوت وهندز، ص٢٢٧، ح٣٦؛ وقابل ب:

Patricia Crone and Michael Cook, Hagarism, the Making of the Islamic World, Cambridge University Press, Cambridge, 1977, p.159, note 50.

وقد أشار المؤلفان إلى كتاب جرومان:

"From the World of Arabic Papyri"؛ وقابل أيضاً بكتاب كراباتشك:

- Karabacek, J., Papyrus Erzherzog Rainer, Fuhrer Durch Die Ausstellung, Wien, 1894, no.624.

١٤٠ – انظر: Grohmann, A., From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1952, pp.132-133.

١٤٠ – بَلْمَلي، ص٢٤٥.

١٤٢ – نفسه، ص٢٤٥.

١٤٣ – سكّوت وهندز، ص٢٢٨، ح٣٨.

١٤٤ – الماورديّ، نصيحة الملوك، ص٤٧٦-٤٧٧.

١٤٥ – أبو هلال العسكريّ، جمهرة الأمثال، تحقيق أحمد عبد السّلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ١/١٣٢؛ الميدانيّ، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٢/٣٦٣، رقم ٢٤٩٦.

١٤٦ – مجمع الأمثال، ٢/٣٦٣.

١٤٧ – سكّوت وهندز، ص٢٢٩، ح٦٩.

١١- وجائد البردي العربي والمخطوطات والشقاقات العربية في بلاد الصعيد الأقصى وأسوان والنوبة المصرية السودانية، ودلالتها التاريخية والأثرية والحضارية

(وجائد : كوم إشقاو، إخميم، كيمان المطاعنة (أرمنت) ، الأقصر، إدفو، أسوان، جزيرة فيلة، جزيرة الشلال (بولاق)، قصر إبريم، دنقله)

دكتور/ أحمد فؤاد سيد
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة عين شمس

عثر في بلاد الصعيد الأقصى وعواصمه ومنه وبعض قراه، على وجائد قيمة جدا للبرديات والمخطوطات والشقاقات العربية الإسلامية والنسيج العربي الإسلام المستخدم في الكتابة ، ترجع إلى القرون الثمانية الأولي للهجرة النبوية المحمدية ، فمنها ما يرجع إلى عهد الخلفاء الراشدين، ومنها ما يرجع إلى عهد خلفاء بن أمية، ومنها ما يرجع إلى عهد خلفاء بني العباس، ومنها ما يرجع إلى عهد الخلفاء الفاظميين، ومنها ما يرجع إلى عهد سلاطين المماليك.

ومما يزيد في القيمة التاريخية والأثرية لهذه الوجائد والوثائق الأثرية، أنها قد عثر عليها في مدن متفرقة من عواصم أقاليم وأمهات مدن بلاد الصعيد الأقصى بمصر وبلاد السودان الشرقي، تمتد من محافظة سوهاج شمالاً إلى بلاد النوبة المصرية السودانية بمحافظة أسوان بالقطر المصري، ومديرية كسلا ووادي حلفا بالقطر السوداني.

وتتفرق هذه الوجائد والوثائق الأثرية، التي عثر عليها في بلاد الصعيد الأقصى بمصر، وبلاد النوبة المصرية السودانية، في محافظات: سوهاج قنا وأسوان بالقطر المصري، ومديرية كسلا بالقطر السوداني ، في مدن وقري: كوم أشقاو (Ahhroditopolis) بمركز طما بمحاطة جرجا سابقاً (محافظة سوهاج حالياً)، وإخميم، والأقصر، وكيمان المطاعنة (بالقرب من أرمنت) بمحافظة قنا، وأسوان وإدفو وقصر إبريهم، وجزيرتي: فيلة والشلال (بولاق) بمحافظة أسوان، ومدينة دنقلة، بمدير كسلا، بجمهورية السودان العربية هذا فضلا عن الشقاقات

العربية التي عثر عليها بمدينة إدفو، ومخطوط كتاب الجامع في علم الحديث للإمام الحافظ عبد الله بن وهب القرشي المصري المالكي، أحد كبار أئمة وفقهاء المالكية وحفاظ مصر في القرن الثالث الهجري، الذي عثر على مخطوطته مكتوبة على كتاب كامل من أوراق البردي العربية بمدينة إدفو، وهي مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث الهجري، وفضلا عن عقود الرواج المكتوبة على النسيج الإسلامي الخاصة بأميرات السلطنة (الإمارة) الكنزية العربية الإسلامية ببلاد النوبة المصرية السودانية وهي مؤرخة بسنة ٧٢٥هـ، في أعقاب امتداد نفوذ الإمارة الكنزية العربية إلى مدينة دنقله عاصمة مملكة النوبة المسيحية الشمالية (مقرة، وتحول أهلها إلى الإسلام، وتحويل كنيستها الكبرى إلى مسجد جامع وفضلا عن عقود شراء الأراضي الزراعية بمدينة دنقله وضواحيها، الخاصة بأمراء وأميرات السلطنة الكنزية، والمؤرخة في حدود نفس هذا التاريخ.

ودراسة هذه البرديات والمخطوطات والشقاقات والوثائق العربية، المكتشفة في بلاد الصعيد الأقصى وأسوان والنوبة المصرية السودانية، تلقي أضواء ساطعة على تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية ببلاد الصعيد الأقصى وتعد أسوان بصفة خاصة ، وبلاد السودانيين الشرقي والأوسط صفة عامة ، كما أنها تجلو جوانباً مشرقة من تاريخ الإسلام والشريعة والثقافة والحضارة الإسلامية في قارة إفريقيا، وتاريخ الروابط والعلاقات الدينية السياسية والعرقية والثقافية والتجارية والحضارية بين القطر المصري والقطر السوداني بصفة خاصة، وبين القطر المصري وقارة إفريقيا بصفة عامة.

ويمكن ترتيب وتصنيف هذه البرديات والمخطوطات والوثائق والشقاقات، حسب أقدميتها، على النحو التالي.

١- البرديات العربية الإسلامية التي عثر عليها بمدينة إخميم:-

وأقدمها لفافة بردية طويلة، تؤرخ بسنة ٢٥هـ، من نهاية عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وبداية عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان، مكتوبة بثلاث لغات : العربية، والقبطية، واليونانية، وتحتوي هذه الوثيقة البردية

الديوانية الحكومية الرسمية، على التظلم الإداري الذي فعه أهل مدينة إخميم، إلى إقليم قنا من قبل دولة الخلافة الإسلامية ومن قبل وإلى صلاة وحرب مصر، ونص تقرير اللجنة التي شكلها والى قنا للتحقيق في هذا التظلم، وتكونت من بعض كبار موظفي الإدارة العربية بصعيد مصر، وفي آخر الوثيقة توقيع أعضاء اللجنة بخطوطهم، وتوقيع بعض أعيان أهل مدينة إخميم من نصاري القبط، نواباً عن رافعي التظلم، وهذه الوثيقة البردية تفيد استجابة الإدارة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين للتظلمات الإدارية التي كان يرفعها نصاري قبط مصر، وتحقيقها في موضوعات هذه التظلمات، إحقاقاً للعدل، وهذا أمر لم نسمع به في البرديات المصرية على طول عصور مصر التاريخية قبل العصر الإسلامي، وقد نص التحقيق الإداري الذي اشتملت عليه هذه البردية ، على الأمانات التي منحتها دولة الخلافة الإسلامية وولاتها على صلاة وحرب مصر، للكنائس والأديرة القبطية بمدينة إخميم وغيرها من مدن صعيد مصر.

٢- البرديات العربية التي عثر عليها بمدينة الأقصر، بمنطقة الجم (هابو):

وهي ترجع إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ولى الخلافة من ٦٥-٨٥هـ) ، ومؤرخة سنة ٨٧هـ، وخاصة بالأمان الذي منحه وإلى إقليم قنا، لرهبان دير كامولاي بمنطقة الجم (هابو) بمدينة الأقصر، وهي تؤكد حماية دولة الخلافة الإسلامية، وولاة صلاة وحرب مصر، وعمالهم على الأقاليم المصرية، لكنائس وأديرة القبط وأحباسها وأوقافها، نظير أداء رهبان هذه الأديرة _ وهم من العاملين بصناعة السلال القشية والجزيدية - للجزية السنوية.

٣- الأرشيف البردي الديواني الحكومي الرسمي الإداري المالي (الخراجي)، لصاحب كورة chos Pagar إقليم كوم إشقاوه Aphrodito -Polis .

وهو يرجع إلى نهاية عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ولي الخلافة من ٦٥-٨٥هـ)، وعهد أبنه الخليفة الوليد بن عبد الملك (ولى الخلافة من (٨٦-٩٦هـ)، واحتوي معظمه على المكاتبات والمراسلات والأوامر الأميرية السمية الموجهة من الأمير قرة أبن شريك العبسي، وإلى لاه وحرب وخراج مصر

(من ٩٠-٩٦هـ)(من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، إلى صاحب إقليم (الباجاركوس) كوم إشقاو (Aphrpdito - Pahis) ، وهي وثائق ضخمة وكثيرة جداً، بعضها مكتوب باللغة العربية، وبعضها مكتوب باللغة اليونانية، وهي تؤكد عدالة الحكم الإسلامي لمصر في العصر الأموي.

٤- بردية مدينة قصر إبريم بمركز عنيبة بمحافظة أسوان، المؤرخة سنة ١٤٤هـ :-

وهي وثيقة بردية ديوانية رسمية، عبارة عن لفافة بردية كبيرة، عثر عليها بمدينة قصر إبريهم، بمركز عينيبه بمحافظة أسوان، عبارة عن خطاب ديواني رسمي ، موجه من والى صلاة وحرب مصر في عهد الخليفة العباسي أبى جعفر المنصور، ويدعي كعب الخزاعي، إلى ملك مملكة المريس النوبية المسيحية، ويلقب صاحب الجبل، وصاحب الجنادل، لوقوع مملكته في أرض النوبة المصرية المتصلة بمدينة أسوان عند منطقة الشلال أو الجنادل، وكان صاحب الجبل ، تابعاً لملك مملكة النوبة المسيحية (مقرة) ، ونائباً عنه ومتحدثاً باسمه لدي ولاة صلاة وحرب مصر، وولاة صلاة وحرب تفر أسوان من قبلهم، وفي هذه الوثيقة التي تولى توصيلها لصاحب الجنادل، وإلى تغر أسوان _ الأمير كعب الخزاعي وإلى صلاة وحرب مصر، صاحب الجبل وملكه الأعلى ملك مملكة النوبة المسيحية، بإعلان الحرب عليهما، وغزو وفتح بلادهم، إذا لم يعودوا إلى الالتزام بشروط هدنة البقط، التي وقعتها دولة الخلافة الإسلامية سنة ٣١هـ، بعد فتحها لمدينة دنقلة، عاصمة مملكة النوبة المسيحية مقره ٠ عنوة، وكانت هذه المعاهدة، تنص على دفع مملكة النوبة المسيحية قطيعة أو جزيرة سنوية، مقدارها ٣٦٦ رأساً من عبيد النوبة، على عدد أيام السنة، وحماية الجوامع والمساجد، التي أقامها ولاة وصلاة وحرب مصر، في مدينة دنقلة وبلاد النوبة، وتأمين طرق التجارة والحاج والدعاة المسلمين، المترددين على بلاد النوبة، بغرض الحج إلى بلاد الحجاز، أو التجارة عبر البحر الأحمر وبحر فارس (المحيط الهندس)، وقد خص والى صلاة وحرب مصر صاح بمملكة المريس وعاصمة ملكة مدينة قصر إبريهم بهذا الخطاب، ولم يرسله مباشرة إلى مدينة دنقلة عاصمة مملكة النوبة المسيحية

مقره ، لأن صاحب مملكة الحريس كان نائباً عن ملك مفرة في تسليم القط السنوي لولاة مصر، وكان هذا التسليم يتم في مدينة قصر أبريم عاصمة مملكته، ويتولى تسلمه وإلى نفر أسوان المسلم، وبحضور قاضي أسوان وشهوده، وإلى جانب هذه اللفافة البردية العربية الكبيرة، عثر على لفافتين برديتين كبيرتين مكتوبتين باللغة القبطية الصعيدية القديمة، تؤرخان بنفس عام ١٤٤هـ بهما ترجمة لنص اللفافة البردية العربية، وهذه البرديات تفيد أهمية أسوان كثغر حربي لمصر في القرنين الأول والثاني الهجريين ، في مواجهة بلاد النوبة.

٥- المخطوطات والبرديات والشقافات Dstracu العربية، التي عثر عليها بمنطقة تل "إدفو " بمدينة إدفو بمحافظة أسوان، وترجع إلى العصر العباسي الأول، في القرن الثالث الهجري:-

أ - مخطوطة كاملة مكتوبة على كتاب مصنوع من أوراق البردي العربية، من كتاب الجامع في الحديث النبوي للإمام الحافظ المحدث الفقيه عبد الله بن وهب القرشي المالكي المصري ت ق ٣هـ ، نشره وصور صفحاته وورقاته على لوحات، المستشرق دافيد فل، بمطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية سنة ١٩٤٦م، والأصل البردي المخطوط محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهو يعد من أقدم المخطوطات العربية، والعثور على هذا المخطوط البردي بمدينة إدفو، يفيد انتشار الثقافة العربية الإسلامية بصفة عامة، والفقه المالكي بصفة خاصة ، في أقاليم الديار المصرية وصعيد مصر في القرن الثالث الهجري، وأن مدينة إدفو كانت مركزاً من أهم مراكز انتشار العلوم الإسلامية الدينية الشرعية النقلية في بلاد الصعيد، والمعروف أن المؤرخ والأديب الشهير الأدفوي، صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع لأنباء نجباء الصعيد، الذي أرخ فيه لانتشار الثقافة العربية في صعيد مصر، ينتمي إلى أسرة عربية عريقة، استوطنت مدينة إدفو.

ب- وثائق فقهية مؤرخة ، مكتوبة على الرق (جلد الغزال) ، ترجع إلى القرن الثالث، أهمها عقد زواج، لرجل عربي مسلم يدعي محمد الجرار، على

إمراة قبطية نصرانية تدعي يونة ابنة حريصة، وعقد بيع منزل، لنفس هذا الرجل، باع بموجبه منزلاً لآمراته يونه أبنت حريصة، كجزء من صداقها والعقدان صيغا وحرراً وكتيباً وسجلاً ووثقاً بمدينة إدفو، كما نص العقدان، مما يشير إلى وجود محكمة شرعية محلية بإدفو، سمعنا عنها منذ القرن الثالث الهجري، كما يوضح من ناحية أخري ، شيوع ظاهرة زواج الرجال العرب المسلمين من نساء قبطيات نصرانيات ومصاهرتهم لعائلات نصرانية قبطية، وذلك بعد إسقاط الخليفة العباسي المعتصم بالله للقبائل العربية من ديوان العطاء والجند سنة ٢١٨هـ، ونزول أقاليم وقري الديار المصرية واستيطانهم لهما، الأمر الذي أدي إلى استكمال التعريب العرقي للشعب المصري، وظهور الشعب المصري العربي، الذي يتكلم باللغة العربية، ويدين أغلب أفراده بالإسلام على نحو ما شرح المقريزي في خططه ، عند ذكره لنزول العرب ريف مصر، وتقبلهم للأراضي الزراعية، واتخاذهم الزرع معاشاً، بحيث فشا الإسلام في ريف مصر منذ مطلع القرن الثالث الهجري، وانقاد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام، على حد قول المقريزي، وهذه الوثائق محفوظة الآن بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

جـ - شقافات تجارية مؤخرة ترجع إلى القرن الثالث والرابع الهجريين، عبارة عن إيصالات تسليم وتسلم مبالغ مالية وصفقات تجارية وبضائع، الأمر الذي يشير إلى أن مدينة إدفو كانت من المراكز التجارية النشطة بصعيد مصر في هذه القرنين، وهذه الشقافات محفوظة الآن بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

٦- البرديات العربية التي عثر عليها بمدينة أسوان، وجزيرة الفنتين، وجزيرة الشلال (بولاق)، وهي ترجع للقرنين الثالث والرابع الهجري:-

من أهمها بردية عبارة عن عقد عتق عبد أسد يدعي مبارك ، أعتقه رجل عربي بمدينة أسوان، ونص في نص العتق، أن مبارك حر لوجه الله، ولا سبيل لأحد من ورثة السيد المعتيق على مبارك، إلا سبيل الولاء، وهذه البردية محفوظة

بالمتحف المصرية في برلين، وهي تؤرخ لظاهرة كثرة عتقد العبيد في الإسلام لوجه الله، كوجه من أوجه البر والخير التي حرص عليها الإسلام ابتغاء مرضاة الله والرغبة في ثوابه، وكوسيلة من الوسائل التي حددها الشرع الإسلام ككفارة عن الذنوب، كما تؤرخ لظاهرة دخول العبيد المبحردين في ولاء مواليهم العرب على سبيل ولاء العتاقة، وما حقق من أواصر الحب والانتماء من العرب ومواليهم بلغت حداً يشبه حد القرابة والنسب، الأمر الذي تميز به التشريع المعصوم للشريعة الإسلامية الإلهية، التي كان من مقاصدها تحرير العبيد وتصفية رق الوراقة، وكان له أكبر الأثر في القضاء على الرق في قارة أفريقيا قضاء وتدريجيا ، مما أدي إلى ترحيب شعوب القارة الأفريقية بالحكم الإسلامي المتمثل في ولاة مصر الإسلامية وأفريقية التونسية والدول الإسلامية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط والأقصى وبلاد السودان الشرقي والأوسط والعربي ، ومما أدي في العصور الحديثة إلى كراهية شعوب القارة الأفريقية للاستعمار الأوربي، الذي أتبع ساسته ومستشاروه سياسة التفرقة العنصرية في قارة أفريقيا، وتوسعوا في تجارة العبيد الأفارقة السودان، وحولوها إلى تجارة عاملة لخدمة أغراضهم الاقتصادية في مستعمراتهم في الهند وفي قارتي أوربا وأمريكا، ووصفوا أهل أفريقيا بـ (السود) و (الملونين) ووصفوا الحضارة الأوربية بأنها حضارة (الرجل الأبيض)، واستكفوا الاختلاط والامتزاج بالشعوب الأفريقية.

ومن البرديات التي عثر عليها بأسوان أيضا، بردية عربية أخري ، ترجع إلى القرن الثالث والرابع عشر الهجري، محفوظة بمكتبة جامعة هيدلبرج بألمانيا ، عبارة عن عقد زواج بين رجل ذمي وامرأة ذمية بمدينة أسوان، صبغ بالصبغ الشرعية الفقهية لعقود الزواج الإسلامية، وهو يفيد سريان أحكام الشريعة الإسلامية على أهل الذمي النصاري بمصر في القرون الأربعة الأولي للهجرة في بلاد الصعيد الأقصى بصفة عامة، ونفر أسوان بصفة خاصة، حتى في قضايا الزواج والطلاق بمدينة الفيوم القديمة (أوسينوي)، حيث وجدنا عقد طلاق بين رجل ذمي وامرأة ذمية نص فيه على أن هذه الطلقة هي الثالثة، وأنها طلقة بائنة

لا رجعة فيها حتى تنكح الزوجة زوجاً أخر كما تنص الشريعة الإسلامية، وسريان أحكام الشريعة الإسلامية على أهل الذمة، هو المقصود (الصغار) ، الوارد عن أية الجزية في سورة التوبة (براءة) من القرآن الكريم، وهو ما شرحه الإمام الشافعي في كتابه الأم، كتاب الجزية باب ظهور الإسلام على جميع الأديان، يعني قول الله سبحانه وتعالي: (هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهرها على الدين كله ولو كره المشركون)وقد فسر الإمام الشافعي ظهور الدين، بأن يقتنع كل من يسمع شرعيته ، بأنها الحق، وأن ما دونها باطل.

٧- الوثائق العربية والتي عثر عليها بمدينة دنقله، شمال جمهورية السودان العربية، وبعضها مكتوب على البرديات، وبعضها مكتوب على النسيج:-

وهي تفيد في دراسة جوانب من التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للسلطنة الكنزية الإسلامية في بلاد النوبة الشمالية وعاصمتها دنقلة وهي في المرحلة المبكرة من قيامها في الربع الأول من القرن الثامن الهجري، وهي الفترة التي شهدت من ناحية نقل أمراه وملوك وسلاطين بنى الكنز من عرب ربيعية لعاصمة ملكهم ، من مدينة أسوان وبلاد النوبة المصرية المتصلة بأرض أسوان، إلى بلاد النوبة السودانية وبشمال بلاد السودان كما شهدت من ناحية أرخي تعول مملكة مقرة النبوية وعاصمتها دنقلة رسمياً ونهائياً من المسيحية إلى الإسلام.

أ - وبعض هذه الوثائق مكتوب على البرديات العربية، ومؤرخ بتاريخ ٧٢٥هـ وهي عبارة عن عقود شراء أراضي زراعية بضواحي مدينة دنقلة خاصة بأمراء وأميرات بنى كنز من قبيلة ربيعة العربية ، ملوك وأمراء وأميرات الإمارة أو السلطة الكنزية في دنقلة وهي محفوظة بمكتبة هامبدبرج بألمانيا وهي تدل على استقرار واستيطان البيت الكنزي في مدينة دنقلة، وتحولهم عن سكنى مدينة أسوان وبلاد النوبة المصرية (مملكة المريس) المتصلة بأرض السودان، إلى سكني مدينة دنقلة وبلاد النوبة السودانية الشمالية بعد تحول ملك بلاد النوبة السودانية إلى أمراء البيت الكنزي من عرب ربيعة، بعد نزوجهم

من أميرات مملكة النوبة المسيحية الشمالية (مفزة)، وانتقال الملك إليهم حسب العرف الحامي في الميراث وتفضيل تحديث أبناء البنات والأخوات على أبناء الذكور الطلبية، لأن ذلك في اعتقاد هذا العرف الحامي في الميراث ـ أثبتت واضح نسباً.

ب – وبعضها مكتوب على النسيج، ومؤرخ في مطلع القرن الثامن الهري، وهي عبارة عن عقدي زواج، لزيجتين متتاليتين ، لإحدى الأسرات الكنزيات، ويفصل بين تاريخ الزيجتين فترة زمنية طويلة، وفي الزيجتين، تهم زواج هذه الأميرة الكنزية من أحدا أمراء القبائل العربية العريقة، والعقدان تم تحريرهما وتوثيقهما بمدينة أسوان، على يد قاضي قضاة تغر أسوان، وهما محفوظان بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهذا العقدان يدلا على محافظة أمراء بنى الكنز على أنسابهم العربية، فمع إمتزاجهم وإنصهارهم العرقي بأهل النوبة، عن طريق تزوج رجالهم من نساء نوبيات، حرصوا على تزويج بناتهم من أمراء عرب ينحدرون من نسل القبائل العربية العريقة في عروبتها، وهو الأمر الذي اقتضته وحاكته الأسر العربية التي استوطنت بلاد النوبة، وأدي تدريجياً إلى التعريب العرقي لبلاد النوبة السودانية، إذ كان هذا المسالك هو أيضا مسلك الغالبية العظمي من العرب المستوطنين لبلاد النوبة السودانية.

جـ – كذلك ثمة عقد زواج مكتوب على النسيج محفوظ أيضا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، خاص بزواج أمه نوبية من إماء إحدى الأميرات الكنزيات ، بمولى نوبي من موالي بنى كنز ، ونص العقد على تولى الأميرة الكنزية لتكاليف زواج أبنتها، الأمر الذي يشير إلى ظاهرة عتق الموال والإماء وتزويجهم عن طريق سادتهم العرب، وأثر أحكام الشريعة الإسلامية في تألف قلوب العبيد والإماء على الإسلام، والقضاء على رق الوراثة.

١٢- مجموعة مخطوطات
الحكمدار إسماعيل باشا أيوب

أ. عبد الرحمن عوض
باحث في تاريخ وادي النيل

حينما طلبت من موظفة الحاسب الآلي بقسم المخطوطات بدار الكتب أن تريني ما لديها من مخطوطات سودانية، هالني أن أجد مجموعة المخطوطات التي تتناول تاريخ السودان وحضارته نزرة ، وحتى هذا النزر في معظمه مجهول المؤلف.

وحينما تفحصت هذه المجموعة على الميكروفيلم لم أكن أدري أنني على موعد مع كشف تاريخي وثائقي .

ظلت هذه المجموعة من المخطوطات أكثر من سبعين عاماً بدار الكتب مجهولة المؤلف ، وشاءت الأقدار أن نعرف مؤلف هذه المجموعة بعد ١٢٢ عاماً من كتابة تلك المخطوطة.

تضم هذه المجموعة من المخطوطات الآتي:

١- تاريخ مختصر بأراضي النوبة ومن ملكها - مكتبة طلعت ، عربي ٢٠٠٩ - رقم الميكروفيلم ١٩٣٣١ . يقع هذا المخطوط في ثمان وأربعين ورقة مقاس ٢٢,٥ - ١٧,٥سم بخلاف اثنين وعشرين في المقدمة. عدد الأسطر ١٩ سطراً ، مكتوبة بخط النسخ في وضوح وجمال ، لون المداد في العنوان أحمر ، وفي المحتوى أسود. الورقة الأولى بها قطع ، والمخطوط به بقع بنية. حالة النسخ جيدة . الحاجة ماسة إلى الترميم، مادة التجليد الورق المقوى. اسم الناسخ : (رمز له بحرف الميم في نهاية المخطوط). حالة النسخ غير معلوم كيف نسخت. تاريخ النسخ موجودة في المضمون ولم يلحظها القائمون على الفهرسة بالدار. وقد رجحت أن يكون هذا المخطوط ومعه بقية المخطوطات الأخرى التي سيرد ذكرها ، هي للحاكم العام للسودان (الحكمدار) إسماعيل باشا أيوب ، وذلك استنتاجاً من قراءة ثنايا السطور التي تقول في مقدمة المخطوط : في ١٢٩٤هـ صار تعييننا حكمداراً على السودان بأمر حضرة إسماعيل باشا الخديو الأول.. وباستعراض تاريخ تعيين حكام عموم السودان ، نجد أن تاريخ تعيين إسماعيل باشا أيوب يعود

إلى ١٧ ذي القعدة ١٢٩٠ هـ الموافق ٦ من يناير ١٨٧٤م ، كما يقول د. جميل عبيد في كتابه "المديرية الاستوائية" صفحة ٣٦٣ ، دار الكاتب العربي ، وزارة الثقافة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م ، القاهرة . وقد كانت حكمدارية إسماعيل باشا أيوب من ١٢٩٠هـ- ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٣_ ١٨٧٧م ، والمقصود بكلمة صاحب المخطوط: صار تعييننا حكمداراً على السودان. أي حكمداراً عاماً على السودان؛ إذ أنه كان حكمداراً للسودان قبلي من نوفمبر١٨٧٣-١٨٧٧م/ ١٢٨٩هـ- ١٢٩٤هـ كما هو معلوم تاريخياً.

وقد تأخر نشر هذا المخطوط كما نستشف ذلك من المخطوط ص٢٢: وكان الانتهاء في ٢٢ ذي الحجة ١٢٩٦هـ . ولأمر ما لم يطبع المخطوط في المطبعة الحجرية بالسودان (مطبعة عموم السودان) . ويبدو أن ترك إسماعيل باشا أيوب لمنصبه كان سبباً من أسباب عدم طباعة المخطوط حتى ١٢٩٦ هـ. ومما يؤكد قولي أن هذه المجموعة من المخطوطات لإسماعيل باشا أيوب، إصلاحاته التي ذكرها السير صمويل بيكر فيما بعد . يقول المؤرخ السوداني د. مكي شبيكة في كتابه "مختصر تاريخ السودان الحديث" ص٣٦: وشهدت حكمدارية إسماعيل باشا أيوب نوفمبر ١٨٧٣م نهضة تعليمية حيث أنشئت خمس مدارس ابتدائية في الخرطوم وعواصم الأقاليم.

مما يدل على محبة الرجل للعلم واهتمامه بالتعليم ، ومعرفته بأهمية التدوين والتأريخ . ويبدو أن مسئولياته الجسام والظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد في وادي النيل حالت دون طباعة هذه المخطوطات ، ويبدو أن عزل الخديو إسماعيل عن مصر في ٦ رجب ١٢٩٦ هـ / ٢٦ يونية ١٨٧٩م وما لابسها من مقدمات ونتائج قضت تماماً على طباعة هذه المجموعة من المخطوطات النادرة . ولانشغال إسماعيل باشا أيوب بمسئولية أخرى في القاهرة.

٢- ذكر الجانب الجنوبي من الأرض وهي السودان ، ١١٢٧ تاريخ تيمور عربي.

٣- تاريخ ملوك الفونج بالسودان وأقاليمه إلى حكم محمد سعيد باشا تاريخ عربي ٣٧٦١ ، ورقم الميكروفيلم ٥٦٥٦٦ (٤٢ ورقة مقاس ٢٣ x ٣٠سم) . وفي هذا المخطوط لمحات عن دخول الإسلام في بلاد النوبة منذ عهد

هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ ، وهي توضح لنا كيف دخل العباسيون بلاد النوبة منذ ذلك التاريخ المبكر.

٤- "تاريخ ملوك السودان وأقاليمه إلى حكم إسماعيل باشا خديوي مصر" وهو يحمل رقم الحفظ ٢٥٤٧ تاريخ عربي. ورقم الميكروفيلم ٣٥٢٠٥ ، وقد كتب على هذا المخطوط: هدية إلى دار الكتب المصرية بتاريخ ١٩٢٧٠١٠٦ (م).

٥- "تاريخ السودان إلى زمن محمد علي باشا، تاريخ تيمور ٢٣٦٠" ، ورقم الميكروفيلم ٥٠٦٩٧ (صوّر هذا المخطوط من خزانة باريس ١٣٤٦هـ كما جاء في المخطوط). المخطوط به ٤٣ ورقة مقاس ٢٣,٥سم.

لقد تأكد لي مما سبق بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه المخطوطات الخمس لمؤلفها إسماعيل باشا أيوب، الذي عاد إلى مصر في ١٨٧٧م.

ونقول مجازاً الحكمدار إسماعيل باشا أيوب ، لأن حكمدارية السودان أُلغيت في ١٥ رجب ١٢٨٨هـ/٣٠سبتمبر١٨٧١م، وأصبح الاسم مدير عموم ، وكان إسماعيل باشا أيوب مدير عموم السودان (آخر من لُقّب بحكمدار السودان ممتاز باشا). أنظر د. جميل عبيد ص ٣٦٣- المديرية الاستوائية، ود. نسيم مقار - مصر وبناء السودان الحديث - ص١١٨- تاريخ مصر المعاصر (٣٩).

وجدت في هذه المجموعة من المخطوطات تقارباً شديداً في الأسلوب البياني وطريقة النسخ ووجود العديد من الألفاظ المصرية في بعضها مما يدل على أن هذه المجموعة لمؤلف مصري. ورغم أن إسماعيل باشا أيوب كان شركسياً إلا أنه كان مصري النشأة والتعليم والثقافة والروح.

تأتي قيمة هذه المجموعة من المخطوطات في الآتي:

١- علاقة صاحبها بصناع القرار آنذاك في مصر ، وقربه الشديد من الخديو إسماعيل. مما يجعل لشهادته التاريخية دوراً في الاستناد والتأليف.

٢- شهادته في التأريخ كشاهد عيان لبعض هذه الأحداث، وصناعته لبعضها كما في اشتراكه فتح دارفور مع الزبير باشا، قبل أن يكون إسماعيل باشا مدير عموم السودان قبلي. وكان قربه من رجال العهد وصناع القرار ميزة في دقة التناول.

٣- لعلها المرة الأولى التي يترك لنا فيها أحد حكام السودان تاريخاً مكتوباً. وإن كان ذلك التاريخ مكتوباً في حيز لم يأت بالجديد في كثير.

أما طريقة كتابة هذه المخطوطات أو المنهج ، فقد استخدم الحكمدار إسماعيل باشا أيوب الطريقة القديمة التي كانت سائدة آنذاك في عصره، وإن كان قد نضد بعض الصفحات بآراء جديدة لم يتسنّ لمؤرخي السودان القدامى الاطلاع عليها.

اتكأ إسماعيل باشا أيوب الحكمدار في معظم هذه المخطوطات - خاصة في المقدمات - على رواية المؤرخين السودانيين القدامى : الفقيه إبراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار، والفقيه محمد نور ود. ضيف الله ت ١٨٠٩هـ صاحب الطبقات المشهور، والزبير ود. ضوّة. وهذا مذكور في مقدمة بعض مخطوطاته ومنها "تاريخ ملوك الفونج بالسودان وأقاليمه إلى حكم سعيد باشا".

اعتقد أن مكتبة الأمير عمر طوسون التي انتقلت إليها هذه المجموعة من مخطوطات إسماعيل باشا أيوب الحكمدار، تحتوي على العديد من المخطوطات الأخرى مجهولة المؤلف . وكذلك مكتبة أحمد تيمور باشا التي وجدت فيها بعض هذه المخطوطات . وقد وجدت على سبيل المثال لا الحصر مخطوط :"تاريخ غوردون باشا وحصار الخرطوم" تاريخ تيمور ١٤٥٣ ، ميكروفيلم رقم ٢٧٨٠٤ وهي أطول المخطوطات السودانية بدار الكتب ٢٠٥ صفحة مجهولة المؤلف. وبالإطلاع على هذا المخطوط ، وجدتُ في نهايته ما يلي: "تم هذا التاريخ في شهر رمضان المعظم ١٣٠٣ (الموافق ١٨٨٥م) المعمول برياسة محمد باشا نصحي من رجال الحكومة الحضرة الفخيمة الخديوية (ص٢٠٥) ومحمد باشا نصحي كان من كبار القادة المصريين في السودان. وهذا المخطوط لنصحي باشا به تفاصيل بعض الأحداث التاريخية المهمة آنذاك.

لعل هذه المجموعة من المخطوطات ما هي إلا بداية لتاريخ الحكمداريين في السودان وهم أكثر من عشرين حاكماً منذ ١٨٢٥م.

التوصيات:

١- إعادة قراءة وتصنيف وفهرسة المخطوطات والوثائق السودانية أي التي تتناول تاريخ السودان وحضارته وثقافته وفنونه ومجتمعه وجغرافيته ، بدار الكتب المصرية (الدور الرابع - قسم المخطوطات) من قبل لجنة علمية متخصصة في تاريخ السودان الحديث والمعاصر ، وسائر التخصصات الأخرى.

٢- تبادل صور المخطوطات والوثائق مع دور الوثائق والمكتبات القومية ذات الصلة بمصر، وتبادل كافة ما يلزم من شرائح وصور فيلمية لمعظم المخطوطات والوثائق بين دار الكتب ولوثائق المصرية ودار الوثائق السودانية.

٣- تنشيط نشر بعض هذه المخطوطات في مسلسلة بعد التحقيق والضبط والتعليق عليها بين الجهات المختصة بنشر الثقافة الأفريقية (دار الكتب والوثائق _ الهيئة المصرية العامة للكتاب _ معهد البحوث والدراسات الأفريقية _ هيئة الاستعلامات (قسم الدراسات الأفريقية بها) الخ .....).

٤- تشجيع الباحثين على تحقيق هذه المخطوطات السودانية بدار الكتب والوثائق المصرية من خارج الدائرة الأكاديمية.

٥- جمع المخطوطات والوثائق من قبل أبناء وأحفاد وأهالي صناع التاريخ وأصحاب القرار من الشخصيات المصرية التي أدت دوراً في حركة التاريخ في وادي النيل، وترتيب ودراسة مثل هذه الوثائق والمخطوطات والمذكرات الشخصية وتحقيقها تحقيقاً علمياً دقيقاً ونشره.

٦- عقد مؤتمر سنوي أو ندوة سنوية للمخطوطات والوثائق في معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ندوة متخصصة تتناول كل عام مخطوطات ووثائق دولة أفريقية أو حضارة أفريقية، تقدم فيه الجديد فيما يتعلق بالمخطوطات والوثائق، أو بالاشتراك مع دار الوثائق المصرية.

٧- ضرورة تطوير وإدخال التقنيات الحديثة في أقسام المخطوطات بدار الكتب والوثائق القومية والمعاهد والمراكز العلمية الأخرى ذات الصلة.

٨- فتح باب التدريب للموظفين الأفارقة وأمناء المكتبات وأقسام الصيانة والترميم للمخطوطات والوثائق في مصر والتزود بالخبرات .

٩- ضرورة نشر التوعية بأهمية البردية والمخطوطة ، وإدخال ذلك في مناهج التعليم الأساسي والإعدادي والثانوي في وطن البرديات مصر.

المـراجع

١- د. جميل عبيد : المديرية الاستوائية - القاهرة - دار الكاتب العربي - ١٩٦٨م.

٢- د. مكي شبيكة : مختصر تاريخ السودان - بيروت - دار الثقافة - ١٩٦٥م.

٣- د. نسيم مقار : مصر وبناء السودان الحديث - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - تاريخ مصر المعاصر (٣٩) - ١٩٩٣م.

١٣- مخطوطات عربية
مصدرا للدراسات الأفريقية

د. حسن الصادقي
معهد الدراسات الأفريقية - الرباط

إن الحديث عن المخطوطات هو بالتالي الحديث عن تراث شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وهو تراث تركه الأجداد ليحافظ علية الأحفاد حفاظاً إيجابيا ، ينفض الغبار عنه وترميمه وإخراجه من الخزائن ومن فوق الرفوف ليري النور ليستفاد منه الحاضر خدمة للمستقبل .

ولابد من انتقاء الشروط وتطبيق المقاييس الصحيحة واتباع الطرق العلمية في خدمة هذا التراث لتوظيفه في دراساتنا وأبحاثنا .

ولا يخفي أن المخطوطات حظيت في كل البلدان العربية بالاهتمام والرعاية، ولا أدل من وجود الفهارس والكشوف والقوائم والأدلة واللوائح والذيول الخاصة بهاته في الخزانة أو تلك ، وتمثل كذلك في إخراج المخطوطات وتحقيقها ودراستها واستخدامها منجما للمعلومات والمعطيات ومع ذلك لا تزال دور المخطوطات العامة والخاصة في المغرب مثلا ، تضم الطم والرم في حاجة للفهرسة والدراسة والنشر .

وتمثل المخطوطات ثروة علمية تعتز بها الأمة الاسلامية ، وهي دليل علي علو مكانتها الثقافية ونبوغها الفكري وإشعاعها الحضاري .

ووجود المخطوطات ودورها الخاصة والعامة برهان أكيد علي الاهتمام بالعلم والعلماء، وإذا كان أجدادنا يجودون بالنفس والنفيس للحصول علي هذا الكتاب أو ذاك ، حتى ولو كان في أقطار بعيدة ، ويبذلون المال لشراء الكتب فقد ذكر الحسن الوزان في كتابه وصف أفريقيا أن أهل السودان يقايضون الكتاب بالفرس ، وهذا مثال بسيط علي ما بلغه المخطوط من عناية وتقدير .

ولم تذهب جهود الأجداد سدي ، إذ كما أنهم اعتبروا المخطوطات من النفائس ، فإنها شكلت اليوم درراً غالية وجواهر ثمينة ، تلهف عليها الباحثون ، ويقبل عليها الدارسون ، وينقب عنها وفيها رجال العلم المولعون بالمخطوطات .

إذا اعتبرت المخطوطات منجما لا ينضب ومصدرا زاخرا بعيون المعطيات إذ لابد من البحث عن وفي المخطوطات ، لاستجلاء الحقائق وتوضيح ما غمض وتكميل ما بتر من تاريخ أية أمة من الأمم .

وسيرا في نفس نهج ما تدعو إلية هاته الندوة المباركة ستكون ورقاتنا هاته محاولة تصب في المقصود لإيجاد تراكم مصدري ومعرفي ، وإغناء حقل المخطوطات المتعلقة بالدراسات الأفريقية ، بجملة من المصادر المخطوطة ، اللبنات الأولي لكل بحث موضوعي .

وحرى الذكر أن المصادر المخطوطة متنوعة بعضها مثل كتب الحوليات والتاريخ وبعضها غير موضوعي مثل كتب التراجم، الرحلات النوازل الأدب والأشعار والرسائل والمكتبات، العقود ، الفهارس ، الإجازات ....الخ .

وإذا كانت المصادر الموضوعية تهتم بالجانب السياسي وتاريخ الدول والأسر الحاكمة، فأن المصادر الغير موضوعية ، تزخر بمعطيات فريدة تشمل المجتمع ، العادات ، الثقافة ، الاقتصاد ....الخ وهي تكمل ما لا نجد في كتب الحوليات .

وسأحاول الإشارة إلي بعض المخطوطات التي تشمل في مجملها وهي متنوعة ، وغير محصورة في الزمان ولا مكان.

لأنها جولة متنوعة تجمعت من خلال البحث والتنقيب الأولي لإنجاز مشروع المصادر المتعلقة بافريقيا جنوبي الصحراء .

وبما أن مصدر ورقاتنا هاته هو المخطوطات الموجودة في الخزائن المغربية العامة والخاصة ، فلا بأس من الإشارة إلي بعض فهارس المخطوطات المغربية .

- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط ، من وضع إ. ليفي بروفنصال ، باريس ١٩٢١ وله طبعة ثانية سنة ١٩٩٨ (المجلد الأول) .
- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط من وضع الرجراجي وعلوش ، مجلدات ، باريس ١٩٥٤ ، الرباط ١٩٥٨ .
- فهرس المخطوطات العربية، من ضع محمد إبراهيم الكتاني وصالح التادلي، المجلد٤، ١٩٧٣ .

- فهرس المخطوطات العربية، من وضع محمد إبراهيم الكتاني وصالح التادلي، المجلد٥، ١٩٩٧ .
- برنامج يشتمل علي بيان الكتب العربية الموجودة بخزانه جامع القرويين بفاس ، من وضع الفاسي ، والفريد بيل ، فاس ١٩١٨ .
- فهرس مخطوطات الخزانة القرويين بفاس ، لمحمد العابد الفاسي ، ٤ أجزاء ١٩٧٩-١٩٨٠-١٩٨٣-١٩٨٩ .
- فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط حرف ك من أعداد محمد المنوني طبع سنة ١٩٩٩ .
- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط (التاريخ والرحلات) من أعداد عبد لله عنان ١٩٨٠ .
- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية من إعداد محمد المنوني ١٩٨٣ .
- فهارس الخزانة الملكية ، ج ٢ ، محمد العربي الخطابي ١٩٨٢ الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات .
- الجزء ٣ ، الرياضيات الفلك ، الجغرافيا ١٩٨٣ .
- الجزء ٤ ، المنطق وآداب البحث والموسيقي ونظم الدولة ١٩٨٥ ، الجزء ٥ الكيمياء والعلوم الخفية .
- فهارس الخزانة الحسنية قسم الوثائق ، المجلد الأول إعداد عمر عمور .
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، إعداد عبد السلام بن سودة ،٢ ج ، الدار البيضاء ١٩٦٢ .
- فهرس المكتبة العامة يتطوان، الجزء١ من إعداد احمد المكناسي ومصطفي الكوش، سنة ١٩٦١
- الجزء الثاني من إعداد احمد المكناسي ومحمد الغازي ١٩٦٥ .
- الجزء الثالث ، المهدي الدليرو ومحمد الغازي ١٩٧٠ .
- فهرس خزانة ابن يوسف بمراكش من إعداد الصديق بن العربي .

- دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت من إعداد محمد المنوني ١٩٨٩ .
- المصادر العربية لتاريخ المغرب من إعداد محمد المنوني ، الجزء الأول ١٩٨٤ ، الجزء الثاني ١٩٨٩ .
- فهارس خزانة مؤسسة علال الفاسي بالرباط من إعداد عبد الرحمن الحر يشي ،٤ أجزاء .
- فهرس المكتبة العلمية الصبيحية بسلا من أعداد محمد حجي ، الكويت ١٩٨٥.
- فهرس مخطوطات خزانة عبد الله كنون بطنجة .
- هذا بالإضافة إلى العديد من لوائح مكتبات أخرى مثل :
- لائحة خزانة المعهد الإسلامي بتارودانت .
- لائحة مخطوطات الجامع الأعظم بتازة .
- لائحة مخطوطات الجامع الكبير بمكناس .
- لائحة مخطوطات الجامع الكبير بوزان .
- لائحة الزاوية الحمزية بإقليم الرشيدية .
- المطبوعات الحجرية في المغرب إعداد فوزي عبد الرازق الرباط ١٩٨٦ .

هذا علي سبيل المثال لا الحصر إذ توجد العديد من خزانات الأسر لم تفهرس بعد، مثل خزانة محمد إبراهيم الكتاني وخزانة محمد المنوني بالرباط وخزانة الناصري وبنسعيد بسلا.

ومع ذلك ففي الخزائن المفهرسة السابقة الذكر ما يشفي الغليل ويروي الظمأ وما علي الدارسين إلا البحث والتنقيب عنه وفي هاته المخطوطات لاستخراج ما يمكن استخراجه من معطيات مفيدة .

وقد وجب التعريف بها للباحثين المشارقة وما أحوجنا للتعرف علي ذخائر المخطوطات في الخزائن المشرقية .

وسيكون حديثنا عن المعطيات المصدرية في شكل نصوص مستخرجة من مخطوطات متنوعة .

وقمنا بجرد لمجموعة من لمخطوطات حسب موضوعاتها :

١ - مصادر عن الطرق الصوفية .

٢ - رسائل سياسية مختلفة .

٣ - قصائد شعرية مخطوطة .

٤ - مصادر عن حركة ج عمر بن سعيد الفوتي .

٥ - مشكل التبغ والقهوة في المشرق والمغرب وبلاد السودان .

٦ - مصدر مخطوط عن القطر المصري في ق ١٩ .

مصادر عن الطرق الصوفية - الطرائق الصوفية :

تمثل هاته المصادر التنوع الطرقي في بلاد المغرب وبلاد السودان وفي أفريقيا بصفة عامة ، وسأقتصر علي ماله علاقة بضفتي الصحراء .

(أ) الكواكب الدرية في بيان أشياخ السلسلة المختارية القادرية لمحمد بن عبد الله بن ياسين المراكشي ت ١٣٣١ وه من المغاربة الذين درسوا بالأزهر نسخ بخط يده ثلاثة رسائل في تحقيق الوضع، في النحو وفي شرح توضيح الشيخ خليل (عام ١٢٨٨- ١٢٨٩) خ ع ك ١١٦٧ .

(ب) يوجد مخطوط الكواكب الدرية بخزانة م ع ف : ع ٢٩٢ (٧٦ص) وهو يؤكد عل انتشار الطريقة المختارية القادرية ، الكنتية بالمغرب خاصة المخزن العلوي (ص ٨ - ٩) .

فتح الملك العلام في تراجم علماء الطريقة التجانية الأعلام للشيخ محمد بن محمد الحجوجي الفاسي دفين دمنات عام ١٣٧٠هـ و١٥٠ صفحة م ٣٩ المقياس ٢٢ - ٣٥ خط مغربي لا باس به .

لم يذكره ابن سودة في دليلة وإنما ذكر في ص ٢٤٤ نقلا عن الشيخ الرهوني أن للشيخ الحجوجي مؤلفات هو إتحاف أهل المراتب العلمية بذكر الطريقة التجانية ولم يذكره محمد المنوني في المصادر العربية .

يشتمل علي ٢١٤ ترجمة لعلماء الطريقة التجانية ، وباخرة ١٨ قصيدة في مدح الشيخ احمد التجاني .

والكتاب بخط محمد الحجوجي انتهي منه في ربيع الثاني عام ١٣٥٣هـ .

أوله بعد الحمدلة والتصلية، أما بعد فان من اجل ما يعتني به المعتني ويتقرب به إلى الله المريدون الصادقون ذكر محاسن أهل الله .

أخره : وافق خروجه من مبيضته بدمنات عشية يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الثاني عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف علي يد جامعة أفقر الوري وأحوجهم لرحمه مورة الغني محمد بن محمد الحجوجي الحسني كان الله له وبلغة في الدارين أمله أمين والحمد لله رب العالمين .

افتتحه بترجمة شيخ الطريقة أحمد التيجاني المزداد سنة ١١٥٠ بقرية عين ماضي ، وممن ترجم لهم :

محمد الحافظ الشنجيطي العلوي نسبة لقبيلة دوي علي ، عبد الرحمان الشينجيطي ، محمد الطالب الشنجيطي ، محمد السالك الواداني ، احمد سالم الواداني نسبة إلى ودان بلدة بصحراء ، شنجيط دار علم ومقر خير وصلا .

- ج عمر بن سعيد الفوتي ، الفوتي أرضا الطوري وطنا الكدوي منشئا (الترجمة ٤٨ ص ٢٦٤ إلى ص ٢٦٧)
- اخوة احمد بن سعيد الفوتي وهو اكبر سنا من اخية ج عمر .
- محمد اكنسوس ، العربي بن السايح ، الدباغ ، السلاوي ، العلمي ، السعيد الشنجيطي ، محمد ابن القاضي الشنجيطي ، محمد الصغير ، ابن انبوجا الشنجيطي ، بابا بن احمد بيبا ، المختار بن وديعة ، عبد الله بن محمد بن الأمين ، التجاني بن باب ، محمد بن عثمان الشنجيطي ، محمد عال الشنجيطي ، احمد بن محمد الشنطيجي ، الهادي الشنجيطي ، محمد بن يحي الولاتي (ولالات دشرة من الحوض من بلاد شنجيط) (محمد احمد التشيتي) .
- احمد ابن ج عمر الفوتي ألفا (يعني الفقيه) بلغة السودان) ، محمود الكنكي السود[illegible] بوشياوي الجلوتي من قواد جيوش ج عمر مودي (محمد) جم البكاوي من تلاميذه ج عمر ، ألفا عمر البيضاوي

(قائد جيوش ج عمر) ، ألفا عمر بن الفقيه شيرنو (كان بطلا محاربا) شيرنو احمد بن علي جليا الكناوي الفوتي ، العلامة عمر بن علي جليا (له تأليف ، محاربا) عبد الله بن علي جليا .... الخ .

وقد ختم الحجوجي كتابه بامداح قيلت في اليجاني ، لشعراء منهم الشيخ محمود من تونس ، والحاج إدريس السناني المعروف بالحنش في ديوانه الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح، والأديب الوزير السياسي محمد بن إدريس ، والأديب الفاطمي الصقلي ، ومحمد المأمون الإدريسي الكتاني ، ومحمد الابراري الأندلسي وعبد السلام الزموري ، وسلطان المغرب مولاي عبد الحفيظ ، ومحمد الطيب إمام جامع القصبة بتونس .

وتتخلل تراجم كتاب فتح العلام ، معطيات تاريخية ، أدبية ، سياسية ، اقتصادية ، وإضافات جديرة بالمقارنة .

رسائل سياسية مختلفة :

عرفت الأوضاع السياسية في بلاد السودان في القرن ١٩ فترة من التقلبات، والتحالفات ، والتحالفات المضادة ، نتيجة للظرفية التاريخية لهاته البلاد ، فهناك الطريقة القادرية ، والطريقة التيجانية وصراعهما لاحتواء المنطقة ، وهناك الطوارق ، والفلان ، الكنانة ، والرماه ، والبانبارا ، وتزامن ذلك مع ظهور زعامات روحية وسياسية مثل احمد البكاوي الكنتي ، الحاج عمر بن سعيد الفوتي ، واحمد لب الماسني .

وكانت القبائل تغير علي بعضها البعض ، بل تعرضت المدن إلي الحصار أحيانا مثل المدينة تنبكت ومدينة حمد الله .

وادي هذا إلى رد فعل من حملة القلم وتبودلت المكاتبات والرسائل السياسات بل وحتى الأشعار ، للتعبير عن الرأي ولتبريرها ، وللدفاع عن المواقف من الخصم أو الصديق .

ونشط هاته الرسائل بصفة خاصة بين أفراد الطريقة القادرية وإفراد الطريقة التيجانية أو بين الزعامات الروحية ، السياسية والقبائل .

ومن الرسائل التي تصب في هذا الموضوع والتي لم تستغل بعد هناك :

١ - رسالة من الشيخ المختار الكنتي إلى علي بن الشيخ صالح وإخوانه .

٢ - رسالة من المختار الكنتي إلى أبناء عمر بن ملوك

٣ - رسالة من المختار الكنتي إلى أبناء غنوم .

٤ - رسالة من المختار الكنتي إلى رئيس جماعة أولاد علوش .

٥ - رسالة من المختار الكنتي إلى رئيس أودعيش .توجد هاتة الرسائل بمؤسسة علال الفاسي ع ٣٣٢ .

٦ - رسالة محمد بن المختار الكنتي إلى أهل جني من الرماه وسوقتهم واتباعهم من البيضا والسودان حين المخالفة مع الفلانيين م . ع . ف . ع ١٤٧ .

٧ - رسالة احمد البكاوي الكنتي إلى الأمير عبد الله بن الشيخ احمد لب .

٨ - رسالة احمد البكاي الكنتي إلى جماعة الإسلام من الفلان .

٩ - رسالة احمد البكاي الكنتي إلى الشيخ احمد بن احمد .

١٠ - رسالة احمد البكاي الكنتي إلى أبناء الولي الصالح بن سعيد وأبناء الأمير احمد لب وعامة الفلان من تنبكت إلى جني .

١١ - رسالة احمد البكاي الكنتي إلى الكيلسوسي محمد بن يحيى حول الحاج عمر الفوتي .

١٢ - رسالة احمد بن احمد لب المانسي إلى الحاج عمر لفوتي يعاتبه فيها علي دخول جيش الحاج عمر إلى شنشندن ، وهي تحت حكم احمد لب .

١٣ - رسالة احمد البكاي إلي الحاج عمر ، واتركها عند الحديث عن مصادر حركة الحاج عمر الفوتي تال .

القصائد الشعرية :

جادت قرائح علماء بلاد السودان بالأشعار رغم قلتها ، هي مادة تعبيرية مصدرية عما يجوش في خواطر بعض من اهتم بالتصوف والسياسية ، إذا لا يمكن الاقتصار فقط علي الرسائل النثرية السياسية .

وكانت بعض هاته القصائد تمثل نوعا من الحميمة بين رجالات المغرب والسودان .

ومن أمثلة هاته القصائد :

١ - قصيدة أخواني من احمد البكاي الكنتي إلى محمد ابن أدح الازموري (لم يذكرها الأستاذ المنوني) خ ع : د ٤٨٣١

إليك مني بلا حصى ولا عدد	أزكى سلام وأكرم إلي الأبد
اعني الفقيه ابن دح من شهدت	بصدقة السن الأحوال والمدد

أو بين رجالات السودان ومن الأمثلة :

٢ - المسجالات الشعرية بين البكاي الكنتي ومحمد بل بن عثمان ابن فودي توجد ب م ع ف : ع ١٤٧ . وهي ست مسجلات شعرية .

٣ - قصيدة مدح السلطان عبد المجيد .

٤ - قصيدة مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان .

٥ - قصيدة البكاي لحث بني كنته علي الجهاد .

٦ - قصيدة البكاي لجيش الفلان .

٧ - قصيدة البكاي إلى احمد لب حول الرحالة بارث ، توجد ب م ع ف : ع ١٤٧ .

مصادر عن حركة الحاج عمر بن سعيد الفوتي :

حظيت الحركة العمرية في بلاد السودان الغربي بالاهتمام والمتابعة ، ولا أدل علي ذلك من وجود العديد من التأليف التي كتبت حوله والتي تسمح بتتبع هاتة الحركة عبر مراحلها التاريخية .

ومن الملاحظ أن جل هاته المصادر لازال مخطوطات في دور المكتبات المحلية والأجنبية ، ونقدم في هاتة الورقات بعض المصادر المتعلقة بالحاج عمر الفوتي وحركته :

- عقد الجمان والدرر في ذكر كرمات الشيخ عمر ، لاحمد العدناني التيجاني.
- مكتوب في كرامات الحاج عمر الفوتي ، لمجهول .
- وثيقة في بيان غزوات الحاج عمر لمحمد الأمين بن الأمجد .

- ذكر ابتداء جهاد الحاج عمر .
- مكتوب في ذكر حج وجهاد الحاج عمر .
- ما جري بين احمد احمد لب والحاج عمر لمحمد بن احمد الفلاتي .
- ذكر جهاد الحاج عمر وغزواته واحمد التيجاني ، لمجهول .
- رسالة احمد لب إلى الحاج عمر .
- رسالة احمد البكاي إلى الحاج عمر .
- بغية الآلف في جواب ابن يركي تلف ، لاحمد البكاي .
- فتح الملك العلام في تراجم علماء التيجانية الأعلام ، لمحمد الحجوجي .
- مخطوط م . ع . ف .
- رسالة وقصيدتان في مدح الحاج عمر للمختار بن ويعه الله .
- قصيدة مدح اكنسوس المراكشي للحاج عمر .
- قصيدة مدح الحاج عمر لمحمد المكي .
- قصيدة مدح الحاج عمر لعثمان كوصا بن محمد الدارسي .
- قصيدة مدح الحاج عمر لمحمد بن محمود بن حمات .
- قصيدة مدح الحاج عمر لموسي بن صالح الفوتي .
- خميس قصيدة اكنسوس لمحمد الأمين بن بأي السوقي .

نصوص حول التبغ وشرب القهوة بين المشرق ، والمغرب وبلاد السودان

شكل التبغ أو طابه ، والبن ، مادة دسمة للفقهاء منذ أن دخلت هذه العشبة دار السلام في بلاد السودان والمغرب والمشرق ، وكذا شرب القهوة ، وسال المداد الكثير حولهما ، وصدرت في حقهما العديد من الفتاوى والرسائل .

فمن الفقهاء من قال بحلية التبغ بل كان من متعاطية مثل أحمد باب التنبكتي ، وابن أبى محلي ، ومنهم من حرمه أمثال السنهوري وبعض علماء فاس، ومنهم من قال بالكراهة ومن قال بالشبهة .

وبين هذا وذاك دخل الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في هاته العشبة ، إذ ربح البعض وخسر الآخر ، إذ بين الفينة والأخرى كان أولو الأمر

يأمرون بجمعها وإحراقها كما حدث في عهد المنصور السعدي ، مراد العثماني ، وعمر الفوتي ، وعثمان بن فودي ، واحمد لب الماسني ، أي من القرن ١٦ إلى القرن ١٩ ، ونفس الآمر من شرب القهوة .

فاعلم أن اكثر ترفههم بالقهوة واكثر لهوهم بالدخان ليلا ونهارا حتى في المشي في الطرق والأزقة .... ومصه لا يفتر وكذلك النساء يشربنه وهذا الدخان قد عم المشارق كلها حجازيا وتركا وشاما ومصرا عربا وعجما وهو من التنباك نعني طابه وهي تبغا بلغتنا واما الحشيش وهو المسمي عندنا الكيف فهو عندهم القبيح.

وممن قال بإباحة الدخان الفقيه العلامة السيد احمد باب السوداني والعلامة الاجهوري المصري وقال بالتحريم أيضا الأمام اللقاني والأمام سالم السنهوري.

واما القهوة فهي أخت الدخان في المشانق ومرافقته في الأزقة والشوارع والنمارق فيهما تلذذهم .... وبهما إكرامهم لمن أرادوا إكرامه فان مد لك الرجل عمود الدخان وفنجلا من القهوة ...... فقد آداك جميع الحقوق .

رحلة الوريكي :

"نزلنا عند محبنا الأرض.... ج الطيب التازي وهي قريبة من مشهد سيدنا الحسين... وقدم لنا احسن الطعام وذلك خلاف عادة أهل مصر الخاص منهم والعام لان إكرامهم بالخان والقهوة ويستعملون ذلك سرا وفجوي.... بل شاهدنا ذلك في بعض المحلات.... وكان عندهم هو القري... وقد تكلم عليها في الحديث والقديم ، فمنهم من قال بالإباحة ومنهم من قال بالتحريم .

ثم الشاربون لها فريقان ، فريق يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخرفة ، قل ما تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجواري والمرد واستفاف الدخان وشرب الشيشة واستنشاق تبغه ولعب الضامة والنرد والكارطة وغير ذلك مما لا يحل شرعا .

والفريق الثاني يشربونها نشوة كشربنا للشاي بحيث إذا تركوها يحصل لهم بعض الضرر فهؤلاء تباح في حقهم .

ويحمل على شربها أيضا ما فيها من المنافع كالاستعانة علي السهر عبادة ومطالعة وإزالة ما يحصل في الرأس من تديخ بسبب السهر (انظر السر المكنون في منافع القهوة والبون للشيخ عج في شرحة علي المختصر).

وكان الشيخ أبو الحسن علي بن عمر الشاذلي اليمني يحض اصحابة علي شربها ، كما ذكرا بن حجر في فتح الباري بل هو أول من أحدثها وأخرجها من ارض اليمن ، قال الحطاب وكان ابتداء ظهورها في القرن العاشر أو قبلة بيسر .

العلمي رحلة حجازية خ ع ك ١٠١٢

"تكلم عليها المتأخرون كثيرا سيما أهل الصحراء منهم العارف القطب السيد المختار الكنتي رحمة الله ، إلا أن كلامة عليها دل علي كراهيتها وإباحتها وجعل فيها اجل أهلها وقال من استعملها من اجل الدواء أو هو في بلد كان الناس يستعملونها وان تركها عندهم من مروءته ورتبته فله استعمالها وكذلك من تربي بها وان تركها يتضرر فله استعمالها ، وهذا كله من اجل الضرورة وجعلها أيضا من سفاسف الأمور فلا يتعاطاها إلا ضعفه العقول .

ثم تعقبه النبيه العلامة السيد محمد بن المختار وله رحمة الله تعالي بأي طويل في العلوم كلها تكشف عن محياها...... وذلك بأنها ليست بحرام ولا مكروهة وإنما هي من جمله متعاطيات الناس من المباحات كلها ، وله رضي الله عنه تأليف في جواب ورد عليه من طرف سلطان السودان في طابه إذ كان السلطان يدعي الورع فرمي للتجار بجميع ما بأيديهم من هذه السلعة واحرقها وضاع فيها أموال كثيرة وقد بعض التجار علي هذا الشيخ وشكوا عليه بما نالهم من ضرب السلطان في تضييع أموالهم إذ كثرة بضاعة المتجرين بالسودان هذه العشبة ، وحملة علي هذا الضيع بعض طلبته ممن تعاطي الفقه.

وقالوا قال الشيخ ابن ناصر رحمة الله تعالي.... وقال فلان وفلان وفلان وحاصل القول أن الشيخ أجابهم بما عنده وهي سيوف قواطع واسنه لوامع وبراهن سواطع تدل علي غزير علمة وفور عقلة وفهمة وتأييده ونور فتحة وثمرة الجواب انه أوجب الغرم علي السلطان لاموال النس لانه حرمها بلا دلائل التحريم . ولا طفة وبين له سبيل الحق".

ومن أراد أن يري جواهر العلوم وانوار المفهوم فليطالع هذا التأليف وكنت طالعت كتابا علي العشوب سماه كشف الرموز ومفتاح الكنوز يتكلم علي أعشاب الأرض ومنافعها .

١٦٤ - ١٦٥ رحلة الوريكي :

- نص حول التبغ أو طابه :

"بغيه الآلف في جواب ابن يركي تلف"

احمد البكاي الكنتي

مخطوط معهد الدراسات الأفريقية

طابة فإن الأمام رحمة الله لم ير بها بأسا ، ولم يرها مما يجري فيه الخلاف ، فترك من شاء أن يشربها ، ومن شاء تركها أن يتركها ، وعلي ذلك جميع المحققين من العلماء .

وأم الشيخ احمد بن محمد لب رحمة الله يذكر عنة أنة يحرمها ، فينهي عنها الناس وعلي ذلك جمع من الفقهاء وبلغني أيضا انه لا يعتقد تحريمها وانما يمنعها تدبيرا الجيوشة فالله اعلم أن ذلك صح .

فالأول من نوعي المختلف فيه ظنا لا حكم له كما قدمنا إلا ما اسمعنا والأخير منهما ليس للخلاف فيه معني فليتفهم في هذا الكلام"

بغية الآلف في جواب ابن يركي تلف :

لأحمد البكاي

- نص عن التكارنة :

"التكارنة وهم أناس من السودان سود اللون ليس لهم مؤن وإنما يحجون مساكين يسائلون الناس الحافا، ولهم مقاتلة ومضاربة مع المغاربة وغيرهم سيما عند النمرة بمني، ويجمعون اللحوم ويتقوتون بها بعد يبسها وأكثرهم جهال وبعضهم لا يرضي عن الأمام علي ولو ضربته ، ولهم حراب واسياف طوال يدبون بها عن أنفسهم ، ولهم أقدام معلمة يجمعون فيها ما يطلبونه من الناس ومرورهم علي النيل الصعيد ، ويحملهم فيها ما يطلبونه من الناس ومرورهم علي النيل الصعيد ، ويحملهم الباشا إلى جدة وإذا زاروا يرجعون إلى الينبع ولهم مدافعة مع خدام الحرام"

رحلة الوريكي محمد ابن عبد الله الغيغائي ، ص ٣٢٥ ، خ.ع.ج ٩٨

١٦٤ - ١٦٥ رحلة الوريكي :

- نص حول التبغ أو طابه :

"بغيه الألف في جواب ابن يركي تلف"

احمد البكاي الكنتي

مخطوط معهد الدراسات الأفريقية

طابة فإن الأمام رحمة الله لم ير بها بأسا ، ولم يرها مما يجري فيه الخلاف ، فترك من شاء أن يشربها ، ومن شاء تركها أن يتركها ، وعلي ذلك جميع المحققين من العلماء .

وأم الشيخ احمد بن محمد لب رحمة الله يذكر عنة أنة يحرمها ، فينهي عنها الناس وعلي ذلك جمع من الفقهاء وبلغني أيضا انه لا يعتقد تحريمها وانما يمنعها تدبيرا الجيوشة فالله اعلم أن ذلك صح .

فالأول من نوعي المختلف فيه ظنا لا حكم له كما قدمنا إلا ما اسمعنا والأخير منهما ليس للخلاف فيه معني فليتفهم في هذا الكلام"

بغية الألف في جواب ابن يركي تلف :

لأحمد البكاي

- نص عن التكارنة :

"التكارنة وهم أناس من السودان سود اللون ليس لهم مؤن وإنما يحجون مساكين يسائلون الناس الحافا، ولهم مقاتلة ومضاربة مع المغاربة وغيرهم سيما عند النمرة بمني، ويجمعون اللحوم ويتقوتون بها بعد يبسها وأكثرهم جهال وبعضهم لا يرضي عن الأمام علي ولو ضربته ، ولهم حراب واسياف طوال يدبون بها عن أنفسهم ، ولهم أقدام معلمة يجمعون فيها ما يطلبونه من الناس ومرورهم علي النيل الصعيد ، ويحملهم فيها ما يطلبونه من الناس ومرورهم علي النيل الصعيد ، ويحملهم الباشا إلى جدة وإذا زاروا يرجعون إلى الينبع ولهم مدافعة مع خدام الحرام"

رحلة الوريكي محمد ابن عبد الله الغيغائي ، ص ٣٢٥ ، خ.ع.ج ٩٨

ويقول عن التلغراف " وللنصارى بها خط وافر .... وهم القائمون بالسلك الآتي بالأخبار تعطي درهما عن كل حرف " ويصف الأعمدة والأسلاك كأنها خيوط الحصير .

ويصف طريقة بناء الجسور علي النيل ، ومشاهداته في الإسكندرية حيث اكتري دارا مليحة بثلاثة دراهم وما بها من عمارة ، حضارة وتجارة ، واعجب بالمرسى الذي يشتغل به حوالي ٤ إلى ٥ آلاف صانع ومعلم ، وان عدد سكان الإسكندرية ٧٠ ألف نفس بالإحصاء ، أهل مصر ومملكتهم لهم كتاب يحصون كل ما زاد أو نقص عوت أو غيره "

ويزور رحالتنا المطبعة ودار الكتب ويقول " أن الباشا محمد علي ... وهو أبو سعيد باشا المتولي اليوم .... احتال علي آلات المطبعي كلها جمع منها خيارها ... الكاغد البديع وألوانا جيدة من المداد ما يحتاج إلية وصرف في ذلك أموالا كثيرة "

ويذكر أن لباس أهل مصر " فاعظمه الكتان المزوق وبعضهم بلبس الملف ، وهو يتكون من السراويل والقواميص والعبايا والزعبوط والقلانيش والطربوش .

وأما الأكل فهو الفول المدمس - العيش ، الطرشي للعامة ، والدجاج واللحوم الضانية للخواص، إلى غير ذلك من المعطيات الاجتماعية مثل عادات الزواج والاحتفالات وأخلاق الناس.

الخاتمة:

وأملي من تقديم هاته الورقات هو إغناء حقل الدراسات الأفريقية بجملة من المصادر المخطوطة التي لم تستغل بعد ، وإرشاد جمهور الباحثين والطلاب إلى مظان هاته المخطوطات حتى يشمروا علي ساعد الجد ، ويختاروا منها ما يفيد أبحاثهم ويقحموها في دراساتهم وتحقيقاتهم وبذلك لا تبقي هاته المخطوطات حبيسة الرفوف والخزائن لان فهرستها والإشارة إليها هي بداية لتحقيقها ونشرها في إطار تعاون علمي مشترك بين الجامعات المغربية والجامعات المصرية بصفة عامة ، وبين معهد الدراسات الأفريقية بالرباط ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية بالقاهرة بصفة خاصة .

١٤- مخطوطات قلم الوزارات مصدراً تاريخياً د.محمد صبرى السربونى نموذجاً

د.سيد على إسماعيل

رئيس قسم الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم جامعة المنيا

قلم الوزارات جهة إدارية، ضمن جهات أخرى عديدة، بدار المحفوظات العمومية بالقلعة، وتتبع مصلحة الضرائب المصرية. وهذا القلم، يحتفظ بأغلب الملفات الرسمية الخاصة بموظفى الحكومة المصرية، منذ عهد محمد على باشا الكبير، وحتى عام ١٩٦٠، على وجه التقريب. وهذه الملفات تعتبر من أهم المصادر التاريخية، لأنها تشتمل على أصول الوثائق المتعلقة بأسماء أصحابها، منذ توظيفهم، وحتى إحالتهم إلى المعاش أو وفاتهم. ووثائق هذه الملفات، تخدم الباحثين فى عدة مجالات، منها:

١ - كتابة ترجمة وثائقية لبعض الأعلام، ممن يصعب على الباحث أن يجدها، فى الكتب المنشورة. وأيضاً معرفة أمور تاريخية، امتنع بعض المؤرخين من الاقتراب منها فى وقتنا الحاضر. ومن ذلك ملفات: خورشيد رائف، عبد الله فكرى، إبراهيم أسعد، حسن عيسوى .. نُظار تكية مكة المكرمة. مصطفى نصر، مصطفى خلوصى، محمد أمين .. نُظار تكية المدينة المنورة(١).

٢ - كتابة ترجمة وثائقية لبعض الأعلام، ممن يصعب على الباحث الوقوف عليها، بصورة دقيقة، فى الكتب المنشورة. ومن ذلك ملفات: كلوت بك، سليمان باشا الفرنساوى، على باشا مبارك، على باشا إبراهيم، سعد باشا زغلول، مصطفى باشا رياض، إلياس الأيوبى(٢).

٣ - التعرف على توقيعات وأختام وخطوط بعض الأعلام، وأسلوب كتاباتهم، وذلك فى مجال تحقيق الوثائق المجهولة والمتهالكة.

٤ - التعرف الدقيق للمسيرة الوظيفية، لبعض الأعلام، بما فيها من وظائف وأعمال، أسقطها كُتاب السير والتراجم، لعدم معرفتهم بها أو لأسباب أخرى. ومن ذلك ملفات: إسماعيل بك عاصم، باولينو درانيت باشا، ماريت باشا(٣).

٥ - التعرف الدقيق على أسماء زوجات وأبناء وورثة بعض الأعلام، ومن ذلك ملفات: أبو السعود أفندى، عبد الرازق بك عنايت، على باشا مبارك(٤).

٦ - التعرف على أدق تفاصيل الأعمال السرية والعلنية، التى قام بها هؤلاء الأعلام، ومن ذلك ملفات: عباس حافظ، عبد العزيز البشرى، إبراهيم رمزى(٥).

٧ - التعرف على براءات النياشين والرُتب المختلفة، مثل النيشان المجيدى، والنيشان العثمانى، ورتبة المتمايز ورتبة الميرميران. وذلك فى ملفى إسماعيل صبرى باشا، وأحمد شوقى(٦).

٨ - معرفة الأسماء الحقيقية لبعض الأعلام، مثل: د.طه حسين، اسمه طاهر حسين على. حفنى ناصف، اسمه محمد الحفنى ناصف. إسماعيل صبرى، اسمه إسماعيل عبد السلام إمام. زكى طليمات، اسمه زكى عبد الله سليمان طليمات. د.محمد شفيق غربال، اسمه شفيق عبد الحميد غربال(٧).

وإذا تطرقنا بصورة عملية لبعض الملفات، نلاحظ أنها تشتمل على وثائق نادرة، مثل ملف (أبو السعود أفندى)، الموجود به أقدم شهادة أعلام وراثة مخطوطة، فى العصر الحديث عام ١٨٧٨. وملف (إسماعيل صبرى باشا) وكيل الحقانية وشيخ الشعراء، الذى يشتمل على شهادته الدراسية كأحد الطلبة المبعوثين لدراسة القانون، بمدينة أكس بفرنسا عام ١٨٧٨, وملف (عبد العزيز البشرى)، الذى يشتمل على شهادة عالمية الأزهر عام ١٩١٢، موقعة من الخديو عباس حلمى الثانى، ومختومة بخاتمه. وملف (أحمد زكى أبو شادى)، الذى يشتمل على أول شهادة فى تخصص البكتريولوجى، يحصل عليها عربى عام ١٩١٧ من لندن. وملف (د.محمد صبرى)، الذى يشتمل على أول شهادة دكتوراه الدولة من السربون، يحصل عليها مصرى عام ١٩٢٤. وملف (إبراهيم رمزى)، الذى حصل على شهادة الكلية التعاونية بمانشستر، عن طريق المراسلة عام ١٩٢٤, وملف (زكى طليمات)، الذى يشتمل على مستندات تثبت، أنه أول مبعوث من الحكومة المصرية لدراسة فن التمثيل والإخراج بفرنسا عام ١٩٢٥(٨).

وهناك بعض الملفات التى تعكس تصرفات سياسية للدولة، من الممكن أن تكون معروفة، ولكننا لم نحصل على وثائق، كأدلة عملية عليها. ونسوق لذلك ثلاثة أمثلة:

الأول : تعسف الحكومات المصرية، ومحاولتها تكميم أفواه الموظفين، وكبت حرياتهم السياسية، وذلك عن طريق الفصل التعسفى. ويتضح هذا من ملف (إسماعيل عاصم)، الذى رفت بالاستصواب عام ١٨٨٣، لوقوفه بالقول والكتابة مع الثورة العرابية. وملف (عباس حافظ)، الذى كتب مقالة صريحة عن رأيه السياسى، فى أحد ضباط الجيش - وهو حمدى سيف النصر- عام ١٩٣٠، مما أدى إلى رفته(٩).

الثانى : محاولة الحكومة المصرية، إحلال المصريين محل الأجانب، فى الوظائف الحكومية المصرية. وهذا يتضح من ملف (د.محمد شفيق غربال)، عندما تم إحلاله كأستاذ للتاريخ الحديث، بدلاً من المسيو جراندور، بكلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٢٩. ومن ملف (منصور غانم)، عندما تم إحلاله كمدير للأوبرا الملكية، بدلاً من المسيو فورناريو كانتونى عام ١٩٣٧(١٠).

الثالث : قرارات ثورة يوليو ١٩٥٢، وبالأخص قرار لجنة فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى، وهو ما سُمى بعد ذلك بعملية التطهير. وهذا القرار وأسلوب تنفيذه، موجود فى عدة ملفات، منها ملف زكى طليمات، وملف د. محمد صبرى(١١).

هذه إطلالة سريعة، تبين قيمة استخدام هذه الملفات فى الأبحاث المتنوعة، وبالأخص الأبحاث التاريخية والأدبية. ويجب علينا أن نتحدث بشىء من التفصيل، عن أحد هذه الملفات، وما يحتوى عليه من وثائق مهمة، كنموذج عملى لأحد المصادر التاريخية.

ملف وثائق د.محمد صبرى :

يعتبر محمد إبراهيم صبرى السيد إبراهيم، المعروف بالدكتور محمد صبرى السربونى أول مصرى وعربى يحصل على دكتوراه الدولة فى التاريخ العصرى، من السربون عام١٩٢٤. وأول مصرى وعربى كتب عن تاريخ الثورات المصرية الحديثة. وهو أيضاً من أوائل المتخصصين فى دراسة التاريخ الحديث، فى الجامعات المصرية. ولم يقتصر جهد د.محمد صبرى، فى الكتابات التاريخية فقط، بل هناك

كتابات أدبية أخرى، لا تقل أهمية عن كتاباته التاريخية، جعلت منه مؤرخ الأدباء، وأديب المؤرخين. ورغم هذا كله، فإن محمد صبرى، للأسف الشديد، لم يحظ بما يليق به بعد وفاته، من كتابات تذكره وتبرز مكانته الأدبية والتاريخية، إلا من خلال شخص واحد(١٢) ، هو أحمد حسين الطماوى، الذى كتب عنه عام ١٩٨٦، كتاباً بعنوان (صبرى السربونى: سيرة تاريخية وصورة حياة)(١٣).

ورغم أهمية هذا الكتاب، والجهد الواضح فيه، إلا أن الطماوى كتب سيرة السربونى، من خلال معايشته له كمريد مخلص، إذ لازمه طوال اثنى عشر عاماً(١٤). ولعل البعض يظن أن هذا الكتاب كُتب بأسلوب عاطفى من مريد لأستاذ(١٥) ، أو كُتب بأسلوب حماسى كرد فعل لتجاهل الأدباء والمؤرخين لشخصية السربونى بعد وفاته(١٦) ، خصوصاً وأن بالكتاب بعض الحكايات والذكريات، التى دارت بين الاثنين. وهنا تظهر مشكلة منهجية، تتمثل فى مدى نسبة حقيقة هذه الحكايات والذكريات! لأن علاقة السربونى بالطماوى بدأت عام ١٩٦٦، أى بعد بلوغ السربونى اثنين وسبعين عاماً، وهذا العمر كفيل بأن يذهب بأدق تفاصيل الحياة من ذهن الإنسان. هذا بالإضافة إلى نسبة مصداقية ما رواه السربونى للطماوى، خصوصاً الأحداث التى جاءت فى أوائل القرن العشرين، قبل أن يولد الطماوى.

هذا الأمر كان يدور فى ذهنى، أثناء قراءة الكتاب لأول مرة، قبل أن اطلع على وثائق ملف السربونى بالقلعة. ولكن عندما اطلعت على الملف، وأعدت قراءة الكتاب بصورة متأنية، اكتشفت أن السربونى - رحمه الله - كان صادقاً فى كل كلمة دارت بينه وبين الطماوى. وأن الطماوى كان أميناً فى نقلها وتحليلها. هذا بالإضافة إلى أن الطماوى قام بعدة تفسيرات، أنتج منها نتائج مهمة، تطابقت مع بعض وثائق الملف، وقام أيضاً، بما له من قدرات أدبية وتاريخية، بإيضاحات كثيرة لم يذكرها السربونى نفسه. وكأن كتاب الطماوى، كان ينقصه بعض وثائق الملف، لتدعم ما فيه بصورة قاطعة. ولكن فى نفس الوقت، أباحت الوثائق بأشياء لم يذكرها السربونى للطماوى، وبالتالى لم يقم الطماوى بذكرها أو تفسير فحواها، لعدم معرفته بها، حيث ظلت هذه الوثائق مجهولة عن الجميع، حتى يومنا هذا. وهنا تظهر أهمية وقيمة وثائق ملف محمد صبرى، المحفوظ بقلم الوزارات بدار المحفوظات العمومية بالقلعة، تحت رقم (٩٠٩)، محفظة رقم (١٢٣٠).

يبدأ الملف بثلاث ورقات، من النوع المقوى ذات إطارات زخرفية، لشهادات دراسية. الأولى شهادة الابتدائية عام ١٩٠٨، والثانية شهادة الليسانس من السربون بفرنسا عام ١٩١٩، والثالثة شهادة الدكتوراه من السربون بفرنسا أيضاً عام ١٩٢٤.

أما الورقة الرابعة، فهى وثيقة تقول: وهو فى فرنسا وقبل التحاقه بخدمة الحكومة، كتب باللغة الفرنسية الكتب الآتية: (الثورة المصرية) LA REVOLUTION EGYPTIENNE جزءان عام ١٩١٩، من تقديم أستاذ الثورة الفرنسي بالسربون أولار A.AULARD(١٧). (المسألة المصرية) عام ١٩٢٠. (نشوء الروح القومية المصرية ١٨٦٣-١٨٨٢) GENESE DE I,ESPRIT NATIONAL EGYPTIEN, LA 1924 رسالة الدكتوراه. (تقرير عرابى باشا) بمقدمات وتعليقات: رسالة ثانية : للدكتوراه. كما صنف باللغة العربية الكتب الآتية: (تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا) محاضرات ألقيت بالجامعة المصرية ١٩٢٢. (محمود سامى البارودى) بحث فى حياته وشعره ١٩٢٣. (إسماعيل صبرى) بحث فى حياته وشعره(١٨).

تم تتوالى الوثائق، فنجد خطاباً من محمد صبرى إلى وزير المعارف العمومية، بتاريخ ١٩٢٤/٩/٩، يطلب فيه تعيينه أستاذاً للتاريخ العصرى، فى الجامعة المصرية، بعد أن أثبت فى بداية الخطاب، أنه مولود بجزيرة الألج فى ١٨٩٤/٧/٩، وأنه حاصل على شهادة البكالوريا المصرية عام ١٩١٣، وعلى شهادة الليسانس فى الآداب من جامعة السربون بباريس عام ١٩١٩، وعلى الدكتوراه فى الآداب من باريس عام ١٩٢٤. وبأسلوب العالم الواثق من علمه، يشرح للوزير قيمة مؤهلاته العلمية، قائلاً:

"وليسمح لى دولة الوزير بهذه المناسبة، أن ألفت نظر وزارة المعارف إلى أنى، كان لى الشرف بأن أكون أول مصرى نال الدكتوراه فى الآداب (قسم التاريخ) المعروفة بدكتوراه الحكومة DOCTORAT ES LETTRES. وهى خلاف الدكتوراه المعروفة بدكتوراه الجامعة DOCTORAT DE L,UNIRVERSITE، التى تستغرق من الدراسة أكثر من ثلاثة أو أربعة أعوام. فى حين أن الأولى لا تتطلب أقل من عشرة أعوام، بين دراسة وبحث(١٩). وهى أعلى درجة علمية فى فرنسا على الإطلاق، ولا يوجد محل للمقارنة بينها وبين أية درجة أخرى. ويمكن الوزارة أن

تأخذ رأى مسيو كليمان الأستاذ بالجامعة المصرية، أو غيره من الفرنسيين. وإنى مستعد لتقديم أى إيضاح إضافى. وأستأذن دولة الوزير فى أن أزيد إلى ما تقدم، إنى حصلت على هذه الدكتوراه - التى قلّ من ينالها من الأساتذة الأجانب - مع لقب شرف".

مرّ أكثر من شهر، ولم يتلق محمد صبرى رداً على طلبه، وعلم أن وزارة المعارف تقدر مرتبات الأساتذة بناءً على شهاداتهم، لذلك أرسل خطاباً آخر إلى وزير المعارف، فى ١٩٢٤/١٠/٢٢، قال فيه :

لاحظت أن وزارة المعارف، تقدر مرتبات الأساتذة بالقياس إلى الشهادات التى يحملونها. وإذ كانت الشهادات التى أحملها، نادرة فى مصر، رأيت أن أوضح قيمتها".

أولاً: شهادة الليسانس فى الآداب (قسم التاريخ): ولا يستطيع أن يظفر بها إلا من كانت له قوة حامل البكالوريا الفرنسوية، بحيث يتقن اللاتينية من اللغات القديمة، والفرنسية ولغة أخرى حديثة، هى الإنجليزية بالنسبة إلىّ. بهذا الشرط وحده، يستطيع الطالب أن يتقدم لامتحان الليسانس. وهى أول الشهادات العليا من شهادات (الحكومة) فى الآداب، التى تخالف من جميع الوجوه شهادات (الجامعة)، التى تمنحها الجامعة عادة للأجانب، ولا تخول حامليها من الفرنسيين أى حق فى التدريس، بناء على دكريتو صادر من الحكومة فى هذا الصدد. ولابد للفوز فى الليسانس، من أداء امتحان دقيق شاق تحريرى وشفوى، لابد فيه من إتقان الإنشاء وطرائقها باللغة الفرنسية، والترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية(٢٠) ، والتخصص فى علوم أخرى، هى بالنسبة إلىّ التاريخ بجميع أقسامه، ولاسيما التاريخ العصرى، ثم الجغرافيا العليا، ثم تحليل النصوص التاريخية، ثم مادة أخرى يختارها الطالب، هى بالنسبة إلىّ الآداب الفرنسية. فإذا ظفر الطالب بهذه الشهادة، فله الحق أن يسلك أحد طريقين:

(أ) طريق التعليم فى المدارس الثانوية، وإذن فلابد من الحصول على إجازة التعليم، وهى إجازة لا ينالها إلا الفرنسيون، بمسابقة خاصة بينهم.

(ب) أو طريق التعليم فى الجامعات، ولابد لذلك من الحصول على شهادة الدكتوراه فى الآداب من الحكومة LETTRES DOCTORAT ES، ولهذا لابد من إعداد رسالة قوية فى بحث علمى بكر، لم يطرقه كاتب من

قبل، ثم نشر رسالة أخرى جديدة فى بابها. ولا يمكن الاستعداد لهذه الشهادة عادة، فى أقل من خمس سنوات (بعد الليسانس)، وقد ينفق فيها عشر سنين أو أكثر. وكثيراً ما نجد أساتذة فى الجامعات الفرنسية نفسها أو الأجنبية، يستعدون لهذه الشهادة، أضرب مثلاً الكاتب الفرنسى الشهير PIERRE MASSON الذى كان أستاذاً فى جامعة زوريخ، وكان يعد رسالته عن (دين جان جاك رسو)، حتى إذا ما أتمها وقبلت، ولم تبق إلا مناقشته فيها، قتل فى الحرب، فمنحته السربون شهادته بعد موته. وغيره كثيرون من أساتذة الجامعات يتقدمون كل سنة لنيل هذه الشهادة من السربون، بصفتها أكبر معهد علمى أدبى فى فرنسا.

وأستأذن دولة الوزير الجليل، فى أن أذكر إن زميلى الدكتور حسن الديوانى، حاز الدكتوراه فى العلوم DOCTORAT ES SCIENCES وهى ثانية الـ DOC-TORAT ES LETTRES وكان بدأ تعيينه فى مدرسة الطب على ما أذكر، بقرار من مجلس الوزراء فى ٨ يناير١٩٢٣ بمرتب قدره خمسون جنيهاً فى الشهر.

مما سبق ذكره، يتضح أن شهادتى، هى شهادة التعليم العالى فى الجامعات بالمعنى الصحيح. وألفت بهذه المناسبة نظر دولة الوزير، إلى ما كتبه أستاذ فى السربون M.DANIEL HNORNRT عن هذه الشهادة وسواها، فى مجلة ANNALES فى ١٤ أكتوبر ١٩٢٣، ونص المقال مرفق بهذا الطلب(٢١). وإنى أترك بعد ذلك لعدالة دولتكم، تقدير ما يليق بشهادتى من المرتب".

وهذا الخطاب بلا شك، وثيقة مهمة، لبيان القيمة الحقيقية لشهادتى الليسانس ودكتوراه الدولة من السربون فى هذه الفترة، ومدى معاناة المصريين فى الحصول عليهما، خصوصاً فى تعلم اللغات، والكم الهائل من المواد الدراسية. هذا بالإضافة إلى الأبحاث العلمية المبتكرة، التى كانت تقدم فى هذا الزمن. وهذه المعلومات الوثائقية، تفيد المهتمين بدراسة تاريخ التعليم والبعثات العلمية المصرية فى تلك الفترة، كما أنها تعكس لنا قدرات محمد صبرى العلمية، وتفوقه على أقرانه، وكيف كان له السبق فى نيل دكتوراه الدولة من السربون، ليلقب بعد ذلك بالسربونى طيلة حياته.

ولكن لهذا الخطاب، قراءة أخرى، تتمثل فى أسلوب السربونى الحاد فى مخاطبة الوزير، وإلفات نظره إلى أشياء، افترض السربونى أن الوزير يجهلها! فمن غير المنطقى أن وزير المعارف فى ذلك الوقت يجهل الفرق بين دكتوراه الدولة ودكتوراه الجامعة. هذا بالإضافة إلى ذكر قيمة دكتوراه حسن الديوانى، ومرتبه بناء عليها! ومن غير المعقول أن الوزير يجهل هذين الأمرين! إلا إذا اعتبرنا أن السربونى أراد الطعن فى مكانة حسن الديوانى العلمية.

ومهما يكن من الأمر، فبسبب توضيح محمد صبرى لمؤهلاته العلمية، فى الخطابين السابقين، تم تعيينه مدرساً بمدرسة المعلمين العليا فى منتصف نوفمبر ١٩٢٤، ونصت الوزارة فى قرارها، على الآتى: "ولما كانت قواعد تحديد المرتبات، لم تنص على المرتب الذى يمنح لحامل الشهادة، الذى يحملها صبرى أفندى. فقد رأت وزارة المعارف العمومية، تعيينه تحت الاختبار، بأول مربوط الدرجة الرابعة، وقدره ٥٤٠ جنيهاً سنوياً". وهذا يعنى أن الوزارة لم تغبن حقه فى الوظيفة ولا فى المرتب. لأن وزارة المالية، حتى هذا التاريخ، لم تقدر المرتب المناسب لمن يحمل شهادة دكتوراه الدولة من السربون، فعاملت محمد صبرى مالياً، معاملة من يحمل دكتوراه الجامعة، وهى أعلى شهادة من حيث المرتب المالى، فى هذا الوقت.

وبعد شهرين رفعت وزارة المالية، مذكرة إلى مجلس الوزراء، بناء على مذكرة وزارة المعارف، بخصوص شهادة الدكتوراه، الخاصة بمحمد صبرى، جاء فيها: ".. ودرجة الدكتوراه هذه، التى تمنحها الجامعات الفرنسية، هى من الدرجات الحكومية التى لا تمنح إلا نادراً جداً، وعن أعمال قيمة للغاية. ولحامليها الحق فى أن يعينوا أساتذة مساعدين فى الكليات. وهذا ما حدا بالوزارة إلى انتخاب محمد صبرى أفندى، لتدريس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا، إلى أن تنشأ الجامعة الحكومية. وهى تعتقد أن تعيينه هذا، سيكون عاملاً من عوامل ترقية التعليم العالى فى مصر، لأنه أول مصرى حاز هذه الدرجة العلمية العالية، فضلاً عن كفاءته وسعة معارفه. وبناء على ذلك، ترى أنه خير من يسند إليه منصب أستاذ التاريخ، فى مدرسة المعلمين العليا، وبالتالى فى الجامعة الأميرية". وهذه المذكرة، توضح أن وزارة المعارف تحاول أن تساند صبرى، قدر طاقتها، خصوصاً فى بيانها قيمة شهادته العلمية، التى لا نظير لها فى مصر فى هذا الوقت، وأيضاً فى بيان قيمة صبرى العلمية والعملية.

وقد وافق على هذه المذكرة، أحمد زيور رئيس الوزراء، ومن ثم أصدر على الشمسى وزير المعارف قراراً فى أول أكتوبر ١٩٢٦، بنقل محمد صبرى الأستاذ المساعد بالجامعة المصرية كمدرس بمدرسة دار العلوم. وظل صبرى يعمل فى دار العلوم مدة عامين دراسيين، ولكن روح الباحث والمؤرخ حامت حوله مرة أخرى، فأراد أن يكتب بحثاً كبيراً فى تاريخ محمد على باشا الكبير(٢٢) ، بحيث يكون جديداً فى وثائقه ومعلوماته، مما يتطلب السفر إلى باريس ولندن وبرلين وفيينا، للاطلاع على سجلاتها المتعلقة بهذا الموضوع. فكتب خطاباً للوزارة، طالباً منها السماح له بأجازة بدون مرتب، لمدة عام دراسى، كى ينجز هذا البحث. وبالفعل وافق رئيس الوزراء محمد محمود فى أغسطس ١٩٢٨ على الأجازة(٢٣).

ومن الجدير بالذكر، إن طلب الأجازة المقدم من صبرى، كان بغرض الاستزادة فى علومه التاريخية، ولم تكن الأجازة تكليفاً له من الوزارة بكتابة أبحاث تاريخية. فنص مذكرة الوزارة، لرئيس الوزراء يقول: "قدم الدكتور محمد صبرى أفندى الأستاذ بدار العلوم، طلباً بالترخيص له بأجازة علمية، فى العام الدراسى المقبل، من ١٩٢٨/١٠/١ لغاية مايو ١٩٢٩، لاستقصاء البحث فى تاريخ المغفور له محمد على الكبير، فى سجلات باريس ولندرا وبرلين وفينا، ليضع مؤلفاً فى هذا الموضوع الجليل. وقد أيدت وزارة المعارف العمومية هذا الطلب، نظراً للفائدة التى تعود على الطلبة، من استزادة هذا المدرس فى معلوماته، لاسيما وأن الوزارة لا تقوم بنفقاته فى مدة إقامته فى أوربا، فاقترحت أن يمنح الأجازة المطلوبة بدون ماهية".

وبسبب التدقيق العلمى والصبر على تحقيق الوثائق، مما يتطلب الوقت الطويل فى كتابة الأبحاث التاريخية السليمة(٢٤) ، انتهت الأجازة الممنوحة، دون أن ينجز صبرى بحثه بصورة كاملة، فقامت الوزارة بنقله من دار العلوم إلى مدرسة المعلمين العليا فى ديسمبر ١٩٢٩، بدلاً من شفيق غربال، المنقول إلى الجامعة المصرية. وأمر النقل هذا، تم على الورق فقط، حيث كان صبرى مايزال فى أوربا.

لم يهتم صبرى بأمر النقل، لأن اهتمامه الأكبر كان موجهاً نحو إنهاء بحثه التاريخى، الذى واصل الكتابه فيه، وقبل أن ينتهى كتب لوزير المعارف، خطاباً فى مايو ١٩٣٠، قال فيه : "أتشرف بإحاطة معاليكم، على أن الباعث على تأخيرى

فى أوربا، مدة عشرين يوماً من ٣ إبريل إلى ٢٢ إبريل، هو أن الكتاب الذى ألفته فى تاريخ الأمبراطورية المصرية فى عهد محمد على، كان تأخر صدوره. وكان لابد من البقاء للإشراف على الطبع، وما إليه من تصحيح وإتمام. وقد أرسلت النسخ الأولى منه إلى الناشر، فى منتصف إبريل وغادرت باريس إلى ترمسيتا فى اليوم السابع عشر. من ذلك يتضح لمعالى الوزير، أن تأخرى كان أمراً محتماً لإتمام عمل، اقتطعت له ثلاثة أعوام كاملة وكلفنى من الجهد ما كلفنى".

وبعد عودة صبرى بأيام، ظهر بحثه[٢٥] هذا فى أوروبا، تحت عنوان QUESTION D,ORIENT L,EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMED ALI ET LA) أو (الأمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية). (1846-1811 وهو مجلد ضخم، فى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير باللغة الفرنسية، فكان محل تقدير للأوربيين[٢٦]. وقد كافأه وزير المعارف على ماهر، بالترقية إلى الدرجة الثالثة، ونقله إلى مدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية فى يوليو ١٩٣٠، ليكون ناظراً عليها.

تشجع صبرى بعد ذلك، لإتمام أبحاثه، خصوصاً فى كتابة المجلد الثانى (الأمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزى والفرنسى)، فساعدته الوزارة قدر الإمكان. وبعد سنتين، وفى سبتمبر ١٩٣٢، كتبت الوزارة مذكرة عن حالة محمد صبرى، أبانت فيها، تدرجه الوظيفى فى الفترة ١٩٢٤-١٩٣٠، ويتمثل فى الوظائف الآتية:

١ - مدرس بمدرسة المعلمين العليا،

٢ - مفتش بالوزارة وعضو بالمكتب الفنى،

٣ - أستاذ مساعد للتاريخ بكلية الآداب بالجامعة،

٤ - مدرس بمدرسة دار العلوم،

٥ - مدرس بمدرسة المعلمين العليا الأدبية،

٦ - ناظر لمدرسة العباسية الثانوية،

٧ - مفتش بالوزارة. وقد أوضحت الوزارة دورها فى مساعدة صبرى، من الناحية العلمية، قائلة:

.. وقد اختص بالتفتيش على المدارس الثانوية بنين وبنات، بقصد تمكينه من السفر إلى الخارج، بترقيته إلى الدرجة الثالثة. ورخص لحضرته بأجازة دراسية لمدة سنتين، من ١٩٣٠/٩/١ لغاية ١٩٣٢/٨/٣١، لمواصلة أبحاثه وإصدار كتابه فى تاريخ الأمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل، على أن يصرف له أثناء هذه المدة، نصف ماهيته. وبشرط أن يتعهد بإنجاز العمل فى مدة السنتين، وألا يطلب أى امتداد لأجازته. وقد عاد منها واستأنف أعماله بالوزارة من ١٩٣٢/٦/١٥، ثم منح أجازة اعتيادية خارج القطر لمدة شهرين، ونظراً لمرضه كشف عليه طبيب بمعرفة قومسيون طبى باريس، وقرر منحه أجازة مرضية لمدة ستين يوماً، ولا يزال فى الخارج للآن".

وهذه المذكرة، توضح لنا مدى دقة صبرى فى كتابته لأبحاثه التاريخية، ومدى ما يبذله من جهد ووقت، كما توضح أيضاً أن الوزارة لم تبخل عليه بالوقت اللازم، المتمثل فى الأجازات، حتى ولو كانت بنصف مرتب. والمهم فى الأمر، أن صبرى لم ينجز كتابه حتى تاريخ هذه المذكرة فى سبتمبر ١٩٣٢. وهذا يعنى أنه يحتاج إلى وقت آخر يقضيه فى أوربا لإتمامه.

وقفت الوزارة بجانب صبرى مرة أخرى، فقامت بانتدابه للعمل فى مكتب البعثة المصرية بباريس لمدة ستة أشهر، لعله ينجز الكتاب. فكتب صبرى خطاباً فى أكتوبر ١٩٣٢، يشكر فيه د.حسن الديوانى مدير البعثة المصرية بباريس، قائلاً له: ".. إن هذا الانتداب سيسمح لى بإنهاء مأموريتى وهى إصدار كتاب (تاريخ الأمبراطورية المصرية فى عصر إسماعيل). فإنى وإن كنت قد انتهيت من تحريره، إلا أن قد وصلتنى فى العهد الأخير مجموعات وثائق هامة مصرية وأمريكية، تضطرنى إلى إدخال تعديلات كثيرة دقيقة(٢٦) ، فى مختلف فصول الكتاب والإشراف على طبعه بعد ذلك، وسأتمكن من القيام بذلك كله فى بحر الستة أشهر، التى تفضلت الوزارة بانتدابى فيها. وإنى أقبل شرط الوزارة الخاص، بعدم المطالبة بأى بدل سفرية، أو أجر تنقل ما تقتضيه مأموريتى".

وهذا الخطاب دليل آخر من صبرى، على أن وزارة المعارف ساعدته كثيراً، لدرجة التحايل على القانون، وذلك بانتدابه للعمل بمكتب البعثة بباريس، حتى يتمكن من الاستمرار فى بحثه، والاطلاع على الوثائق الأوربية. وانتهى الانتداب، ولم يظهر الكتاب، فكتب صبرى خطاباً لوزير المعارف فى إبريل ١٩٣٣، قال فيه:

"تفضلت الوزارة وانتدبتنى فى مكتب البعثة بباريس لمدة ٦ أشهر، تنتهى فى آخر إبريل الحالى. وكان غرضها الأول مساعدتى على إتمام مهمتى، وإنى أرى من واجبى الآن، أن أعرض على الوزارة نتيجة هذه المهمة .. فيما يتعلق بالمهمة الأساسية، قد هيأت الآن الكتاب للطبع، وسيقع فى حجم الأول، فى أكثر من ستمائة صفحة. وقد سردت فى القسم الأول منه، تاريخ حكم عباس وسعيد. أما عصر إسماعيل، فقد أسهبت فيه تاريخ السودان، والفتوحات المصرية فى أفريقيا وموضوعات أخرى كثيرة، بوقائع ومستندات جديدة. وأكبر أملى أن أسد ثغرة فى تاريخ مصر الحديث، بفضل تأييد الوزارة ورعايتها. وقد شرعت فعلاً فى الطبع، وبناء على تقرير الطابع، تبلغ نفقات الألف نسخة الأولى نحو ٢٧٠٠٠ فرنك .. .. والوزارة حرة فى القيام بنفقات الطبع، أو فى التبرع بمبلغ مناسب .. .. وإذا رأت الوزارة فى الوقت نفسه، أن تمد أجل انتدابى بباريس للإشراف على الطبع، وهذا أمر لا يخفى خطره على الوزارة، كانت أياديها مضاعفة".

وهذا الخطاب اعتراف صريح من صبرى، بأن الوزارة ساعدته كثيراً لإتمام أبحاثه التاريخية. وبالرغم من ذلك يطلب منها أن تدفع نفقات طباعة كتابه الأخير، أو تتبرع بمبلغ مناسب يساعده فى نفقات الطباعة. وهذا الطلب، كان من الممكن قبوله، فى حالة إذا كانت الوزارة هى التى كلفته بكتابة الكتاب. ولكن الحقيقة أن صبرى كان يكتب أبحاثه التاريخية بدافع وطنى نابع من شخصه، لا بتكليف من الوزارة، حتى تدفع له نفقات الطباعة. هذا بالإضافة إلى أن الوزارة ربما كانت تمد له يد المساعدة، إذا كان كتابه هذا مكتوب باللغة العربية ومنشور فى مصر. ولكن الحقيقة أن الكتاب مكتوب باللغة الفرنسية، ومنشور فى أوربا. لذلك اكتفت الوزارة بأن أعطته أجازات كثيرة، ودفعت له فى معظمها نصف راتبه.

ومن الوثائق التالية، نفهم أن الوزارة وافقت على ندبه لمدة ستة أشهر أخرى، ولكنها لم تساعده بالمال، وهذا يعنى أن تكاليف الكتاب، تحملها صبرى كلها. وأخيراً ظهر، فى أوربا عام ١٩٣٣، مجلد (L,EMPIRE EGYPTIEN SOUS ISMAIL ET L,INGERENCE ANGLO FRANCAISE 1863-1879) أو (الأمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزى والفرنسى)، وسط تقدير الأوربيين له(٢٧). وظل صبرى فى أوربا، بعد أن أصبح مدير البعثة العلمية المصرية بجنيف، حتى يولية ١٩٣٧، فعاد إلى مصر كمفتش بوزارة المعارف.

وفى ديسمبر ١٩٣٧، أراد محمد صبرى أن يكتب المجلد الثالث من تاريخ (الأمبراطورية المصرية ١٨٨٠-١٩٠٤)، ليتم به تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، فكتب لوزير المعارف، طالباً منحه أجازة بمرتب كامل لمدة سنتين، يقضيها خارج مصر. فوافق الوزير على منحة أجازة لمدة سنة على فترتين. وبدأ صبرى بالفعل فى تجميع وثائق المجلد الثالث(٢٨). وانتهت السنة، ولم يتم صبرى الكتاب، فمنحته الوزارة ستة أشهر أخرى، وقبل انتهاء هذه المدة، كتب وزير المعارف خطابا لوزير المالية فى مارس ١٩٣٩، قال فيه :

"سبق أن طلبت الوزارة، الموافقة على مد أجازة حضرة الدكتور محمد صبرى المفتش بالوزارة، لمدة ستة شهور أخرى بماهية كاملة. وفى حالة عدم الموافقة على هذا الطلب، يسهل خروجه من الخدمة، مع الاحتفاظ له بما يستحقه من المكافأة أو المعاش، عن مدة خدمته بالوزارة التى تبلغ أربعة عشر عاماً فقط. إلا أن اللجنة المالية قررت عدم الموافقة على طلبه. وبما أن حضرة الدكتور صبرى، قد منح عدة أجازات، لأنه وضع مؤلفاً فى تاريخ مصر الحديث باللغة الفرنسية، وأنه يشتغل الآن بوضع الجزء الأخير من هذا المؤلف، وأنه طلب الأجازة لإتمامه. وبما أن الوزارة ترى من الخير أن يتم حضرته ما بدأه، ليتمكن بعد ذلك من ترجمته إلى اللغة العربية. وبما أننا نرى مساعدته فى هذا العمل الجليل، الذى أجهد فيه نفسه هذه المدة الطويلة، لاسيما وأن حضرته المصرى الوحيد الذى اضطلع بهذا العبء الجسيم، ونرى أن خير حل لموضوعه، أن يمنح حضرته أجازة إلى أن يتم فى وظيفته خمس عشرة سنة، ينظر بعدها فى إحالته إلى المعاش".

وهذا الخطاب يبين إلى مدى وقفت الوزارة بجانب صبرى، وتشجيعه على إتمام أبحاثه التاريخية. هذا بالإضافة إلى أملها فى أن يقوم صبرى، بترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية، حتى تستفيد مصر من أبحاث أبنائها. لذلك وافقت الحكومة على رأى وزير المعارف فى خطابه السابق. وقبل انتهاء مدة الأجازة، أرسلت الوزارة لصبرى برقية، رد عليها رداً عنيفاً فى مارس ١٩٣٩، قال فيه :

"وصلتنى برقية من الوزارة تقول (إنى إذا لم أعد إلى الوزارة يوم ٢٥ مارس اعتبرتنى مستقيلاً) ولم يكن يدور بخلدى حين إرسال برقيتى رداً على الوزارة، أنها فى الوقت الذى تطلب إلىّ فيه العودة، وتمنحنى مهلة ضئيلة تقطع عنى المرتب. ولا يمكن بحال من الأحوال، أن تغيب عن رجال الوزارة المسؤولين، وهم

أهل قانون ومنطق سليم، خطورة هذا (الفصل)، وما يجره من تبعات مختلفة مادية وأدبية. وأخشى أن يكون هذا الفصل، نتيجة فتوى مالية، لم يكن لمعالى الوزير بها علم، ولا أخفى عليكم أن أمثال هذه التصرفات قد احتملتها خمسة عشر عاماً، وقد اضطررت مراراً إلى تقديم استقالتى، احتفاظاً بكرامتى، لاسيما وأن لا تجانس بينى وبين معظم رجال الوزارة، من ناحية الفكر. وحسبى أن أذكر معاليكم، إن كبيراً فى الوزارة أحترمه، ويجمع القوم على احترامه، قد صرح لى على أثر عودتى من جنيف، بأن التقارير التى كنت أبعث بها مكتوبة بروح أجنبية. وكنت أعتقد إنى أقرب الناس إلى الروح المصرية القح، ولا ريب أن مثل هذه الوظيفة لا تصلح لى ولا أصلح لها، وليس فى مقدورها أن تأتى إلى مختارة، لأنى لست من الابتدائيين. وإذا كانت الحكومة فى مجموعها، ترى أن منحى أجازة بمرتب لإصدار كتاب فى تاريخ البلاد - بعد كل الذى أنفقته - مال ضائع، فما خلق بها أن تقتصد وظيفتى. وإنى أؤكد لمعاليكم إنى هنا، لا أكتفى بالتأليف حان طائفة من العلماء الأجانب - وبينهم إنجليز - يلجأون إلى شخصى الضعيف، كلما حاولوا الكتابة فى الشئون المصرية. ولا يعنينى من الأمر، إلا أنه ربح للبلاد ووجهة نظرنا، ولكن ما يحز فى النفس، إنى فى كل مرحلة قطعتها، ألقيت عنتاً وصدمات خفية مدبرة من كثيرين. وإن معالى الوزير الذى جاهد طول حياته، يعلم جيداً أن الحياة معركة، يخوضها كل بسلاحه. وإنى أحب المعركة، وأحب أن أخوضها بسلاح من الكرامة، والعلم الصحيح".

وهذا الخطاب يبين أن فى نفس صبرى شيئاً ما، لم يفصح عنه، ولكنه أشار إلى أن هناك مضايقات وضغائن من معظم رجال الوزارة ضده، تحملها طوال سنوات عمله! والحقيقة أننا لم نرَ أية مضايقات، فى الوثائق السابقة، بل على العكس وجدنا أن الوزارة وقفت بجانبه طوال هذه السنوات، تشجعه وتمده بالمال قدر طاقتها، دون أن تطالبه بأى شىء، ولم تكلفه بأى عمل خاص بها. بل أن أبحاثه كانت تُكتب بدافع منه، لا بتكليف من الوزارة. حتى ترجمة كتبه إلى اللغة العربية، لم يتم حتى الآن، رغم أنه الأمل الوحيد للوزارة، بل وذريعتها الوحيدة للوقوف بجانبه.

وقد استمر هذا الموضوع، فترة من الوقت، بين أخذ ورد، حتى حاول صبرى إنهائه، بطلب إحالته على المعاش، طالما الوزارة لا توافق على مدّ أجازته. وأمام

هذا الإصرار وافق وزير المعارف، على مدّ الأجازة المطلوبة، قائلاً فى تأشيرته: "إن الأستاذ صبرى قد منح عدة أجازات، لأنه يطبع مؤلفاً فى تاريخ مصر الحديث باللغة الفرنسية، وإنه يشتغل الآن بوضع الجزء الأخير من هذا المؤلف، وأنه طلب الأجازة لإتمامه. ومن الخير أن يتمه ليتمكن بعد ذلك من ترجمته إلى اللغة العربية. فضلاً عن أنه هو المصرى الوحيد، الذى قام بهذا العمل الجسيم. وهذا خير من حل آخر وهو أن يمنح حضرته أجازة إلى أن يتم فى وظيفته خمس عشرة سنة يحال بعدها إلى المعاش".

وهذه التأشيرة، دليل على أن الوزير نفسه، يقف بجانب محمد صبرى، بل ويقدره أعلى تقدير، ويعترف بأنه المصرى الوحيد الذى قام بكتابة تاريخ مصر الحديث باللغة الفرنسية، آملاً بأن يقوم صبرى فى نهاية المطاف بترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية، لذلك يمنحه الأجازة المطلوبة، ويتمسك به ولا يوافق على استقالته.

وبعد انتهاء الأجازة، انتدب صبرى للعمل بوزارة الداخلية، ومن ثم قرر وزير الداخلية ترقيته إلى الدرجة الثانية، وتعيينه مديراً لإدارة المطبوعات فى سبتمبر ١٩٣٩. وفى مارس ١٩٤٠ كتب محمد صبرى خطاباً لوزير الداخلية، يطلب فيا ضم مدة دراسته العليا فى باريس. وهذا الخطاب به معلومات كثيرة ومهمة تكشف لنا جانباً آخر من جوانب حياة السربونى، ونص الخطاب يقول:

"أتشرف بتقديم طلبى هذا، راجياً أن تشملوا برعايتكم العالية. وهو يتلخص فى ضم مدة دراساتى العليا فى باريس، من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٤، إلى مدة معاشى. وذلك أسوة بزميلى الدكتور طه حسين بك. وتأييداً لهذا الطلب أتشرف بعرض ما يأتى وهو موجز حياتى العلمية والإدارية. سافرت إلى باريس فى سنة ١٩١٣ وفى أثناء تحضيرى الليسانس، كانت الجامعة قررت ضمى إلى أعضاء بعثتها، ولكن ظروفاً طارئة حالت دون ذلك. وقد حصلت على الليسانس فى الآداب سنة ١٩١٩، ليسانس التعليم التى تحتم درس اللغة اللاتينية. ثم انقطعت بعد ذلك لتحضير الدكتوراه، والتحقت بالوفد المصرى سنتين، ألفت فى أثنائهما كتابين عن (الثورة المصرية)، مصدرين بمقدمتين من أستاذى مؤرخ الثورة الفرنسية أولار. وبعد إعداد الوثائق المختلفة فى مصر وباريس، ألفت رسالة عن تاريخ الروح الوطنية المصرية، ورسالة أخرى إضافية، نلت بهما فى سنة ١٩٢٤

دكتوراه الدولة فى الآداب. فكنت أول مصرى نالها، وقد فتحت بها للمصريين بعدى باباً كان مغلقاً. وفى سنة ١٩٢٤/١٩٢٥ عينت أستاذاً بالمعلمين العليا، وعضواً بالمكتب الفنى بالمعارف. وفى سنة ١٩٢٥/١٩٢٦ أستاذاً مساعداً بالجامعة. وفى سنتى ١٩٢٦/١٩٢٧ و١٩٢٧/١٩٢٨ أستاذاً بدار العلوم. وقد اشتغلت أثناء إقامتى فى هذه المعاهد بالأدب والتاريخ، فأصدرت موجزاً لتاريخ مصر الحديثة، وتاريخاً للثورة الفرنسية، وكتاب أدب وتاريخ. واشتغلت فى الوقت نفسه فى دار السجلات بالقلعة، حتى حصلت على مستندات تاريخية هامة منها، ومن مصادر خاصة. ورحلت من مصر سنة ١٩٢٩ فى أجازة من غير مرتب، لإصدار (الأمبراطورية المصرية فى عهد محمد على)، بعد استيفاء البحث فى دور سجلات وزارات الخارجية بباريس ولوندرا وفينا. وقد صدر الكتاب فى سنة ١٩٣٠ فى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير. وفى سنة ١٩٣٣ أصدرت (الأمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل)، فى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير، مدعماً بالوثائق المستقاة من المصادر عينها. وقد كلفنى هذان المجلدان، تضحيات كثيرة مالية، لا تقل عن ألفى جنيه. ولكن كان لى بعض العزاء فيما لقياه من تقدير، فى الأوساط العلمية فى مصر وأوربا. وللتمكن من الاستمرار فى أبحاثى، عينتنى وزارة المعارف مديراً للبعثة المصرية فى جنيف (١٩٣٤-١٩٣٧). وقد هيأت لى فرصة التجوال فى سويسرا وفرنسا وإيطاليا، زيارة المتاحف المختلفة، والتبسط فى دراسة الفنون الجميلة، وتكوين مجموعة فنية من الصور والتحف القيمة. وإنى أعد للطبع تاريخ (الأمبراطورية المصرية من عهد توفيق إلى سنة (١٨٧٩-١٩٠٠). وأعد فى الوقت نفسه، تاريخاً مفصلاً للسودان. وستصدر هذه الكتب كلها بالعربية فيما بعد. وبالجملة قطعت فى باريس، المدة التى قطعها زملائى أساتذة الجامعة القديمة، دون أن أكلف الحكومة شيئاً. ثم استثمرت دراساتى إلى الحد الأقصى فى الإنتاج، من الساعة الأولى إلى اليوم. وقد عالج بعض كبار المؤرخين الأجانب، الموضوعات التى عالجتها، وكلفوا البلاد مالاً وفيراً، دون أن يوفوا وجهة النظر المصرية أو التاريخية حقها".

وهذا الخطاب يوضح لنا فترة وجود صبرى فى باريس، وما قام به من أعمال وتأليفات تاريخية وأدبية، ويعترف فيه صبرى بأن الوزارة ساندته كثيراً، خصوصاً عندما عينته مديراً لمكتب البعثة بجنيف، ليستكمل أبحاثه. كما اعترف

صبرى أيضاً بأنه سيترجم كتبه التاريخية إلى اللغة العربية. والوثائق التالية، الخاصة بهذا الموضوع، تفيد موافقة الوزارة على ضم خمس سنوات فقط، وهى فترة دراسة الدكتوراه. بعدها مباشرة بدأت بعض العراقيل الوظيفية، تؤثر على مسيرة صبرى العلمية، فكتب خطاباً لوزير الداخلية، فى يوليو ١٩٤٠، قال فيه: "أرجو من معاليكم، أن تتفضلوا بمنحى أجازة قدرها ثلاثة أشهر، تمهيداً لإحالتى على المعاش. وأكون مديناً لمعاليكم لو تفضلتم فى الوقت نفسه، وعملتم على تسوية معاشى بالطريقة التى ترضيكم وترضى العدل، حتى أتمكن من الانقطاع للعمل التاريخى وإتمامه".

ولكن الوثائق المتعلقة بهذا الخطاب، تفيد عدم إحالة صبرى إلى المعاش، وتبين أنه نُقل إلى وزارة المعارف عام ١٩٤٢, وفى عام ١٩٤٦ تمت ترقيته إلى الدرجة الأولى، وتعيينه وكيلاً لدار الكتب. كما تفيد هذه الوثائق أيضاً، أن صبرى يتعرض إلى مضايقات أخرى كثيرة من قبل رجال الوزارة، خصوصاً عندما حاولوا منعه من تمثيل مصر، فى مؤتمر الوثائق والأسانيد بسويسرا، واستبداله بغير متخصص.

وفى عام ١٩٤٧، كتب محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء، خطاباً إلى السنهورى باشا وزير المعارف، قال فيه: "لعلك تشترك معى فى الإعراب، عن تقديرنا لمجهود الدكتور صبرى فى إبراز قضية السودان(٢٩) ، بإنصافه وإعطائه حقه فى الوظيفة التى يشغلها الآن. ويسرنى أن أعلم منك قبل سفرنا ما تكون حققته من إنصافه". والمقصود من هذا الخطاب، تعيين صبرى مديراً لدار الكتب، بدلاً من وظيفته الحالية كوكيل لدار الكتب. وبعد ستة أشهر صدر قرار بتعيين أمين يوسف قنديل، فى هذه الوظيفة. فكتب محمد صبرى فى يناير ١٩٤٨، خطاباً شديد اللهجة، إلى السنهورى باشا(٣٠) ، قال فيه:

.. صدر قرار فى غيبتى من مجلس الوزراء، بتعيين مدير لدار الكتب. وكان هذا القرار خاتمة، لسلسلة من التصرفات الكريمة، التى لقيتها فى عهد معاليكم الأول، وفى عهدكم الثانى. ولا شك أن معاليكم رجل سليم الطوية، يتعالى عن الإسفاف. ولكنى أعرف أن اثنين من المقربين إليكم، قد استغلا خلقكم الكريم، وأوجدا بينكم وبينى هاوية من العداء الشخصى، الذى لا مبرر له. وهما الأستاذ أحمد بك أمين والزميل القديم شفيق غربال بك. أما الأول فله حكاية مشهورة

معى، فى أيام معالى هيكل باشا، تنم عن خلقه العالى ووطنيته النضاحة. أما الثانى، فهو رجل موتور، قد وصل إلى منصبه بأساليبه، وأصبح ينزعج من ظله. وقد دأب الاثنان على الكيد، وتدبير الخطط، والمقالب الرفيعة. وكان إنتاجهما بحمد الله عظيماً فى هذه الناحية. وقد زينا لمعاليكم ما زينا، وحاولا تشويه كل عمل قمت به، وانطلقا فى زمامهما جامحين. ولهما العذر، فليسا من معدنى، ولست من معدنهما. ولكن طينتى بحمد الله حرة، ويدى طاهرة. وقد صبرت طويلاً وصابرت. وحسبى أن أذكركم أنى فى الوقت الذى بلغت فيه الدسائس أوجها، كنت أعرض عنها وأمرّ عليها مرّ الكرام. لا بل كنت أشتغل ليل نهار، فى وضع كتابى عن القضية السودانية، خدمة لبلادى ولوجه الله تعالى. وأنى أعترف أنى لم أقم إلا ببعض واجبى، وأنا الآن فى دور النضال الحقيقى. وميدان النضال لرجل مثلى، هو ميدان الجهاد. وهو ميدان المصريين عموماً، لا ميدان الكائدين والعاجزين عن العمل المنتج الصحيح. وتعلمون معاليكم، إنى سبق قدمت أستقالتى مراراً، وطالبت إحالتى على المعاش. والآن قد ظهرت للعيان تلك النية المبيتة، فإنى أكرر لمعاليكم بكل أدب ما قلته من قبل، وهو أنى أريد أن أريح وأستريح".

وهذا الخطاب، يُعد سقطة كبيرة، وقع فيها السربونى، حيث راح يلقى التهم الخطيرة، دون أن يقدم الدليل عليها، وبغض النظر عن مقدار حقيقة هذه التهم، إلا أن أسلوب الخطاب جعل رجال الوزارة، يضطهدون صبرى، فرفضوا استقالته، وقام مدير دار الكتب أمين مرسى قنديل، بمطالبته بما يفيد قيامه ببعض الأجازات، رغم وجود المستندات المطلوبة فى ملف صبرى. فلم يكن أمام السربونى إلا رفع الأمر للقضاء، ومن ثم كتب خطاباً إلى وزير المعارف فى مارس ١٩٤٨، قال فيه: ".. نظراً لعدم رد الوزارة إلى الآن على خطاب الاستقالة، الذى أرسلته إلى معاليكم بتاريخ ٣١ يناير الماضى. ونظراً لتوالى تصرفات الوزارة المجحفة بحقى، والإمعان فى الوضع الشاذ المهين، الذى تريده لى. ونظراً لأن الوزارة لم تنتظر حكم القضاء العادل، فى موضوع النزاع القائم بيننا، رأيت أن ألتجىء إلى الانتفاع من أحكام قانون المعاشات، فأطلب إحالتى على المعاش وفقاً للمادة ١٣، وذلك حتى يفصل القضاء فى الأمر".

وأخيراً يكتب المستشار القانونى لمجلس الدولة، مذكرة إحالة محمد صبرى إلى المعاش فى مارس ١٩٤٨، جاء فيها الآتى: "إن محمد صبرى باعتباره موظفاً

بالوزارة مفتشاً منتدباً وكيلاً لدار الكتب، قد وقعت منه الأمور الآتية، وهى جميعها تستوجب مؤاخذته تأديبياً، فضلاً عما قد يترتب عليها من آثار أخرى :

أولاً: تغيب عن عمله بدون إذن فى المدة من ١٩٤٧/١١/٢٩ إلى ١٩٤٧/١٢/١٨، وانقطع عن العمل دون إبداء أسباب ذلك ابتداء من ١٩٤٨/٢/٣ إلى ١٩٤٨/٣/٤. ثانياً: أهان رئيسه، وهو حضرة الأستاذ مدير عام دار الكتب، فى كتابه المرسل فى ١٩٤٨/٢/٢٥، بأن خاطبه بلهجة التحدى والتهكم والتأنيب مثل قوله : "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. والعجيب أن تكتب إلىّ بلهجة الرئيس وأنت تتناسى الوضع الحقيقى الذى أنا فيه والذى أنت فيه". ثالثاً: طعن فى كتابه فى ١٩٤٨/١/٣١، فى حضرتى صاحبى العزة شفيق بك غربال وكيل الوزارة، وأحمد أمين بك، فى عبارات لاذعة شديدة، واتهمهما بالانصراف إلى الكيد والدس له، ونعتهما بصفات ماسة بكرامتهما، خادشة لناموسهما. لذلك لا أرى مانعاً من الناحية القانونية، من استصدار أمر من حضرة صاحب المعالى الوزير، بقبول أستقالة الدكتور محمد صبرى ابتداء من ١٩٤٨/١/٣١".

وبالفعل أصدر وزير المعارف، قراراً بإحالة محمد صبرى إلى المعاش اعتباراً من ١٩٤٨/٣/١١. وبعد عامين، وفى مارس ١٩٥٠، قرر مجلس الوزراء إعادة جميع الموظفين المفصولين، لأسباب سياسية إلى وظائفهم، وبذلك عاد صبرى إلى وظيفته بوزارة المعارف، مرة أخرى، فقام د.طه حسين بتعيينه أستاذاً للتاريخ الإسلامى، ثم أستاذاً للتاريخ الحديث بكلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، فى إبريل ومايو ١٩٥٠. وبعد شهرين، كتب صبرى خطاباً إلى مدير الجامعة د.طه حسين، قال فيه:

".. إن الحكومة أعادتنى إلى الخدمة، مع المفصولين السياسيين فى الدرجة التى كنت فيها، على أن تسوى الحالة فيما بعد. وقد احتججت على هذا التصرف، وقلت إن حالتى خاصة وموضوع دعوى. فكان يجب تطبيق قرار مجلس الوزراء، بإعادتى إلى الوضع الذى كان يجب أن أكون فيه، أى درجة مدير عام، منذ إحالة أحمد عاصم بك على المعاش فى ١٩٤٦/١٢/٣٠ أما إعادتى إلى الوضع الشاذ، الذى اضطررت إلى الاستقالة منه، فلا يتفق مع التطبيق الصحيح. وبصرف النظر عن الدعوى الجارية، والتسوية المنتظرة، أرى بمناسبة عودتى إلى الجامعة، أن تتفضل الجامعة بمراعاة أقدميتى فيها للأسباب الآتية:

أولاً : أنى كنت أستاذاً مساعداً فى الجامعة، عند افتتاحها فى سنة ١٩٢٦/٢٥. فلست غريباً عنها، ولا يمكن أن تُغفل أقدميتى من هذه الناحية، خصوصاً وأنى نقلت منها فى أواخر سنة ١٩٢٦، إلى دار العلوم لأسباب سياسية، ولم يؤخذ رأى مجلس الكلية أو مجلس الإدارة، فى نقلى طبقاً للقانون.

ثانياً: كنت أول مصرى حصل على الليسانس فى الآداب ودكتوراه الدولة، وهذه الدكتوراه تخول حاملها فى فرنسا التعيين فى كرسى الأستاذية. وقد كان زميلاى فى الوظيفة والدرجة فى ذلك الوقت، المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة باشا، والدكتور أبو بكر.

ثالثاً : إنى بعد تركى الجامعة ، اشتغلت بالتدريس سنتين فى دار العلوم ، واستمررت فى أبحاثى ، التى انقطعت لها فى أوربا سنوات طويلة . فقد كنت أصدرت أولاً رسالة الدكتوراه: *LA GENESE DE I,ESPRIT NA*TIONAL EGYPTIEN, 1924 [نشوء الروح القومية المصرية (١٨٦٣-١٨٨٢) ﷺ، ثم أصدرت بعد ذلك مؤلفين ضخمين يقع كلاهما فى حوالى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير أولهما L,EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMED-ALI, PARIS, 1931 والثانى L,EMPIRE EGYPTIEN SOUS ISMAIL PARIS 1933 ثم أصدرت بالعربية جزءاً من المؤلف الثالث، الذي كنت أعده بالفرنسية وهو: الأمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر، ومعه أطلس الإمبراطورية السودانية. وقد تفضل صاحب الجلالة الملك، فأنعم علىّ بمناسبة ظهور الكتاب الأخير، بالبكوية من الدرجة الأولى. هذا عدا أبحاث وكتب أخرى مختلفة فى التاريخ والأدب.

وأضيف إلى ذلك، إنى رشحت فى سنة ١٩٤١ أستاذاً بكلية الآداب، فى درجة مدير عام، أسوة بالدكتور مشرفة باشا، ولم يتم التعيين لأسباب لا دخل لى فيها. فترون من ذلك بعدلكم، أن أقدميتى لا يمكن إغفالها، لا من ناحية التعيين فى الوظيفة، ولا من ناحية الشهادات وقيمتها العلمية، ولا من ناحية الأبحاث".

وبسبب ما جاء فى هذا الخطاب، وبسبب زمالة طه حسين لصبرى فى

السربون بباريس، أصدر مدير الجامعة د.طه حسين قراراً بتعيين محمد صبرى مديراً لمعهد الوثائق والمكتبات، بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول. وهذا يعنى أن جميع الوزراء، قد ساندوا السربونى طوال سنوات عمله بالحكومة، على الرغم من مضايقات الآخرين له، كما جاء فى أقواله، فى بعض الخطابات السابقة. وبعد أقل من سنتين، وتحديداً فى ١٩٥٢/١٢/٢٩، كُتبت آخر وثيقة محفوظة بملف د.محمد صبرى، وهى تنص على الآتى:

مرسوم بفصل مدير عام بجامعة فؤاد الأول

باسم ملك مصر والسودان

وصى العرش المؤقت

بعد الاطلاع على المرسوم بقانون رقم ١٨١ لسنة ١٩٥٢، فى شأن فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى، وبناء على ما عرضه وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء، رسم بما هو آت:

المادة الأولى : يفصل من الخدمة، الدكتور محمد صبرى مدير معهد الوثائق والمكتبات، بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول.

المادة الثانية: على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم

صدر بقصر عابدين فى ١٩٥٢/١٢/٢٩

(توقيعات)

الأمير محمد عبد المنعم بأمر وصى العرش المؤقت

رئيس مجلس الوزراء محمد نجيب لواء أركان حرب

وزير المعارف العمومية إسماعيل محمود القبانى(٣١)

هذه هى الوثائق المحفوظة بملف السربونى بالقلعة، والتى تنتهى عند عام ١٩٥٢، ولكن حياة الرجل لم تنته، فقد نذر حياته بعد ذلك لدراساته التاريخية والأدبية(٣٢) ، حتى لقى ربه فى ١٩٧٨/١/١٨(٣٣).

ووثائق ملف محمد صبرى فى مجملها، تكشف لنا عن حقائق واضحة فى بعض الأحيان، وحقائق أخرى غير واضحة، يمكن التعرف عليها، فيما بين السطور. وهذه الحقائق تكشف لنا الإجابة عن سؤال مهم، وهو: لماذا لم يأخذ

السـريونى حقـه من الشهـرة والمكانة التـاريخـيـة والأدبيـة فى مصـر، رغم قيـمة شهاداته العلمية، وإنتاجه التاريخى والأدبى. وهذا السؤال، ظل يؤرق السريونى نفسه سنوات طويلة، وأرق أيضاً كل من كتب عن السريونى. وفى ظنى أن الإجابة على هذا السؤال، تتمثل فى عدة نقاط، منها:

أولاً : قضى السريونى أخصب سنوات عمره من حيث العطاء العلمى، خارج مصر، من أجل التعلم والبحث. فقد سافر إلى فرنسا من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٤ للحصول على الليسانس والدكتوراه. كما سافر إلى أوربا من عام ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٩ لكتابة كتبه التاريخية. أى ظل السريونى أكثر من ٢٢ سنة خارج مصر.

ثانيـاً: نال السريونى تقدير المؤرخين الأجانب، أكثر مما نال من تقدير المؤرخين المصريين، وهذا راجع إلى أن السريونى ألف كتبه التاريخية باللغة الفرنسية، فقلل بذلك قيمة تأثيرها فى مصر، وحرم الكثيرين من قراءتها والاستفادة منها.

ثالثـاً: لم ينل السريونى مكانة وظيفية مرموقة، تليق بمؤهلاته العلمية، فأعلى درجة وظيفية وصل إليها، درجة مدير معهد الوثائق والمكتبات. رغم أن هناك من هم أقل منه من حيث المؤهلات العلمية، وأصبحوا وزراء. وهذا الأمر راجع إلى أن السريونى قضى ما يقرب من نصف سنوات خدمته الوظيفية خارج مصر، يكتب أبحاثاً غير مكلف بها من قبل الحكومة. أما النصف الآخر فكان فيه، يعمل فى عدة وظائف مختلفة، دون استقرار. هذا بالإضافة إلى أن الحكومة وقفت بجانبه، وبجانب أبحاثه قدر طاقتها، على أمل أن يترجم كتبه التاريخية إلى اللغة العربية، ولكنه لم يفعل ذلك، ولم تترجم هذه الكتب حتى الآن.

رابعـاً: لم ينل السريونى المكانة الجامعية اللائقة به وبأبحاثة التاريخية، وذلك لأنه لم يقم بعمله كمدرس للتاريخ إلا سنتين بمدرسة المعلمين العليا، وسنتين بمدرسة دار العلوم. وهذه السنوات القليلة، لم تتح له أن يكون قاعدة عريضة من التلاميذ، أو أن يرسخ فى الجامعة المصرية أسلوبه الخاص فى البحث العلمى التاريخى. هذا بالإضافة إلى أن السريونى كتب مؤلفات تاريخية عديدة باللغة الفرنسية، قبل وأثناء عمله بالجامعة،

ولكنه لم يترجمها، ولم يقم بتدريسها فى الجامعة، مما ساعد على إبعاد مكانته الجامعية. فمثلاً كتبه (الثورة المصرية) الجزء الأول ١٩١٩، و(المسألة المصرية) ١٩٢٠، و(الثورة المصرية) الجزء الثانى ١٩٢١، و(نشوء الروح القومية فى مصر) ١٩٢٤، و(تقرير عرابى إلى المحامين) ١٩٢٤، كُتبت كلها باللغة الفرنسية وصدرت فى فرنسا. أما كتبه التاريخية المطبوعة باللغة العربية، فقد طبعتها وزارة المعارف، وقررتها على طلاب المدارس، لا على طلاب الجامعة، مثل كتاب (تاريخ مصر الحديث من محمد على إلى اليوم) ١٩٢٦، وكتاب (الاستعمار الأوربى) ١٩٢٧. أما كتبه التاريخية العظيمة، ذات الأثر الكبير، فقد كتبها السربونى بعد ذلك بأعوام طويلة، ولم تُدرس فى الجامعة المصرية أيضاً، لأنها مكتوبة باللغة الفرنسية وصدرت فى فرنسا، ولم يترجمها السربونى إلى العربية.

وبالرغم مما سبق، فهناك تقصير من جانب المؤرخين والنقاد والباحثين، فى وقتنا الراهن، أمام ما أنتجه السربونى من كتب تاريخية وأدبية. فمثلاً كتبه التاريخية المكتوبة باللغة الفرنسية، لماذا لم تترجم حتى الآن؟ رغم أنها تعتبر من أهم المراجع التاريخية بالنسبة للمؤرخين الأجانب. ولماذا لم تُدرس كُتبه الأدبية، بصورة تليق بقيمتها الحقيقية، رغم دقة معلوماتها، وروعة أسلوبها؟ هذا هو الغبن الحقيقى، الذى ناله السربونى، لا فى حياته، بل بعد مماته!!

الهوامش

١ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ١٧٠٤٢، ٨٩٠٣، ١٤٤٠٢، ١٤٦٦٨، ٢٥٩٧٦، ١٦٦٣٠، ١٤٦٧٠.

٢ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ١٧٥٢، ٥٠٢٣، ١٦٨٣٥، ٤٧٤٢٢، ٣٢٨٧٠، ٢٧٦٥٦، ٥٢١٩٢.

٣ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٥١٦٦٥، ٧٠٨٥، ٧٠٤٨.

٤ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٦٢٤٤، ٢٠٣٠٢، ١٦٨٣٥.

٥ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٥٦٥٨٤، ٤٩٢١١، ٥٩٧٧٥.

٦ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٢٣١٢٢، ٢٦٠٣١.

٧ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٥٢٧٣٨، ٢٧١١١، ٢٣١٢٢، ١٢٦٩، ٣٥٠٧.

٨ - انظر ملفات قلم الوزارات، أرقام: ٦٢٤٤، ٢٣١٢٢، ٤٩٢١١، ٥٨٩٦٠، ٩٠٩، ٥٩٧٧٥، ١٢٦٩.

٩ - انظر ملفات قلم الوزارات: رقم ٥١٦٦٥، ورقم ٥٦٥٨٤.

١٠ - انظر ملفات قلم الوزارات: رقم ٣٥٠٧، ورقم ٤٥١٠٧.

١١ - انظر ملفات قلم الوزارات: رقم ١٢٦٩، ورقم ٩٠٩.

١٢ - هناك إشارات ومقالات قليلة جداً، كُتبت عن محمد صبرى بعد وفاته، لا تتناسب ومكانته الأدبية والتاريخية. انظر النشرة الببليوجرافية الخاصة بمحمد صبرى، فى كتاب: أحمد حسين الطماوى - صبرى السربونى: سيرة تاريخية وصورة حياة - سلسلة أعلام العرب - عدد ١٢٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ - ص٢٧٤-٢٩٣.

١٣ - وضع أحمد حسين الطماوى، كتاباً ثانياً، هو (محمد صبرى - سلسلة نقاد الأدب - عدد ١٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤)، وفيه يتحدث الطماوى عن الأعمال الأدبية والنقدية لمحمد صبرى، لذلك سيقتصر حديثنا على الكتاب الأول.

١٤ - قال الطماوى فى كتابه (صبرى السربونى) ص١٦: "صحبت الدكتور صبرى سنوات طويلة، مكنتنى من معرفة الكثير من معالمه الشخصية والفكرية، ولا أنكر أننى استفدت منها فى دراستى هذه. ولولا معاصرته ومعاشرته، ما استطعت إيضاح جوانبه المتعددة وهذا يبين لنا كيف تجدى معايشة المترجم له فى فهم روحه، والوقوف على خصاله وخصائصه النفسية".

١٥ - قال الطماوى فى كتابه ص١٧: "والتعاطف مع الشخصية التى يترجم لها الكاتب، يجب أن يكون قبل الاعتراض عليه أو البحث عن عثراته، فإن من يبحث عن الخطأ يجده، لأن تعاطف الباحث مع من يترجم له يقوده إلى إدراك ما يخفى على الدارس العادى، ويدنيه من الصواب، ويقرب إليه الأمور، ولا يعنى التعاطف إغفال المثالب والأخطاء وتزييف الوقائع والأحداث، وإهمال الجوانب المعتمة، ولا أنكر أننى كنت متعاطفاً مع صاحب الترجمة. ولكن ذلك لم يمنعنى من تسجيل آرائى الخاصة فى الموضوعات التى اختلفت معه فيها، وكان ديدنى التجرد من الهوى، وتطهير النفس من آثار الصحبة والمخالطة".

١٦- قال الطماوى فى كتابه ص١٩: "والرجل الذى نترجم له طيب القلب، ولكن خشونة فى طبعه، كانت تحجب عن كثيرين سحر شخصيته ورونقها وعطاءها، وتخفى إشعاع ذهنه وتوقده وتوهجه، فلم يكن يعرف كيف يعوم مع التيار، ولكن يأخذ الأمور عنوة واقتداراً، لذلك انصرف عنه الكثير من الأدباء، وبعد موته لم تتسخ أقلام الكُتاب بالكتابة عنه بالقدر الذى يستحقه".

١٧- قال الطماوى فى كتابه، ص٥٨، عن كتاب الثورة المصرية: ".. فقد صودر هذا الكتاب ثلاث مرات لأنه (أى محمد صبرى) قال فيه عن الملك فؤاد إنه ملك لا شعبية له".

١٨- كتب محمد صبرى عدة كتب، نُشرت قبل سفره إلى فرنسا، ومنها: شعراء العصر جزءان ١٩١٠ و١٩١٢، (ذكرى الماضى أو سياحة فى الجبل) ١٩١٥ انظر كتاب الطماوى ص٢٧٧.

١٩- حاول محمد صبرى، فى أكثر من مناسبة، أن يُعرف الآخرين، وبالأخص المصريين، الفرق بين دكتوراه الدولة ودكتوراه الجامعة. ففى ١٩٢٤/٣/٢٣، أرسل صبرى خطاباً من باريس، إلى محمد لطفى جمعة، قال فيه: ".. إننى باق هنا إن شاء الله لغاية شهر يونيو حتى أنتهى بإذن الله من DOCTORAT ES LETTRES وستسمع عنها قريباً، أما موضوع الرسالة الأولى السياسية فهو LA JEUNESSE DE L,ESPRIT NATIONAL EGYPTIEN, 1863-1882 وقد بحثت فيها بحثاً مستفيضاً عصر إسماعيل والثورة العرابية بناء على مستندات جديدة كثيرة، ولا يخفى عليك ما أكابده وما كابدته فى هذه السبيل ومن نكد الدنيا، ومصر أم العجائب، أن الأستاذ حسين حسنى الذى وضع رسالة عن قناة السويس والسياسة المصرية فى كلية مونبلييه وعاد إلى مصر أخيراً قد كتب على رسالته أنه DOCTORAT ES LETTRES والحقيقة التى لا ريب فيها بناء على أوثق مصدر، أى الجامعة نفسها أنه DOCTORAT DE L,UNIRVERSITE فانظر إلى أى حد يبلغ الإدعاء فى هذا البلد المنحوس طالعه". رابح لطفى جمعة - حوار المفكرين: رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن (١٩٠٤-١٩٥٣) - عالم الكتب - ط١ - ٢٠٠٠ - ص٤٢٩.

٢٠ - قال الطماوى فى كتابه (صبرى السربونى) ص٤٥: "وفى صيف سنة ١٩١٥ غادر /محمد صبرى مصر إلى فرنسا مرة اخرى لدراسة ليسانس الآداب، وهى من أشق الشهادات بالنسبة للأجانب خاصة، وقلّ منهم من يقترب منها، ومنشأ ذلك إتقان الفرنسية كتابة، ودراسة اللاتينية، وقد تحدث الدكتور طه حسين فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن مدى صعوبة دراسة اللاتينية، وقدر المعاناة التى كان يلاقيها الدارسون المصريون، ومما قاله طه حسين عن محمد صبرى وعقدة اللاتينية فى هذه المرحلة.. : ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول، وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم، وتلقى النص اللاتينى، فلم ينظر فيه نظرة سريعة وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجاح)".

٢١- نص المقال المنزوع من المجلة، محفوظ بالملف، وللأسف لم أستطع نقله لكبر حجمه، ولم أستطع تصويره، لأن دار المحفوظات تمنع تصوير أية وثيقة منعاً باتاً، وتسمح بالنقل فقط!!

٢٢- قال الطماوى فى كتابه ص٨٤: "كان الملك فؤاد قد كلف المؤرخ الفرنسى هانوتو وبعض الأوربيين الآخرين من أمثال شارل رو، وكرابيتس، ودوان، بكتابة تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، وأدرك صاحبنا (محمد صبرى) أن هؤلاء الأجانب لن يكونوا مخلصين فى كتاباتهم التاريخية. وجبرائيل هانوتو هذا له عدة مقالات طعن فيها الإسلام مما دفع الشيخ محمد عبده إلى الرد عليه بمقالات نشرتها المؤيد فى إبريل ١٩٠٠. فليس من المعقول لرجل كهذا سيكتب تاريخ مصر الوطنى بأمانة ووفاء. لذلك اختمرت فى ذهنه فكرة كتابة تاريخ مصر الحديث فى القرن التاسع عشر فى عدة مجلدات".

٢٣- وفى هذا العام ١٩٢٨، قامت وزارة المعارف بطباعة كتاب محمد صبرى (تاريخ العصر الحديث: مصر، الولايات المتحدة، الاستعمار الأوربى)، وتم تدريسه بالمدارس الثانوية. وقد أهداه السربونى إلى على ماهر وزير المعارف. وفى أول صفحة من الكتاب، وتحت عنوان (تصانيف المؤلف الأخيرة)، جاء الآتى:

١- (LA GENESE DE L,ESPRIT NATIONAL EGYPTIN)كتاب بالفرنسية يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير، ثمنه ٥٠ قرشاً. ﷺأو (نشوء الروح القومية المصرية)، وهو رسالة الدكتوراه ﷺ.

٢- (تاريخ مصر الحديث، من محمد على إلى اليوم) التمن ٢٥ قرشاً. ٣- (أدب وتاريخ) سفر يحتوى على أربعة كتب: (محمود سامى باشا البارودى)، بحث تحليلى فى حياته وشعره مصدر بمقدمة بقلم أحمد شوقى بك. (إسماعيل صبرى باشا حياته وشعره). (تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا) مصدر بمقدمة بقلم خليل بك مطران. (الفصول) أبحاث متنوعة فى النقد والأدب، الثمن ١٥ قرشاً. ٤-)الثورة الفرنسية ونابليون) كتاب يستند إلى أساليب البحث العلمى الحديث فى تاريخ ذلك العصر الكبير الذى قامت على مبادئه مدنية أوروبا الحديثة، مزين بالصور الكثيرة، الثمن ١٥ قرشاً.

٢٤- قال محمد صبرى فى مقدمة كتابه (تاريخ العصر الحديث - مطبعة مصر - ١٩٢٨ - ص٨،٧): "اعتاد الكثيرون أن لا ينظروا إلى التاريخ نظرة اعتبار وأن لا يقدروا مهمة المؤرخ الدقيقة حق قدرها متوهمين، والناس أعداء ما جهلوا، أن عمله ينحصر فى نقل الحوادث وسردها، ولعل لهم عذراً لأن معظم الكتب، إن لم تكن كلها، التى ظهرت بالعربية فى تاريخ مصر الحديث خلو من روح البحث العلمى. وإذا كان التاريخ علما بالغاية التى يرمى إليها، وهى الاهتداء إلى الحقيقة، وبوسائل البحث التى يريد الوصول بها إلى هذه الغاية، فهو ولا ريب فن يحتاج إلى مرانة طويلة وذوق سليم يستمد منها المؤرخ قدرة المصور الماهر فى تمثيل الوقائع تمثيلاً رائعاً يبهرك بحقيقته وجماله. وتظهر شخصية المؤرخ فى حسن استخلاصه الوقائع من منابتها، والجمع فى كتابته بين الإيجاز والوضوح اللذين هما لباب كل بلاغة وفن. ولما كانت حقائق التاريخ المصرى لا تزال مشوشة فى الأذهان أو مجهولة، خصوصاً وأن الكتب الأجنبية لا تنظر إلى الحوادث المصرية إلا من ناحية واحدة، رأينا أن فى عنقنا أمانة يجب أن نؤديها".

٢٥- قال محمد صبرى عن هذا البحث، فى مقال بعنوان (كيف ألفت كتابى؟ - مجلة مصر الحديثة المصورة - ١٩٣٠/٦/٤ - ص١١): "اختمرت عندى سنين عدة فكرة إظهار تاريخ مصر الحديث مفصلاً فى عدة مجلدات، وكان الباعث الأول على هذه الفكرة هو أن الأجانب قد شوهوا تاريخنا وكتبوه وفق أهوائهم. على أننى ما كنت لأستطيع إنفاذ مشروعى قبل أن تتوافر لدى الوسائل المادية وفى مقدمتها تكوين مكتبة تحوى معظم الكتب، إن لم يكن كلها، الخاصة بتاريخ مصر والشرق فى القرن التاسع عشر. وقد كلفتنى هذه المكتبة نحو ألف وخمسمائة جنيه، وقد ظللت أربعة أو خمسة أعوام على اتصال مستمر بالمكاتب الإنجليزية والفرنسية أواصل البحث عن الكتب النادرة التى مضى عليها زهاء مائة عام .. .. أخذت فى دراسة الكتب الخاصة بعصر محمد على، وبعد دراسة أولية شرعت فى البحث فى الدفترخانات المختلفة بادئاً بدفترخانة القلعة حيث كان صديقى الأستاذ سامى السراج يساعدنى فى تلخيص الوثائق ونقل المهم منها من التركية إلى العربية، وقد اشتغلت فى القلعة ما لا يقل عن شهر ونصف .. .. رحلت بعد ذلك إلى لندرة (لندن) ثم إلى فينا ثم إلى باريس فظللت زهاء عام فى سجلات وزارات الخارجية أفتش عن الوثائق الهامة التى لم يسبق نشرها، وهى مكتوبة كلها بخط اليد، وكنت اشتغل طول النهار يتجاذبنى عاملان، عامل الألم والملل تارة أمام الأكوام المكدسة التى لا أجد فيها ضالتى وأخرى عامل النشوة الهائجة أمام الكنز، الذى أتيح لى، ولكنى كنت أجتهد فى ضبط النفس حتى أصل إلى الغاية. انتهيت من أبحاثى واستجمعت المواد الأولية وشرعت بعدئذ فى التحرير وبناء الكتاب فقطعت فى ذلك عاماً كاملاً انشأت الفصول فى ثمانية أشهر، وهذبتها وصقلتها فى أربعة، وقد هدمت وبنيت بعض فصول الكتاب أربع مرات وكنت لا أتركها حتى تتناسق أجزاؤها وتدب الحياة فى نواحيها".

٢٦- قال الطماوى فى كتابه ص٨٨،٨٧: "فعن كتاب عصر محمد على، كتبت مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن المجلد السادس بقلم هنرى دوديل: (لاشك أن المؤلف قد اضطر إلى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير، وقد انتفع بعدد لا يحصى من الوثائق والمستندات المستخرجة من مصادر متنوعة جداً وقد يكثر من ذكرها ولكن بفن). كما قال عنه جورج دوان فى كتابه حرب الشام الذى ظهر عام ١٩٣١: (على أن التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن ننحنى له إجلالا)".

٢٧ - قال فتحى رضوان، فى كتابه (أفكار الكبار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٨ - ص ٢٧٤): ".. ولكن محمد صبرى، كان يتمتع بموهبتين موهبة المؤرخ الذى يطيل صبره على الوثيقة، ويجرى لاهثاً وراء الفهم الصحيح والتاريخ المحقق والورقة الضائعة، والكتاب المندثر ، ليحصل بعد العناء والجهد، الذين لا يدركون أمانة المؤرخ".

٢٨ - قال الطماوى فى كتابه ص ٨٩،٨٨: "أما كتابه عن عصر إسماعيل فقد أثار ضجة فى الأوساط العلمية الأوربية فقالت مجلة الدراسات التاريخية بباريس عدد يولية ١٩٣٤: (هذا الكتاب رائع جداً مدعم بمستندات رصينة معظمها لم يسبق نشره، وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والتوغل الأوربى فى أفريقيا، وهو ليس تاريخاً سياسياً كما

يصفه المؤلف فحسب بل تاريخاً اقتصادياً واستعمارياً يجدد فى نواح كثيرة موضوعاً كنا لا نعرفه حق المعرفة. وقالت مجلة بوليبليون الفرنسية عام١٩٣٣): إن هذا الكتاب ليس أقل من سابقه، وهو يضفى على صاحبه أكبر الفخر)".

٢٩- وجدنا ورقة بدار الوثائق القومية المصرية، بها الآتى: "حضرة صاحب الدولة رئيس ديوان جلالة الملك. أرجو من دولتكم التفضل بالإذن لى بالإطلاع على الوثائق التاريخية، الخاصة بمصر، والموجودة بالسراى وذلك بين سنة ١٨٨٠و١٨٨٥. ونقطة البحث التى تهمنى بصفة خاصة، هى السودان وما إليه. وتفضلوا دولتكم بقبول وافر الشكر والإجلال (توقيع محمد صبرى). (ثم تأشيرة تقول) نوافق ونوصى بتقديم كل التسهيلات اللازمة، (توقيع فى ١٩٣٧/١٢/٣٠). (ثم تاشيرة أخرى تقول) حضر الأستاذ صبرى، وأطلع على أوراق السودان، فى المحافظ العربية نمرة ١-٣، ونقل بعض الوثائق (توقيع فى ١٩٣٨/١/١)". دار الوثائق القومية -محفظة رقم (١٣٠) أبحاث ملف تراجم فرامانات- ص٥٣٦.

٣٠- قال الطماوى فى كتابه ص(١٣١،١٣٠): - فكتب (محمد صبرى) باللغة الفرنسية (السودان المصرى ١٨٢١-١٨٩٨) عام ١٩٤٧. وكان قد طلب من الدكتور صبرى أن يشترك مع شفيق غربال، وكيل وزارة المعارف فى ذلك الوقت، فى وضع بحث عن القضية السودانية تحقيقاً لرغبة رئيس الحكومة محمود فهمى النقراشى، فاعتذر صاحب الترجمة لأنه اعتاد العمل مستقلاً، وأعرب عن استعداده للقيام بالعمل منفرداً. وكانت أزمة السودان على أشدها آنذاك، وصحف المعارضة تحمل على النقراشى لتراخيه فى السفر لعرض قضية السودان على مجلس الأمن، وكان رئيس الحكومة فى أشد الحاجة إلى من يسعفه بمذكرة سياسية فى موضوع القضية، وانتهى المطاف بتكليف السربونى بإعداد هذه المذكرة، التى تطورت حتى صارت كتاباً يقع فى نحو ٢١٥ صفحة من القطع الكبير، وتم طبعه وإرساله إلى أمريكا وأوربا بواسطة وزارة الخارجية المصرية. ومما ساعده على سرعة تأليف الكتاب، أنه كان قد درس الموضوع، وتمرس به، واستغل الوثائق التى كان يعدها للجزء الثالث من تاريخ الأمبراطورية المصرية. ثم ترجم السربونى كتابه إلى العربية وأضاف إليه الفصل الخاص بحدود الأمبراطورية الجغرافية، وأطلق عليه) الأمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر)".

٣١- قال الطماوى فى كتابه ص١٣١: "أعد الدكتور السنهورى وزير المعارف، ورئيس هيئة المستشارين فى مجلس الوزراء - فى تلك الفترة _ كتابه قضية وادى النيل) بالإنجليزية لينافس به كتاب الدكتور صبرى (الأمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر)، ولكن رئيس الحكومة (محمود فهمى النقراشى) رفض أن يأخذ معه نسخة واحدة منه إلى مجلس الأمن".

٣٢- ويوضح الطماوى ملابسات هذا المرسوم، قائلاً فى كتابه ص١٦٤،١٦٣: "وكانت الحكومة قد أصدرت هذا المرسوم وأعدت لجنة التنظيم التى كان يرأسها محمد محمد حسنين لتطهير الجهاز الحكومى من هؤلاء الموظفين المشكوك فيهم. وقد كانت هناك حزازات

قديمة بين السربونى وبعض أصحاب النفوذ، لذلك انتهزت هذه اللجنة فرصة التنظيم والتطهير الواسع للإيقاع بالدكتور صبرى .. .. وكيف يكون الدكتور صبرى موضع شبهة أو شك وتطلب منه وزارة الإرشاد القومى - وهى إحدى وزارات الثورة - بتاريخ ١٩٥٣/٩/١٤ - أى بعد الفصل - أن يكتب لها بحثاً عن السودان .. .. وكيف يكون السربونى محل مؤاخذة ويصله خطاب من عبد الناصر زعيم الثورة عام ١٩٥٦ ليشكره على خدماته الوطنية ويتمنى له التوفيق فى أبحاثه بعد إصداره كتاب (قضية التدويل)".

٢٣- ألف السربونى عدة كتب تاريخية وأدبية، بعد عام ١٩٥٢، وهى: (أسرار قضية التدويل) بتقديم جمال عبد الناصر ١٩٥٧، (فضيحة السويس) ١٩٥٨،(خليل مطران: أروع ما كتب) ١٩٦٠، (الشوقيات المجهولة) الجزء الأول ١٩٦١، (الشوقيات المجهولة) الجزء الثانى ١٩٦٢، (حضارة العرب فى الكونغو ووسط أفريقيا فى القرن التاسع عشر) مخطوط باللغة الفرنسية يقع فى ١٥٠٠ صفحة. هذا بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات، قام بحصرها الطماوى فى كتابه ص٢٨٢-٢٨٦.

٢٤- قال فتحى رضوان، فى كتابه (أفكار الكبار) ص٢٦٧،٢٦٨: "وفى ظهر الخميس اليوم التالى، لوفاة الكاتب والمؤرخ والمحقق والمجاهد، محمد صبرى، شيعت جنازته فلم يخف لتوديعه حتى فى اللحظة الأخيرة، إلا عدد من عارفى فضله، والمقدرين لمآثره، ولا يزيدون على العشرة، فكان ما أصاب هذا المفكر العظيم، من الجحود، ونكران الفضل أبى ألا أن يلاحقه ويصاحبه حياً وميتاً".

١٥- ملاحظات جديدة حول الشريف الإدريسي وخطته «أنس المهج وروض الفرج»

أ.د. محمد بركات البيلي
أستاذ التاريخ الإسلامي - آداب القاهرة

كان أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الأدريسي جغرافيا بارعاً، ويعد حلقة هامة في سلسلة الجغرافيين المسلمين _ بله العالميين _ المرموقين الذين بنوا صرح علم الجغرافية، ليس فقط لأنه وضع لروجر الثاني النورماني جغرافية أو صورة للعالم تفوق جغرافية بطليموس بسطها في كتابه "نزهة المشتاق في أختراق الآفاق" وإنما أيضا لأنه طور معلوماته الجغرافية تطويراً هائل في غضون سنوات معدودة على نحو ما يظهر في كتابه المختصر الذي وضعه لغليوم الأول بن روجر الثاني والذي أسماه "أنسي المهج وروض الفرج(١).

ومع أننا نهدف إلى التعريف بكتاب "أنس المهج" فمن المفيد أن نشير إلى بعض الجوانب ذات الصلة من كتاب "نزهة المشتاق" فطالما أن الكتابين ينهلان من معين واحد هو معين الشريف الأدريسي، فقد تفيد معرفة أحدهما في التعريف بالآخر.

وإذا كان لنا أن نبدأ بالشريف الأدريسي، فمن الشائع أنه ولد في سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م، وأصل هذا التحديد التاريخي تاريخ وضعه الغزيري دون سند مرجعي في فهرسته لمخطوطات مكتبة دير الاسكوريال(٢) . ومن الشائع أيضا أن الأدريسي توفي ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م وهو تاريخ رجح البارون دي سلان الأخذ به كتصحيح لأشارة خاطئة، وردت عند ليو الأفريقي قال فيها إن الأدريسي توفي ٥١٦هـ، وكل ما ذكره الباحثون أمثال أماري وميلر وليفيكي وسيزار دوبلر وغيرهم عن حياة الأدريسي مجرد فروض أو استتاجات ذهبوا إليها استناداً إلى سطور قليلة مضطربة نقلها أماري في مكتبته الصقلية من الصفدي والعماد الأصفهاني وأثبت فيها أن رجر استقدم الأدريسي من العدوة ليصنع له شيئا في شكل صورة العالم وأنه رغبة في الإقامة عنده قائلا له: "أنت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي أمنت على نفسك"(٣)

لكن الصفدي في ترجمته لأدريس العالى يذهب إلى مما يهدم هذا الرأي من أساسه إذ يذكر أن تغلب بأديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة على مالقة أدي إلى تفرق بنى حمود في الأقطار "مدخل منهم إلى جزيرة صقلية محمد بن عبد الله بن العالي أدريس وأشيع عنه أنه المهدي الذى يوافق اسم النبي(ص) واسم أبيه، وأراد أبن الثمنة الثائر هناك قتله فشغله الله عنه، وأستولى رجار الأفرنجي على صقلية فذكر له أنه من بيت النبوة فأكرمه ونشأ أبنه محمد بن محمد بن عبد الله في أصحاب رجار، وكان أدبياً ظريفاً شاعراً مغربي بعلم جغرافيا، وصنف لرجار الكتاب المشهور في أيدي الناس المنسوب إلى رجار"(٤)

وإذا صح نص الصفدي فإنه _ على قصره _ يغير _ في رأينا _ صفحات كثيرة سطرت عن الشريف الأدريسي ويستبدل ما جاء فيها بما يلى:

١- كان محمد بن عبد الله بن إدريس العالى المحمودي _ وهو والد الجغرافي الشريف الأدريسي _ محمد بن محمد بن عبد الله هو الداخل إلى صقلية بعد أن استولى باريس بن حبوس الصنهاجي على مالقة، وكان دخوله صقلية قبل أن يستولي عليها روجر الأول ٤٨٣هـ/١٠٩١م، وكان روجر قد تعهد بحسن معاملة العرب فلما علم بأن محمد بن عبد الله أبن أدريس العالي من بيت النبوة أكرمه ورغبة في الإقامة عنده.

٢- ولد محمد بن عبد الله بن إدريس العالم ولداً أسماه محمد بن محمد هو الذي أصبح فيما بعد جغرافياً مشهوراً، وإذا صح أن ميلاده كان في ٤٩٣هـ - كما هو الشائع _ يكون بذلك قد ولد في صقلية قبل وفاة روجر الأول بعامين ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، ويكون ميلاده أيضا قريباً من ميلاد روجر الثاني بن روجر الأول الذي بلغ سن الرشد وحكم بنفسه سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م.

٣- نشأ محمد بن محمد بن عبد الله في أصحاب رجار _ صحبته _ لما بينهما من تقارب في السن وكفاءة في المكانة، فكان من الطبيعي أن تربط بينهما صداقة ظهر أثرها في حسن معاملة روجر الثاني للشريف الإدريسي ومبالغته في تعظيمه، أو على حد قول الصفدي ، أكرم نزله وبالغ في تعظيمه ، ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك، وكان يجئ إليه راكبا بغلة، فإذا

صار عنده تنحي عن مجلسه فيأتي فيجلسان معاً(٥) وقد إدرك مؤنس أن هذه المعاملة تدل على أن "الإدريسي لم يكن مجرد عالم يخدم ملكاً بعلمه ، بل كان صديقاً لها أثيراً لديه(٦) ولكنه لم يدرك كنه هذه الصداقة فأرجعها إلى أن رجار الثاني كان شديد الاهتمام لهذه العلوم التي برع فيها الأدريسي ولو قرأ مؤنس نص الصفدي الذي أشرنا إليه لأدرك إن صحبة الأدريسي لروجر في صباهما هو كنه هذه الصداقه وأساسها.

٤ - كان من الطبيعي بعد هذه الصداقة التى ربطت بين الملك والجغرافي والمعاملة الكريمة التى عامل بها روجر الشريف الأدريسي ألا يكون جزاء الأحسان إلا الأحسان، فأكثر الأدريسي روجر على نفسه ونسب إليه كتاب "نزهة المشتاق إلى صديقه وأسماه كتاب روجر، وتواري الأدريسي من فاتحة الكتاب وجعل إلى روجر سبب تأليف النزهة وخطة الأعداد لتأليفها فقال ، أن روجر "لما أتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية، أحب أن يعرف كيفيان بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً وفي أي إقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التى أتفق عليها المتكلمون وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون وما لكل أقليم منها من قسم بلاد تحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه بطلب ما في الكتب المؤلفة في هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب _ وذكر أثني عشر كتابا(٧) فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا بل وجده فيها مغفلا فاحضر لديه العارفين بها الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علم أكثر مما في الكتب المذكورة فلما رأهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطتي جمعاً وأفراداً فما أتفق فيه قولهم وضح في جمعه نقلهم أثبته وأبقاه وما اختلفوا فيه أرجاه وألغاه واقام على ذلك نحواً من خمس عشرة سنة....(٨).

وإذا كان الأدريسي قد تواري في فاتحة نزهة المشتاق ليظهر فيها صديقه روجر فإنه أظهر تأليفه للنزهة في فاتحة "أنس المهج" مشيراً إلى ما أمدني به الملك روجر في تأليف كتابي المطرز باسمه"(٩).

ولقد كشف الأدريسي في فاتحة النزهة عن خطة عمله في أعداد جغرافيتة فذكر أنه بعد أن جمع معلوماته الجغرافية من مصادره التى اعتمد عليها طيلة خمسة عشر عاماً أراد تمحيص هذه المعلومات والتيقن من صحتها فوضعها على لوح الترسيم وأختبرها بالاته الهندسية الجغرافية المصنوعة من حديد، وأمعن في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك بأن تفرغ له من القصة الخاصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل رومي في كل رطل منها ١١٢ درهم فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة...على نص ما يخرج إليهم ممثلا في لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه"(١٠) ، لكن بعض الباحثين توهم أن ما صنع صفيحة مبسوطة لاكرة مجسمة ، وقد ميللر سمك هذه الصفيحة بثلاث مليمترات إذا كان وزنها ٤٤٨٠٠ درها حسبما ذكره الإدريسي فإنها تشكل مستطيلا أبعاده ٣,٥ متراً في الطول و١,٥ متراً في العرض(١١) ويبدو أن مؤنس أراد التوفيق بين القائلين بأن ما ضع من القصة كان كرة مثل سكيابا ريللي(١٢) والقائلين بأنها صفيحة مبسوطة مثل ميللر، فذهب إلى أن الأدريسي أتي بصفائح من الفضة رسم عليها الأقاليم السبعة ثم جاء بكرة في الحجم المطلوب فآدار الصفائح على نصفها الأعلي ابتداء من خط_ أفترض أنها من الخشب _ الاستواء بالصفيحة الأولي التى تمثل الأقليم الأول ثم صفيحة الأقليم الثاني فالثالث وهكذا إلى السابع وقطع من صفائح الفضة ما تطلبه تطبيق الصفائح على وجه الكرة(١٣) لكننا لا نستطيع تجاهل نص الأدريسي الذي ذكر أن ما صنع دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم من الفضة الخالصة والدائرة إذا تجسمت وصادر لها جرما لا تكون إلا كرة، وقد استخدم الأدريسي كلمة دائرة بدلاً من كرة على سبيل التداخل بين المعنيين على نحو ما قال ياقوت "الحموي" الأرض مدورة كتدوير الكرة"(١٤) وما نقله عن الخوارزمي أن "الأرض مدورة بالكلية مضرسة بالجزئية... ولا يخرجها ذلك من الكرية"(١٥) .

ومثلما ألف الأدريسي كتابه "نزهة المشتاق" المعروف بالأدريسي الكبير لرجار الثاني النورماني، فما لبث أن ألف لأبنه غليوم الأول كتاب "أنس المهج" المعروف بالأدريسي الصغير، ولم يكن "أنس المهج" معروفاً لدي الباحثين المحدثين حتى

أنتبه بعض الباحثين إلى أن الجغرافيا أبا الفدا يشير في كتابه تقويم البلدان إلى مؤلف آخر للأدريسي ثم أكتشف يوسف هورفيتس فعلا كتاباً آخر للأدريسي في مكتبة حكيم أوغلى باستانبول تحت رقم ٦٨٨، بعنوان "أنس المهج وروض الفرج" وأن كتبه الناسخ في ظهر الكتاب "روض الفرج ونزهة المهج" ، وناقش الباحثون العلاقة بين هذين العنوانيين وعنوان آخر هو "روضة الأنس ونزهة النفس" ذكره الأديب الصقلي عثمان بن عبد الرحيم بن بشرون في كتابه "المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر" وهو كتاب مفقود لكن عماد الأصفهاني حفظ قطعاً منه في كتابه جزيرة القصر" ، وانتهي الرأى إلى أن هذه العناوين جميعاً إنما هي لكتاب واحد هو الذي كتب على صدر مخطوطتي حكيم أوغلي ٦٨٨ وحسن حسنى ١٢٨٩ بمكتبة السليمانية باسم "أنس المهج وروض الفرج".

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن "أنس المهج" مختصر لنزهة المشتاق"(١٦) وذهب آخر إلى أنه مختصر لكتاب أكبر بنفس العنوان أو العنوان الذي ذكره أبن بشرون(١٧) ، وواقع الأمر أن "أنس المهج" ليس مختصر لهذا الكتاب أو ذاك لأن الأدريس ألفه في الأصل مختصراً في ذاته وليس اختصاراً لكتاب آخر وقد أوضح ذلك في خطبته الكتاب أذ يقول مخاطباً غليوم الأول "قد سألتيني أن أولف لك كتاباً مختصراً في مسالك الأرض وممالكها لرغبتك في ذلك وحرصك عليه. وقد وضعت لك في ذلك كتابا أسميته بكتاب "أنس المهج وروض الفرج وأتيت به صغير الجرم كبير العلم ليخف حمله ويرغب في كسبه ويسهل نسخة على تناوليه إذا الناس مطبوعون على سكانه ما طال عليهم وتكرر من المعارف لديهم...."(١٨).

ويمكن لمن يقارن بين خطبتي نزهة المشتاق وآنس المهج أن يكتشف فروقاً موضوعية بينهما لاتطهر فقط أن أنس المبهج ليس اختصاراً للنزهة وإنما تظهر أيضا أن أنس المهج أورد بعض المعلومات الأضافية التى لم ترد في النزهة من ناحية ومن ناحية أخري عدل بعض ما جاء فيها من أراء منها تعديل جوهري واحد على الأقل وهو ما يتعلق بتقسيم الأرض إلى معمور وغير معمور فقد اختصت النزهة النصف الشمالي فقط بالعمران وحددته في ٦٤ فقط بعد خط الأستواء بينما خلا الباقي شمالاً إلى ٢٦ من العمران لكثرة البرد فيه، وأخلت أيضا النصف

الجنوبي كله وجعلته "غير مسكون ومعمور لشدة الحريه دائما على سمته فجفت مياهه وعدم حيوانه ونباته"(١٩) لكن نس المهج أدخل على ذلك تعديلاً جوهرياً فزاد المعمور من الأرض إلى سبع وسبعين درجة موزعة على شمال خط الأستواء وجنوبه فاختص الجنوب بعمران في إحدي عشرة درجة تنتهي إلى جبل القمر الذي ينبع منه نيل مصر واختص الشمال بعمران في ست وستين درجة، وقدر الأدريسي هذا المعمور من الأرض بنحو ٧٢٤,٠٠٠ ميل بما يوازي نحو ٩٪ من مساحة الأرض الكلية أ. على حد قول "أحد عشر جزءاً من مائة وعشرين جزءاً"(٢٠) ثم يضيف في الأنس _ أن "ما كان غير ذلك فليس يمنع أن يكون معموراً إلا أنه يمنع من معرفة ذلك القفار والبحار المخوفة والمهالك المتلفة"(٢١) وهكذا وعلى غير نهجه في النزهة، انتقد الأدريسي في الأنس قول بطلميوس في المجسطي أن الجهة الجنوبية غير مسكونة لشدة الحر فيها ويشير إلى عدم وجود دليل على ذلك لأنه لم يبلغنا ذلك ولا رأينا من مشاهدة للموانع المذكورة.

ومع أن الأدريسي أخذ في كل من النزهة وأنس المهج مما ذهب إليه سابقوه من تقسيم المعمور إلى اقاليم سبعة فقد أخذ بعد خطة النزهة في تفصيل القول عن هذه الأقاليم فأبتدأ بالجزء الأول من الأقاليم الأول من جهة الغرب حيث الجزر الخالدات في بحر المغرب أو المحيط الأطلنطي شمال خط الاستواء(٢٢) لكنه لما عدل توزيع المعمور في أنس المهج بين نصفي الكرة الشمالي والجنوبي وجد لزاماً عليه أن يبدأ بذكر المعمور في نصف الكرة الجنوبي الذي لم يرد له ذكراً في النزهة، ولم يجد بدأ من التمهيد للتقسيم السباعي للأقاليم الذي التزم به ، بذكر المعمور الذي خلف خط الأستواء ناحية الجنوب ، وقسمه أيضا إلى عشرة أجزاء على نحو تقسيمه للأقاليم السبع المتعارف عليها(٢٣).

وعلى ذلك يمكن القول إن أنس المهج ليس ملخصاً لنزهة المشتاق ولا لغيرها من كتب الأدريسي الأخري، ولا يفوتنا أن نشير إلى ملاحظة هامة لفتت أنتباه بعض الدارسين مثل كرامرز وغيره وهي أن خطبتي أنس المهج اللتين بين أيدينا تحملان عبارة مثيرة للشك في نسبة هذا الكتاب للأدريسي إذا جاء فيها ذكر الجغرافي المتاخر عنه أبن سعيد المغربي حيث مضت على "وقال ابن سعيد عرض المعمور ثمانين درجة منها خلف خط الاستواء ستة عشر درجة وفي

الشمال أربع وستون درجة"(٢٤) ، ولاشك أن ورود أسم ، أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد على هذا النحو في نص أنس المهج يثير الشك واللبس إذ كيف يذكر أسمه في كتاب للأدريسي السابق عليه، ورصفاً لهذا الشك فقد ذهب فؤاد سزكين إلى أنه من الممكن أن قول ابن سعيد كان إضافة في الحاشية من بعضهم ثم وجدت هذه الحاشية طريقها فيما بعد إلى صلب النص الأصلي على أيدي بعض النساخ(٢٥).

ويمكن قبول ما ذهب إليه سزكين لمعقوليته من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن مقارنة ما نسب إلى ابن سعيد في أنس المهج بما جاء في نفس المعنى في نص جغرافيته يظهر أن الناسخ تصرف في العبارة وأضاف إليها كثيراً من عنده لم يقله أبن سعيد(٢٦) فضلا عن أن الناسخ تمادي في عنية ونسب إلى بطلميوس القول بامتداد المعمور في جهة الجنوب متناقضا بذلك رآيه المذكور آنفا في أن الجهة الجنوبية غير مسكونة أو غير معمورة(٢٧).

ومن ثم فقد أقحم الناسخ قول ابن سعيد على النص الأصلي لأنس المهج، وليس ذلك ببعيد الاحتمال لأن النسختين اللتين بأيدينا من آنس المهج ليست فيهما النسخة الأصلية بل هما منسوختان وإن صح تاريخاً نسخهما _ بعد وفاة الأدريسي، فأولاهما وهي نسخة حكيم واغلي منسوخة في عام ٥٨٨هـ، ونسخت عنها ثانيتهما في عام ٥٩٤هـز وهما تاريخان مزيفان للنسختين اللتين قد نسختاً في تاريخ لاحق بلا أدني شك إذ كيف تنسخان في هذين التاريخيين المذكورين وتحملان قولا لأبن سعيد المغربي المولود في عام ٦١٠هـ/١٢١٤م بعد تاريخ نسخ أقربهما إلى مولده بأكثر من عقد ونصف، لكن الناسخين لم يتورعا عن تزيف تاريخي نسختيهما لأضفاء بعض الأصالة عليهما دون أن يفطنا للشرك الذي وقعا فيه ولا أحسبهما بعد ذلك يتورعا عن حشو المتن الأصلي بحاشية وضعها مجهول في الهامش نقلا عن ابن سعيد، وحسنا سيفعل من يقدر له تحقيق هذا النص لو حذف من متنه هذه الإضافة المقحمة عليه ليزيل الشك باليقين.

الهوامش

١- جاء العنوان على خلاف مخطوط الكتاب وفي فاتحية: "أنس المهج وروض الفرج" لكن الناسخ كتبه في خاتمة الكتاب "روض الفرج ونزهة المهج، وتكرر ذلك في نسختي حكيم أوغلى ٦٨٨ وحسن حسنى ١٢٨٩، مكتبة السليمانية، ، إستانبول.

2 - Gasiri Bibliotica Arabica - Hispano Zscur- ialensis, II - 13 .

٣ - أماري: المكتبة الصقلية: ص ٦٥٨.

٤- كان أبو العلاء إدريس بن يحي العلوي الملقب بالعالي قد بويع له على مالقه في السادس من جمادي الآخر ٤٣٤هـ بعد مقتل السطينفي نائب أبى الفوز بخاء الصقلبي على مالقة في نفس اليوم على أثر مقتل أبى الفوز بخاء نفسه بعد فشله في الاستيلاء على الجزيرة الخضراء وامتدت بيعة إدريس العالي إلى غرناطة وقرمونة" وما بينهما من البلاد فحسنت سيرته حتى ثار عليه محمد بن أدريس الملقب بالمهدي ٤٣٨هـ فخرج إدريس العالي إلى حصن بيشتر ومن هذا الحصن حاول استرداد مالقه بمساعدة باديس بن حبوس الصنهاجي ففشلت محاولته فجاز البحر إلى سبته واقام عند صاحبها سواجات (سقوت) البرغواطي حتى توفى ٤٤٤هـ لم تطل خلافة المهدي على مالقه فقد قتل مسموماً بتدبير باديس بن حبوس الصنهاجي فخلفه ابن أخيه إدريس المتلقب بالسامي الذي ما لبث أن أخمل نفسه فتولى من بعده محمد بن إدريس العالى وتلقب بالمستعلى فاتفق امراء البربر على خلع المستعلى ٤٤٩هـ وبايعوا محمد بن القاسم ثم ابنه القاسم بعد وفاته وتلقب بالواثق لكن باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة تمكن من الاستيلاء على مالقه وهو الأمر الذي أدي إلى تفرق بنى حمود في الأقطار كما ذهب الصفدي أنظر عن هذا الموجز التاريخي كل من:

١- أبن عذاري، البيان المغرب، ج٣ ص ص ٢١٦-، ٢١٨ الذيل الملحق به لمجهول ، ص ٢٩١.

٢- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني ، ص ص ٦٧٤-٦٧٦ .

٥ - أماري ، المكتبة الصقلية، ص ٦٥٨.

٦ - مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص١٩٤.

٧ - نذكر كتب كل من _ كتاب العجائب للمسعودي وكتاب أبي تصر الجهاني وكتاب أبى القاسم عبد الله بن خرذبه وكتاب أحمد بن عمر الفوري وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلي البغدادي وكتاب خاناخ بن خافان اليماكي وكتاب موسى بن قاسم القردي وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقومي وكتاب إسحاق بن الحسين بن المنجم وكتاب مرامة البصري وكتاب بطليموس الاقلوذي وكتاب أرسيوس الأمطاكي، وقد لاحظ مؤنس أن نسخا من كتب عشرة لمؤلفين إسلامين كتبت في القرن الرابع الهجري فهل أقتصرت معرفته

الأدريسي الذي كتبه في القرن السادس على بعض كتبه القرن الرابع دون القرن الخامس، لكن الأدريسي كما لاحظ مؤنس وغيره _ رجع إلى كتب أكثر بكثير من التى نص عليها في فاتحة النزهة.

٨ - نزهة المشتاق، ج١ ص ص ٥-٦.

٩ - الأدريسي: أنس المبهج وروض الفرج، ص ٤.

١٠- الأدريس: نزهة المشتاق، ح١ ص٦.

11 - Miller.K., Mappae Aralbicae, 6 vols, Stuttgart, 1926, p. 34 Schiaparelli, L.L'Lztela diacitta nel libra dil re raygero Compilato da Edrioi torino 883.

١٢ - مؤنس ، المرجع السابق، ص٢٠٦.

١٣ - معجم البلدان ، حـ ١، ص١٦.

١٤ - نفس المصدر، حـ ١، ص١٧.

١٥ - كرامرز، دائرة المعارف الإسلامية، جغرافيا.

١٦ - حسن مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

١٧ - أنس المهج وروض الفرج خطبة حكيم أوغلى ٦٨٨، ص ص ٢-٣.

١٨ - نزهة المشتاق، ص ٨.

١٩ - أنس المهج، ص ٥.

٢٠ - نفس المصدر، ص ٦، ص٨.

٢١ - نزهة المشتاق، ص٩.

٢٢ - أنس المهج، ص٧.

٢٣ - نفس المصدر، ص ١٣.

٢٤ - فؤاد سركين، آنس المهج، مقدمة الخطبة.

٢٥ - أبن سعيد، الجغرافيا، ص٧٩.

٢٦- أنس المهج، ص١٣.